مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الخامس والستون
شوال ١٤٤٣هـ

الجزء الثاني

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail : arabicjournal@imamu.edu.sa

رقم الإيداع :٣٥٦٣ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ ـ ١٦٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المشرف العام
الأستاذ الدكتور/ أحمد بن سالم العامري
معالي رئيس الجامعة

نائب المشرف العام
الأستاذ الدكتور/ عبدالله بن عبدالعزيز التميم
وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس التحرير
الأستاذ الدكتور/ سعود بن عبد العزيز الخنين
الأستاذ في قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية

مدير التحرير
الدكتور/ عبدالعزيز بن علي الغامدي
وكيل عمادة البحث العلمي

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. إبراهيم بن عبد العزيز أبو حيمد
الأستاذ في قسم علم اللغة التطبيقي – معهد تعليم اللغة العربية

أ.د. إبراهيم بن محمد أبا نمي
الأستاذ في قسم الأدب – كلية اللغة العربية

أ. د. محمد محمد أبو موسى
الأستاذ في قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

أ.د. نوال بنت إبراهيم الحلوة
الأستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

أ. د. يوسف بن عبد الله العليوي
الأستاذ في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية

أ.د. ممدوح إبراهيم محمود
أمين تحرير مجلة الجامعة - عمادة البحث العلمي

قواعد النشر

مجلة العلوم العربية مجلة علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أم لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية(مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (A 4) .

٣- أن يكون حجم المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش حجم (١٤) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرداً) .

٤- يرسل الباحث بحثه إلى منصة المجلات الإلكترونية (https://imamjournals.org) مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة.

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٠٥١ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: Arabicjournal@imamu.edu.sa

المحتويات

(الأُمنيَّةُ في كَيفيَّةِ النِّسبةِ إلَى أُميَّة) رسالةٌ في الصَّرفِ لأبي الحَسنِ عَليِّ بنِ المُفضَّلِ المَقدسي المُتوفى سنة (٦١١هـ) –دراسة وتحقيق– د. نواف بن أحمد بن عثمان حكمي	١٣
وصف الأصوات اللغوية في المعجم الوسيط د. عبدالله بن فهد بن بتال الدوسري	٨٩
الإقناع في الخطاب الإعلامي المعاصر "وصايا قدموس نموذجا" د. فاطمة جابر المسهري	١٤٣
البنية التصوّريّة في الخطاب السرديّ من خلال "تضاريس الوجع" لإبراهيم التّركي د. محمّد الناصر كحّولي	٢٠٣
الحجاجُ في قصيدةِ أبي فراس الحمدانيّ (يا حَسرَةً ما أَكادُ أَحمِلُها) دراسة بلاغيّة د. ضحى عادل بلال	٢٥٥
صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ د. وائل بن يوسف العريني	٣٢٣
تكثيف الشاهد الشعري في المدوَّنة البلاغية مبحث التخييل في المنزع البديع للسجلماسي أنموذجاً د. محمد بن سعد القحطاني	٣٩١

(الأُمنيَّةُ في كَيفيَّةِ النِّسبةِ إلَى أُميَّة)
رسالةٌ في الصَّرفِ لأبي الحَسنِ عَليِّ بنِ المُفضَّلِ المَقدسي
المُتوفى سنة (٦١١ هـ)
دراسة وتحقيق

د. نواف بن أحمد بن عثمان حكمي
قسم النحو والصرف – كلية العلوم والآداب بشرورة
جامعة نجران

(الأُمنيَّةُ في كَيفيَّةِ النِّسبةِ إلَى أُميَّة) رسالةٌ في الصَّرفِ لأبي الحَسنِ عَليِّ بنِ المُفضَّلِ المَقدسي المُتوفى سنة (٦١١ هـ) -دراسة وتحقيق-

د. نواف بن أحمد بن عثمان حكمي
قسم النحو والصرف – كلية العلوم والآداب بشرورة
جامعة نجران

تاريخ تقديم البحث: ٢٥/ ١/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٥/ ٣/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

هذه المخطوطة الموسومة بـ(الأُمنيَّةُ في كَيفيَّةِ النِّسبَةِ إلى أُميَّة) هي رسالة قصيرة في الصرف، وضَّح فيها أبو الحسن علي بن المُفضَّلِ المقدسيّ كيفيَّةَ النِّسبةِ إلى (أُميَّة) ذاكرًا آراء العلماء واختلافاتهم فيها، معتمدًا في ذلك على القواعد الصرفية والنحوية واللغوية، كما تطرق إلى بعض المفردات العربية، والنسبة إليها، واشتقاقها، وتصغيرها كـ(عِدَةٍ)، و(زِنَةٍ)، و(هِبَةٍ) وغيرها من الكلمات، وفي نهاية الرسالة ذكر أصلَ (أَمَة)، وكيفيَّةَ جمعِها، وآراءَ النحويين في ذلك.

حققتُ الرسالة على نسخة واحدة، وقدمتُ لها بمقدمة، ثمَّ خصّصتُ قسمًا للدراسة تحدثتُ في المبحث الأول فيه عن لمحة مُقتضبة عن سيرة أبي الحسن المقدسي، ثم بيّنتُ في المبحث الثاني منهج المؤلف، وفي المبحث الثالث ذكرتُ أدلته النحوية. وقد كانت الدراسة وَفق المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: أبو الحسن المقدسي ـــ النسبة إلى (أُميَّة) ـــ أصل (أُميَّة)، تكسير (أَمَة) وتصغيرها.

(The Wish on how to be attributed to Ummayah) a thesis on Morphology by Abu Alhasan Ali Bin Almufadhal Almaqdisi (d. 611) A Study and verification

Dr. D.nawaf bin ahmad bin uthman hakami
Department Arabic Gramma – Faculty Science And Art- Saaroura
Najran university

Abstract:

This thesis entitled (The Wish on how to be attributed to Ummayah) is a short thesis in morphology, in which Abu Alhasan Ali Bin Amlmufadhal Almaqdisi showed how to be attributed to Ummayah. He showed scientists' views and their different opinions on that matter He depended on grammatical, lingual, and morphological rules showing the Arabian vocabulary and how to be attributed to it and diminution for concepts like (count), (weight), (gift), etc. At the end of the thesis, he mentioned the origin of (secure) and how to be plural with different views of grammar specialists. The thesis is published in one version with an introduction.

While the first section of the thesis explains an overview of the biography of Abi Alhassan Almeqdasi, and the second section discusses the methodology used by the author. The third section includes grammatical pieces of evidence, as the study uses on the analytic and descriptive methodology.

key words: Abi Alhassan Almeqdasi, relative to Ummayah, Origin (Ummayah), division (Nation) and diminution

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ الأمم تتفاوت في رفعتها وعزها بتاريخها وأصولها وعلومها المتوارثة خلفًا عن سلف، وصغيرًا عن كبير، وإن من أفضل ما يبرز هذا العناية بمخطوطاتهم وتآليفهم، وإظهارها للأجيال اللاحقة، وللأمم جمعاء.

ولم تُعنَ أمة بلغتها ما عنيت العربية؛ وذلك بسبب ما خصها الله بها من فضائل لم تنلها أي لغة أخرى؛ إذ إنها لغة القرآن الكريم، ولغة نبيه صلى الله عليه سلم، ولغة أهل الجنة.

ولقد كان أبو الحسن علي بن المفضَّل المقدسي أحد العلماء الأجلاء الذين كانت لهم مشاركة في غير علم من العلوم، فأسهم بذلك في نماء تراث أمتنا العظيمة. ومما خلَّفه المقدسي من الآثار رسالة قصيرة في الصرف موسومة بـ**(الأُمنيَّة في كَيفيَّةِ النِّسبَةِ إلى أُميَّة)**، وقد قمتُ بتحقيقها؛ إذ دفعني إلى ذلك ما يأتي:

١. أن المؤلف له تآليف كثيرة، وتصانيف متعددة؛ بيد أنني لم أقف له على أثر من آثار العربية إلا هذه الرسالة.

٢. أن المسألة التي يعالجها المؤلف من المسائل المهمة في الصرف التي دار حولها خلاف بين العلماء، وقد ذكر المؤلف الخلافات والآراء، وقام بمناقشتها.

٣. أن في تحقيق هذه الرسالة كشفًا عن معالم شخصية المقدسي النحوية وجهوده في خدمة العربية.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون على قسمين، قسمٍ كان البحث فيه عن سيرة المؤلف، ومنهجه، وأدلته النحوية، وقسم لتحقيق النص.

القسم الأول: (الدراسة)، وقد جاءت في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لمحة عنِ ابنِ المُفضَّلِ المقدسيِّ

١. اسمه ونسبه ومولده.

٢. شيوخه وتلاميذه.

٣. منزلته العلمية وثناء العلماء عليه.

٤. مؤلفاته.

٥. شعره.

٦. مذهبه الفقهي.

٧. وفاته.

المبحث الثاني: منهج المؤلف

المبحث الثالث: أدلته النحوية

القسم الثاني (التحقيق)، وقد جاء في مبحثين:

المبحث الأول: مقدّمات التحقيق.

١. توثيق اسم المخطوطة.

٢. توثيق نسبتها.

٣. وصف النسخة.

٤. منهج التحقيق.

٥. صور من المخطوطة.

المبحث الثاني: النصُّ المُحقق.

وبعدُ، فهذا ما استطعتُ القيام به، فما كان فيه من صواب فمن الله ﷻ، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، واللهَ أسأل أن يوفقنا، ويباركَ عملنا، ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنه سميع قريب.

القسم الأول

المبحث الأول: لَمحة عنِ ابنِ المُفضَّل المَقدسيّ

١. اسمه ونسبه ومولده:

هو شرف الدين أبو الحسن علي ابن القاضي الأنجب أبي المكارم المُفضَّل بن علي بن أبي الغيث مفرج بن حاتم بن الحسن بن جعفر اللخمي، المقدسي، ثم الإسكندراني، ثم المالكي(١). والمقدسي نسبة إلى بيت المقدس؛ لأن أصله منها.

ولد ليلة السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة في الإسكندرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة(٢).

٢. شيوخه وتلاميذه:

نهل الإمام علي بن المُفضَّلِ من علماء عصره، في الحديث، والأصول، والفقه، والأدب، وعلوم اللغة، واستقى منهم واستفاد روايةً، أو أخذًا، أو سماعًا، وكان من أشهرهم(٣):

- عماد الدين أبو السعادات أحمد بن أبي القاسم الأنصاري، المتوفى سنة ٥٥٠هـ. كان يعرف بابن الفأفاء.

---

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء٢٢/٦٦، وتاريخ الإسلام١٣/٣٢٠، ووفيات الأعيان٣/٢٩٠، وطبقات علماء الحديث٤/١٧٠، وطبقات الحفاظ ٤٩٢، وحسن المحاضرة١/٣٥٤، وشذرات الذهب٧/٨٧.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: مجمع الآداب٢/١١وَ ١٢، سير أعلام النبلاء٢٢/٦٦، طبقات علماء الحديث٤/١٧٠، طبقات الحفاظ٤٩٢.

- القاضي أبو عُبيد نِعْمة بن زيادة الله الغِفَاري المتوفى سنة ٥٦٣هـ.
- صالح بن إسماعيل بن سند الاسكندراني المعروف بابن بنت معافى المتوفى سنة ٥٦٨هـ.
- الحافظ أبو طاهر السلفي، أحمد بن محمد بن سلفة، المتوفى سنة ٥٧٦هـ. وقد لزمه سنوات، وأكثر عنه، وانقطع إليه.
- علي بن حميد بن عمار الطرابلسي أبو الحسن المكي المتوفى سنة٥٧٦هـ.
- أبو طالب أحمد بن المسلم بن رجاء اللخمي المتوفى سنة ٥٧٨.
- أبو القاسم بن بشكوال خلف بن عبد الملك بن مسعود الأنصاري القرطبي المتوفى سنة٥٧٨هـ.
- أبو طاهر إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري المتوفى سنة ٥٨١هـ.
- عبد الله بن بَرّي بن عبد الجبار المقدسي النَّحْوي، المتوفى سنة ٥٨٢هـ.
- أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن مسعود المروزي الصوفي الرحال الأديب المتوفى سنة٥٨٤هـ.
- أبو إبراهيم القاسم بن إبراهيم بن عبد الله المقدسي الأصل المصري الدار الشافعي، المتوفى سنة ٥٨٨هـ.
- محمد بن عبد الرحمن العلائيّ الصقلّيّ الحضرمي المتوفى سنة ٥٨٩هـ.
- أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن عبد السلام الدارمي الريحاني المكي المتوفى سنة ٥٩٦هـ.

وأما تلاميذه، فقد سمع من المقدسيّ ونهل من علمه عدد كبير، من هؤلاء:

- ابنه أحمد الفقيه الصالح أبو الحسين المقدسي ثم الإسكندراني المالكي، المتوفى سنة ٦١٣هـ [١].
- ابن النجار، الحافظ الكبير محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي، المتوفى سنة٦٤٣هـ[٢].
- عبد العظيم بن عبد القوى الحافظ الكبير زكي الدين أبو محمد المنذري الشافعي ثم المصري، المتوفى سنة٦٥٦هـ[٣].

وقد ذكر الذهبي طائفةً منهم، قال: "حَدَّثَ عنه: المنذريُّ، والرشيدُ الأرمويُّ، وزكِي الدينِ البِرزاليُّ، ومجد الدين عليُّ بن وهْبٍ القُشيريُّ، والعلم عبد الحقِّ ابن الرَّصاصِ، وَالشَّرفُ عبد الملك بنُ نصر الفِهريُّ اللغويُّ، وَإِسْحَاقُ بنُ بلكويه الصُّوفِيُّ، والحسن بن عثمانَ القابِسيُّ المحتسب، والجمال محمد بن سُليمانَ الهوارِيّ، والقاضِي شرفُ الدين أبو حَفصٍ السُّبكيُّ، ومحمد بن مرتضى بن أبي الجود، والشِّهابُ إسماعيل القُوْصِيُّ، والنجيب أحمد بن محمد السَّفاقُسِيُّ، ومحمد بنُ عبد الخالق بن طرخان الأُرْمَوِيُّ، والمحيي عبد الرحيم ابن الدَّمِيريّ، وعدة"[٤].

(١) انظر: التكملة لوفيات النقلة٢/٣٦١

(٢) انظر: تذكرة النحاة٤/١٤٧، طبقات النحاة٥٠٢.

(٣) انظر: طبقات علماء الحديث٤/١٧٠، تذكرة الحفاظ٤/١٠٨، طبقات الحفاظ٤٩٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٢/٦٨. وانظر أيضًا: طبقات علماء الحديث٤/١٧٠، طبقات الحفاظ٤٩٢.

٣. منزلته العلمية، وثناء العلماء عليه:

أثنى على ابن المُفضَّل كل من ترجم له، ووصفوه بالإمامة والحفظ، ومن ذلك: قول المنذري: "قرأت عليه الكثير، وكتبت عنه جملة صالحة، وانتفعت به انتفاعًا كثيرًا،... وكان متورعًا، حسن الأخلاق، كثير الإغضاء، جماعًا لفنون من العلم"(١).

وقال الذهبي: "ولما توفي، قال بعضُ الفضلاء لما مُروا بنعشه: رحمك الله يا أبا الحسن، لقد كنتَ أسقطت عن الناس فروضًا، يريد لنهوضه بفنون العلم"(٢).

وقال أيضًا:"كان مقدمًا في المذهب والحديث... وكان ذا دينٍ، وورعٍ، وتَصوُّنٍ، وعدالةٍ، وأخلاقٍ رضيةٍ، ومشاركةٍ في الفضل قوية"(٣).

وقال عنه أبو البركات الموصلي: "وكان من الحفاظ الأثبات الثقات، الأمناء الفضلاء المعتبرين العلماء الفهماء؛ وكان إماماً في الحديث وحفظه، ومعرفة علومه. وكان فقيهاً فاضلاً مدرساً على مذهب الإمام مالك-رضي الله عنه- مع أدب وافر، وشعر حسن كان ينظمه"(٤).

وقال ابن الآبار القضاعي في ترجمة أبي طاهر السلفي: "ومن تلاميذه طائفة جليلة، كان أبعدهم ذِكرًا، وأرفعهمْ قدرًا أبو الحسنِ بن المُفضَّلِ المقدسيّ، وهو الذي خلَفهُ بعد وفاته، وأخذ عنه في حياته"(٥).

---

(١) التكملة لوفيات النقلة٢/٣٠٧.

(٢) سير أعلام النبلاء٢٢/٦٨.

(٣) المصدر السابق٢٢/٦٧.

(٤) قلائد الجمان٣/٣٤٥.

(٥) معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ٥٢.

وقال ابن خلكان: "كان فقيهًا فاضلًا في مذهب الإمام مالك ﷺ، ومن أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه"(١).

مؤلفاته:

وصف الكثيرُ من العلماءِ ابنَ المُفضَّل بأنه من المكثرين من التأليف، وأن مؤلفاته تمتاز بالتحرير والإتقان، قال المنذري: "صنَّف تصانيف مفيدة"(٢)، وقال الذهبي: "وجمع وصنَّف"، وقال: "له تصانيف محررة(٣)"، وقال ابن الفرات: "وكتب كثيرًا، وجمع مجاميع مفيدة، ودرس، وأفتى، وأملى، وانتفع به الناس"(٤).

وقد حاولت الوقوف على بعض مؤلفاته، وهي على قسمين:

الأول/ الكتب المطبوعة:

- كتاب الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين، وهو من أشهر كتبه، ولما رآه الذهبي أعجب به، ودفعه إلى أن يؤلف كتابه تذكرة الحفاظ(٥).
- كتاب الأربعين في فضل الدعاء والداعين، وقد أشار إليه ابن الملقن باسم (الأدعية)(٦).

---

(١) وفيات الأعيان٣/٢٩١.

(٢) انظر: التكملة لوفيات النقلة٢/٣٠٧.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء٢٢/٦٧.

(٤) انظر: تاريخ ابن الفرات٥/١٦٠.

(٥) هذا الكتاب قام بتحقيقه محمد سالم بن محمد العبادي، وأصل هذا الكتاب رسالة تقدم بها المحقق لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى بإشراف الدكتور/ موفق بن عبد الله بن عبد القادر عام ١٤١٣- ١٤١٤هـ..

(٦) هذا الكتاب قام بتحقيقه بدر بن عبد الله البدر، والمنشور عن دار ابن حزم – بيروت.

- الأربعون المسلسلات[١].
- جزء فيه طرق حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة في الصلاة على النبي ﷺ[٢].
- متشابه الأسماء والأنساب والصفات والألقاب[٣].

الثاني:/ الكتب غير المطبوعة:

- الأربعون الإلهية[٤].
- الأمالي[٥].
- تحقيق الجواب عمن أجيز له ما فاته من الكتاب[٦].
- الأُمنيَّةُ في كيفية النسبة إلى (أُميَّة)[٧].
- المعجم[٨].
- التتمة لوفيات الأئمة، وهو المشهور بكتاب (الوفيات)، أو (وفيات ابن المفضل)[٩].

---

(١) انظر: المجمع المؤسس٢/٥٣٧. وهو منشور في جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية.

(٢) قام بتحقيقه حمد عبد الله الكريم، ومنشور بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في العدد ١٢٤ في عام ١٤٤٢هـ.

(٣) هذا الكتاب قام بتحقيقه الأستاذ الدكتور حسن محمد عبه جي، دار جامعة الملك سعود للنشر.

(٤) انظر: الضوء اللامع٨/١٢.

(٥) انظر: الذيل على العبر١/٢١٤.

(٦) انظر: السنن الأبين ٧٢.

(٧) هذه الرسالة هي المعنية بالتحقيق في هذا البحث، ولم ترد في المصادر القديمة التي وقفت عليها.

(٨) انظر: تاريخ الإسلام١٢/٥٧٠، الوافي بالوفيات٧/٢٣٠.

(٩) انظر: توضيح المشتبه٥/٣٧.

- تخريج أربعين حديثًا لابن درباس[١].
- كتاب الصيام[٢].
- الفوائد المنتخبة[٣].

٤. شعره:

قال عنه الذهبي: "وله – رحمه الله – مقاطيع مليحة، منها:

ولمياء تُحيي مَنْ تُحيّي بِريقِهَـا كَأَنَّ مِزاجَ الرَّاحِ بِالمسْكِ مِنْ فِيها
ومَا ذُقتُ فَاهَا غَيرَ أَنّي رَويتُهُ عَنِ الثِّقَةِ المِسْـواك وَهْوَ مُوافِيهَـا

وله:

أَيَا نَفسُ بِالمأثُورِ عَنْ خَيرِ مُرسَلٍ وَأصْحَابِـهِ والتَّابعـينَ تمسَّكـي
عساكِ إِذَا بالغْتِ في نَشرِ دِينِـهِ بما طابَ من نشرٍ لَهُ أن تُمسّكي
وخَافي غدًا يومَ الحِسابِ جَهَنمًا إِذَا لَفَحتْ نِيرانُهـا أَنْ تَمسَّكـي

قلتُ: ليت نفسهُ قبلت منه، وتمسَّكت بإمرار الصِّفات من غير تأويل"[٤].

وقال عبد العظيم بن عبد القوي المنذري: "وأنشدني له مقاطيع عديدة، فمما أنشدني قال، أنشدني الحافظ أبو الحسن المقدسي المذكور لنفسه:

تَجاوزتُ سِتينَ مِنْ مَولِدي فَأسعـدُ أَيَّامِـيَ المُشتـركْ
يُسائلُـني زَائـرِي حَالتِـي ومَا حَالُ مَنْ حَلَّ في المُعتركْ"[٥]

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء٢١/٤٧٥.
(٢) السابق ٢٢/٦٧.
(٣) انظر: المجمع المؤسس٢/٧٠.
(٤) انظر: تاريخ الإسلام١٣/٣٢٠.
(٥) انظر: وفيات الأعيان٣/٢٩١.

٥. مذهبه الفقهي:

كان أبو الحسن علي بن المفضَّل المقدسيّ مُقدَّمًا في المذهب المالكي، وقد برعَ فيه، وصار مَرجعًا في ذلك[١].

قال عنه أبو البركات الموصلي: "وكان فقيهاً فاضلاً مدرساً على مذهب الإمام مالك، ﷺ.."[٢]. وقال ابن خلكان: "كان فقيهاً فاضلاً في مذهب الإمام مالك، ﷺ، ومن أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه"[٣].

وقد نَسَبَ المنذري، وهو أحد تلاميذه إليه المذهب الشافعي[٤]، وهو خلاف ما نُقل في ترجمته.

٦. وفاته:

توفي الحافظ ابن المُفضَّل في يوم الجمعة، مستهل شعبان، سنة إحدى عشرة وستمائة، وله ست وسبعون سنة، ودفن بسفح المقطم بتربة الوزير الصاحب بمصر[٥].

ووقع في بعض المصادر ما يجدر التنبيه عليه، فقد ذكر اليافعي أن ابن المُفضَّل توفي سنة (٦١١هـ)، وفي موضع آخر جعل وفاته سنة (٥٤٤هـ)، وقد

---

(١) انظر: تاريخ إربل٢/٤٨٨، سير أعلام النبلاء٢٢/٦٦.

(٢) قلائد الجمان٣/٣٤٥.

(٣) وفيات الأعيان٣/٢٩٠، ٢٩١.

(٤) انظر: الفوائد الجليلة١١٨.

(٥) انظر: وفيات الأعيان٣/٢٩٢، تاريخ الإسلام١٣/٣٢٠، الوافي بالوفيات٢٢/١٣٦، النجوم الزاهرة٦/٢١٢.

تابعه على ذلك صاحب قلادة النحر في موضع، ثم عاد فذكر في موضع آخر أنه يحتمل أن تكون سنة (٥٤٤هـ) هي سنة ولادته[١].

والصواب أن وفاته هي سنة ٦١١هـ؛ لوروده في معظم المصادر التي ترجمت له، واليافعي خلط بين تاريخ مولده ووفاته، وهذا ما احتمله صاحب قلادة النحر.

المبحث الثاني: منهج المؤلف:

سار أبو الحسن المقدسي في تأليفه للرسالة الموسومة بـ**(الأُمنيَّة في كيفيَّةِ النِّسبةِ إلى أُميَّة)** وفق المنهج التالي:

١. بدأ بمقدمة موجزة ذكر فيها مناسبة تأليفه للرسالة، وأنه كان بطلبٍ أو توجيهٍ من شخصٍ آخر لم أستطع التعرف على اسمه، والدليل على أنها بتوجيه هو كاف الخطاب في قوله: فأجبتُكَ إلى بغيتِكَ، وأسعفتك بطلبتك.

وقد قال في مقدمته: "الحمدُ لله الذي ذرأَ من نوالهِ، ودرأَ من وبالهِ، والصلاة على محمد نبيه وآله وعلى أصحابه المقتدين بأقواله وأفعاله، ذكرتَ أدام الله بهجتك، وحرس مهجتكَ، أنك رأيت بعض من يثق إلى معرفتهِ وضبطهِ، قد نسب إلى (أُمَيَّة)، أميّيًا بيائين، وكتب ذلك بخطه، وقلت: إنما المألوف من نُجباءِ الأدباء أن ينسب إليها (أُمَوِيّ) بالواو والياء، ونالتِ التعريف من ذلك بما يقتضيه التصريف، وإيضاح الجواب لتقف على شاكلة الصواب، فأجبتُكَ إلى

(١) انظر: مرآة الجنان٣/٢١٦، ١٨/٤، قلادة النحر٤/١٥١، ٤٣/٥.

بغيتِكَ، وأسعفتُكَ بطلبتك، لاجئًا إلى الله تعالى في الفوز بمثوبته، راجيًا منه نيل معونته، فأقول وبالله التوفيق، والهداية إلى سلوك التحقيق"[١].

٢. استقصى المؤلف – مُجتهِدًا – جميع الآراء المتعلقة بمسألة النسب إلى (أُميّة)؛ حيث بدأ بتصغيرها، ثم ما كان له علاقة بمسائل الجمع، ومن ذلك جمع ما كان على وزن (فُعْلة) كجُمعة، و(فِعلة) ككِسوة، ثم أورد (سنة)، و(دم)، و(يد)، والاسم المنقوص، وما يدور حولها من خلاف عند النحويين، وغير ذلك من المسائل.

٣. اعتماده على التعليل النحوي بشكل كبير ولافت، ومن أمثلة ذلك قوله: "ومن قبيل مسألتنا قولهم: سَيِّدٌ، ومَيِّتٌ، والأصل سَيْوِد ومَيْوِت؛ لأنه فَيعِل من سَادَ يَسودُ، ومَاتَ يَموتُ، فإنما غلب جانب الياء لما ذكرنا"[٢]، **وقوله أيضًا**: "ولا تكون إلا حرف مد؛ لأنه لا يتصور أن يكون ما قبلها مفتوحًا، فصار لفظه (آمُوٌ) فاستثقلت الضمة على الواو فحذفت الضمة، وسكنت الواو، فقلبت إلى الياء؛ لأنه لا نظير لها في الأسماء، فوجب أن ينكسر ما قبلها، وتحذف الياء في الوصل؛ لاجتماع الساكنين، وهما الياء الساكنة، والتنوين على حسب ما قدمناه في تصريف (أَيْدٍ) من بيان حالة الوصل والوقف"[٣]، **ومن ذلك أيضًا**: "وإنما شذَّ المضاعفُ والمعتلُّ عن هذا

---

(١) المخطوطة ٦٤/أ.

(٢) المخطوطة ٦٩/أ.

(٣) المخطوطة ٧١/ب.

القياس؛ لأنهم لو حرَّكوا في المضاعف؛ لأدَّى إلى اجتماع مثلَينِ متحركَينِ، وهم يكرهون اجتماعهما، ويفرون منه إلى الإدغام دون التحريك"[١].

٤. تطرقُهُ لبعض المصطلحات الخاصة بعلم العروض كمصطلح (الطويلِ)، وهو أحد بحور الشعر الخليلية، (والخَرْمِ)، (والخَزْمِ)، (والكَفِّ)، (ومفاعيلن)، وكل هذه المصطلحات هي مصطلحات عروضية وردت في ثنايا رسالة المقدسي، قال صاحب الرسالة: "البيت من الضربِ الثاني من الطويل، ودخله الخَرْمُ بالواو، وهو إسقاط المتحرك الأول من أول جزء من العروض التي هي نصف البيت الأول، أما الخَزْمُ بالزاي فهو زيادة حرف، أو حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، ولا يزيد على ذلك[٢].

٥. شرحُهُ بعضَ الألفاظ الغامضة، وإيضاحُه معانيها، ومن ذلك قوله: "وقوله في البيت: (ولا رُجَّبيَّة)، الرُّجَّبيَّة منسوبة إلى قولهم: رجبتِ الشَّجرةُ تَرجيبًا، إذا أكثر حملها، فدعمتها؛ لئلا تنكسر أغصانها، ومنه قول الحُبابِ بن المنذر: أنا عُذَيقُها المُرَجَّبُ، والاسم الرُّجْبَةُ، وجمعها رُجَبٌ، كـ:رُكْبَةٍ ورُكَب، وقوله: ولَكِنْ عَرَايَا، العرايا: جمع عَرِيَّة، يقول: إنا نُعرِيها غَيرَنا، أي: نجعلُ لهُ ثمرتَها عامًا"[٣]، **وقوله أيضًا**: "و(الثغامُ): نبت أبيضُ يُشَبَّهُ به الشيب"[٤].

---

(١) المخطوطة ٦٥/أ. وانظر أيضًا المخطوطة٦٦/ب، و٦٩/أ، و٧١/ب.

(٢) المخطوطة ٦٦/أ.

(٣) المخطوطة ٦٦/ب.

(٤) المخطوطة ٧٠/أ.

٦. ذكرُ اللفظة، وتوضيحه لها إما ببيان ضبطها، أو وزنها، أو التمثيل لها بما يشابهها من الألفاظ، ومن ذلك قوله: "والأصل في (سَتَهٍ) بالتحريك على وزن فَعَل، وجمعها أستاهٌ، كجَمل وأجمال، وعلم وأعلام، وتصغيرها سُتَيْهَةٌ"(١)، **وقوله**: "وكذلك (دَمٌ)، و(دِمَاء)، وأما في التصغير (دُمَيّ)، وكذلك (يَدٌ) و(أَيدي)، أصلها (أيدِيُ) على وزن أَفعُل كـ:أكلُب وأفلُس"(٢).

٧. مصطلحات المؤلف في رسالته لم تخرج عن مصطلحات البصريين.

٨. لم يشرعْ المؤلف في الحديث عن النسب إلى (أُمَيَّة) مُباشرةً، وإنما بدأَ ببعضِ المسائل الفرعية، والاستطرادات، ثم بعد ذلك تطرق إلى موضوع الرسالة، وكل هذه التفريعات والاستطرادات التي بدأ بها هي توطئةٌ للموضوع الأصل، وتمهيدٌ له.

٩. أورد جملة من الشواهد القرآنية والشعرية على ما ذكره من أحكام صرفية وقواعد، وسيأتي مزيد تفصيل لها عند الحديث عن الاستدلال عنده.

١٠. ذكرُهُ لغات العربِ، واعتماده عليها في توجيه بعض الأحكام التصريفية، ومن ذلك قوله: "وليست مما حذف عينه كـ(سَهٍ)، على أفصح اللغتين"(٣)، **ومنه أيضًا قوله**: " فأما الوصل فليس إلا حذف الياء، وتنوين المكسور الذي قبلها على اللغتين جميعًا"(٤).

---

(١) المخطوطة ٦٧/أ.

(٢) المخطوطة ٦٧/أ.

(٣) المخطوطة ٦٧/أ.

(٤) المخطوطة ٦٧/ب.

١١. إيرادُهُ بعضَ التساؤلات والإجابة عنها، ومن ذلك قوله: "فإن قيل: لم حُرِّكَ في غير التأنيث الحقيقي، وبقي التأنيث الحقيقي على ما كان مفرده؟ فالجواب: أنَّ التأنيث وما كان وصفًا له، يجب أن تسلم حروفه بحركاتها وسكناتها في حالة جمعه بهاء التأنيث، كما أنه إذا جمع من المذكر ما يَعقِل أو ما كان وصفًا، أو بالواو والنون في حال الرفع، أو بالياء والنون في حال الخفض والنصب، سَلِمَ ترتيب حروفه بحركاتها وسكناتها في حالة جمعه، كقولك: جَاءَنِي الزَّيدُونَ العَاقِلونَ، ورَأيتُ الزَّيدِينَ العَاقِلينَ، ومَررتُ بالزَّيدِينَ العَاقِلينَ"(١).

١٢. عدم التصريح بنسبة الآراء في كثير من المواضع، وهذا السائد في المخطوطة؛ إذ يكتفي بقوله: قال بعضهم، أو بعض القراء، أو بعض العرب، أو عند البعض(٢).

١٣. عرض بعضَ المسائل المُختلفِ فيها عند النحاة، وقد صرَّح بهذا الاختلاف كمسألة حذف إحدى التائين من قولك: نارٌ تأجَّج(٣)، ومسألة إحدى النونين إذا اجتمعتا، نونِ الوقاية ونونِ الإعراب في الفعل المضارع نحو: يكرمونني(٤).

---

(١) المخطوطة ٦٥/ب.

(٢) المخطوطة ٦٥/أ، ٦٦/ب، ٦٧/أ، ٧٠/ب.

(٣) المخطوطة ٦٩/ب.

(٤) المخطوطة ٦٩/ب.

المبحث الثالث: أَدلتُهُ النَّحويَّة.

أبرز الأدلة التي عوَّلَ عليها المقدسيُّ في رسالته هو السماع، ويُعدُّ السماع الأصل الأول من أصول الاستدلال التي اهتم بها النحويون، وأولوها عناية فائقة؛ إذ به أُصِّلتْ وأسِّستْ جُلُّ القواعد النحويةُ، وأظهر أضرب السماع في هذه الرسالة القرآن الكريم وقراءاته، والحديث الشريف، والشعر.

أ. القرآن الكريم وقراءاته:

القرآن الكريم أهمُّ أنواع السماع، وقد اتفق النحويون على جواز الاستشهاد به، فكل ما ورد أنه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترًا، أو آحادًا، أم شاذًّا(١).

وقد استدل المقدسيُّ في رسالته ببعض الآيات القرآنية؛ إذ بلغ عددها تسع آيات، منها أربع في القراءات، واستشهد بثلاثة أحاديث شريفة، وببعض الشواهد الشعرية، والتي بلغ عددها ثلاثة عشر شاهدًا، وأما النثر، فثمَّة مَثَلٌ واحدٌ من كلام العرب، فمن أمثلة الآيات الكريمة قوله(٢):"وقد سُمِعَ في هذا الجمع التذكير والتأنيث معًا، كقوله عز اسمه: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾(٣)، وكقوله تعالى أيضًا: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٤).

---

(١) الاقتراح ٣٩.

(٢) المخطوطة ٦٤/ب.

(٣) القمر آية ٢٠.

(٤) الحاقة آية ٧.

ومن ذلك أيضًا قوله: "فإذا دخل النصبُ شيئًا من هذا الباب كلِّهِ فإنه يثبت؛ لخفته، وثقل الرفع والخفض، تقول: رَأيتُ القَاضيَ وقَاضيًا، وسَمعتُ الدَّاعيَ ودَاعيًا، قال الله تعالى اسمه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾[1] في حال النصب، وقال في حال الرفع: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[2]، وفي حالة الخفض: ﴿فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾[3]، هذا هو المشهور الفصيح"[4].

وأما القراءات، فقد استدلَّ بقراءة نافع ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾[5] على حذف إحدى النونين على إحدى اللغات[6]. **واستدل بقراءة** بعض القُرَّاءِ: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾[7] بالتحريك: قال: "على أنه قد سُمِعَ عنهم التحريك في المعتلِّ؛ تشبيهًا بالصحيح"[8].

ب. الحديث الشريف

استدلَّ المقدسي بثلاثة أحاديث شريفة، اثنان جاء بهما شاهدًا في الجانب الصرفي، وحديث في الجانب اللغوي، فأما ما يتعلق بالصرف، فقد استدل على

(١) الأعراف آية ١٢٤، والشعراء آية ٤٩.

(٢) يس آية ٣٥.

(٣) الأنعام آية ٧.

(٤) المخطوطة٦٨/أ.

(٥) الحجر آية ٥٤.

(٦) انظر: المخطوطة ٦٩/ب.

(٧) النور آية ٥٨.

(٨) المخطوطة٦٥/أ.

حذف الياء في النسب فيما كان وزنه على (فُعَيل) كـ(قُريش) بقوله ﷺ: "(لا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبرًا بَعدَ اليَومِ)"(١).

والآخر: استدل به على حذف عين الفعل ولامه، فقد وردت الروايتان في "قوله صلوات الله عليه: **(الْعَيْنَانِ وِكَاءُ السَّهِ فَإِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ اسْتَطْلَقَ الوِكَاءُ)** بالهاء والتاء، وأكثر المحققين على الهاء"(٢).

وأما ما استدل به لُغويًّا فهو قوله:"وفي الحديث: (أَنَّ أبَا بَكرٍ رضي الله عنه، أَتَى النَّبيَّ ﷺ، بِأَبيهِ أَبي قُحَافَة يَسْلِمُ وَكَأنَّ رَأسَهُ ثَغَامَة)" (٣).

ج. الشعر

الشعر رافد من روافد إرساء القواعد النحوية وتأصيلها؛ لذا أولاه النحويون عناية خاصة، فأقبلوا على ضبطه، وفهم معانيه وألفاظه.

والمقدسي في رسالته اعتمد عليه في تقرير ما يذكره من أحكام، وما يثبته من قواعد، ومن أمثلة ذلك قوله: "أنشدوا في إثبات الواو:

هَجَوتَ زَبَّانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِرًا مِنْ هَجْوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَذَرِ"(٤)

ومن ذلك أيضًا قوله: "وفي إثبات الياء:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادٍ"(٥)

---

(١) المخطوطة ٧٠/ب.

(٢) المخطوطة٦٧/أ.

(٣) المخطوطة ٧٠/أ.

(٤) المخطوطة٦٨/أ.

(٥) المخطوطة٦٨/أ.

ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله: "وكذلك اجتماع نوني الوقاية والمؤنثة الواحدة، قال الشاعر:

أَبِالمَوتِ الذي لَا شَكَّ أَنِّيَّ مُـلَاقٍ لا أَبَـاكِ تُخَوِّفِينـي"(١)

وأما الاستدلال بالقياسِ والإجماعِ فلم يكن لهما حضور عند المقدسي كما هو في السماع؛ إذ إنه لم يستدل بالإجماع النحوي ألبتة، واستدلَّ بالقياسِ مرة واحدة، قال: " فالواو، والياء منها متطرفتان، ولم تقلبا همزة؛ لأن الألف الذي قبلها أصل على حسب ما بينا، وهذا عقدٌ من عقود التصريف كثيرٌ، فقس عليه كل ما ورد عليك في معناه إن شاء الله تعالى"(٢).

***

(١) المخطوطة ٧٠/أ.

(٢) المخطوطة ٧١/ب.

القسم الثاني: (التحقيق)، وقد جاء في مبحثين:

المبحث الأول: مقدمات التحقيق.

١. توثيق عنوان المخطوطة:

لم أعثر على عنوان الرسالة في المصادر التي وقفت عليها، والتي ترجمت للمقدسي، وقد صرَّح ناسخ الرسالة الإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي في اللوحة التي سبقت المقدمة باسم الرسالة، فقد قال: "كتاب الأمنية في كيفية النسبة لأمية، تصنيف الإمام أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي"، وهذا التصريح دليل على عنوان الرسالة.

٢. توثيق نسبتها:

لم أقف على من نسبها لابن المُفضَّل، ولكن تتحقق نسبة هذه الرسالة للمؤلف للأمرين التاليين:

١. في اللوحة الأولى التي سبقت المقدمة قال ناسخ الرسالة – وهو الإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي –: "كتاب الأمنية في كيفية النسبة لأمية، تصنيف الإمام أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي"، وفي هذا دليل صريح على نسبة الرسالة للمقدسي.

٢. في آخر الرسالة قال السيوطي: " تمت الرسالة بحمد الله تعالى على يد عبد الرحمن أبي بكر السيوطي الشافعي في ليلة يسفر صباحها يوم الاثني عشر من ربيع الأول سنة (٨٦٧) من نسخة بخط الناسخ شمس الدين القماح الشافعي رحمه الله، وكتبها هو كما قال في آخرها: من نسخة قُرئت على المصنف مرارًا، وعليها خط نساخ منهم الحافظ عبد العظيم المنذري، ولله

الحمد والمنة. اللهم صلِّ على محمد وآلة وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل".

وبما أنَّ عبد العظيم المنذري أحد الذين لهم نسخ على الرسالة، فهو دليلٌ آخر على أنَّ الرسالة للمقدسي؛ لأن المنذري أحد طلابه المقربين، وقد روى عن شيخه كثيرًا.

٣. وصف النسخة:

اعتمدتُ في تحقيق هذه الرسالة على نسخة فريدة جيدة، منسوخة عن نسخة بخط شمس الدين القماح بتاريخ٨٦٧هجري، والنسخة محفوظة ضمن مجموع في مكتبة روضة خيري بمصر برقم (٦٩٥)، ومحفوظة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن مجموع برقم (١٤٢١) بنسخة طبق الأصل، عدد لوحاتها ثمان لوحات، من (٦٣ – ٧١)، وهناك نسخة مصورة في مركز الملك فيصل برقم (٠٤٤٩-٣-ف)، كُتب عنوان الرسالة المؤلف في اللوحة السابقة لمقدمة الرسالة، وقد كُتبت بخط النسخ، كما أنه يوجد ختم على الصفحة التي عليها عنوان الرسالة والمؤلف، وقد ظهر منه النصف، وهذا الختم خاص بجامعة الإمام محمد بن سعود مكتوب عليه قسم المخطوطات، المكتبة المركزية.

الرسالة سليمة خالية من النقص، ولكن يوجد فيها بعض الطمس في مواضع قليلة جدًا، ولها ترقيمان، أحدهما يبدأ بـ ٥٣، والآخر بـ٦٣، وقد اعتمدت الأخير في الترقيم؛ لكونه الأقدم، ولعله هو أصل ترقيم المجموع الذي فيه الرسالة، وهي متفقة المساطر في أغلبها؛ إذ بلغ عدد الأسطر في اللوحة الواحدة (١٥)

سطرًا، عدا اللوحة (٥٥)، ففي الورقة الأولى (أ) عدد أسطرها (١٤)، واللوحة (٦١) وهي الأخيرة ففي الورقة (ب) عدد أسطرها (١٤). أمّا متوسط عدد الكلمات في السطر الواحد فتراوح من (١٠- ١٢) كلمة.

والنسخة كاملة، وقد انتهت بقول المؤلف: "والتنوين على حسب ما قدمناه في تصريف (أيدٍ) من بيان حالة الوصف والوقف، وبالله التوفيق".

٤. منهج التحقيق:

- نسختُ المخطوطة، مع مراعاة قواعد الرسم المعروفة، وعلامات الترقيم الحديثة، باستثناء ما يقتضيه رسم المصحف.
- اعتنيتُ بضبط الأمثلة الصرفية، وحصرها بين قوسين.
- فسَّرتُ الغامضَ والمُبهمَ من النصِّ، وما احتاج إلى توضيحٍ وشرحٍ قمت بتوضيحهِ وشرحهِ، مع التعليق على ما يلزم، وتوثيق ذلك من مصادره الأصلية.
- قابلتُ الآراء التي ذكرها المؤلف بآراء غيره، مع الحرص في هذه المقابلة على نسبة الآراء إلى قائليها في كتبهم.
- كتبتُ الآيات القرآنية برسم المصحف العثماني.
- خرجتُ الأحاديث الشريفة، والشواهد الشعرية مع ذكر بحر البيت، واللغة، والشاهد عند الحاجة إلى ذلك.
- أثبتُ أرقام أوراق المخطوطة، وحصرتها بين قوسين معقوفين.
- ضَبطتُ المفردات اللغوية الواردة، وفسرتُ الغريب منهَا.
- عرفتُ بِالأعلام الواردة في الرسالة عند أوَّل ورود لهَا.

- اجتهدتُ في توثيق المسائل وتحقيقها، ورصدِ الأقوالِ والآراءِ، وعزوها إلى مصادرها.
- المواضع التي عليها مسح أحاول أن أَتبيَّنها، ثم أُثبتُ ما توصلتُ إليه في الهامش بين قوسين.

٥. صور من المخطوطة:

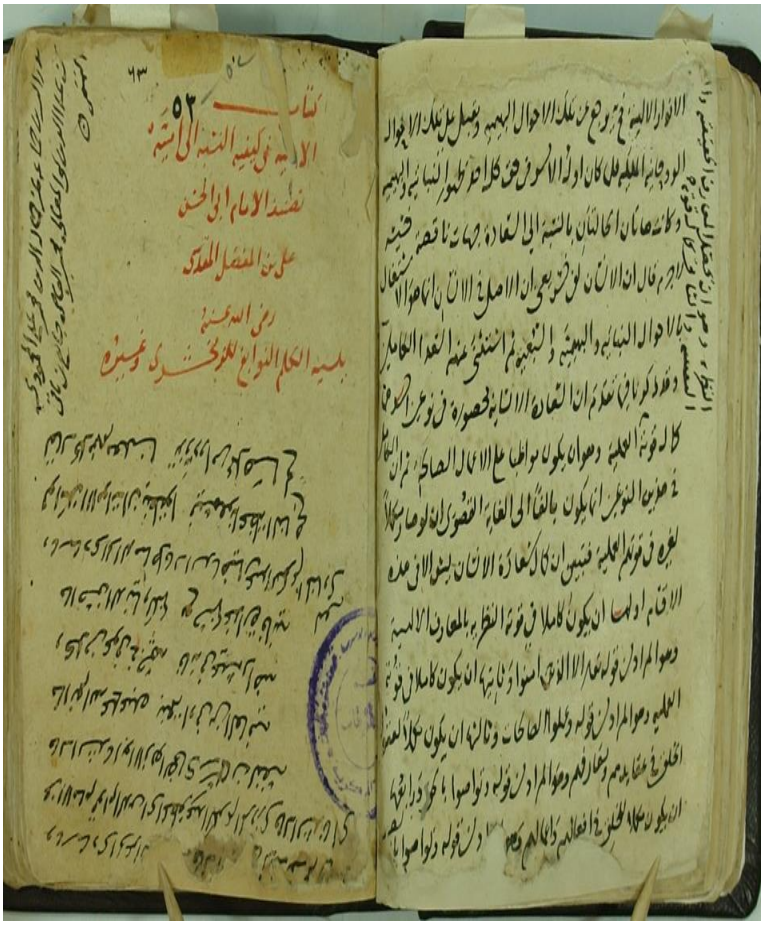

اللوحة التي عليه عنوان المخطوطة والمؤلف

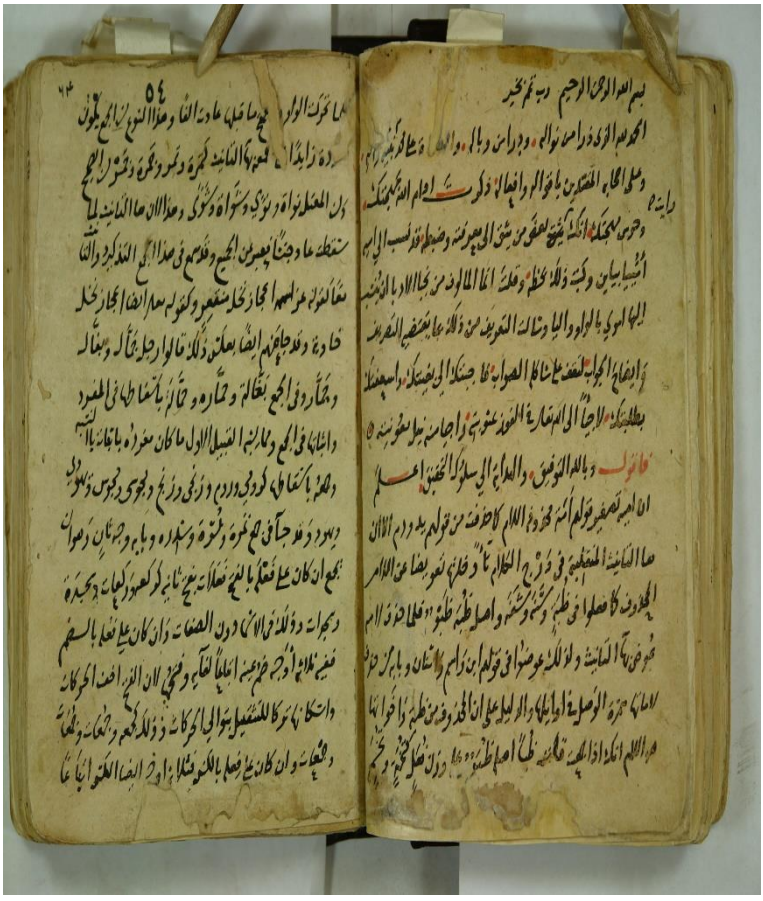

اللوحة الأولى من المخطوطة

اللوحة الأخيرة من المخطوطة

المبحث الثاني: النصُّ المُحقَّق:

كتابُ الأُمْنيَّةِ في كَيفِيَّةِ النُّسْبَةِ إِلَى أُمَيَّة

تَصنيفُ الإمامِ أبي الحَسَنِ عَليِّ بنِ المُفضَّلِ المَقْدسِيّ رضي الله عنه

[٦٤/أ]بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

ربِّ تَمِّمْ بِخَير

الحمدُ للهِ الذي ذرأَ من نَوالِهِ، ودَرأَ من وبالِهِ، والصلاةُ على محمدٍ نبيهِ وآلِهِ وعلى أصحابِهِ المقتدين بأقواله وأفعاله، ذكرتَ أدامَ اللهُ بهجتَكَ، وحرسَ مُهجتكَ، أنَّكَ رأيتَ بعض مَنْ يثقُ إلى معرفتِهِ وضبطِهِ، قد نسب[1] إلى (أُمَيَّة)،

---

(١) النَّسبُ، والنُّسبةُ، والنِّسبةُ لغة: القرابة في الآباء خاصة. وقيل: النِّسبة بالكسر: مصدر الانتساب، والنُّسبةُ بالضم: الاسم... النسب يكون بالآباء، ويكون إلى البلاد، ويكون إلى الصناعة. انظر: لسان العرب (نسب).

وقد ورد بإسكان السين (النَّسْب) ضرورةً، قال المتلمس:

ومَنْ كَانَ ذَا نَسْبٍ كَرِيمٍ ولَمْ يكنْ لـهُ حَسَبٌ كانَ اللئمَ المُذمَّما

وقد روي: ومن كان ذا عرضٍ، وقول آخر:

يا عمرو يا بنَ الأكرمينَ نَسْبا

قـد نَحـبَ المجـدُ عليـكَ نَحْبا

انظر: لسان العرب (حسب)، و (نحب)، المقاصد النحوية ٤/٢٠٣٤.

أما النسب بابًا من أبواب الصرف العربي فهو: أنك إذا نسبت رجلًا إلى أب، أو بلد، أو صناعة، زدت على المنسوب إليه ياء مشددة، وكسرت ما قبل الياء المشددة، كتميميٍّ منسوبًا إلى تميم، وكوفيٍّ منسوبًا إلى الكوفة، وهاشميٍّ منسوبًا إل بني هاشم. انظر: التكملة ص٥٠، علل النحو٥٢٩.

أميّيًا بيائينِ[1]، وكتب ذلك بخطِّهِ، وقلت: إنما المألوف من نُجباءِ الأدباءِ أن يُنسبَ إليها (أُمَوِيّ) بالواو والياء، ونالتِ التعريف من ذلكَ بما يقتضيهِ

ويقال نسبته إلى بني فلان: أي عزوته إليهم، فالنسب إضافة من جهة المعنى وإن كان مخالفًا لها من جهة اللفظ؛ وذلك أنك في الإضافة تذكر الاسمين، وتضيف أحدهما إلى الآخر، نحو: غلامِ زيدٍ، وصاحبِ عمروٍ.

وفي النسب إنما تذكر المنسوب إليه وحده، ثم تزيد عليه زيادة تدل على المعنى. وإنما سمي نسبًا؛ لأنك عرَّفته بذلك كما تعرف الإنسان بآبائه وأجداده. انظر: اللباب في علل البناء والإعراب١٤٣/٢. وقد أطلق عليه سيبويه والمبرد مصطلح الإضافة، ومصطلح النسب. انظر: الكتاب٣٣٥/٣، المقتضب١٣٣/٣.

قال ابن عصفور: "ومنهم من يسميه الإضافة، وهو الصحيح؛ لأن الإضافة أعم من النسب؛ لأن النسب في العرف إنما هو إضافة الإنسان إلى آبائه وأجداده، والإضافة في هذا الباب تكون إلى غير الآباء والأجداد؛ فلذلك كانت تسميته إضافة أجود من تسميته نسبا". شرح جمل الزجاجي٤٥٣/٢.

(١) اختُلف في ياء النسب اسمية هي أو حرفية، فمنهم من ذهب إلى أنها حرف كتاء التأنيث لا موضع لها من الإعراب. ومنهم قال: إنها اسم في موضع مجرور بإضافة الأوّل إليه، وهم الكوفيون، واستدلوا على ذلك بقول بعضهم: رأيتُ التَّيْميَّ تيمِ عديٍّ، على أن (تيم) المجرور بدل من ياء النسب؛ إذ إنه لا يُبدل الاسم من الحرف؛ لذلك جعلوا الياء اسمًا، وليست حرفًا.

قال ابن يعيش: "وهو فاسدٌ من قِبَل أنّ الياء حرفُ معنى دالٌّ على معنى النسب، كما أنّ تاء التأنيث حرف دالّ على معنى التأنيث، وليست كنايةً عن مسمًّى؛ فيكونَ لها موضعٌ من الإعراب، مع أنّ الاسم الذي له موضعٌ من الإعراب هو الذي يَتعذّر ظهورُ الإعراب في لفظه، فيُحكَم على محلّه. وأمّا ما حكوه من قولهم: (رأيتُ التَّيْميَّ تَيْمِ عَدِيّ)، فإن صحّت الروايةُ، فهو محمولٌ على حذف المضاف، كأنّه لما ذكر (التيميّ)، دلّ ذكرُه إيّاه على (صاحبٍ)، فأضمره للدلالة عليه، فكأنّه قال: (صاحب تَيْمِ عَدِيٍّ) أو(ذَا تَيْمِ عديّ)، ثم حذف المضاف، وأبقى المضاف إليه على حاله من الإعراب، وجعله – وإن لم يُذكَر –، بمنزلة الثابت الملفوظ به، ونظيرُه قوله:

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارًا

التَّصريفُ، وإيضاح الجواب؛ لتقفَ على شاكلةِ الصوابِ، فأجبتُكَ إلى بغيتِكَ، وأسعفتُكَ بطلبتِكَ[1]، لاجئًا إلى اللهِ تعالى في الفوزِ بمثوبتِهِ، راجيًا منه نَيلَ معونتِهِ، فأقولُ وباللهِ التوفيقُ، والهدايةُ إلى سلوكِ التحقيقِ:

اعلم أنَّ (أُمَيَّة) تصغيرُ قَولِهِمْ: (أَمَةٌ) [2]، مَحذوفةَ اللامِ كما حُذِفتْ مِنْ قَولِهِمْ: (يَدٌ) و(دَمٌ)[3]، إلا أنَّ هاءَ التَّأنيثِ المنقلبة في درجِ الكلامِ تاءً دخلتَها؛ تعويضًا عن اللامِ المحذوف، كما فعلوا في (ظُبَةٍ)، و(سَنَةٍ)، و(شَفَةٍ)، وأصلُ (ظُبَة) ظُبَوٌ[4]، فلما حُذِفَ لامُهُ عُوِّضَ بهاء التأنيث؛ ولذلك عوضوا في قولهم: (ابن)، و(اسم)، و(اثنان)، وبابه من حذف لاماتها همزة الوصل في أوائلها،

فإنه خفض (نارًا) على تقديرِ: وكلَّ نارٍ، ومثلُه قولهم: (ما كلُّ سَوْداءَ تَمْرَةً، ولا بَيضاءَ شَحْمَةً)". شرح المفصل٣/٤٣.

(١) يظهر لي أنَّ المؤلف المقدسيَّ ألَّف رسالته بطلبٍ أو توجيه من طرفٍ آخر، والدليل على ذلك كاف الخطاب في قوله: (فأجبتُكَ إلى بُغيتِكَ، وأسعفتُكَ بطلبتِكَ) لكني لم أستطع أن أصِلَ إلى صاحب الطلب، ولم أجده في المصادر التي وقفت عليها.

(٢) انظر: الكتاب٣/٣٤٤، المقتضب٣/١٤٠، الأصول في النحو ٣/٧٣.

(٣) قال الرضي: "حذف اللام في هذه الأسماء ليس لعلة قياسية، بل لمجرد التخفيف؛ فلهذا دار الإعراب على آخر ما بقي". شرح الشافية٣/١٨٦.

(٤) ذكر ابن جني أن "القول في (ظُبة) أيضًا كالقول في (ثُبة)، ولا يجوز أن يكون المحذوف منها فاء ولا عينًا..، ثم قال: ودليل آخر يدل على أن (ظُبة) ليست محذوفة العين، وهو جمعهم إياها بالواو والنون نحو (ظُبُون) و(ظُبِين)، ولم نرهم جمعوا شيئًا مما حذفت عينه بالواو والنون، إنما ذلك فيما حذفت لامه، نحو (سِنُون) و(عِضُون)، أو فاؤه نحو (لِدُون). ولا يجوز أيضًا أن تكون الفاء محذوفة؛ لما قدمناه، فثبت أن اللام هي المحذوفة دون غيرها. ومن أقوى دليل على حذف لامها قولهم في جمعها: (ظُبًا)، فاللام كما ترى هي المعتلة، ونظيرها (لُغَة ولُغًى)، و(بُرَة وبُرًا)، وأصلها: (ظُبْوة) بالواو؛ لما ذكرناه في (ثُبة)". سر الصناعة٢/٢٥١.

والدليل على أن المحذوف من (ظُبَة) وأخواتها هي اللام، أنك إذا تكلمت قلتَ: (ظُبًا) على وزن فُعَلٍ، كـ:تُخْمَةٍ وتُخَم[1]، [٦٤/ب] فلما تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، عادت ألفًا، وهذا النوع من الجمع يكون مفرده زائدًا على جمعه بهاء التأنيث كـ:تَمْرةٍ وتَمْرٍ، وجَمْرةٍ وجَمْرٍ في الصحيح، وفي المعتل (نَواةٌ) ونَوى، و(شَواةٌ) وشَوى[2]؛ وهذا لأن هاءَ التأنيث لما سقطت عادَ جنسًا، فعبَّرَ عن الجميع.

وقد سُمِعَ في هذا الجمع التذكير والتأنيث معًا[3]، كقوله عز اسمه: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾[4]، وكقوله تعالى أيضًا: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾[5]، وقد جاء عنهم

---

(١) التخمة: "سُوء مَغَبَّة الطعامِ وقِلَّة اسْتِمْرائِه". المخصص١/٤٧٩.

(٢) الشوى: "جمع شَواةٍ، وهي جلدة الرأس. والشوى: اليدانِ والرجلانِ والرأسُ من الآدميّين، وكلُّ ما ليسَ مقتلاً". الصحاح (شوى).

(٣) قال أبو بكر الأنباري: "اعلم أن كل جمع بينه وبين واحده الهاء فعامته يذكر ويؤنث؛ كقولهم: النخل، والبقر، والشعير، والتمر. يقال: هذا نخلٌ، وهذه نخلٌ، وهذا بقرٌ، وهذه بقرٌ، وهذا تمرٌ، وهذه تمرٌ، وهذا شعيرٌ، وهذه شعيرٌ. قال الله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ فأنث، وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾". المذكر والمؤنث٢/١٢٤. وانظر أيضًا: المقتضب٣/٣٤٦، المفصل٢٥٠.

(٤) القمر آية ٢٠. والآية كاملة هي: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾.

(٥) الحاقة آية ٧. والآية كاملة هي: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾.

أيضًا بعكس ذلك، قالوا: رَجُلٌ جَمَّالٌ، وبَغَّالٌ، وحَمَّارٌ، وفي الجمع: بَغَّالَةٌ، وحَمَّارَةٌ، وجَمَّالَةٌ، بإسقاطها في المفرد، وإثباتها في الجمع(١).

ومما يُشبِهُ القبيلَ الأول ما كان مفردُهُ بإثبات ياء النسبة، وجمعُهُ بإسقاطها كـ:رُومِيٍّ ورُوم، وزِنجِيٍّ وزِنْج، ومَجوسِيٍّ ومَجوس، ويَهودِيٍّ ويَهود.

وقد جاء في جمع (تَمرَةٍ) و(عُدّةٍ) و(سِدْرَةٍ) وبابه وجه ثانٍ، وهو أن يجمع إن كان على (فَعْلَة) بالفتح (فَعَلَات)، بفتح ثانيه كـ:رَكْعةٍ، ورَكَعَاتٍ، وسَجْدةٍ وسَجَدَاتٍ، وذلك في الأسماء دون الصفات(٢).

---

(١) ذكر ابن يعيش"أنّ هذه الصفات فيها ضربٌ من النَّسَب، وإن لم يكن فيها ياء النسب، فقالوا لصاحب الجِمال: (جَمّالٌ)، ولصاحب البِغال: (بَغّالٌ)، ولصاحب الحُمُر: (حَمّارٌ)، وهو الذي يعمل عليها ويُباشِرها، وإن لم يكن مالِكَها، وذلك كثيرٌ فيما كان صنعة تكثُر مُعالجَتُها، نحوَ: (صَرّافٍ)، و(عَوّاجٍ)، للذي يُكْثِر الصَّرْف وبَيْعَ العاج؛ لأن (فَعَّالاً) للتكثير، وصاحبُ الصنعة مُلازِمٌ لصنعتة مُداوِمٌ عليه، فجُعل له البناءُ الدالُّ على التكثير كـ (البَزّاز)، و(العَطّار)، فإذا أرادوا الجمع، ألحقوها التاء، فقالوا: (جَمَّالة)، و(بَغَّالة)، و(حَمَّارة)، فأنّثوا لفظه على إرادة الجماعة؛ لأنّ الجماعة مؤنّثة، فكأنّهم قالوا: جماعة جمّالة وبغّالة وحمّارة". شرح المفصل٣/٣٧٠.

(٢) قال المبرد: "وما كان على (فعلة) فَفِيهِ ثَلَاثَة أوجه: أَحدها فعلات تتبع الكسرة الكسرةَ، وإن شِئْت قلت: فعلات فتبدل الفتحة من الكسرة كَمَا أبدلتها من الضمة، وإن شِئْت قلت: فعلان وأسكنت كَمَا قلت:فِي (إبِل): (إبْل)، وَفِي (فخِذ): (فخْذ)؛ لاستثقال الكسرة وذلك قولك: سِدْرَة وسدْرات، وقربة وقرْبات، فإن استثلقتَ قلت: سِدَرات وقِرَبات، وفي الإسكان: سِدْرات وقرْبات". المقتضب٢/١٩٠.

وإن كان على (فُعْلَة) بالضمّ ففيه ثلاثة أوجه[١]: ضمُّ عينه إتباعًا لفائه، وفتحُها؛ لأن الفتح أخف الحركات، وإسكانُها؛ تركًا للتثقيل بتوالي الحركات، وذلك ك:جُمعةٍ وجُمُعات، وجُمَعات، وجُمْعات[٢].

وإن كان على (فِعْلَة) بالكسر فثلاثة أوجه أيضًا: الكسرُ إتباعًا، [٦٥/أ] والفتحُ؛ لخفته، والإسكانُ؛ كراهَة لتوالي الحركات، وذلك ك:كِسْوةٍ وكِسِوات، وكِسَوَاتٍ وكِسْواتٍ، وهذا في كل اسم مؤنث غير حقيقي قد يُحرَّكُ ثانيه في..[٣] على ما وصفناه، إلا أن يكون مضاعفًا ك:مَرَّةٍ ومَرَّاتٍ، وبُرَّةٍ وبُرَّاتٍ، وشِدَّة وشِدَّاتٍ، أو أنْ يكون معتلَّ العين ك:عَوْرةٍ وعَورَاتٍ، وطُوبَةٍ وطُوبَاتٍ، ومَيْتَةٍ ومَيتَاتٍ.

وإنما شذَّ المضاعفُ والمعتلُّ عن هذا القياس؛ لأنهم لو حرَّكوا في المضاعف؛ لأدَّى إلى اجتماع مثلَينِ متحركَينِ، وهم يكرهون اجتماعهما، ويفرُّون منه إلى الإدغام دون التحريك، ولم يحركوا في المعتل؛ لأنه لا يخلو إمَّا أن يكون معتلاً بالألف ك:آيَةٍ، وآيَاتٍ، وفَأرَةِ المسْكِ[٤] ـ في أشهر اللغتينِ ـ وفَأراتٍ، فالألف لا يتصور تحركه، وإما أن يكون معتلًّا بالواو والياء، فلو حُرِّكَ بأي الحركات، حُرِّكَ وقبله مفتوح؛ لأدَّى ذلك إلى إعلاله وقلبه ألفاً، وإن كان قبله مضمومٌ، أو مكسورٌ، فتحريكه لا يؤدي إلى إعلاله، إلا أنهم قد سحبوا الذيل على ترك التحريك فيه؛ لأنهم متى أعلَّوا بعلة، أعلَّوا صاحبه مثله كما قالوا في: وَعَدَ يَعِدُ،

(١) انظر: التذييل والتكميل٢/٤٨، شرح المكودي٣٢١.

(٢) انظر: المقتضب٢/١٨٩، اللمع٨١، المقاصد الشافية٦/٤٧٠.

(٣) كلمة لم أتبيّنها.

(٤) فأرة المسك: رائحته أو وعاؤه. انظر: لسان العرب (فأر).

فأسقطت الواو؛ لوقوعها بين ياءٍ وكسرة، ثم أعلُّوا بذلك باقي حروفه المضارعة، فقالوا: أنا أعِدُ، ونحنُ نعِدُ، وأنْتَ تعِدُ[1]، وعلى أنه قد سُمِعَ عنهم التحريك في المعتلِّ؛ تشبيهًا بالصحيح[2]، كما قرأ بعض القُرَّاءِ[3]: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾[4]

---

(١) انظر المسألة في: الكتاب٤/٣٣٠، والمقتضب١/٨٨، والأصول في النحو٣/٢٧٦.

(٢) هذه اللغة هي لغة هذيل، وبني تميم، قال الشاعر الهذلي:

أَخُو بَيَضَاتٍ رَائِحٌ متأوِّبٌ رفِيقٌ بمَسْحِ المَنْكِبَيْنِ سَبُوحُ

وقال المبرد: " فَأَما مَا كانت الْيَاء وَالْوَاو منه فِي موضع العين فإن فيه اختلافا أما الأقيس والأكثر فِي لغات جَمِيع العرب فَأن تَقول فِي بَيْضَة: بَيْضاتٌ، وَفِي جَوزة: جَوْزاتٌ وَفِي لوزة: لَوْزَاتٌ، وَأما هُذَيْل بن مدركة خَاصَّة فَيَقُولُونَ: جَوَزاتٌ وبَيَضَاتٌ ولَوَزَاتٌ على منهاج غير المعتل، وَلَا يقلبون وَاحِدَة منهما ألفا، فيقول من يحْتَج عَنهم إِنَّمَا حركت هذه الياء، وهذه الواو؛ لأن الباب وقع اسما متحركا وألْحق المعتل بالصَّحيح؛ لِئَلَّا يلتبس النَّعْت بالمنعوت أُجري هَذَا الْبَاب فِي ترك الْقلب مجْرى (خونة) و(حوكة)؛ لِئَلَّا يلتبس بِمَا أَصله فعلة نَحْو: (دارة) و(قارة) إِذا قلت: دَارَات وقَارَات، فصح هَذَا؛ لِأَن أَصله السّكُون كَمَا صَحَّ العور وَالصَّيْد وعور وصيد؛ لِأَن أصل الْفِعْل افْعَل ". المقتضب٢/١٩٣. وانظر أيضًا: شرح المفصل لابن يعيش٣/٢٥٩، والتذييل والتكميل٢/٥٨.

(٣) قرأ بها الأعمش. وقد خطَّأَ ابن مجاهد هذه القراءة، "قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: إن كانَ جَعَلَهُ غَلَطًا من جهةِ الرِّوايةِ فقد أصاب، وإن كان غلَّطه من جهة العَرَبيَّةِ فليس غَلَطًا". إعراب القراءات السبع وعللها٢/١١٥.

(٤) النور آية ٥٨، والآية كاملة هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

[٦٥/ب] بالتحريك..[١] مذهبه[٢] بأن قال: هذه الحركة لا تؤدي إلى الإعلال؛ لأنها ليست بأصلية، وإنما هي عارضة، والاعتبار بالأصلِ لا بالعارض، وهذه مسألة خلاف بين النحاة، هل يعتد بالعارض، فيجري مجرى اللازم، أم لا[٣]؟

فإن قيل: لم حُرِّكَ في غير التأنيث الحقيقي، وبقي التأنيث الحقيقي على ما كان مفرده؟

فالجواب: أنَّ التأنيث وما كان وصفًا له، يجب أن تسلم حروفه بحركاتها وسكناتها في حالة جمعه بهاء التأنيث[٤]، كما أنه إذا جمع من المذكر ما يَعقِل أو ما كان وصفًا، أو بالواو والنون في حال الرفع، أو بالياء والنون في حال الخفض والنصب، سَلِمَ ترتيب حروفه بحركاتها وسكناتها في حالة جمعه، كقولك: جَاءَنِي الزَّيدُونَ العَاقِلونَ، ورَأيتُ الزَّيدِينَ العَاقِلينَ، ومَررتُ بالزَّيدِينَ العَاقِلينَ،

---

(١) كلمات لم أتبينها، ويظهر لي أنها: (واحتج من يقرُّ).

(٢) عائد على من احتج بجواز مَن سُمِعَ عنه التحريك في المعتل؛ تشبيهًا بالصحيح، وهم هذيل وبنو تميم.

(٣) انظر: الكتاب٣/٦٠٠، الخصائص٣/١٨٧.
وقال ابن عصفور أن العرب قد تعتد بالعارض، ولا تلتفت إلى الأصل، فيكون قول العرب: (يوعد) من قبيل الاعتداد بالعارض. انظر: الممتع الكبير٢٨٢. وقال الرضي في شرح الشافية٢/١١١: "فإن قيل: فلتقلبا ألفا؛ لتحركهما وانفتاح ما قبلهما. قلت: إن الحركة عارضة في الجمع؛ ولذلك لم تقلبهما هذيل مع تحريكهما، كما لم تقلب واو (خُطُوات) المضموم ما قبلها ياء لعروض الضمة". وقال الشيخ خالد الأزهري: "إن عدم الاعتداد بالعارض هو الأكثر في كلامهم، وعليه الأكثرون". شرح التصريح١/٩٠.

(٤) إن كان صفةً جُمع على (فَعْلات) بتسكين العين، وإن كان اسمًا جُمع على (فَعَلات) بفتح العين. قال المبرد: "اعْلَم أَنه مَا كَانَ من ذَلِك اسْمًا، فَإِنَّك إِذا جمعته بِالْألف وَالتَّاء، حركت أوسطه لتَكون الْحَرَكَة عوضًا من الْهَاء المحذوفة، وتكون فرقًا بين الِاسْم والنعت وذلك قولك فِي طَلْحَة: طَلَحَات، وفِي جَفْنَة: جَفَنَات، وفي صَفْحَة: صَفَحَات". المقتضب٢/١٨٨. وانظر المسألة أيضًا في علل النحو٥٢٥، وإيضاح شواهد الإيضاح١/٤٢١.

الأولى أنهم لما شذَّ جمعهُم (أَرْضًا) على أَرَضِين، على مقتضى جمع من يعقل، حرَّكوا ثانيه بالفتح، وهو في المفرد ساكن؛ ليؤذنوا أنه ليس بجمع من يَعقل، ولا وصفه؛ فلذلك لما جمعوا في المؤنث من قولهم: عَمْرَةٌ ضَخْمَةٌ، حافظوا على ترتيب الحركات، فقالوا: العَمْرَاتُ الضَّخْمَاتُ، ثم لما جمعوا (تَمْرَة) على تَمَرَات[1]، حركوا ثانيها بالفتح لما ذكرنا.

وقد سُمِعَ في القليلِ من جمع (ظُبَةٌ) أَظْب[2]، كأَدْلٍ[3]، وفي الكسر ظُبُون[4]، قال كعب[5]: [٦٦/أ]

---

(١) قال ابن مالك: "قال جميع العرب: تَمَرات وجَفَنات، وقالوا في الصفات: جَوْنَات وغَيْلات بالسكون، كما قال الجميع: ضَخْمَات وصَعْبَات". شرح التسهيل١/١٠٤.

(٢) ورد في الصحاح مادة (ظبى): "وظُبَةُ السَّيفِ وظُبَةُ السَّهمِ: طرَفُهُ. قال بَشامة بن حريّ النهشليّ:

إذا الكُماةُ تَنَحَّوْا أنْ يَنالَهُمُ حدُّ الظُباتِ وَصَلناها بأيدينا

وأصلها (ظَبْوٌ)، والهاء عوض من الواو، والجمع (أَظْبٌ) في أقل العدد مثل (أَدْلٍ)، وظِباتٌ وظُبونٌ بالواو والنون".

(٣) قال أبو بكر الأنباري: "فمن ذكّر (الدَّلو) قال في تصغيره: دُلي فاعلم، ومن أنثه قال في تصغيره: دُلَيَّةٌ، ومن ذكَّر قال: عندي ثلاثة أدْلٍ، وأربعة أدْلٍ إلى العشرة، ومن أنّث قال: عندي ثلاثُ أَدْلٍ، وخمسُ أدْلٍ إلى العَشْر. ومن العرب مَنْ يُسمى الدلو دلاةً، فمن قال ذلك قال: عندي ثلاثُ دلواتٍ، وخمسُ دلواتٍ إلى العَشْرِ على وزن قولك: عندي خمسُ قطوات". المذكر والمؤنث١/٤٤٥.

(٤) انظر: ارتشاف الضرب٢/٥٧٨، شرح الأشموني١/٦٣.

(٥) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي، من أكابر الشعراء من أهل المدينة، اشتهر في الجاهلية، وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ. توفي سنة ٥٠هـ. انظر: معجم الشعراء٣٤٢، أسد الغابة٤/٤٦١.

تَعَــاوَرُ أَيْمَانُهُــمْ بَيْنَهُــمْ كُؤوسَ المَنَايا بِحَدِّ الظُّبِينَا[1]

وأما (سَنَةٌ) فلا خلاف أنها محذوفة اللام، وإنما اختلف في الحرف المحذوف منها، فقيل المحذوف هاء[2]، وأصلها سَنْهَةٌ ك:جَبْهَة؛ لأنها من: سَنَهَتِ النَّخلَةُ وتَسَنَّهتْ، إذا أتت عليها السنون، ونَخْلَةٌ سَنْهَاءُ، التي تحمل سنة ولا تحمل أخرى[3]، قال بعض الأنصار:

لَيْسَتْ بِسَنْهَاءَ وَلاَ رُجَّبِيَّةٍ ولَكِنْ عَرَايَا فِي السِّنِينَ الجَوَائِحِ[4]

البيت من الضرب الثاني من الطويل، ودخله الخَرْمُ بالواو[5]، وهو إسقاط المتحرك الأول من أول جزء من العروض التي هي نصف البيت الأول[6]، أما

(١) البيت من المتقارب، وهو لكعب بن مالك. انظر: ديوانه٢٧٦، شرح ديوان المتنبي للعكبري١٢٤/٢، المقاصد الشافية١٨٧/١وهو بلا نسبة في شرح كتاب سيبويه للسيرافي ١٥٤/٤، والتذييل والتكميل٣٢٦/١، والمساعد٥٣/١.

(٢) انظر: المقتضب١٧٠/٣، الأصول في النحو٥٥/٣، اللباب في علل البناء والإعراب٣٩٩/٢.

(٣) انظر: تهذيب اللغة (سنه).

(٤) البيت من الطويل، وهو لسويد بن صامت في اللسان (رجب)، وبلا نسبة في كتاب الأفعال٢٥٢، وشرح التصريف للثمانيني ٤٢١.

(٥) البيت ورد بروايتين، إحداهما بالخرم والأخرى بدون الخرم، وورد بدون الخرم بروايتين أيضًا، إحداهما بالفاء والأخرى بالواو. انظر: تهذيب اللغة٧٩/٦، الصحاح١٣٤/١، لسان العرب٥٦٢/٢.

(٦) (الخزم) من علل الزيادة، وهو زيادة تلحق صدر البيت، أو أول العجُز، و(الخرم) بالراء من علل النقص التي تلحق الجزء الأول من البيت، وسمي خرمًا؛ لأنه قطع بعضه. انظر: البارع لابن القطاع ٩٣.

الخَزْمُ بالزاي فهو زيادة حرف، أو حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، ولا يزيد على ذلك[١]، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه[٢]:

اشْدُدْ حَيَازِيْمَكَ لِلمَوْتِ فإنَّ الموتَ لاقيكَا

ولا تَجْزَعْ مِنَ المَوتِ إذا حَلَّ بِوادِيكَا[٣]

فقوله: (اشْدُدْ) خزم. وقد جاء عنهم الخرم[٤]، والخزم جميعًا في أول جزء من الضرب الذي هو نصف البيت الثاني وهو شاذ[٥].

وقد دخل أيضًا الكفُّ، وهو إسقاط السابع الساكن[٦]، أعني نون مفاعيلن في الجزء الثاني من عروض البيت في قوله: (بسنَهَاءَ) غير مصروف، وكذلك وردت به الراوية.

---

(١) انظر القوافي للتنوخي٨٨، القسطاس في علم العروض٦٢.

(٢) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ، أبو الحسن: أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي ﷺ وصهره، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلامًا بعد خديجة ﷺ. ولد بمكة، وربي في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه. له شعر متفرق، جمعه ورتبه في ديوان عبد العزيز الكرم. توفي سنة٤٠هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة٤/٤٦٤، قلادة النحر١/٣٢٣.

(٣) البيتان من الهزج. انظر: ديوانه١٤٠، الكامل في اللغة والأدب٣/١٤٨، القوافي للتنوخي٨٨، المستقصى في أمثال العرب٢/١٢٨.

الشاهد فيه: قوله: (اشدد)، فقد جاء به شاهدًا على الخزم بأربعة أحرف.

(٤) ذكر بعض العامة أن (الخرم) هو "كل نقص يوجد في أول كل بيت خرم، وليس الأمر كذلك، إنما الخرم إسقاط الحرف الأول من الجزء الأول فيما هو مبني على الأوتاد المجموعة". انظر: القوافي٨٥.

(٥) قال التنوخي: "وما زاد عن الحرفين في الخزم فهو شاذ". القوافي٨٩.

(٦) انظر: العروض لابن جني١٣١.

وقوله في البيت: (ولا رُجَّبيَّة)[١]، الرُّجَّبيَّة منسوبة إلى قولهم: رَجَّبْتِ الشَّجَرَةُ تَرْجِيبًا، إذا كثُرَ حَمْلُها[٢]، [٦٦/ب] فدعمتها؛ لئلا تنكسر أغصانها، ومنه قول الحُبابِ بنِ المُنذر[٣]: أنا عُذَيقُها المُرَجَّبُ[٤]، والاسم الرُّجْبَةُ، وجمعها رُجَبٌ، كـ:رُكْبَةٍ ورُكَب، وقوله: ولَكِنْ عَرَايَا، العرايا: جمع عَرِيَّة، يقول: إنا نُعرِيها غَيرَنا، أي: نجعلُ لهُ ثمرتَها عامًا[٥]، وهي فَعيلة، بمعنى مفعولة، جعلت في عديد الأسماء كـ:نَطِيحَةٍ وأَكِيلَةٍ، ولو جئت بها مع النخلة، قلت: عَرِيٌّ؛ لأن (فعيلًا) إذا وقع نعتًا لمؤنث، فإن كان بمعنى فاعل تثبت في التاء كقولهم: امرأةٌ كَريمةٌ، وظَرِيفةٌ، وإن كان بمعنى مفعول حذفت، كقولهم: لِحيةٌ دَهينٌ[٦]، وكَفٌّ خَضيبٌ[٧]، وقولهم: مِلحفَةٌ جَديدٌ[٨]، من هذا الباب بمعنى مفعولة، أي: مجدودة من هذا المنوال.

---

(١) شدّد أبو عبيد حرف الجيم من (رُجَّبيَّة). تهذيب اللغة (هسن).

(٢) انظر: لسان العرب (رجب).

(٣) هو الحُبابُ بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي ثم السلمي: صحابي، من الشجعان الشعراء، يقال له: (ذو الرأي)، وهو صاحب المشورة يوم بدر، أخذ النبي ﷺ برأيه، ونزل جبريل فقال: الرأي ما قال حباب، وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة، وهو الّذي قال عند بيعة أبي بكر يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، فذهبت مثلا. مات في خلافة عمر رضي الله عنه، وقد زاد على الخمسين. انظر: الوافي بالوفيات١١/٢١٦، الإصابة في تمييز الصحابة٢/٩.

(٤) قالها يوم السقيفة، وصارت مثلًا. انظر: مجمع الأمثال١/٣١.

(٥) انظر: الصحاح (عرا).

(٦) انظر: لسان العرب (دهن).

(٧) انظر: جمهرة اللغة (حكل).

(٨) انظر: الصحاح (جدد).

وقال قوم: إن المحذوف من (سَنَة) ياء[1]، بدليل قولهم: أَسْنَى القَومُ يَسنُون إسناءً، إذا قاموا في الموضع سَنَةً[2]، وقد سُمِعَ عن العرب اللغتان جميعًا في قولهم: تَسَنَّيتُ عِندَهُ، وتَسَنَّهْتُ عِندَهُ، واستَأجرتُهُ مُسَانَاةً ومُسَانَهَةً[3].

وفي التصغير: سُنَيَّةٌ وسُنَيهَةٌ، فإذا جمعت بالواو والنون قلتَ: سِنون، بكسر السين، وبعضهم يضمها[4]؛ لأنهم لما جمعوه جمع السلامة، وليس مذكرًا يعقل، ولا صفة له، غيَّروا حركة أول حروفه على نحو ما تقدم. فأمّا من جمع، فقال: سَنَةٌ وسِنينٌ، ومِائَةٌ ومِئينٌ برفع النون، فله وجهان: أحدهما، أنه فِعْلين، مثل غِسْلين، إلا أنه جمع لا نظير له كعِدًى، والثاني أنه (فَعِيل) وكسروا أوَّله؛ إتباعًا لكسرة ما بعدها، وقد جاء الجمع على (فَعِيل) ك(كَليب) و(عَبِيد) إلا أن صاحب [٦٧/أ] هذا القول يجعل النون في آخرها بدلًا من الواو في (سَنَة)، والياء في (مِائة)[5].

وأما (شَفَةٌ) فمحذوفة اللام أيضًا، والمحذوف منها هاء؛ لأنك تقول في التصغير (شُفَيهَةٌ)، وفي التكسير (شِفَاهٌ)، والتصغير والتكسير يردان الأشياء إلى

---

(١) المحذوف في (سنَة) هو الهاء أو الواو، وقول المؤلف: إن المحذوف هو الياء، لعله قصد الياء التي هي في الأصل واو ثم انقلبت ياء فأدغمت في الياء التي قبلها.

قال ابن الشجري: "والياء في (سَانيتُ) أصلها الواو، ولكنها لمّا وقعت رابعة صارت إلى الياء، وكذلك (سُنَيَّة) أصلها (سُنَيوة)، فلما اجتمعت مع الياء، والياء ساكنة قلبت ياء، فوجب الإدغام". الأمالي ٢/٢٦١.

(٢) قال ابن السراج: "وهذا كله شاذ لا يقاس عليه". الأصول في النحو ٣/٢٧٠.

(٣) انظر: لسان العرب (سنه).

(٤) انظر: شرح التسهيل لابن مالك ١/٧١.

(٥) الوجه الثاني هو رأي الأخفش. انظر: الأصول في النحو ٣/٣٢٨، التذييل والتكميل ١/٣٣٢.

أصولها. فهذه أمثلة ما حذف لامه، وليست مما حذف عينه كـ(سَهٍ)، على أفصح اللغتين[١].

والأصل في (سَتَهٍ)[٢] بالتحريك على وزن فَعَل، وجمعها أَسْتَاهٌ، كجَمَلٍ وأَجْمَال، وعَلَمٍ وأَعْلَام، وتصغيرها سُتَيْهَةٌ، فبعض العرب يقول: سَهٌ بالهاء، فحذف العين، وبعضهم يقول: ستٌ بالتاء، فحذف اللام[٣]، وبذلك وردت الرواية في قوله صلوات الله عليه: (**الْعَيْنَانِ وِكَاءُ السَّهِ فَإِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ اسْتَطْلَقَ الوِكَاءُ**)[٤] بالهاء والتاء[٥]، وأكثر المحققين على الهاء. فأما إذا عوضوا عن المحذوف منها همزة الوصل في أولها، فلا تكون إلا محذوفة اللام، وذلك في قولهم: است[٦].

وأمَّا مثال ما حذفت فاؤه فذلك كقولك: عِدَةٌ، وهِبَةٌ وزِنَةٌ؛ لأنك تقول في التصغير: وُعَيدَةٌ ووُهَيبَةٌ ووُزَينَةٌ، فترى المحذوف منه لما أعلاه[٧] التصغير وقع أولًا[٨]؛ ولأنك إذا جمعتَ (أَمَة) قلتَ: إِمَاءٌ، فرأيتَ المحذوف لما أعيد في الجمع وقع آخرًا.

---

(١) انظر: الكتاب٣/٤٥١.

(٢) (سته) فيها ثلاث لغات: است، وستٌ، وسهٌ، والأصل فيها: ستهٌ. انظر: شرح كتاب سيبويه للسيرافي٤/١٩٣، شرح المفصل لابن يعيش٣/٤٦٦، شرح الأشموني٤/٧٥.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد٢٨/٩٣، برقم (١٦٨٧٩).

(٥) (وكاءُ السَّه) بحذف عين الفعل، ويروى (وكاء السَّتِ) بحذف لام الفعل، والمشهور الأول. انظر: النهاية في غريب الحديث٢/٤٢٩.

(٦) انظر: الكتاب٣/٤٥٠، المقتضب٢/٩٣.

(٧) هكذا وردت، ويظهر لي أنها (علاه).

(٨) وقد خصص لها سيبويه بابًا. انظر: الكتاب٣/٣٦٩، وانظر أيضًا: الخصائص٢/٢٨٧، شرح المفصل٣/٤٠١.

وكذلك (دَمٌ)، و(دِمَاء)، وأما في التصغير (دُمَيّ)، وكذلك (يَدٌ) و(أَيدي)، أصلها (أيدِيٌ) على وزن أَفعُل كـ:أَكْلُب وأَفْلُس، إلا أن الياء تضعف عن حمل الضمة والكسرة؛ لثقلها واعتلالها[1]، وكذلك الواو أيضًا، فلما زالت الضمة سكنت [٦٧/ب] الياء، فوجب أن يكسر ما قبلها؛ لأن الياء الساكنة لا يكون قبلها مضموم فعادت (أَيدِي)كما ترى، فمن العرب من يقف على ذلك بالياء فيقول: هذا قَاضِي، ومررتُ بِدَاعِي، وكذلك بَاغِي، وعَادِي، وبَادِي، وجميع بابه[2].

ومنهم من يحذفُ الياء؛ طلبًا للخفة، ويقفُ على ما قبلها بالسكون، فيقول: مَرَرْتُ بقَاضْ، وهذا قَاضْ، وهو أكثرُ وأحسن[3]، وقد أجمع القراء على أن الوقف في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾[4] بغير ياء، إلا ابن كثير[5]، فإنه يقفُ (وَاقِي)

(١) انظر: الأصول في النحو٣/٥٥.

(٢) انظر: شرح المفصل لابن يعيش٥/٤٨٧، شرح التصريح٢/٦٢٠.

(٣) انظر: شرح الشافية للرضي٢/٣٠١، الكناش٢/١٦١، الهمع٣/٤٢٨.

(٤) غافر آية ٢١، والآية كاملة هي: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

(٥) انظر: السبعة في القراءات٥٦٧، الحجة للقراء السبعة ٦/١٠٤، المبسوط في القراءات العشر٢٦٥. وابن كثير هو عبد الله بن كثير الداريّ المكيّ، أبو معبد: أحد القراء السبعة. كان قاضي الجماعة بمكة. وكانت حرفته العطارة، ويسمون العطار (داريا) فعرف بالداري، وهو فارسي الأصل. توفي بمكة سنة١٢٠هـ. انظر: وفيات الأعيان٣/٤١، طبقات القراء السبعة٦٥، معرفة القراء الكبار٤٩.

و(هَادِي) بالإثبات، وكلا الوجهين حسنٌ، إلا أن الحذف أكثر، فلها حكم الوقف(١).

فأما الوصل فليس إلا حذف الياء، وتنوين المكسور الذي قبلها على اللغتين جميعًا(٢)، لأن الياء لما ذهبت الحركة منها عادت ساكنة فلقيها التنوين، وهو ساكن فحذف؛ لالتقاء الساكنين.

ومن حكم التقاء الساكنين تحريك أحدهما، أو حذفه، وجميع ما ذكرنا فيما لم يكن فيه ألف ولام، فأما إن دخلتا كنت بالخيار بين إثباتها وحذفها على كل حال، قرأت القراء(٣): ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾(٤) بالإثبات والحذف في الوصل والوقف، إلا أن الإثبات أحسنُ؛ لكثرته في الاستعمال(٥).

فإذا دخل النصبُ شيئًا من هذا الباب كلِّهِ فإنه يثبت؛ لخفته، وثقل الرفع والخفض، تقول: رَأيتُ القَاضيَ وقَاضيًا، وسَمعتُ الدَّاعيَ ودَاعيًا، قال الله تعالى

---

(١) الحذف أولى في المنون، والعكس في غير المنون. انظر: البديع في علم العربية٦٨٧، شرح التصريح٢/٦٢١.

(٢) انظر: الكتاب٤/١٨٣.

قال أبو سعيد: "وإنما أذهبوها في الوصل؛ لأن الأصل: هذا قاضي، وغازي وعمي، ومررت بقاضي، وغازي، وعمي، فاستثقلت الضمة والكسرة على الياء التي قبلها كسرة، فسكنت والتقى ساكنان: الياء والتنوين، فحذفت الياء؛ لاجتماع الساكنين الياء والتنوين، فإذا وقفوا لم يردوا الياء وإن لم يكن تنوين، لأن التنوين في النية إذا وصلوه، وهذا أكثر كلام العرب". شرح كتاب سيبويه٥/٥٥.

(٣) قرأ بها أبو جعفر ونافع. انظر: السبعة في القراءات٦٨٤، المبسوط في القراءات العشر ١٥٧.

(٤) البقرة آية ١٨٦، والآية كاملة هي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾.

(٥) انظر: المقاصد الشافية١/٢٢٩.

اسمه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾[1] في حال النصب، وقال في حال الرفع: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[2]، وفي حالة الخفض: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾[3] هذا هو المشهور الفصيح[4]. [٦٨/أ]

وبعض العرب يُسوّي بين النصب وبين سائر الحركات، فلم يدخله على حرف العلة بحال، وهو شاذٌّ[5]، فيقول: رَأيتُ القَاضي ذَاهبًا، ورَأيتُ قَاضٍ ذاهبًا، كما تقول: بالقَاضِي خَارجًا، وقَاضٍ خَارجٌ، وهَذا القَاضِي حَاكمًا، وقَاضٍ حَاكِمٌ، ومن هذا القبيل الفعل المضارع المعتل اللام كـ:يَدعُو، ويَقضِي،

---

(١) الأعراف آية ١٢٤، والشعراء آية ٤٩، والآية في الأعراف كاملة هي: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، وفي الشعراء هي: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٢) يس آية ٣٥، والآية كاملة هي: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

(٣) الأنعام آية ٧، والآية كاملة هي: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

(٤) انظر: شرح المقدمة المحسبة١/١١٥، المرتجل٤٢، ارتشاف الضرب٢/٨٠٤.

(٥) جاء في كتاب العين (دوو):

"يَكُرّ عليه الدَّهْرُ حتى يَرُدَّهُ دَوىً شَنَجَته جِنُّ دَهْرٍ وخابِلُه

ويُروَى: دَوٍ مكسورٌ مُنَوَّن، وهو في موضع النصب ولم يقلْ: دَوِيا وعليه لغتهم هكذا في جميع الإعراب مثل قولِكَ: رأيت قاضٍ وهذا قاضٍ، قال رؤبة:

ذلك والٍ لست راءٍ واليا كهؤلا وأنَّ يوماً ساعِيا"

تقول في النصب: لَنْ يَدعوَ على المشهور، وعلى اللغة الأخرى: لَنْ يدعوْ، كما تقول في حالة الرفع: هُوَ يَدعُو(١).

وأما الجزم في هذا النوع فهو بحذف حرف العلة المتطرف، تقول:لم يَدْعُ، ولم يَرْمِ، ولمْ يَخْشَ؛ وذلك؛ لأن سلطان الجازم على الحركة، والحركة في (يدعو) قد ذهبت حين كان أصله (يَدعوُ)، فحذفت الضمة؛ لثقلها على الواو والياء في (يَدعو)، و(يَقضي)؛ ولأنه لا يتصور دخول الحركة على الألف في (يَرضى)، فلما جاء الجازم وجد الحركة قد ذهبت، فعوض عنها بالحرف، فقيل: لم يَدعُ، ولم يَقْضِ، ولم يَرضَ، وبعض العرب لا يرى بالتعويض أصلاً، ويقول: لما ذهبت لم يصادفِ الجازم ما يعمل فيه، فيقول: لم يَدعُو، ولم يَقضِي(٢)، أنشدوا في إثبات الواو:

---

(١) ذكر ابن عصفور بأن تسكين الياء والواو في حالة النصب يأتي ضرورة، قال: "ويكون في موضع النَّصب مفتوح الآخِر، نحو: لن يَغزُوَ ولن يَرميَ؛ لأنَّ الفتحة خفيفة، وقد تُسْكِن الياء والواو في موضع النصب ضرورةً، تشبيهًا لها بالضَّمَّة أو للياءِ والواوِ بالألف، فتقول: لن يَغزُوْ ولن يَرمِيْ. ومن ذلك قولُه:

وأَن يَعرَيْنَ إن كُسِيَ الجَوارِي فتَنبُوْ العَينُ عن كَرَمٍ عِجافِ".

يريد: فتَنبُوَ العينُ". الممتع الكبير ٣٤٢.

وقال أبو حيان: "ومثال ذلك في السعة قراءة من قرأ:﴿ **أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾، بسكون الواو. وما ذهب إليه المصنف هو جنوح إلى مذهب أبي حاتم، وترك جادة ما عليه الجمهور بأن هذا كله من ضرائر الشعر الحسنة". التذييل والتكميل١/٢١٥.

(٢) ذكر الزجاجي والأعلم الشنتمري أنها لغة، وقال الجمهور: إنها ضرورة. انظر: الكتاب ٣١٦/٣، الجمل للزجاجي ٤٠٦، تحصيل عين الذهب ١٥/١.

هَجَوتَ زَبَّانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِرًا مِنْ هَجْوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَذَرِ[1]

وفي إثبات الياء:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ[2]

وفي إثبات الألف:

إِذَا العَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقِ وَلَا تَرَضَّاهَا وَلَا تَمَلَّقِ[3]

---

(١) البيت من البسيط، وهو لأبي عمرو بن العلاء يخاطب الفرزدق عندما جاء معتذرًا من أجل هجو بلغه عنه.

اللغة: هجوت: أي شتمه بالشعر، وهو خلاف المدح.

وزبان: اسم أبي عمرو بن العلاء قائل البيت. يقول: لقد هجوتني ثم أتيت تعتذر إليَّ فكأنك لم تهجني ولم تترك هجائي.

والشاهد مجيء الفعل (تهجو) بالواو مع أنه في محل جزم، وهذه الواو ليست واو الفعل وإنما هي إشباع لضمة الجيم.

انظر الشاهد في معجم الأدباء١٣١٧/٢، وورد بلا نسبة في سر الصناعة٢٧٥/٢، والمفصل٥٣٧، والإنصاف٢٢/١، واللباب في علل البناء والإعراب١٠٩/٢، وشرح التصريح٨٧/١.

(٢) البيت من الوافر، وقائله قيس بن زهير بن جذيمة، وهو من قصيدة في إبل للربيع بن زياد استقاها وباعها بمكة، وذلك أن الربيع كان قد أخذ منه درعا ولم يردها عليه. انظر: شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/ ٢٢٣، النوادر٥٢٣، وهو بلا نسبة في الكتاب٣١٦/٣، والتعليقة٥٥/١، والخصائص ١/ ٣٣٤، والمفصل٥٣٨، والمنصف٨١/٢، والإنصاف ٢٦/١، وشرح التسهيل لابن مالك٥٦/١، والمغني ١٤٦.

اللغة: تنمي: تبلغ، واللبون، جماعة الإبل ذات اللبن.

الشاهد فيه: إسكان الياء في (يأتيك) في حال الجزم حملا لها على الصحيح، وقد استعملها ضرورة. وهي لغة بعض العرب؛ حيث يجرون المعتل مجري السالم في جميع أحواله.

(٣) البيتان من الرجز، وقائلهما رؤبة. انظر: ديوانه، ووردا بلا نسبة في سر الصناعة٩٣/١، والمفصل٥٣٩، والممتع الكبير ٣٤٣، وتمهيد القواعد٢٩٤/١.

وقد قال بعضُهُمْ[1]: إنه في هذه الثلاثة الأبيات حذفَ، ثم أشبعَ الكسرة فتولَّدَ منها [٦٨/ب] ياءٌ، والفتحة فتولَّدَ منها ألفٌ، والضمة فتولَّدَ منها واوٌ، وذلك جائز في الشعر؛ لإقامة وزنه.

أنشدوا في إشباع الضمة:

وَإِنَّنِي حَوْثُمَا يَشْرِي الهَوَى بَصَرِي مِنْ حَيْثُما سَلَكُوا أَثْنِي فَأَنْظُوْرُ[2]

فإنه أراد: فأنظر، و(حوث) إحدى اللغات في (حيث)[3].

وأنشدوا في إشباع الكسرة:

لَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ وفَارَ للقَومِ بِاللَّحْمِ المَرَاجِيلُ[4]

اللغة: التملق: التودد والتلطف.

الشاهد فيه قوله: (ترضاها)، حيث أثبت الشاعر فيه الألف، وذلك للضرورة.

(١) انظر: شرح كتاب سيبويه للسيرافي١٩٩/١، التعليقة٥٥/١، شرح الأشموني٨٣/١.

(٢) البيت من البسيط، وقائله ابن هرمة. انظر: شعر إبراهيم بن هرمة ٢٣٨ – ٢٣٩، شرح المعلقات السبع للزوزني٢٥٤. وورد بلا نسبة في سر الصناعة٤١/١، إيضاح شواهد الإيضاح٣٨٣/١، الإنصاف٢٢/١، شرح المفصل لابن يعيش٤٩٢/٥، ارتشاف الضرب٢٣٩١/٥.

وفي البيت روايات كثيرة، قال ابن جنى في المحتسب١/ ٢٥٩: "هكذا رواه أبو على، يسرى من سريت، ورواه ابن الأعرابي يشرى بالشين المعجمة، أي: يعلق ويحرك الهوى بصرى، وما أحسن هذه الرواية وأطرفها". ويروى (يثنى) ويروى (حوثما). هذا والإشباع لغة طيّئ كما ذكر ابن سيده في المخصص ١/ ١٠٩.

(٣) هذه لغة طيء. انظر: المغني١٧٦.

(٤) البيت من البسيط، وقائله عبدة بن الطبيب، انظر: المفضليات١٤١، الكامل في اللغة والأدب١٠٩/٢، وورد بلا نسبة في الإنصاف ٢٥/١.

أراد: (المراجل). وأنشدوا في إشباع الفتحة.

وأنتِ مِنَ الغَوَائلِ حِينَ تُلقَى ومِنْ ذَمِّ الرجال بِمُنْتَزَاح[1]

أراد: بـ(منتزح)، فأشبع على ما بيَّنَّا.

فإذا وقفتَ على المنصوب المنَّونِ على مقتضى اللغة الفصحى، وقفتَ عليه بالألف، فتقول: رَأيتُ قَاضيًا، كما تقولُ في الصحيح: ضَربتُ زَيدًا، وبعض العرب يقف عليه بغير ألف، يقول...:[2] ضرَبتُ زَيدْ، كما يقول: مَررتُ بِزَيدْ، وهَذَا زَيْدْ، في حال الخفض والرفع... [3]، وبعضهم يقف على المخفوض والمرفوع بالواو والياء، فيقول: مَررتُ بِزَيدي، وهَذَا زَيدُوْ، كما يقف على المنصوب بالألف فيقول: ضَربتُ زَيدا[4]، وكل ذلك شاذ.

اللغة: الأخبية: جمع خباء بوزن كساء وأكسية، ورداء وأردية، والمراجيل: جمع مرجل، وهو القدر التي يطبخ فيها الطعام، يقول: إنهم حين حطوا رحالهم أسرعوا فنحروا الذبائح وأوقدوا عليها ففارت قدورهم باللحم، يصف أنفسهم بالكرم.

الشاهد: قوله: (المراجيل) فإن أصله المراجل؛ لأنه جمع مرجل على وزن منبر، ولكنه لما اضطر أشبع كسرة الجيم فتولدت عنها ياء.

(١) البيت من الوافر، وقائله ابن هرمة في قصيدة يرثي فيها ابنه. انظر: المسائل الحلبيات١١٢، سر الصناعة٢/٣٥١، الخصائص٣/١٢٣، المقاصد الشافية١/٢٣٩، وبلا نسبة في أمالي ابن الشجري١/١٨٤، إيضاح شواهد الإيضاح١/٣٨٣.

اللغة: منتزاح: أي بُعد، يقال: أنت بمنتزح من كذا، أي ببُعد منه.

الشاهد: قوله: (منتزاح) أشبعت فتحة الزاي فيه فتولدت الألف.

ووردت رواية للبيت: وأنتِ مِنَ الغَوَائلِ حِينَ تُرمى.

(٢) يوجد مسح، ويتضح من خلال السياق أن الممسوح هو قوله: (في حال النصب).

(٣) يوجد مسح بمقدار كلمة، ويتضح من خلال السياق أنه (السكون).

(٤) هذه لغة أزد السراة كما زعم أبو الخطاب. انظر: الكتاب٤/١٦٧.

فأما ما ذكرناه من (عِدَةٍ)، و(هِبَةٍ)، و(زِنَةٍ)، فالدليل على أن المحذوف هو فاؤه قولك في التصغير: وُعَيدَةٌ، ووُزَينَةٌ، ووُهَيبَةٌ، فتعود الواو أوله، وإنك إذا نظرتَ إلى فعلهِ، وجدته من وَعَدَ، ووَهَبَ، ووَزَنَ[1]، كما ثبت [٦٩/أ] أن الأصل في (أَمَة) أَمَوَةٌ[2]، على وزن فَعَلَة[3]، فإذا صُغِّرتْ، ضُمَّ فاؤها، وفُتِحَ عينُها، وأُتي بياء التصغير ثالثةً، ثم بلامها رابعة، وبهاء التأنيث بعد ذلك فتعود (أُمَيْوَة)، فتجمع ياء ساكن بعدها واو متحرك، والياء والواو متقاربان؛ لاجتماعهما في المد واللين، وسكون أولهما.

ومن شرط الإدغام اجتماع مثلَينِ، أو متقاربينِ سبق الأول منهما بالسكون، فلما تم شرط الإدغام وهو اجتماع المتقاربين قلب أحدهما إلى لفظ الثاني، وأدغم فيه، فلما أدغمت الواو في الياء عاد اللفظ (أُمَيَّة) كما ترى.

---

(١) قال سيبويه: " هذا باب الإضافة إلى ما ذهبت (فاؤه) من بنات الحرفين، وذلك عدةٌ وزنةٌ، فإذا أضفت قلت: عديٌّ وزنيٌّ، ولا ترده الإضافة إلى أصله؛ لبعدها من يائي الإضافة؛ لأنَّها لو ظهرت لم يلزمها اللام لو ظهرت من التغير؛ لوقوع الياء عليها. ولا تقول: عدويٌّ بعد اللام شيئاً ليس من الحرف، يدلُّك على ذلك التصغير؛ ألا ترى أنَّك تقول: (وُعيدةٌ)، فترد الفاء". الكتاب٣/٣٦٩. وانظر أيضًا: الشافية في علم التصريف والخط٦٨، شرح الشافية للرضي١/٢١٧.

(٢) شرع الحديث عن النسب إلى (أُمَيَّة) في هذا الموضع، وقد بدأ المؤلف رسالته ببعضِ المسائل الفرعية، والاستطرادات، وكل هذه التفريعات والاستطرادات التي بدأ بها هي توطئةٌ للموضوع الأصل، وتمهيدٌ له.

(٣) وقيل: إنها على وزن (فَعْلَة) ك:نخلة. جاء في تهذيب اللغة١٥/٤٦١. "قال أبو الهَيثم: الآم: جمع الأَمَة، كالنَّخلة والنَّخْل، والبَقْلة والبَقْل. وأصل (الْأمة) أَمْوة، حذفوا لامها لما كَانَت من حُرُوف اللين، فَلَمَّا جَمعوها على مِثَال: نَخلة ونخل، لَزِمهم أَن يقُولوا: أَمة وآم، فكرهوا أَن يجعلوها على حَرفين، وكرهوا أَن يردُّوا الْوَاو المحذوفة لما كَانَت فِي آخر الِاسْم، لاستثقالهم السُّكُوت على (الْوَاو)، فقدموا (الْوَاو) فجعلوها ألفا، فِيمَا بَين الْألف وَالْمِيم".

فإن قيل لم قلب (الواو) وهو المتحرك إلى (الياء) وهو الساكن، والمعروف رد الساكن إلى المتحرك، لا رد المتحرك إلى الساكن؛ لأن الساكن في حكم الميت، والمتحرك في حكم الحي، ورد الميت إلى حكم الحي... [1] أولى؟

فالجواب أنَّ ردَّ الواو إلى الياء في هذا الباب أولى...[2] أكانت المتقدمة كـ(طَوَيتُهُ طيًّا)، و(لَوَيتُهُ ليًّا)، أصله: طوْيًا، ولوْيًا[3]، أو المتأخرة كمسألتنا؛ لأن الياء من حروف الفم، والواو من حروف الشفتين، والإدغام في حروف الفم أكثر، وإنما أُدغم أحدهما في الآخر ـ وإنْ تراخى مخرجاهما ـ لاجتماعهما في المد واللين. ومن قبيل مسألتنا قولهم: سَيِّدٌ، ومَيِّتٌ، والأصل سَيْوِد ومَيْوِت؛ لأنه فَيعِل من سَادَ يَسودُ، ومَاتَ يَموتُ، فإنما غلب جانب الياء؛ لما ذكرنا[4].

وإنما امتنع الإدغام في قولهم: سُوْير زَيْدٌ، وبُويعَ عَمروٌ، وإن كان شرط الإدغام [٦٩/ب] قد تم؛ لأن الواو ههنا منقلبة عن ألف في قولهم: سَايرَ وبَايعَ، والألف لا تدغم فيه، وكذلك ما كان منقلبًا عنه؛ ولأن الإدغام ههنا يؤدي إلى اشتباه باب (فُوعِل) بباب (فُعِّل)[5].

---

(١) يوجد مسح بمقدار كلمة، يتضح من خلال السياق أنها (يكون).

(٢) الكلمة حروفها غير مكتملة، ويظهر لي أنه (سواء).

(٣) انظر: الأصول في النحو٣/٢٦٢.

(٤) هذا مذهب الخليل وسيبويه وجمهور البصريين. انظر: الكتاب٤/٣٦٥، المقتضب١/٩٠، التكملة ٢٦٠، الممتع الكبير١/٣٣٥. وذهب الكوفيون إلى أن وزنه (فعيل)، وأصله: سويد، فأخرت الواو وتقدمت الياء فصار سيود. انظر: الإنصاف٢/٦٥٦، شرح المفصل لابن يعيش٥/٤٣٩.

(٥) انظر: الأصول في النحو٣/٣٠٦، شرح المفصل٥/٤٧٣.

ثم المحافظة على الياء ههنا في باب (أُمِيَّة)، أحسن لوجه ثانٍ، وهو أنها دخلت للتصغير، وفي زيادة معنى، والواو من أصل الكلمة، ولا معنى لها، وما دخل لمعنى كان أولى بالمحافظة مما لا معنى له؛ ولذلك اختلف النحاة في حذف إحدى التَّائَينِ من قولك: نَارٌ تَأَجَّجَ، هل المحذوف تاء المضارعة، أو التاء الأصلية[١]؟ فقال الأخفش[٢]: المحذوفُ تاء المضارعة، لأنها زائدة[٣]، قال

---

(١) هذه المسألة اختلف فيها البصريون والكوفيون، فالبصريون يرون أن المحذوف هو التاء الأصلية؛ لأن التاء الزائدة جاءت لمعنى، وهو المضارعة، ويرى هشام والكوفيون بأن المحذوف هو التاء الزائدة؛ لأن الزائد أضعف من الأصلي، والأصلي أقوى من الزائد؛ فلما وجب حذف أحدهما كان حذف الأضعف أولى من حذف الأقوى. قال ابن الأنباري رادًّا على الكوفيين: "أما قولهم: إن الزائد أضعف من الأصلي فكان حذفه أولى، قلنا: لا نسلم هذا مطلقًا؛ فإن الزائد على ضربين: زائد جاء لمعنى، وزائد لم يجئ لمعنى، فأما الزائد الذي جاء لمعنى فلا نسلم فيه أن الأصلي أقوى منه، وأما الزائد الذي ما جاء لمعنى فمسلَّم أنه أقوى؛ ولكن لا نسلم أنه قد وجد ههنا، وهذا لأن التاء ههنا جاءت لمعنى المضارعة؛ فقد جاءت لمعنى، وإذا كانت قد جاءت لمعنى فيجب أن تكون تَبْقِيَتُهَا أولى؛ لأن في تبقيتها حذفها إسقاطا لذلك المعنى الذي جاءت من أجله، وذلك خلاف الحكمة". المسألة في الإنصاف٢/٥٣٤. وانظر المسألة أيضًا في: التعليقة١/٢٧٧، الممتع الكبير٢٩٨، شرح الأشموني٤/١٦٠.

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي بالولاء، نحوي، عالم باللغة والأدب، أخذ النحو عن سيبويه، وكان يكبره سنًّا، من تصانيفه: معاني القرآن، والمقاييس في النحو، توفي سنة٢١٥هـ. انظر: أخبار النحويين البصريين٣٩،٤٠، إنباه الرواة٢/٣٦، بغية الوعاة١/٩٥٠.

(٣) هذا رأي هشام والكوفيين، ولم أجد فيما توصلت إليه من بحث من عزى هذا القول للأخفش، ولعل صاحب الرسالة سها فنسب رأي هشام والكوفيين للأخفش؛ لأن رأي الأخفش هو حذف التاء الأصلية/ الثانية. وقد قال في قوله تعالى: " ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ ، ومعناه (تتفَعَّلُ) فكان الأصل أن تكون (تَتَكَلَّمُ)، ولكنهم استثقلوا اجتماع التائين، فحذفوا الآخرة منهما؛ لأنها هي التي تعتل، فهي أحقهما بالحذف، ونحو (تَذَكَّرُون) يسكنها الادغام". معاني القرآن١/٣٨٨.

(س)[1]: بل المحذوف التاء الأصلية[2]؛ لأن تاء المضارعة نقلت الفعل من الماضي إلى الحال، فلو ذهبت لاختل المعنى. وكذلك القول أيضًا في نون الوقاية من قولك: (أَكْرَمَنِي)؛ فإنها إنما دخلت لتقيَ الفعل من الكسر.

اختُلِف إذا اجتمعت هذه النون الداخلة للوقاية، ونون الإعراب في الفعل المضارع من قولك: (يُكرِمُونَني)، فحذفت إحداهما على إحدى اللغات، وهي قراءة نافع[3]: ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ﴾[4]، أيهما المحذوفة، قال (س)[5] وجمهور

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر الحارثي بالولاء، ولد سنة ١٤٨ هـ، اشتهر بلقبه سيبوي، إمام البصريين في النحو، تعلم على الخليل، فبرع في النحو، كتب (الكتاب) الذي قيل: إنه قرآن النحو، توفي سنة ١٨٠ هـ. انظر: طبقات النحويين واللغويين ٦٦-٧٢، نزهة الألباء١/٥٤.

(٢) سيبويه يجيز حذف إحدى التائين، ويرى أن حذف التاء الأصلية/ الثانية هو الأولى. انظر: الكتاب٤/٤٧٦.

(٣) انظر القراءة في: إعراب القراءات السبع وعللها١/٣٤٤، الحجة للقراء السبعة٥/٤٥، حجة القراءات ٣٨٣.

ونافع هو: أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، وقيل: أبو عبد الرحمن مولى جعونة بن شعوب الشجعي، وله عدة كنى أخرى، أحد القراء السبعة، ثقة صالح حالك السواد، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة، أخذ القراءة عرضا عن سبعين تابعيا، توفي سنة ١٥٩ هـ، وقيل غير ذلك. انظر: وفيات الأعيان٥/٣٦٨، غاية النهاية في طبقات القراء٢/٣٣٠.

(٤) الحجر آية ٥٤، والآية كاملة هي: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

(٥) سيبويه جعل المحذوف نون الرفع، أي: الإعراب، وليس نون الوقاية، وقد رجحه ابن مالك في شرح الكافية الشافية١/٢٠٨.

وما ورد في الرسالة بأن سيبويه يرى أن المحذوف هي نون الوقاية خطأ، فقد قال سيبويه: "وتقول: هل تفعلُنَّ ذاك، تحذف نون الرفع؛ لأنَّك ضاعفت النون، وهم يستثقلون التضعيف، فحذفوها؛ إذ كانت تحذف، وهم في ذا الموضع أشد استثقالاً للنونات، وقد حذفوها فيما هو أشد من ذا. بلغنا أن بعض القراء قرأ (أتحاجونِي)، وكان يقرأ (فبم تبشّرونِ)، وهي قراءة أهل المدينة؛ وذلك لأنهم استثقلوا التضعيف." الكتاب٣/٥١٩، ٥٢٠.

النحاة[١]: المحذوف نون الوقاية؛ لأنها إنما دخلت لتقيَ آخر الفعل من الكسر، ونون الإعراب تغنينا عنها، فإنها يحصل بها المعنيان جميعًا، وقاية الفعل ومعرفة الإعراب، وكذلك القول في نون جماعة المؤنث إذا اجتمع بنون الوقاية، والجواب واحد، وأنشدوا في ذلك: [٧٠/أ]

تَرَاهُ كَالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكًا يَسُوءُ الفالجات إذَا فليني[٢]

الأصل (فَلِينَني) فحذف. و(الثغامُ): نبتٌ أبيضُ يُشَبَّهُ به الشيب[٣]، وفي الحديث: (**أَنَّ أبَا بَكرٍ** ﷺ[٤]، **أَتَى النَّبيَّ** ﷺ، **بِأَبيهِ أَبي قُحَافَةَ**[٥] **يُسْلِمُ وكَأنَّ رَأسَهُ ثَغَامَة**)[٦].

---

(١) أكثر المتأخرين ذهب إلى أن المحذوفة نون الوقاية، وأن الباقية نون الرفع، وهو مذهب الأخفش والمبرد والأخفش الصغير وأبي علي وابن جني؛ لأنها المتكررةً المستقلة، ولا تدل على إعراب، فتجيء لتقي الفعل من الكسر، والوقاية دخلت لغير عامل، ونون الرفع دخلت لعامل، فكان الأولى بالحذف نون الوقاية. انظر: معاني القرآن للأخفش١/٢٥٤، ارتشاف الضرب١/١٩٤، همع الهوامع١/٢٠٢.

(٢) البيت من الوافر، وقائله عمرو بن معدي يكرب، وهو من قصيدة قالها في امرأة لأبيه تزوجها بعده في الجاهلية. انظر: شعر عمرو بن معدي كرب١٨٠، الكتاب٣/٥٢٠، شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي٢/٢٦٥، المقاصد الشافية١/٣٤٠، وبلا نسبة في شرح التسهيل لابن مالك١/١٤٠، والتذييل والتكميل٢/١٩١.

(٣) انظر: الصحاح (ثغم).

(٤) هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة – واسمه عثمان – بن عامر، من ولد تيم بن مرة – تيم قريش – يلتقي هو ورسول الله ﷺ عند مرة بن كعب، بين كل واحد منهما وبينه ستة آباء، كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، ولقبه عتيق، لقب به؛ لجمال وجهه ﷺ، وقيل إن رسول الله ﷺ قال له: أنت عتيق من النار، وسمي صدّيقاً لتصديقه خبر المسرى. توفي سنة ١٣هـ. انظر: وفيات الأعيان٣/٦٤، سير أعلام النبلاء الإصابة في تمييز الصحابة٧/٣٨، ٣٩.

(٥) هو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التيمي القرشي، أبو قحافة: والد أبي بكر الصديق. كان من سادات قريش في الجاهلي. وأسلم يوم فتح مكة. توفي سنة ١٤ هـ. انظر: الوافي بالوفيات٢٠/٢٤، الإصابة في تمييز الصحابة٤/٣٧٥.

(٦) الحديث في صحيح مسلم ص ٣/ ١٦٦٣، رقم (٢١٠٣)، باب في صبغ الشعر وتغيير الشيب.

وقوله: (يُعَلُّ) مأخوذ من العلل، وهو الشرب الثاني، يقال منه: عَلَّهُ يَعُلُّهُ ويَعِلُّهُ[1]، والشرب الأول هو النَّهْل[2]، يقال: منه أَنْهَلَ ينْهَلُ إنهالًا، إذا أَوردَهُ النَّهْلَ، قال كعب بن زهير[3]:

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظُلْمٍ إذا ابتَسَمَت كَأَنَّـهُ مَنهَـلٌ بِالـرَّاحِ مَعْلـولُ[4]

وكذلك اجتماع نوني الوقاية والمؤنثة الواحدة، قال الشاعر:

أَبِالمَوتِ الذي لَا شَكَّ أَنِّيَ مُـلَاقٍ لا أَبَـاكِ تُخَوِّفِينـي[5]

فثبت بما قلنا أنَّ ما في تغليبه زيادة أولى مما لا زيادة فيه.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (عل).

(٢) انظر: الصحاح (نهل).

(٣) انظر: ديوانه٦١.

وهو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المضرّب: شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد، كان ممن اشتهر في الجاهلية. ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وقام يشبّب بنساء المسلمين، فهدر النبيّ دمه، فجاءه مستأمنا، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: " **بَانَتْ سُعاد فَقَلْبِي اليَومَ مُتْبولُ** " فعفا عنه النبي صلّى الله عليه وآله، وخلع عليه بردته. توفي سنة ٢٦هـ. انظر: الشعر والشعراء١٥٣/١، الإصابة في تمييز الصحابة٥/٤٤٣.

(٤) البيت من البسيط. انظر: تهذيب اللغة (عرض)، لسان العرب (عرض)، نهاية الأرب في فنون الأدب١٦/٤٣١.

ويروى لهشام بن عقبة أخي ذي الرمة. انظر: شرح شواهد المغني٢/٧٠٤، شرح أبيات مغني اللبيب٥/٢١٠.

اللغة: تجلو: تكشف وتظهر، والعوارض: الضواحك، والظلم: الماء الجاري على الأسنان، والمنهل: الذي يسقى سقية أولى، والعلول: الذي يسقى سقية ثانية، والراح: الخمر.

(٥) البيت من الوافر، وقائله أبو حية النميري. انظر: خزانة الأدب١٠٥/٤، وورد بلا نسبة في المقتضب٣٧٥/٤، والأصول في النحو٣٩٠/١، والخصائص٣٤٦/١، وإيضاح شواهد الإيضاح٢٨٠/١. ونسب إلى الأعشى في أمالي ابن الشجري١٢٨/٢.

فإذا عاد (أَمَة) على مُقتضى التصريف في حال المصغر إلى (أُمَيَّة)، ونسبت إليها كان للعرب في إثبات ياء فُعَيْلَة، وفَعِيلَة في حال النسبة مذهبان: الإثبات والحذف، والحذف أكثر[١] كالنسب إلى (جُهَيْنَة)[٢] جُهَنيّ، و(قُرَيْظَة)[٣] قُرَظيّ، و(جَدِيْلَة)[٤] جَدَليّ، و(رَبيعَة)[٥] رَبَعيّ، فإذا نسبت على هذا إلى (أُمَيَّة) حذفتَ ياء التصغير، فعاد أُمَيِّيًّا، فحذف الياء الأولى كـ:قُرَظي فيزول الإدغام منه، وإذا زال الإدغام وهو الموجب [٧٠/ب] لقلب الواو من (أُمَيَّة) ياءً، عادت الياء إلى أصلها، وهو الواو، فصار (أُمَوِيًّا) كما ترى.

وأما إن كانت النسبة إلى (فُعَيل)، و(فَعِيل) بغير هاء كـ(قُرَيش)[٦]، و(هُذَيل)[٧]، و(سَلِيم)[٨]، و(نَضِير)[٩]، فإن كان (فُعَيلاً) بضم أوله، وفتح

---

(١) انظر: الكتاب٣/٣٣٩، اللمع٢٠٧، توجيه اللمع٥٤١.

(٢) جُهينة: "بلفظ التصغير، وهو علم مرتجل في اسم أبي قبيلة من قضاعة: وسمي به قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة، وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل، وعندها مرج يقال له مرج جهينة، له ذكر". معجم البلدان٢/١٩٤.

(٣) قُريظة: "موضع ببقيع المدينة". مراصد الاطلاع٢/٨٥٦.

(٤) جَديلة: "بالفتح ثم الكسر الجديلة الشاكلة، والجديلة الناحية، وجديلة: اسم قبيلة من طيء وقبيلة من الأنصار ومن قيس. وجديلة: اسم مكان في طريق حاجّ البصرة". معجم البلدان٢/ ١١٥.

(٥) رَبيعة: "قرية بني ربيعة في أقصى الصعيد بين أسوان وبلاق، وهي قرية كبيرة جامعة". معجم البلدان٣/٢٧.

(٦) قُريش فريقان: قريش البطاح وقريش الظواهر، فقريش البطاح هم الذين ينزلون بطحاء مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون حول مكة. انظر: الروض المعطار ٧.

(٧) هذيل: "بطن من خندف من مضر، وهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس، وهما ابنا خندف من مضر". نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب٤٣٥.

(٨) بنو سليم: "هم أكثر قبائل قيس (عيلان)، قال: ومساكنهم ببرقة مما يلي الغرب، ومما يلي مصر، وفيهم الأبطال الأنجاد والخيل الجياد". مسالك الأبصار٤/٣٨٩.

(٩) نضير: "بفتح النون، وكسر الضاد ثم ياء ساكنة، وراء مهملة: اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقريظة نزولا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم". معجم البلدان٥/٢٩٠.

ثانيه، فالوجهان جائزان، الحذف والإثبات[١]، فدليل الحذف ما روي أنه عليه السلام قال: **(لا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبرًا بَعدَ اليَومِ)**[٢]، ودليل الإثبات قول الشاعر:

وَكُلُّ[٣] قُرَيشِيٍّ عَلَيْهِ مَهَابَــةٌ سَرِيعٌ إِلَى دَاعِي النَّدَى والتَّكَرُّمِ[٤]

والإثبات عند البعض هو الأجود[٥].

وإن كان (فَعِيلًا) بفتح أوَّله، وكسر ثانيه، فالوجه الإثبات، فيقال في النسبة إلى (تَمِيم)، و(سَلِيم): تَمِيميّ، وسَلِيميّ؛ لأنهم لو حذفوا ياءه؛ لأدَّى إلى توالي الكسر وهم يكرهونه، وذلك اجتماع كسرةِ ثانيه، وكسرةِ ما قبل ياء النسبة؛

---

(١) قال أبو البركات الأنباري: " فإن (الياء) إنما حذفت من باب فُعَيلة وفَعِيلة ومن فُعَيل وفَعِيل؛ لأن النسب أثر فيه وغَيَّرَهُ بحذف تاء التأنيث منه، والتغيير يؤنس بالتغيير، بخلاف باب فُعَيل وفَعِيل؛ فإن النسب لم يؤثر فيه تغييرًا، فلم يحذف منه الياء، فأما قولهم في النسب إلى قريش: (قُرَشِيّ)، وإلى هذيل هُذَلِيّ، وإلى ثقيف: (ثَقَفِيّ) -بحذف الياء في إحدى اللغتين- فهو من الشاذ الذي لا يقاس عليه، واللغة الفصحى إثبات الياء، وهي أن تقول: قُرَيْشِيّ، وهُذَيْلِيّ، وثَقِيفِيّ، وهو القياس". الإنصاف١/٢٨٦.

(٢) الحديث ورد في صحيح مسلم٣/١٤٠٩ في باب: لا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح برقم ١٧٨٢.

(٣) هكذا في المخطوطة، والشاهد ورد في المصادر (بكل).

(٤) البيت من الطويل، لم أهتد إلى قائله، وهو من شواهد سيبويه. انظر: الكتاب٣/٣٣٧، اللمع ٢٠٨، شرح المفصل لابن يعيش٣/٤٧٦، تمهيد القواعد٩/٤٧٠٧.

الشاهد فيه قوله: (قريشي) بإثبات الياء على القياس، لكنهم يغايرون ذلك ويعدلون عنه في قريش، فيقولون: قريشي.

ويروى البيت:

بكلِّ قُرَيشِيٍّ إذا مَا لقيته سريعٌ إلى داعي النّدى والتّكرُّمِ

(٥) ومن شواهد النسب في اللغتين، حذف الياء وإثباتها في (فُعَيل) قول الشاعر:

هُذَيلِيَّةٌ تدعو إذا هيَ فَاخرتْ أبــًا هُذليــًّا من غَطــارِفَةٍ نُجــدِ

انظر: علل النحو٥٣٠، توجيه اللمع٤٧، شرح المفصل٣/٤٧٤.

ألا ترى أنهم لما نسبوا إلى (سَلِمَة)[١]، وإلى (شَقِرَة)[٢]، وإلى (نَمِرة)[٣]، قالوا: سَلَمِيّ، وشَقَرِيّ، ونَمَرِيّ بفتح ثانية، كراهةً منهم؛ لتوالي الكسر[٤]، ولما نسبوا إلى باب (فَعِيل) إلى حَنِيفَة، وجَدِيلة، حركوا ثانيه بالفتح لما ذهبت فتوالى الكسر.

فإن قيل: لم لا تُحذف ياء (فَعِيل)، وتفتح ثانيه كما فعلوا في باب (فَعِيلة)؟

فالجواب: أن باب (فَعِيلَة) أقوى من باب (فَعِيل)؛ لأنه لما كانت فيه زيادة هاء التأنيث قوي، وحذفها في حال النسبة لا يضر؛ لأنها وإن حذفت لفظًا، فحكمها باقٍ، وكأنها مقدرة الوجود، وإنما حذفت؛ لأنها زائدة، وياء النسب زائدة، فكره الجمع بين [٧١/أ] زيادتين كما كره الجمع بين علامتي تأنيث في (عَائِشَات) و(فَاطِمَات)، فلما تقوّى احتمل أن يدخله تغييران، وهما: حذف يائه، وقلب حركة ثانيه من الكسر إلى الفتح، وليس ذلك موجودًا في باب (فَعِيل)؛ لأنه ليس فيه ما يقويه، فلو حذفنا في النسبة ياءه؛ لأدى إلى تغير

---

(١) بنو سِلمة: "بكسر اللام، قبيلة معروفة من الأنصار، والنسبة إليهم: سلمي، بفتح اللام، هذا هو الصحيح المعروف الذى قاله أهل اللغة، والمحققون من المحدثين، وقد كسرها كثيرون أو الأكثرون من المحدثين". تهذيب الأسماء واللغات٢/٢٩٠.

(٢) شقرة: "اسم رجل هو أبو قبيلة من العرب يقال لها شقرة". لسان العرب (شقر).

(٣) نَمرة: "بالفتح، ثم الكسر، أنثى النمر: ناحية بعرفة، كانت منزل النبي ﷺ في حجة الوداع. وقيل: نمرة هو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم عن يمينك إذا خرجت من المأزمين تريد الموقف. ونمرة أيضا: موضع بقديد". مراصد الاطلاع٣/١٣٩٠.

(٤) قال سيبويه: "وما جاء من (فعلٍ) بمنزلة فعلٍ قولهم في النَّمر: نمريٌّ، وفي الحبطات حَبَطيٌّ، وفي شقرة: شَقَرِيٌّ، وفي سَلِمَة: سَلَميٌّ". الكتاب٣/٣٤٣. وانظر أيضًا: المقتضب٣/١٧٣، والأصول في النحو٣/٦٤، واللباب في علل البناء والإعراب٢/١٤٥.

حركة ثانيه، فيدخله تغييران، وهو ضعيف، فيكون في ذلك الإجحاف به فبقيناه على لفظه لهذا المعنى، وعلى أنه قد سمع منهم الحذف في هذا الباب أيضًا، قالوا في النسبة إلى ثَقِيف: ثَقَفَي، فأذهبوا ياءه، وفتحوا ثانيه، وهو قليل(١).

ومن العرب من ينسب إلى (قُرَيظَة) قُرَيظِي، وإلى (حَنِيفَة) حَنِيفِي، فعلى هذا الوجه يحسن قول من نسب إلى (أُمَيَّة) أُمييًّا؛ لأنه لما حذف ياء التصغير(٢)، بقيَ الإدغام على ما كان له على لفظه، يوضحه أنه لم يسمع منهم في النسبة إلى (عَمَيرَة)(٣) إلا عَمَيرِي بالإثبات، فاعلم ذلك.

وإذ قد ذكرنا ما يتعلقُ بتصغيرِ (أَمَة)، وتصريفِها، والنسبةِ إليها، فلنذكر ما يتعلقُ بجمعِها، فنقول: جمع (أَمَة) إِمَاء(٤)، على وزن (فَعَلة)، و(فِعَال)، ك:ثَمَرة،

---

(١) هذا النسب على غير القياس عند سيبويه، والقياس ثَقِيفِيّ. انظر: الكتاب٣/٣٣٥، الأصول في النحو٣/٧٢و ٧٣، التكملة ٥٦.

(٢) انظر: شرح كتاب سيبويه للسيرافي٤/٢١٢.

(٣) قال ابن جني: "... وَرُبمَا شَذَّ من ذَلِك الشَّيْء الْقَلِيل فَلم تحذف ياؤه". اللمع٢٠٧.

(٤) من الأسماء التي تعددت جموعها (أَمَة) على وزن (فَعَة)، وأصل (أمَة) أَمَوَة على فَعَلَة، ومذهب القدماء أن كل اسم على حرفين قد سقط منه حرف؛ لأن أقل أصول الأسماء ثلاثة أحرف، ويخالفهم بعض المحدثين في الذهاب إلى ثنائية الأصول، وتجمع أمة جمع قلة فيقال: آمٌ، على بناء (أَفْعُل)، ويجمع جمع كثرة فيقال: إماءٌ، على بناء فِعال، وإمْوان مثل إخْوان على بناء فِعْلان، وأُمْوان مثل أُخْوان على بناء فُعْلان، ويجمع جمع مؤنث سالم فيقال: أَمَوات على بناء فَعَلات، وَأَمات، على بناء فَعات. وليس لتعدد جموع اسم سبب واضح مقنع سوى سعة اللغة وتصرفها والإمكانات التصريفية التي تتيحها لمستعملها لتلبية أغراضه التعبيرية. انظر: الكتاب٣/٤٠١، وَ٦٠١، شرح كتاب سيبويه للسيرافي٤/١٤، شرح المفصل لابن يعيش٣/٢٧١، شرح شافية ابن الحاجب لركن الدين الحديثي١/٤٤٠.

وثمار، الأصل فيه: (إِمَاوٌ) بالواو؛ إلا أن الواو والياء متى تطرفتا، وتقدمتهما ألف زائدة، انقلبتا همزة، كقولك: دعا يَدْعُو دُعَاءً، وقَضَى يَقْضِي قَضَاءً، أصله دُعَاوًا وقَضَايًا؛ لأنه من دَعَا يَدعُو، وقَضَى يَقْضِي، وإنما اللغة ما ذكرنا.

فلو كان الألف المتقدم عليها أصلًا غير زائد لم تنقلبا همزة، كقولك: واو، وراء، وكقولك: زاي، [٧١/ب] فالواو، والياء منها متطرفتان، ولم تقلبا همزة؛ لأن الألف الذي قبلها أصل على حسب ما بينا، وهذا عقدٌ من عقود التصريف كثيرٌ، فقس عليه كل ما ورد عليك في معناه إن شاء الله تعالى.

وقد ورد عنهم في جمع (أَمَة) (آمٌ) على وزن أَفْعُل، وأصلها (أَمْؤٌ)، فسهلوا الهمزة الثانية؛ لاجتماع المثلين، فعادت ألفًا فوجب المد؛ لأن الألف أحد حروف اللين، ولا تكون إلا حرف مد؛ لأنه لا يتصور أن يكون ما قبلها مفتوحًا، فصار لفظه (آمُؤٌ) فاستثقلت الضمة على الواو فحذفت الضمة، وسكنت الواو، فقلبت إلى الياء؛ لأنه لا نظير لها في الأسماء، فوجب أن ينكسر ما قبلها، وتحذف الياء في الوصل؛ لاجتماع الساكنين، وهما الياء الساكنة، والتنوين على حسب ما قدمناه في تصريف (أَيْدٍ) من بيان حالة الوصل والوقف، وبالله التوفيق.

تمَّتِ الرسالةُ بحمدِ الله تعالى على يدِ عبدِ الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي[1] في ليلة يسفرُ صباحُها عن يوم الاثني عشر من ربيعِ الأولِ (سنة

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، بلغت مصنفاته ست مائة مصنف. توفي سنة ٩١١هـ. انظر: الأعلام٣/٣٠١.

٨٦٧) من نسخةٍ بخطِّ الناسخ[١] شمسِ الدينِ القماحِ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى[٢]، وكتبَها هو كما قال في آخرها: من نُسخةٍ قُرئتْ على المصنِّفِ مرارًا، وعليها خطُّ نسَّاخٍ منهم الحافظُ عبد العظيم المُنذري[٣]، ولله الحمدُ والمنَّة.

اللهمَّ صلِّ على محمدٍ، وآلِهِ، وصحبهِ، وسلم، وحسبُنا الله، ونعمَ الوكيل.

---

(١) وردت في المخطوطة (النسخ) والصواب ما أثبت.

(٢) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدرة بن علي القاضي الإمام الفاضل شمس الدين أبو عبد الله المعروف بابن القماح المصري الشافعي كان مُحدِّثًا، وفقيهًا، وكانت فتاويه مسددة، وهو آية في الحفظ. توفي سنة ٧٤١هـ. انظر: أعيان العصر٤/٢٦٧، معجم الشيوخ٣٤٣.

(٣) هو الإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري بن عبد الله بن سلامة بن سعد الحافظ الكبير الإمام الثبت شيخ الإسلام زكي الدين أبو محمد المنذري، الشامي ثم المصري، مولده في غرة شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، محدث مصر في زمانه. قرأ القرآن، وتأدب، وتفقه، ثم طلب هذا الشأن وبرع فيه. توفي سنة ٦٥٦ هـ. انظر: وفيات الأعيان١/١٠٦، تذكرة الحفاظ ١٥٣/٤.

فهرس المصادر

- **القرآن الكريم.**
- **ارتشاف الضرب من لسان العرب،** لأبي حيان الأندلسي ت(٧٤٥هـ)، تحقيق الدكتور رجب عثمان محمد، راجعه الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة،** تأليف أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، تحقيق علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود

الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- **الإصابة في تمييز الصحابة،** تأليف أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.
- **الأصول في النحو،** لأبي بكر محمد بن سهل السراج، تحقيق الدكتور/ عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- **إعراب القراءات السبع وعللها،** تأليف أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذاني النحوي الشافعي (ت ٣٧٠ هـ) حققه وقدم له: د عبد الرحمن العثيمين، مكة المكرمة - جامعة أم القرى، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي ، ط (١٥)، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.
- **الاقتراح في أصول النحو،** تأليف عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، ضبطه وعلق عليه: عبد الحكيم عطية، راجعه وقدم له: علاء الدين عطية، دار البيروتي، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.
- **أمالي ابن الشجري،** هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة العلوي ت (٥٤٢هـ)، تحقيق ودراسة الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- **إنباه الرواة على أنباء النحاة**، للوزير جمال الدين بي علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت،ط١، ١٤٢٤ هـ
- **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين**، للشيخ كمال الدين أبي البركات محمد بن أبي سعيد الأنباري ت(٥٧٧هـ)، ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- **البارع في اللغة**، تأليف أبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (ت ٣٥٦ هـ)، تحقيق هشام الطعان، الناشر: مكتبة النهضة بغداد – دار الحضارة العربية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٥م.
- **البحر المحيط في التفسير**، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ.
- **البديع في علم العربية**، تأليف مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦ هـ)، تحقيق ودراسة: د. فتحي أحمد علي الدين،جامعة أم القرى، مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ٢٠٠٩م .١٤٣٠هـ.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، تأليف محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزَّبيدي ت(١٢٠٥ هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت(٧٤٨هـ)، تحقيق د بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.
- **تذكرة الحفاظ**، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ت(٧٤٨ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ– ١٩٩٨م.

- **التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل**، تأليف أبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم – دمشق (من ١ إلى ٥)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ – ١٤٣٤ هـ / ١٩٩٧ – ٢٠١٣ م.
- **التصريح على مضمون التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو**، تأليف خالد بن عبد الله الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠م.
- **التعليقة على كتاب سيبويه**، لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، تحقيق وتعليق الدكتور عوض القوزي، مطبعة الأمانة - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.
- **التكملة**، لأبي علي الفارسي، تحقيق ودراسة د/ كاظم بحر المرجان، إشراف أ.د حسين نصار، الجمهورية العراقية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- **التكملة لوفيات النقلة**، تأليف زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، حققه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ — ٩٨٤م.
- **تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد**، لمحب الدين محمد بن يوسف بن أحمد المعروف بناظر الجيش ت(٧٧٨هـ)، دراسة وتحقيق مجموعة من الأساتذة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- **تهذيب الأسماء واللغات**، تأليف أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، يطلب من: دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان.
- **تهذيب اللغة**، تأليف محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور ت(٣٧٠ هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- **توجيه اللمع**، للعلامة أحمد بن الحسين بن الخباز شرح كتاب اللمع لأبي الفتح ابن جني، دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور فايز زكي محمد دياب، دار السلام للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- **توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم**، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين،

الشهير بابن ناصر الدين (المتوفى: ٨٤٢ هـ)، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.

- **الجمل في النحو**، تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، دار الأمل، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- **حجة القراءات**، تأليف عبد الرحمن بن محمد أبي زرعة ،محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.
- **الحجة للقراء السبعة**، تأليف الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبي علي (ت ٣٧٧ هـ)، المحقق: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تأليف عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، ط١، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.
- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي ت(١٠٩٣ هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- **خزانة التراث/ فهرس مخطوطات**، المؤلف: قام بإصداره مركز الملك فيصل، نبذة: فهارس المخطوطات الإسلامية في المكتبات والخزانات ومراكز المخطوطات في العالم، تشتمل على معلومات عن أماكن وجود المخطوطات، وأرقام حفظها في المكتبات والخزائن العالمية.
- **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية.
- **ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وكرم الله وجهه**، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.
- **ديوان كعب بن زهير**، حققه وشرحه وقدم له الأستاذ علي فاعور، منشورات محمد

بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- **ديوان كعب بن مالك**، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، منشورات مكتبة النهضة ببغداد، ط١، ١٩٦٦م.
- **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، تأليف أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري (المتوفى: ٦٩٤ هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية.
- **السبعة في القراءات**، تأليف أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبي بكر بن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤ هـ)، تحقيق شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠ هـ.
- **سر صناعة الإعراب**، لأبي الفتح عثمان بن جني، دراسة وتحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم - دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- **سير أعلام النبلاء**، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ت(٧٤٨ هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
- **الشافية في علمي التصريف والخط**، تأليف عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (ت ٦٤٦ هـ)، المحقق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت (١٠٨٩هـ)، المكتب النجاري للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
- **شرح أبيات سيبويه**، تأليف يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبي محمد السيرافي ت(٣٨٥ هـ)، تحقيق الدكتور محمد علي الريح هاشم، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- **شرح أبيات مغني اللبيب**، صنعة عبد القادر بن عمر البغدادي، حققه عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، دمشق ، ط١، ١٣٩٨هـ.

- **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، تأليف علي بن محمد بن عيسى، أبي الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي ت(٩٠٠ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط ١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.
- **شرح التسهيل**، لجمال الدين ابن مالك محمد بن عبد الله الطائي الأندلسي ت (٦٧٢هـ) تحقيق الدكتور/ عبد الرحمن السيد والدكتور/ محمد المختون، هجر للطباعة والنشر، ط ١، ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م.
- **شرح جمل الزجاجي**، لأبي الحسن علي بن مؤمن بن عصفور الإشبيلي، قدم له ووضع فهارسه فواز الشعار، إشراف الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ. ١٩٩٨م.
- **شرح ديوان المتنبي**، تأليف أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (ت ٦١٦ هـ)، المحقق: مصطفى السقا/ إبراهيم الأبياري/ عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة — بيروت.
- **شرح شافية ابن الحاجب**، تأليف حسن بن محمد بن شرف شاه الإستراباذي، ركن الدين ت(٧١٥هـ)، تحقيق د عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.
- **شرح شافية ابن الحاجب**، مع شرح شواهده للعالم الجليل عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب المتوفي عام ١٠٩٣ من الهجرة، تأليف محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، نجم الدين (ت ٦٨٦ هـ)، حققهما، وضبط غريبهما، وشرح مبهمهما، الأساتذة:، محمد نور الحسن – المدرس في تخصص كلية اللغة العربية، محمد الزفزاف – المدرس في كلية اللغة العربية، محمد محيي الدين عبد الحميد – المدرس في تخصص كلية اللغة العربية، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت — لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.
- **شرح شواهد المغني**، تأليف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

- **شرح كتاب سيبويه**، تأليف أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (المتوفى: ٣٦٨ هـ)، تحقيق أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.
- **شرح المفصل للزمخشري**، تأليف يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبي البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣ هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.
- **شرح المقدمة المحسبة**، المؤلف: طاهر بن أحمد بن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ)، تحقيق: خالد عبد الكريم، الناشر: المطبعة العصرية – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٧ م.
- **شرح المكودي**، أبي زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي ت(٨٠٧هـ) على الألفية في علمي الصرف والنحو للإمام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك، ضبطه وخرج آياته وشواهده الشعرية إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٣، ٢٠١٠م.
- **شعر عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي**، جمعه ونسقه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **الشعر والشعراء**، تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تأليف أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- **صحيح مسلم، تأليف أبي الحسين**، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي - القاهرة (وصَوّرتْها: دار إحياء التراث العربي - بيروت).
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢ هـ)،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- **طبقات الحفاظ**، تأليف عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.
- **طبقات علماء الحديث**، تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (المتوفى: ٧٤٤ هـ)تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- **طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم**، تأليف عبد الوهاب بن يوسف بن إبراهيم بن السلار الشافعي ت (٧٨٢هـ)، تحقيق أحمد بن محمد عزوز، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
- **طبقات النحويين واللغويين**، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: ٣٧٩ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٢، د.ت.
- **العروض**، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢ هـ)، المحقق: د أحمد فوزي الهيب، الناشر: دار القلم – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.
- **علل النحو**، تأليف محمد بن عبد الله بن العباس أبي الحسن ابن الوراق ، تحقيق محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد - الرياض / السعودية، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
- **العين**، تأليف أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ت(١٧٠ هـ)، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **الفوائد الجليلة في مسلسلات ابن عقيلة**، تأليف: محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكيّ، شمس الدين، المعروف كوالده بعقيلة (ت ١١٥٠ هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد رضا، الناشر: البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- **القسطاس في علم العروض**، تأليف أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨ هـ)، المحقق: الدكتور فخر الدين قباوة، الناشر: مكتبة المعارف بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية المجددة، ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـ «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان»**، تأليف كمال الدين أبي البركات المبارك بن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤

هـ)، تحقيق كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى – ٢٠٠٥م.

- **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**، تأليف أبي محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة، الهِجراني الحضرمي الشافعي (٨٧٠ – ٩٤٧ هـ)، عُني به: بو جمعة مكري / خالد زواري، دار المنهاج – جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٨ م.
- **القوافي**، تأليف القاضي أبي يعلي عبد الباقي بن أبي الحصين عبد الله بن المحسن التنوخي (ت ق ٥ هـ)

المحقق: الدكتور عوني عبد الرءوف،الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة: الثانية، ١٩٧٨ م.

- **الكامل في اللغة والأدب**، تأليف محمد بن يزيد المبرد، أبي العباس (ت ٢٨٥ هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.
- **كتاب سيبويه**، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.
- **كتاب سيبويه**، وبهامشه تقريرات وزبد من شرح أبي سعيد السيرافي، وبأسفل الصحيفة بالقاعدة الصغيرة شرح الشواهد المسمى: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب لمؤلفه يوسف بن سليمان الشنتمري، طبعة بولاق، ط١، ١٣١٦هـ، ط٢، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ١٤٣١هـ.
- **الكناش في النحو والتصريف، تأليف** أبي الفداء ت (٧٣٢هـ)، دراسة وتحقيق د/ جودة مبروك محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.
- **اللباب في علل البناء والإعراب**، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ت(٦١٦هـ)، تحقيق غازي مختار طليمات، دار الفكر المعاصر، بيروت. لبنان، دار الفكر، دمشق. سورية، ط١، ١٤١٦هـ. ١٩٩٥م.
- **لسان العرب**، تأليف محمد بن مكرم بن على، أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ت(٧١١ هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣، – ١٤١٤

هـ.
- **اللمع في العربية**، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني ت(٣٩٢هـ)، تحقيق حامد مؤمن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- **المبسوط في القراءات العشر**، تأليف أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، أبي بكر ت(٣٨١ هـ)، تحقيق سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق، ١٩٨١م.
- **مجمع الآداب في معجم الألقاب**، تأليف كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي الشيباني (ت ٧٢٣ هـ)، تحقيق محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر- وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ.
- **المجمع المؤسس للمعجم المفهرس**، مشيخة: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، (جـ ١) / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م، (جـ ٢ - ٤) / ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩م.
- **المحكم والمحيط الأعظم**، تأليف أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت (٤٥٨ هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- **المخصص**، تأليف الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، تحقيق خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.
- **المذكر والمؤنث** لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ت (٣٢٨ هـ)، تحقيق د/ طارق الجنابي، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تأليف عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين ت(٧٣٩ هـ)، دار الجيل، بيروت،

ط١، ١٤١٢ هـ.
- **المرتجل**، لأبي محمد عبد الله بن أحمد الشهير بابن الخشاب، تحقيق ودراسة علي حيدر، دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تأليف أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت ٧٤٩ هـ)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- **المسائل الحلبيات**، تأليف أبي علي الفارسيّ (المتوفى ٣٧٧ هـ)،المحقق: د. حسن هنداوي، الأستاذ المشارك في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع القصيم، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – دار المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.
- **المساعد على تسهيل الفوائد**، للإمام الجليل بهاء الدين بن عقيل، تحقيق وتعليق الدكتور محمد كامل بركات، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تأليف أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: ٧٤٩ هـ)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- **المستقصى في أمثال العرب**، تأليف أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٧م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تأليف الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١ هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة.
- **معاني القرآن**، تأليف أبي الحسن المجاشعي ، المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م.

- **معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تأليف شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- **معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، تأليف ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: ٦٥٨ هـ)، مكتبة الثقافة الدينية – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- **معجم البلدان**، تأليف شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥ م.
- **معجم الشعراء**، للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى: ٣٨٤ هـ)، بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.
- **معجم الشيوخ**، تأليف تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١ هـ)،تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي ٧٠٣ - ٧٥٩ هـ، تحقيق الدكتور بشار عواد - رائد يوسف العنبكي - مصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى ٢٠٠٤.
- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ت(٧٤٨ هـ)، دار الكتب العلمية، ط١٤١٧،١ هـ- ١٩٩٧م.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تأليف الإمام ابن هشام الأنصاري، تحقيق د/ مازن مبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر/ دمشق، ط٦، ١٩٨٥.
- **المفصل في صنعة الإعراب**، لفخر الدين أبي القاسم الزمخشري، تحقيق الدكتور علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- **المفضليات**، تأليف المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي ت (١٦٨ هـ)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة، ط٦.
- **المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية**، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ت(٧٩٠هـ)، حققه الدكتور عبد الرحمن العثيمين، والدكتور محمد إبراهيم

البنا، والدكتور عياد بن عيد الثبيتي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٧٧م.

- **المقتضب**، لأبي العباس محمد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- **الممتع الكبير في التصريف**، تأليف علي بن مؤمن بن محمد الحَضْرَمي الإشبيلي، أبي الحسن المعروف بابن عصفور، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- **المنصف**، شرح الإمام أبي الفتح عثمان ابن جني لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني، بتحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، وزارة المعارف العمومية، إدارة إحياء التراث/ ط١، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تأليف يوسف بن تغري بردي الظاهري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تأليف عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبي البركات، كمال الدين الأنباري ت(٥٧٧ هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء — الأردن، ط٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- **النوادر في اللغة**، تأليف أبي زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد، الناشر: دار الشروق، ط١، عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تأليف أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري ت(٧٣٣ هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تأليف مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت(٩١١ هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية — مصر.

- **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤ هـ)، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأبي العباس شمس الدين خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

***

وصف الأصوات اللغوية
في المعجم الوسيط

د. عبدالله بن فهد بن بتال الدوسري
قسم الدراسات الإسلامية والعربية – كلية الدراسات العامة
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

وصف الأصوات اللغوية في المعجم الوسيط

د. عبدالله بن فهد بن بتال الدوسري

قسم الدراسات الإسلامية والعربية – كلية الدراسات العامة
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

تاريخ تقديم البحث: ٧/ ٢/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ١٣/ ٣/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

تأتي هذه الدراسة في إطار وصفي وتحليلي؛ لوصف أصوات اللغة العربية الواردة في المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، يتبين من خلاله منهج هذا الوصف في بيان مخارج الأصوات وصفاتها، وكيفية تعامل واضع المعجم مع المصطلح الصوتي قديمًا وحديثًا، ومدى وفائه بمعايير تعريف الصوت اللغوي وفق أصول الدرس الصوتي الحديث، منتهية إلى بيان الخلل في بعض جوانب الوصف، والاضطراب الحاصل في منهجية ذلك، مع عرض الاقتراحات المناسبة التي يمكن من خلالها تلافي قصور الوصف واختلال المنهج.

الكلمات المفتاحية: وصف، الوسيط، المصطلح، الصوت، المتقدمون، المحدَثون.

Description of linguistic Sounds in Almuejam Alwasit

Dr. Abdullah F B ALdossary
Department Islamic and Arabic Department – Faculty General Studies
King Fahd of Petroleum and Minerals university

Abstract:

This study comes in a descriptive and analytical framework to describe the sounds of the Arabic language in The Alwseet Dictionary issued by the Arabic Language Complex in Cairo. It shows the approach of this description in the places of articulation and their features by showing how the lexicographer deals with the phonetic term in ancient and modern.

The study also aims to show the defect in some aspects of the description, and the disorder in the methodology, with presenting the appropriate suggestions through which it is possible to avoid the lack of description and the imbalance of the method.

key words: description, almuejam alwasit , term, sound- places of articulation .

المقدمة

يأتي هذا البحث في سياق النقد العلمي لما صدر من المعجمات في العصر الحديث بدءًا من القرن التاسع عشر حتى القرن الواحد والعشرين، وهي نقود مختلفة الاتجاهات؛ فمن نقد لمنهجه وطريقته، إلى نقد لترتيب مواده ومدى مواءمتها للعصر الحديث، وآخر لشكله وإخراجه الفني، وهي نقود- في مجملها- تحتذي النموذج الغربي وما انتهت إليه معايير الصناعة المعجمية الحديثة.

وهذا البحث يتوجه إلى المعجم الوسيط الذي صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ضمن معجمات ثلاثة، سعى المجمع في إصدارها؛ وهي: المعجم الكبير، والوسيط، والوجيز؛ نجز منها الوسيط والوجيز، ولم ينجز من الكبير إلا بعضه، ولا يزال السعي مأمولًا في إتمامه وإخراجه، وجميعها تتغيا الوصول إلى معجم عصري يتوافق مع أسس الصناعة المعجمية الحديثة.

وتولَّت صناعته والعمل على إخراجه، لجنة من العلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة والثقافة، ضمن فريق علمي أشرف عليه- في بداياته- الأساتذة: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار؛ بإشراف الأستاذ المحقق عبد السلام هارون، وهذا في طبعته الأولى سنة ١٩٦١م، ثم أعيد النظر فيه بلجنة جديدة بإشراف الدكتور إبراهيم أنيس، صدرت في سنة ١٩٧٣م، حاولت جاهدة استدراك ما وقع من أخطاء في نشرته الأولى، والإفادة من نقود بعض الباحثين في ذلك.

والمعجم الوسيط اختط لنفسه منهجًا غايته تفسير المفردة العربية بأسلوب

سهل، وطريقة ميسرة في استخراج المادة اللغوية من خلال اعتماد الطريقة الألفبائية، وتجلت سهولته بالابتعاد عن الألفاظ الوحشية، ومراعاة ترتيب مداخله في اشتقاقات المادة اللغوية من نحو تقديم الأسماء على الأفعال، والمجرد على المزيد، واللازم على المتعدي، والمعاني الحقيقية على المجازية، والحسّي على المعنوي، ومواكبة للإخراج الفني الحديث فقد استعانت بالصور المقرِّبة للمعنى، وبغية إثرائه لم يخل من الشواهد القرآنية والأحاديث الشريفة، والمقولات العربية الفصيحة التي تعزز المعنى وتقرِّبه للذهن، يضاف إلى ذلك اعتناؤه بالمصطلحات العلمية في مختلف الفنون القديمة والحديثة؛ ليحقق أكبر قدر من إثراء المخزون اللغوي لدى طلاب الجامعات والدراسات العليا، وطلبًا للاختصار؛ استعان برموز شرحها في مقدمته تخفيفًا لحمله وتيسيرًا لتناول مادته اللغوية، وقد طبع في جزأين، الأول منهما ينتهي إلى الضاد، والثاني يبدأ بالطاء إلى نهاية مادة الياء.

وقد صرح المعجم في مقدمته أنه سيضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام(١)، وعليه فقد لا يلام في كثرة الاستعمالات اللغوية القديمة؛ إذ صرح بذلك من ضمن منهجه، وإن لم يخلُ من الأساليب التي لم تعد لائقة بهذا العصر، كما أن هناك مصطلحات لم تعد لها قيمة علمية في البحث اللغوي الحديث، وهو ما سيظهر في بعض النقود التي

(١) مقدمة المعجم الوسيط: ١٠، ويرى أ.د أحمد السواحلي أن المعجم الوسيط انماز بتحرره الواعي من قيود الماضي، والاستعانة بوسائل التجديد وإثراء اللغة، وتجنب الحوشي والمهجور على نحو يعده من أكمل المعجمات العربية في العصر الحديث. تطور الفكر اللغوي في المعجمات العربية: ١٥٧.

سنجليها في هذا البحث.

مشكلة البحث:

وقع للباحث من خلال مطالعته للوصف الصوتي اللغوي في المعجم الوسيط بعض الخلل في المنهجية المتبعة في هذا الوصف، كما لحظ اضطرابًا في توظيف المصطلح الصوتي قديمًا وحديثًا، واستعانة بمصطلحات قديمة فيها لبس وغموض لا تتوافق وحقيقة المعجم اللغوي.

أهمية البحث:

١- وضع معايير موضوعية لوصف الصوت اللغوي عند صناعة أيّ معجم عربي.

٢- المساهمة في إثراء النقد اللغوي وخاصة الصوتي منه.

٣- يأتي هذا البحث في سلسلة بحوث نقدية للمعجمات العربية الحديثة، سعيًا لبلورة منهجية متكاملة ودقيقة تلائم احتياجات هذا العصر وجيله.

أهداف البحث:

١- بيان بعض جوانب القصور في آلية وصف الصوت اللغوي.

٢- إكمال مسيرة النقد اللغوي للمعجم الوسيط للوصول به إلى إعادة النظر فيه مرة ثانية، وإخراجه على نحو يتوافق وأصول الصنعة المعجمية الحديثة.

٣- وضع بعض المقترحات التي تساهم في تفادي الخلل الحاصل في تعريف الأصوات اللغوية.

الدراسات السابقة:

لا شك أن هناك جملة وافرة من المؤلفات والمقالات التي تناولت المعجم

الوسيط، وما كان منها ذا صلة ببحثي، أعرضه فيما يأتي:

١- (المعجم العربي بين الماضي والحاضر) لعدنان الخطيب:

وهو مهم في هذا الباب، بل إن مجمع اللغة العربية أشاد به، وبما انتهى إليه من ملحوظات كانت محل عناية منه، ولم يمنع ذلك المؤلف من شكواه من أن بعضًا من تلك الملحوظات غفل عنها مُعِدّو المعجم في نشراته اللاحقة، وهذه الملاحظات دائرة في المنهج العام المتبع، وملحوظات لبعض موادّ المعجم، والأخذ عليه أنه لم يواكب الجديد في شرح موادّه وتفسيرها كما زعمت لجانه المتعاقبة، بل سلخ ما في القديم وضمّنه معجمه، وعليه فدعوى التحديث بها دَخَل.

ولن أسترسل في ذكر تعقباته، فما يهمني من ذلك هو التعرض للمباحث الصوتية التي كانت محل نظر ومتابعة عدنان الخطيب والتي كانت في مجموعها موجّهة إلى ألقاب الحروف، وجاء ذلك في عيبه على المعجم أنه لا يلتزم بتلقيب الحروف عند وصفه للصوت اللغوي، كالحلقية، والشَّجْرِيّة، كما أنه قد يصف الصوت بلقب يهمل تعريفه في جذره اللغوي، كالميم يصفها بالشفهية، وعند الرجوع إلى جذر (ش ف ه) لا نجد لها ذكرًا[١]، ولهذا نظير في هذه الدراسة.

٢- (المعجم الوسيط بين المحافظة والتجديد)[٢] للدكتور عبد العزيز مطر:

توجه الباحث فيه إلى الكشف عن مظاهر التجديد والمعاصرة في المعجم الوسيط، ومدى التزامه بالمنهج الذي اختطه في مقدمة المعجم؛ وذلك ضمن

(١) عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر: ٦٤.

(٢) المعجم الوسيط بين المحافظة والتجديد: ٩٣، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء ٦٩.

محاور أربعة:

بدأها بالتجديد في المادة اللغوية، والتجديد في تحرير المعجم، والتجديد في الترتيب، والتجديد في الإخراج، وخلا في مجمله من النقد والاعتراض.

٣- (ثغرات التعريف في المعاجم العربية) للباحث أحمد بريسول:

وقد عاب الباحث على المعجم الوسيط أن شرحه للمواد اللغوية متفاوت في الصياغة متباين في الأسلوب، كما أن تعريفاته تتسم أحيانًا بالموسوعية[١].

وانتهى صاحب الثغرات إلى جملة من العيوب، موجزة فيما يأتي:

١- المعجم الوسيط لم يتجاوز الإرث القديم كما زعم.

٢- غياب المنهجية العلمية في تعريف موادّه اللغوية[٢] .

كما أن الباحث لم يغفل الإشارة إلى أن هناك خللًا في استخدام المصطلحات العلمية من خلال طغيان المصطلح القديم على الحديث؛ مما ينقض ما ذكر في مقدمة المعجم الوسيط من التزام التحديث في شرح المصطلح العلمي، بل انتهى إلى أن يقول إن المعجم: «يصف قدرة المتكلم المعاصر بقدرة المتكلم الماضي»[٣]، وهو مع ذلك لم يتعرض لوصف الصوت اللغوي في ذلك.

---

(١) ثغرات التعريف في المعاجم الحديثة: ١٤.

(٢) ثغرات التعريف في المعاجم العربية: ٣٥.

(٣) ثغرات التعريف في المعاجم العربية: ٨.

٤- (المعجم الوسيط، تصحيحات واستدراكات واقتراحات) [١] لمحمد جواد النوري وعلى خليل أحمد:

والبحث له عناية بتتبع هفوات التحريف والتصحيف، وهَنَوات الطَّمْس وسوء الضبط، كما أنه سعى في تتميم ما رآه ضروريًّا بعرض الألفاظ العربية المستعملة في اللغة العربية المعاصرة.

وقد عاب عليه اتباعه في تصنيفه وتعريفه لبعض المصطلحات، الأساليب القديمة غير المستعملة الآن، ومن الأمثلة التي ذكراها مما نحن بصدده حروف الحلق، والحروف الشفوية، والحروف اللَّثَوِيَّة، والمهموس[٢].

خطة البحث

قد انتظم البحث فيما يأتي :

مقدمة

تمهيد

المبحث الأول: منهج وصف الصوت اللغوي.

المبحث الثاني: مصادر وصف الصوت اللغوي.

خاتمة.

(١) محمد جواد النوري، على خليل أحمد. مجلة النجاح للأبحاث، المجلد الثاني، العدد السادس ١٩٩٢م.

(٢) المعجم الوسيط، تصحيحات واستدراكات واقتراحات: ١٩٤.

التمهيد

يحسن بداية عرض منهجية المعجمات العربية قديمًا وحديثًا في التعامل مع الأصوات اللغوية من جهة طريقة عرضها وتفسيرها، فهي على هذا ليست على منهج واحد، بل كان منها من أهمل الإشارة إليها بالكلية، ولتوضيح ذلك سنعرض لبعضها مراعين في ذلك التسلسل الزمني والاختلاف المنهجي في ترتيب موادها.

فعلى نحو موجز نعرض في هذا التمهيد نماذج من وصف الصوت اللغوي في القديم والحديث من خلال انتقاء معجمات مختلفة المدارس وبارزة كان لها تأثير في الصناعة المعجمية لنخلص منها إلى ما انعقدت الدراسة لأجله، وهو المعجم الوسيط، والباحث يتغيا من التمهيد الكشف عن المسار العلمي للصناعة المعجمية عبر فترات زمنية مختلفة، كما أنه يهدف إلى مقدار ما أفاده المعجم الوسيط من الحركة المعجمية التي سبقته مطلقًا، كما أن هناك أمرًا آخر يجب التنويه به، وهو أن المعجم الوسيط في زعم واضعه يمثل مرحلة متطورة من المعجم العربي حاول واضعه تجنب الأخطاء التي وقع فيها من سبقه من أهل الشأن، وعليه فلن تصدق تلك الدعاوى التي سيقيمها الباحث على المعجم إلا من خلال التمهيد لمعجمات سابقة على نحو مقارن تكشف التطور الحاصل في المعجم الوسيط من جهة وصف الصوت اللغوي.

أولا: المعجمات القديمة:

العين[1]:

لم يخصَّ الخليلُ بن أحمد (ت١٧٥هـ) في كتابه العين كلَّ حرف ببيان مخرجه وإيضاح صفته، وإنما وصف الصوت اللغوي من خلال المقدمة التي بدأها في وصف الأصوات اللغوية مجموعة، وبيان ألقابها، وما يأتلف من الأصوات في بناء المفردات العربية وما يمتنع منها، ووجه ذلك عندي أنه استغنى بالطريقة التي اختارها- وهي ترتيب الحروف وفق مخارجها الصوتية- عن بيان مخرج كل حرف، فبدأ بالعين من أقصى الحلق، ثم ترقّى إلى وسط الحلق، إلى أن انتهت به المدارج إلى الشفتين.

وقد جرى على سنن العين: كتاب الجمهرةِ لابن دريد (ت٣٢١هـ)، والتهذيب لأبي منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ)، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (ت٤٥٨هـ)؛ فلم يُعرّفوا بالصوت اللغوي بداية كل مادة؛ للعلة التي ذكرناها في كتاب العين.

لسان العرب[2]:

وطريقة الكتاب في ترتيب مواده منضوية تحت مدرسة القافية، وإنما تجاوزت مؤسس هذه المدرسة التي ينتمي إليها صاحب اللسان؛ وهو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت)؛ لأنه لم يأت على وصف الأصوات اللغوية في مقدمة أبوابه.

---

(١) الخليل بن أحمد، العين. تحقيق د مهدي المخزومي، ود إبراهيم السامرائي.

(٢) ابن منظور، لسان العرب. دار صادر،بيروت.

أما ابن منظور (ت٧١١هـ) فإن له عناية بوصف الأصوات، فقد افتتح معجمه بباب عنوانه: «ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها»، فعرض فيها مخارج الأصوات وصفاتها بالجملة، وأرجأ صفاتِ كل حرف على نحو مفصل في أول كل باب، وقد استوعب، فالباء يعرفها مثلًا بأنها شفوية، وأنها من الحروف الذُّلْق،،، إلى آخره، والجيم من المجهورة، والمحقورة [المقلقلة]، فهو في هذا الباب موفٍ على الغاية.

تاج العروس من جواهر القاموس(١):

فإذا انتقلنا إلى تاج العروس فأحرى بنا أن نصفه بأنه سلخ كل عبارة اللسان في وصف الصوت اللغوي في بداية فاتحة كل باب، وانظر برهان ذلك في باب الباء والجيم، على النحو الذي نقلناه عن اللسان سابقًا.

المعجمات الحديثة:

تقتضي الدراسة المنهجية عرض موجز للمعجمات الحديثة التي أُلِّفت قبل المعجم الوسيط؛ ليتجلى لنا مدى أثرها فيه، ولن نكتفي بالمرحلة القبلية، بل سنعرض لما بعده أيضًا؛ لملاحظة التطور الحاصل في صناعة المعجم العربي الحديث.

أ- ما قبل المعجم الوسيط:

على وجه الإجمال: صدرت المعجمات الحديثة في القرن التاسع عشر والعشرين، بدءًا بـ(محيط المحيط) للبناني المعلم بطرس البستاني (ت١٨٨٣م)،

(١) الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق عبد الستار فراج وآخرون. وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

الذي صدر عام ١٨٦٩م، وانتهاء بـ(متن اللغة) الذي صدر عام ١٩٥٨م للبناني أحمد رضا العاملي (ت١٩٥٣م)، قبل صدور المعجم الوسيط بعامين، ودونكم المعجمات بتاريخ إصدارها على النحو التالي:

المعجمات الحديثة قبل المعجم الوسيط

م	المعجم	تاريخ الإصدار
١	محيط المحيط	١٨٦٩
٢	قطر المحيط	١٨٦٩
٣	تكملة المعاجم العربية	في حدود ١٨٨٣م
٤	أقرب الموارد	١٨٨٩م
٥	المُنْجِد	١٩٠٨م
٦	البستان	١٩٣٠م
٧	متن اللغة	١٩٥٨م

فـ(محيط المحيط)[١] للمعلم بطرس البستاني، نَهَج في ترتيبه ترتيبَ الألفبائية مع حذف الزوائد من الكَلِم وردِّها إلى أصولها، مهملًا التعريف بالصوت اللغوي من جهة خصائصه الصوتية، مع الإشارة إلى أنه أورد تعريفًا له في مطلع مادته، إلا أنه تعريف غلب عليه مراعاة الجانب النحوي والصرفي، فتجده يراعي معاني حروف المعاني؛ كمعاني حرف الباء؛ من استعانة، والتصاق، ونحو ذلك، وقد يشير نادرًا إلى بعض الوصف الصوتي، إلا أنه من جهة لقب الصوت؛ كتلقيبه الألفَ اللينةَ بالهاوي، كما أنه يهتم بتعداد الحرف، وبيان رقمه من حساب

(١) محيط المحيط: المعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. ١٩٩٨.

الجُمَّل، وله عناية بارزة بالمقارنة الصوتية في اللغات السامية: عبرية وسريانية، إضافة إلى أنه يشير إلى أصوات منحرفة أو متطورة؛ كحديثه عن صوت الجيم، ومختصره (قطر المحيط)[١] جارٍ مجراه.

وإذا جئنا إلى (أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد) للبناني سعيد الخوري الشرتوني (ت١٩١٢م)، فإننا نجده لم يصف الصوت اللغوي، وإنما أشار إلى بعض التطور الجاري على ألسنة العوامّ؛ كتطور نطق الثاء سينًا أو تاء[٢]، كما أن له عناية بعَدِّ الحروف على نمط حساب الجُمَّل.

أما صاحب (المُنْجِد في اللغة والأدب والعلوم)[٣] للبناني لويس معلوف (١٩٤٦م)، فإنه لم يُخْلِ كتابَه من وصف الحروف العربية، إلا أنه ليس له منهج مطّرد في ذلك؛ فقد يصف الصوت اللغوي بأشهر الأوصاف من الجهر والشدة على نحو موجز، ولا يشير إلى بيان مخرجه، ومثال ذلك أنه يكتفي في وصف التاء- مثلًا- بأنها نطعية، ومثلها الجيم يكتفي بوصفها بالجهر، وكذلك الحاء هي من الحلقية، وهكذا، ويهتم- كأغلب المعجمات الحديثة- ببيان عَدِّه من حساب الجُمَّل.

أما معجم (البستان)[٤] لمؤلفه عبد الله البستاني (ت١٩٣٠م)، فإن صنيعه في ذلك صنيع الخليل في كتابه العين، من جهة البدء بالمقدمة الصوتية وبيان خصائص

(١) قطر المحيط: المعلم بطرس البستاني، من المكتبة المركزية جامعة الملك عبد العزيز، برقم م ٤١٣، ب س ق.

(٢) أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد:٨٤، العلامة سعيد الخوري الشرتوني.

(٣) المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت. الطبعة ١٨.

(٤) البستان: الشيخ عبد الله البستاني. مكتبة لبنان، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٢.

الحروف، إلا أنها مقدمة أوسع من أن تكون صوتية خالصة، بل تعرض فيها لقضايا لغوية مختلفة، وقع الخلاف فيها قديمًا وحديثًا، وخص مباحث صوتية؛ مثل: (في ألقاب الحروف بحسب مخارجها) [١]، (في ما تحدثه الشدة والرخاوة في الحروف من التفاوت في الألفاظ المتقاربة المعاني)[٢]، علمًا بأن هذه المقدمة لم تكن من صنيع الشيخ عبد الله البستاني، وإنما هي صنعة نسيبه الخوري بطرس البستاني.

وأخيرًا نصل إلى المعجم الذي صدر قبل المعجم الوسيط بسنتين، وهو معجم (متن اللغة) لمؤلفه أحمد رضا العاملي (ت١٩٥٣م)، فنجده يرتب معجمه ترتيبًا ألفبائيًّا، مع عناية بارزة منه بوصف الصوت اللغوي وفق المتقدمين، وتبيين مخرجه، مع بيان صفاته، وقد لحظت عليه عدم الدقة في وصف بعض الأصوات؛ كالذال مثلًا[٣]، ومنهجه في الوصف مضطرب، فيشير إلى صفات مهمة في بعضها، ويهملها في موطن آخر، مستبدلًا بها صفةً فرعية؛ نحو إهماله وصف الراء بالتكرار والشدة، والاكتفاء بصفة الذلاقة منها[٤].

وبعد ذلك صدر المعجم الوسيط من مجمع اللغة العربية بالقاهرة؛ ليكون امتدادًا لما سبقه من المعاجم الحديثة، مستفيدًا من الجهود السابقة، ومتجنبًا الوقوع في أخطاء وقع فيها من قبله، مع التأكيد على مراعاة الصناعة المعجمية الحديثة، وقد أكد على ريادة المعجم وتميزه من غيره القائمون عليه، فقد جاء في مقدمته قول أمينه العام: «لا سبيل إلى مقارنته بأي معجم من معاجم القرن العشرين العربية، فهو- دون نزاع- أوضح وأدقّ وأضبط وأحكم منهجًا، وأحدث طريقة، وهو فوق كل هذا

(١) البستان:٥٠، الشيخ عبد الله البستاني. مكتبة لبنان، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٢.

(٢) البستان:٥٢، الشيخ عبد الله البستاني. مكتبة لبنان، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٢.

(٣) معجم متن اللغة: ٤٨٢/٢، الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٧هـ- ١٩٥٨م.

(٤) معجم متن اللغة: ٥١٨/٢، الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٧هـ- ١٩٥٨م.

مجدد ومعاصر»[١].

فمن خلال المقتبَس السابق نجد أن المعجم قد وُصِف بالوضوح، والدقة، والضبط، والمنهج المطرد، وسنبين صدقَ هذه الأوصاف من خلال التعريف بالصوت اللغوي.

وفي موطن آخَرَ يتميز المعجم بأنه: «يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية والإسلام».

ويؤكد د عبد العزيز مطر أن من مظاهر التجديد في المعجم:

١- التوسعَ في المصطلحات العلمية والفنية. ٢- والاشتقاقَ من الأعيان. ٣- والتوسعَ في المولَّد والمعرَّب.

أشار الباحث إلى دقة التعريف العلمي عند المعجم الوسيط [٢] .

وإذا كان د عبد العزيز مطر أشاد بالمعجم، فإن لغيره من الباحثين رأيًا آخَرَ، تجلى من خلال عَدِّه مجردَ تلخيصٍ لمعجم لسان العرب، مع الإقرار بنسبة جيدة من التجديد، أو عدِّه صورةً مهذَّبةً مشذَّبة للمعجم القديم، كما أنه ما يزال تشوبه بعضُ الأخطاء، وتَعْلَق به بعض رواسب الماضي[٣].

ب- ما بعد المعجم الوسيط:

صدرت بعد المعجم الوسيط معجمات متنوعة المشارب، غالبها اتجه إلى القطاع المدرسي، ومساعدة الطلاب للوصول إلى معاني الكلمات بأيسر

---

(١) إبراهيم مدكور، في مقدمة المعجم الوسيط.

(٢) المعجم الوسيط بين المحافظة والتجديد: ٥١٨، بحث ضمن وقائع مؤتمر في المعجمية العربية المعاصرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

(٣) المعاجم اللغوية العربية: ٨٣، د أحمد محمد المعتوق، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

الطرق، وأوضح السُّبُل، والإفادة من المعجمات الغربية في الإخراج الفني، إلا أنها لم تخلُ من مشكلات في المادة، والتحرير، والإخراج، علمًا بأن غالبها صنعةُ أفراد، وهو ما لا يتناسب مع الروح المؤسسية لهذا العصر، فلحقها لأجل ذلك نقص وخلل، إلا أن هناك ما لفت انتباهي مما تجدر الإشارة إليه، والتنويه به فيما نحن بصدده من وصف الصوت اللغوي لدى تلك المعجمات اللاحقة، وتحليله وتفسيره وَفقَ ما يسَعُه هذا التمهيد.

لاروس المعجم العربي الحديث (١):

وهو مرتب بحسَب النطق(٢)، ولم يصِفْ مؤلفه الصوتَ اللغوي، وإنما اكتفى بتَعداد الحرف، وبيان حاله من الأحرف الشمسية أو القمرية.

المرجع (٣):

وهو مرتب بحسب النطق، وليس له عناية بالمرة بالوصف الصوتي، وإنما بتَعداده من الحروف، وعَدِّه من حروف الجُمَّل.

المعجم الأساسي (٤):

وهو من أجود ما أُلِّف بعد المعجم الوسيط، كما أنه عملُ ثُلَّةٍ من

---

(١) لاروس المعجم العربي الحديث، د خليل الجُرّ، مكتبة لاروس، باريس، المنشورات الفرنسية المتحدة، ١٩٧٣م.

(٢) وهي طريقة أُولِع بها بعضُ المعجميين المحدثين طلبًا لتسهيل عثور المادة اللغوية على الطلاب في المراحل المدرسية المختلفة، إلا أنها طريقة لا تصلح للغة اشتقاقية مثل اللغة العربية، كما أن دعوى التيسير غير صادقة، وليس هذا محل نقاشها.

(٣) المرجع، عبد الله العلايلي، دار المعجم العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

(٤) المعجم الأساسي: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توزيع لاروس، ١٩٨٩، تأليف وإعداد =

المتخصصين، فنال الحَظْوةَ باصطباغه بالعمل المؤسسي، وترتيبه ألفبائيًّا، مع مراعاة الحرف الثاني والثالث، وقد بدأ بمقدمة لها عناية خاصة بالقضايا التصريفية والنحوية، وأتبعها بقواعدَ في الرسم الإملائي.

وفيما يتعلق بوصف الصوت اللغوي فقد فاق فيه المعجم الوسيط، واستطاع مواكبةَ ما انتهى إليه الدرس الصوتي الحديث مصطلحًا ومعنًى.

إنْ أنسى في ختام هذا التمهيد، فلا ينبغي لي نسيان معجَمَيْ مجمعِ اللغة العربية؛ المعجمِ الوجيز(١)، والمعجمِ الكبير(٢)، أما الوجيز فهو مختصرٌ من أصله الوسيط، فلا حاجةَ لنا في التعليق عليه، أما الكبير فإنه أوفى على المراد من جهة وصف الصوت اللغوي، وبلغ أَمَد الغاية في الوصف، وعرض الخلاف بين المتقدمين، ودراسة الأصوات وَفق علم اللغات السامية المقارن.

* * *

جماعة من كبار اللغويين العرب.

(١) المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٩١م.

(٢) المعجم الكبير: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠.

المبحث الأول: منهج وصف الصوت اللغوي

يمكننا الوقوفُ على خصائص المنهج العام لوصف الصوت اللغوي في المعجم الوسيط من خلال معالجته للقضايا الآتية:

أ- مراعاة الترتيب بين المخرج والصفة.

ب- الاكتفاء ببعض الصفات.

ج- الصفات الفردية.

د- الألقاب الصوتية.

أ- مراعاة الترتيب بين المخرج والصفة.

لحظ الباحث أن المعجمَ لم يسلك مسلكًا واضحًا في ذلك، فتجده تارةً يقدم المخرج قبل الصفة، وتارةً يفعل العكس، والمقرر في كتب العلماء المتقدمين من النحويين[1] وعلماء القراءات والتجويد[2] تقديمُ المخرَج قبل الصفة؛ إذ المخرج مَحَلُّ إنتاج الصوت في تشكُّله الأوليّ بالتقاء عضوي النطق، ثم يصاحب ذلك بعضُ الصفات التي ينفرد بها كل صوت دون الآخر، فمعرفة

(١) انظر في صنيع ذلك ما يأتي من اللغويين والنحويين: الكتاب: ٤/٤٣٣، والمقتضب: ١/١٩٢، والجمل: ٤٠٩، وتهذيب اللغة: ١/٤٣ والمفصل: ٣٩٣، والمساعد على تسهيل الفوائد: ٤/٢٣٩، مع الإشارة إلى أن كتابي العين: ١/٤٧ والجمهرة لابن دريد: ١/٤٥ التزما بهذا النهج في الجملة، إلا أن ما جرى عليه العلماء متقدمين أو متأخرين هو تقديم المخرج قبل الصفة.

(٢) التحديد في الإتقان والتجويد: ١٠٢، والنشر في القراءات العشر: ١/١٩٩، وخلافًا للنهج السائد فقد ذهب مَكّيُّ بنُ أبي طالب إلى تقديم الحديث عن صفات الحروف وألقابها قبل الإبانة عن مخارجها تفصيلًا، وهو منهج غير متبع. الرعاية: ١١٥.

الصفات فاصلة ومميزة لما اشترك من الأصوات في مخرج واحد[١]، فالأصوات النِّطَعية (ط، د، ت) مثلًا تشترك في مخرج واحد؛ وهو طرف اللسان متصلًا بأصول الثنايا العليا[٢]، ولا تنماز هذه الأصوات إلا بالصفات أو الخواصِّ، كاختصاص الدال بالجهر، في مقابل همس التاء، وهكذا.

وهناك وجه آخر في تقديم المخرج[٣]؛ وهو أنه الملحظ الأول في وصف الصوت من جهة إدراكه بمجرد الملاحظة المباشرة، ولا يُعوِزُ الباحثَ إلى كثير عَناءٍ في وصفه، بعكس الصفة التي قد تخفى حقيقة وَصْفها، كما نجده مثلًا في صفتَيِ الجهرِ والهمس التي أغمض المتقدمون في بيان حقيقتهما منذ وصف سِيبَوَيْهِ لهما[٤]، وأعنت اللاحقون قديمًا وحديثًا في تفسير كلام سيبَوَيهِ بما لا طائلَ من ورائه[٥]، حتى انتهى الدرس الصوتي الحديث إلى أثر الوترين الصوتيين في حقيقتهما، فانجلى من حقيقتهما ما كان غامضًا ومشكلًا[٦].

---

(١) قال مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ): «ولا تجد أحرفًا اتفقت في الصفات والمخرج واحد؛ لأن ذلك يوجب اشتراكها في السمع، فتصير بلفظ واحد، فلا يُفهَم الخطاب منها». الرعاية: ١١٥.

(٢) يُعبَّر عنها في الدراسات الصوتية الحديثة بالأصوات الأسنانية اللثوية، وهي لا تنحصر في المذكورة أعلاه.

(٣) ويُعبَّر عن المخرج بجهاز النطق، أو أعضاء النطق، وهم مختلفون في وسمها وعددها على نحو متقارب.

(٤) الكتاب: ٤/٤٣٣.

(٥) شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٥/٣٨٦، النكت في تفسير كتاب سيبويه: ٣/٤٠١، ارتشاف الضَّرَب: ١/١٧.

(٦) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٨٨، واللسانيات المجال والوظيفة والمنهج: ٣٢.

وعلى نحو إحصائي في المعجم الوسيط يمكن بيان صنيعه فيما تَقَدّم فيه الوصف بالمخرج على الوصف بالصفة، والعكس، على النحو الآتي:

وصف الصوت اللغوي بحسب مخرجه وصفته

م	تقديم المخرج	م	تقديم الصفة
١	ب	١	ء
٢	خ	٢	ت
٣	د	٣	ث
٤	ذ	٤	ج
٥	ز	٥	ح
٦	س	٦	ر
٧	ص	٧	ش
٨	ط	٨	ض
٩	ظ	٩	ع
١٠	غ	١٠	ف
		١١	ق
		١٢	ك
		١٣	ل
		١٤	م
		١٥	ن
		١٦	هـ
		١٧	و

م	تقديم المخرج	م	تقديم الصفة
		١٨	ي

وعليه: نلحظ اعتماده على تقديم الصفة قبل المخرج في غالب الأصوات بما نسبته ٦٤٪ في مقابل ٣٥٪ تقدم فيه المخرج على الصفة، ويمكن ردُّ هذا إلى أمرين:

الأول: اضطراب المنهج، وعدم وضوحه، فهو لم يسلك مسلكَ المتقدمين ولا المحدَثين في مراعاة ذلك، وليته اهتدى بصنيع الدارسين المحدَثين عند وصفهم للأصوات من البدء بالمخرج، ثم الصفة[١]، لا سيما مع زعمه بأنه معجم عصري، يراعي ما انتهت إليه الدارسات اللغوية.

الثاني: تداول الباحثين من مختلف التخصصات اللغوية على صناعة هذا المعجم، وهذه من مشكلات العمل المؤسسي، مع أهميته في هذا العصر، وظهور نتائجه المميزة في أكثرَ من حقل علمي، ولذلك كان يمكن تلافي مثل هذا الخلل الذي قد يصاحب أيَّ عمل مؤسسي بوضع القواعد والأسس الضابطة له، وإلزام الباحثين بمراعاتها، والتقيد بها، وإغلاق باب الاجتهادات الفردية.

وعطفًا على ما سبق من اضطراب المنهج نجد أنه عرَّف الصوت المجهور في أصل مادته بقوله: «صوت يتذبذب معه الوتران الصوتيان في الحنجرة ذبذبات منتظمة»[٢]، ولن ننازعه في هذا التعريف، فهو المعتمَد عند المحدَثين، وهو المعيار الضابط لحقيقة الصوت المجهور، إلا أننا نُعظم ما يأتي به لاحقًا في

(١) مناهج البحث في اللغة: ١١٩، والأصوات اللغوية للخولي: ٣٢، ودراسة الصوت اللغوي: ١١٣.
(٢) المعجم الوسيط: ١٤٣/١.

تعريف ضده- وهو الصوت المهموس- بقوله: «ما يضعف الاعتماد على موضع مخرجه عند النطق به، وعلامته أن يبقى النَّفَسُ جاريًا عند النطق به»[1]، وهذا تعريف المتقدمين، وهو مغاير تمام المغايرة لما انتهى إليه الدارسون المحدَثون لاختلاف المعيارين، وهذا خلل ظاهر، يلزم معالجته في الإبرازات الحديثة للمعجم.

ب- الاكتفاء ببعض الصفات:

من جانب آخَر لحظ الباحث على المعجم عدمَ استيعابه ذكرَ جميع صفات الحرف، فقد اكتفى ببيان المخرج، ثم أعقبه ببيان ما انماز به من الصفات المشهورة الفارقة بين الأصوات، وهي في المقام الأول الجهر، وضده الهمس، ثم الشدة، وضدها الرخاوة، وبينهما التوسط، وهذه الصفات هي المقدَّمة في وصف الصوت اللغوي، ولا يستطرد إلى ما سواهما إلا بما يظهر به تميز الصوت، ولعلي أجلِّي حقيقةَ هذا الأمر من خلال جمعها في الجدول الآتي:

جدول صفات الأصوات

م	الصوت اللغوي	الصفات
١	ء	شديد- غير مجهور ولا مهموس
٢	ب	مجهور- شديد
٣	ت	مهموس- شديد
٤	ث	مهموس- رخو

(١) المعجم الوسيط: ٢/٩٩٤.

م	الصوت اللغوي	الصفات
٥	ج	مجهور- مزدوج
٦	ح	مهموس- رخو
٧	خ	مهموس- رخو
٨	د	مجهور- شديد
٩	ذ	مجهور- رخو
١٠	ر	مجهور- مكرر- متوسط
١١	ز	مجهور- رخو- صفيري
١٢	س	مهموس- رخو- صفيري
١٣	ش	مهموس- رخو- شجري
١٤	ص	مهموس- رخو- صفيري- مطبق
١٥	ض	مجهور- مزدوج
١٦	ط	شديد- مطبق- مجهور/مهموس
١٧	ظ	مجهور- رخو- مطبق
١٨	ع	مجهور- رخو/متوسط
١٩	غ	مجهور- رخو
٢٠	ف	مهموس- رخو
٢١	ق	مهموس- شديد- مفخم
٢٢	ك	شديد- مهموس
٢٣	ل	مجهور- متوسط

م	الصوت اللغوي	الصفات
٢٤	م	مجهور- متوسط- أنفي
٢٥	ن	مجهور- متوسط- أنفي
٢٦	هـ	مهموس- رخو
٢٧	و	مجهور- شبيه بالمتوسط
٢٨	ي	مجهور- شبيه بالمتوسط

وتوطئةً لتحليل هذه الطريقة أَوَدُّ الإشارةَ إلى أن علماء التجويد المتقدمين قسموا الصفات إلى صفات ضِدِّية، وأخرى فردية[1]، فالصفات الضدية أو التي لها ضد هي:

١- الجهر/الهمس. ٢- الشدة/الرخاوة. ٣- الاستعلاء/الاستفال.

٤- الإطباق/الانفتاح. ٥- الإذلاق/الإصمات.

أما الصفات الفردية، أو التي لا ضدَّ لها فهي سبعة:

١- الصفير. ٢- القلقلة. ٣- الانحراف. ٤ - اللين.

٥- التفشي. ٦- الاستطالة. ٧- التكرير.

ومجموع هذه الصفات سبعَ عشْرةَ صفةً، لم يستوعِبِ المعجمُ ذِكرَها، والتعريفَ بها؛ إذ قد أُهمِل ذِكرُ بعضها ضمنَ جذورها اللغوية، وهي:

١- المتوسطة بين الشديدة والرخوة، مع أنه عدَّد حروفها، كلٌّ في محلِّه.

٢- الاستعلاء، وضده الاستفال.

٣- الانفتاح.

(١) التمهيد: ٨٦، ونهاية القول المفيد: ٤٤.

٤- الذلاقة والإصمات.

٥- الانحراف.

٦- اللين.

٧- الاستطالة.

٨- التَّكرار، مع أنه أشار إلى أن الراء صوت مكرر.

والمعجم التزم وصف الأصوات جميعِها بصفتي الجهر والشدة وضدهما، أما بقيةُ الصفات فلم يكن له مسلك واضح، سواء أكانت ضدية، أم فردية.

فالإطباق حروفه أربعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، وقد التزم المعجم الوصف به لهذه الحروف؛ ما عدا صوتَ الضاد، مع أنه عَدَّه ضمن التعريف بمصطلح الإطباق في جَذره، والإطباق صفة أصيلة لصوت الضاد، ما كان عليه إغفالُه.

وقد عرَّف الإطباقَ في أصل مادته بقوله: «أن ترفعَ في النطق طرفَيِ اللسان إلى الحنك الأعلى مُطبقًا له، فيفخم نطق الحرف»[1]، والتعبير بـ(طرفي اللسان) ملبِس، وغير معتمد، فطرف اللسان هو الجزء المستدق من أمامه، وإنما المقصود حافتا اللسان على نحو ما ذكره المتقدمون، ولا أدري من أين أخذ هذا التعريف؟

جاء في نهاية القول المفيد تعريفًا لصفة الإطباق: «تلاصق ما يحاذي اللسان من الحنك الأعلى على اللسان، وعند القسطلاني تلاقي طائفتي اللسان والحنك الأعلى»[2]، فأين حافة اللسان من طرفه؟

وضميمةً إلى ما سبق فقد أغفل المعجمُ الإشارةَ إلى مصطلح الطَّبَقِية، وهو مصطلح حديث؛ يُعنَى به: «ارتفاع مؤخر اللسان، حتى يتصل بالطبق، فيسد

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/٥٥.

(٢) ٥١.

المجرى، أو يضيقه تضييقًا»[1]، والطَّبَق هو الجزء اللين من سقف الحنك، وهو عضو متحرك، والأصوات الخارجة منه تُسمَّى طبقية، وهو عضو فاعل في إغلاق ما بين الحلق والتجويف الأنفي لإنتاج الأصوات الأنفية[2].

أما ما يخص الأصوات الصفيرية فإن المعجمَ التزم الوصف بالصفير لهذه الأصوات عند تعريفه بها؛ حيث قال: «صوت على درجة كبيرة من الرخاوة، كالسين، والزاي، والصاد»[3]، ولعله عذره في عدم بيان ماهية الصفير والاكتفاء بأنه يمثل درجة عالية من الرخاوة، مقارنةً بغيره من الأصوات الرخوية، أنها صفة- في الغالب[4]- غيرُ شائعة في كتب الصوتيات الحديثة إلا على وجه المقارنة بما في تراثنا الصوتي القديم.

فإذا انتقلنا إلى صفة القلقلة، فإننا نجد المعجمَ قد اكتفى بإيراد حروفها- مجموعةً في قول المتقدِّمين (قطب جد)- عند تعريفه مصطلح القلقلة بأنها: «النطق بالحرف

---

(١) مناهج البحث في اللغة: ١١٥.

(٢) أسس علم اللغة: ٨٤، والمدخل إلى علم اللغة: ٢٦، ودراسة الصوت اللغوي: ١٠٥.

(٣) المعجم الوسيط: ٥١٦/١.

(٤) قد اعتد بها بعض الباحثين المحدثين، فذكرها ضمن الأصوات الاحتكاكية عند تقسيمها إلى احتكاكية أفقية؛ ويعني بها: (ف، ث، ذ)، واحتكاكية رأسية؛ ويعني بها الصفيرية ك(س، ز)، مفسرًا هذا الصفير بأنه صوت ناجم عن قوة احتكاك تيار الهواء الخارج من الفم، وقد أضاف إليها صوت الشين مصطلحًا على تسميته بـ(الاحتكاكي الهشيشي) في مقابل مصطلح (الاحتكاكي الهسيسي) الخاص بالأصوات الصفيرية الثلاثة. الأصوات اللغوية، الخولي: ٣٧.
وإدراجه الشين ضمن الصفيرية ليس هو فيه ببِدْعٍ، فقد ذكره المتقدمون. انظر في ذلك: الموضح في وجوه القراءات وعللها: ١٧٧/١، وإبراز المعاني: ٣١٧/٤.

الساكن بحركة خفيفة، ولا يكون إلا في حرف شديد غير مهموس»[١].

ولي على هذا التعريف ما يأتي:

كان التعبير بالشديد المجهور أَوْلى من الشديد غير المهموس، فالأَوْلى الوصفُ بالإثباب، لا الوصفُ بالنفي، ما وجدنا لذلك سبيلًا.

ويُؤخذ على التعريف القصورُ في بيان ماهية القلقلة، مقارنةً بما ذكره المتقدمون أو المتأخرون، فسيبَوَيْهِ كان أدقَّ في بيان حقيقتها حين وصفها بالحروف المُشربة، وقال في ذلك: «واعلم أن من الحروف حروفًا مُشرَبة، ضُغِطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صُوَيتٌ، ونبا اللسان عن موضعه...، فلا تستطيع أن تقفَ إلا مع الصُّوَيت؛ لشدة ضغط الحرف، وبعض العرب أشد صوتًا، كأنهم الذين يرومون الحركة»[٢]، وهذه الحركة الخفيفة التي ذكرها المعجم هي ذاتها الواردة في كتاب سيبويه وما جاء بعده كلام أئمة القراءة[٣].

فإذا نظرنا في الدراسات الصوتية الحديثة نجد أن جُلَّها لم تعرض لصفة القلقلة إلا على وجه المقارنة بين القديم والحديث، وليس لها مصطلح علمي عالمي، وقد حاول بعضهم وصف هذه الظاهرة، ومنه استقى المعجم هذا التعريف، فنجد مثلًا د السعران يعبر عنه بشبه الحركة الذي تقتضيه طبيعة هذه الأصوات حالَ الوقف عليها[٤]، وهو وصف يتماهى مع ما نقلته عن المتقدمين، إلا أن هذا المصطلح لم يأخذ حقَّه من التقعيد العالمي، واعتماد مصطلح علمي

(١) المعجم الوسيط: ٧٥٦/٢.

(٢) الكتاب: ١٧٤/٤.

(٣) الرعاية: ١٢٤، وإبراز المعاني: ٣٢٤/٤.

(٤) علم اللغة: ١٦١.

له في الدرس الصوتي الحديث[١].

وقد يُعذَر المعجمُ في عدم وصف كل صوت منها في محلِّه، والاكتفاء بذكرها مجموعةً في التعريف بالقلقلة؛ إذ تبقى صفة القلقة صفةً خاصة في حالة الوقف، أو السكون، بمعنى أنها عارضة[٢]، والأصل ذكر الصفات الذاتية المتمكنة من الحرف حالَ وصله ووقفه.

أما صفة التفشي فقد أشار إليها ضمن جَذرها اللغوي[٣]، وعرَّفها بـ«انتشار الهواء في الفم عند النطق بالحرف»، وأن لها صوتًا واحدًا؛ هو صوت الشين، مبينًا سببَ حدوث هذه الخاصية؛ وهو التوسيع الحاصل فيما بين اللسان وأعلى الحنك، مع إشارته إلى أن مستنده في ذلك ما في كتب القراءات[٤]، ولعل عدم ذكره إياها عند وصفه الشينَ أنها صفةٌ غير مسكوكة عند الصوتيين المحدَثين[٥]، كما أن هناك أصواتًا يمكن أن تشارك الشينَ في هذه الصفات، كما ذهب إلى مثل ذلك بعض المتقدمين[٦].

---

(١) وقد استغرب أحد الباحثين الأوهام في بيان حقيقة هذه المصطلح عند بعض الدارسين المحدثين. للاستزادة انظر: المدخل إلى علم أصوات العربية: ١٢١.

(٢) ومع عروضها إلا أنها مهمة في صيانة الصوت عن فقدان صفة الجهر فيه، نحو قلقلة الباء في كلمة (أبتر)، فلولا قلقلته لهمس بمجاورة التاء المهموسة. علم الأصوات الكلامية: ١٥٤.

(٣) المعجم الوسيط: ٢/٦٩٠.

(٤) كان الأَوْلى به أن يقول: في علم التجويد، لا القراءات؛ إذ ذاك محلها اللائق بها، وهو ما استقر عليه التأليف في هذا الشأن.

(٥) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: ٣١٩.

(٦) ذهب بعض العلماء إلى وصف الضاد والفاء والميم والراء بالتفشي، وقد أوصلها بعضهم إلى ثمانية. الكتاب: ٤/٤٤٨، ٤٥٧، والتحديد: ١٠٨، وإبراز المعاني: ٧٥٣، التمهيد في علم التجويد: ٩٧.

وصلةً بذلك فقد عدَّ المعجمُ الواوَ والياءَ من الحروف المتوسطة[١]، فهل يعني بذلك ما صنعه سيبَوَيْهِ حين أدرج هذين الصوتيين ضمنَ المتوسطة بين الشدة والرخاوة[٢]، أو يعني بذلك ما يُعبَّر عنه في الدرس الصوتي الحديث بنصف الصائت[٣]؟ الظاهر الأول، فهما صوتان ملحَقان بالصوامت، وعليه يُستحسَنُ حذفُ وصفهما بالتوسط؛ لما فيه من الإلباس، والمعجم كان في حِلٍّ من تكلف وصفهما بالتوسط؛ إذ لم يلتزم بالوصف به عند ذكر أصوات التوسط المعروفة سوى هذين الصوتين وصوت العين، كما أنه لم يوحد المصطلح في هذا الشأن، فأحيانًا يصف بالمائع[٤]، وهو المشهور في الدراسات الحديثة، وقد ذكرها وصفًا لصوت العين تاليًا لوصفه بالتوسط على نحو التفسير له، جمعًا بين استخدام المتقدمين والمحدثين، وهو اضطراب كان له فيه مَندوحةٌ، لو اقتصر على أحدهما.

ولا يفوتنا في هذا الإشارةُ إلى أن الواوَ والياءَ عُدَّتا من الأصوات المتوسطة، كما هو ظاهر كلام سيبَوَيهِ، ونحا نحوه ابنُ جنّي، وجمعت في قولهم: (لم يروعنا)، وهذا خلافُ ما انتهى إليه علماء التجويد من أن الأصوات المتوسطة مجموعة في قولهم: (عَمْرو نَل)[٥]، أو (لِنْ عُمر)، باعتبار أن الواوَ والياء صوتان رخوانِ لتأكد امتداد صوتهما واحتكاكهما، فهما بالرخوة أشبه منهما بالتوسط.

تجدر الإشارة إلى أن هناك ما يُعرَف بالألقاب، وهو مصطلح متقدم، يُعنَى

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/١٠٠٥، ١٠٦٢.

(٢) الكتاب: ٤/٤٣٣.

(٣) دراسة الصوت اللغوي: ٣٣٠، والأصوات اللغوية: ٥٠.

(٤) المعجم الوسيط: ١/٣١٩.

(٥) قال الشاطبي في منظومته: «وما بين رخْوٍ والشديدة عَمْرو نَل...» حرز الأماني ووجه التهاني: ٩٢.

به أسماءُ نقاط إنتاج الأصوات اللغوية، فالأصوات النِّطَعِيَّة [ط، ت، د] سُمِّيت بذلك لخروجها من النِّطَع، وهو سقفُ الحنك، والشفهية/الشفوية [م، ب، و] لخروجها من الشفتين، وهكذا.

والألقاب من فضول وصف الصوت اللغوي(١)؛ وهي وإن كانت تدل على مكان خروج الصوت، إلا أنه يمكن الاستغناءُ عنها، والاكتفاءُ بالوصف التفصيلي لإنتاج الصوتي، كما أن اللقب فيه قصور باعتماده على عضو واحد من عضوَيِ النطق، فالنِّطَعية مثلًا نُسِبت إلى سقف الحنك، مع فاعلية اللسان في إنتاج هذه الأصوات.

والذي جرى عليه العمل الفصلُ بين مفهومَيِ الصفات والألقاب، فقد عقد ابن الجزري في كتابه (التمهيد) بابًا لألقاب الحروف معدودة إلى عشرةِ ألقابٍ، مستندًا إلى ما في مقدمة العين، وهي: الحلقية، واللَّهَوِيَّة، والشَّجْرية، والأَسَلِية، والنِّطَعِيَّة، واللِّثَوِيَّة، والذَّلَقية، والشفهية، والجوفية، والهوائية(٢).

والغاية من الألقاب الصوتية جمع الأصوات التي تتشارك في مخرج واحد، بخلاف مفهوم الصفة المتوجه إلى العناية بكل صوت على حدة، كما أنه وسيلة لتيسير ضبط الأصوات، وحصرها على نحو ما صنعوه في تأليف حروف جامعة لصفة من الصفات، نحو قولهم: (قطب جد) لحروف القلقلة.

وفي هذا السياق نجد أن المعجم قد اعتمد فقط على لقبين هما الشَّجْرية،

---

(١) ألقاب الحروف أوصلها مَكِّيُّ بنُ أبي طالب إلى أربعة وأربعين لقبًا، مدرِجًا ضمنَها ما اصطُلِح عليه بصفات الحروف [الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: ١١٥]، إلا أن ما استقر عليه عمل مصنِّفي كتب التجويد هو فصل هذين المفهومين على نحو ما بينته في متن هذا المبحث.

(٢) ٨٣.

والأنفية، والشَّجْرية هي للشين والجيم والضاد والياء[1]، وهذا ما تبع فيه المعجم ما ذكره المتقدمون حالَ التعريف بمصطلح الشَّجْرِيَّة[2]، إلا أنه في تعريف الصوت اللغوي في مفتتح كل حرف لم يصِفْ بها إلا صوت الشين دون غيره، ولا ندري لماذا خص الشين دون سواها، وعلى أيِّ منهج اعتمد؟

أما الأنفية فقد ذكرهما للميم والنون في مفتتحهما[3]، مهملًا التعريف بالمصطلح في أصل مادته، وهذا من وجوه الاضطراب التي وقع في المعجم.

* * *

(١) الرعاية: ١٣٩، والتمهيد في علم التجويد: ٨٤.

(٢) المعجم الوسيط: ٤٧٣/١.

(٣) المعجم الوسيط: ٨٥١/٢، ٨٩٥. الموجود في نسختي: «أنقى» بالقاف، هكذا للصوتين جميعًا.

المبحث الثاني: مصادر وصف الصوت اللغوي

لم يبيّن المعجمُ الوسيط مصادرَه كعادة المعجمات قديمًا وحديثًا في إغفال مثل هذا الأمر، إلا ما قل، نحو صنيع ابن فارس في مقاييسه[١]، وابن منظور في اللسان في مصادره الخمسة[٢]، إلا أنه يمكننا معرفة مصادره من خلال تتبع أصول وصفه للأصوات اللغوية، ومدى اقتباسه ممن سبقه.

ويمكن تقسيم مصادره إلى: قديمة، وحديثة، فالقديمة هو كتاب سيبويه في المقام الأول، وظهر ذلك جليًّا في أكثر وصفه، وهو عيالٌ في ذلك عليه، مسلكه في ذلك مسلك مَن قبله من المتقدمين والمتأخرين في اعتماد وصف الكتاب، فقد بقي وصف سيبَوَيهِ يتردد في تعريفات الأصوات اللغوية دون إضافات مؤثرة، أو حتى مفسرة، ولنا في الغموض الحاصل في تفسير مفهومي الجهر والشدة وضديهما مثال لا يخفى.

واعتماده على كتاب سيبويه جاء من وجهين:

الأول: عدم التصريح بالنقل عن سيبويه، وغالب إفاداته منه.

الثاني: التصريح، وهو نادر.

الوجه الأول:

الأصوات الحلقية لم تخرج وصفًا عما قاله سيبَوَيهِ؛ ما عدا الهمزةَ التي وصفها

---

(١) ذكر ابن فارس في مقدمته اعتماده على: العين، وكتابي أبي عبيد القاسم بن سلام غريب الحديث والمصنف، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والجمهرة لابن دريد. معجم مقاييس اللغة: ١/١.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري، والصحاح للجوهري، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، وحواشي ابن بري على الصحاح، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. لسان العرب: ١/٧.

وصفًا حديثًا بأنها تخرج من الحنجرة[١]، وليست بمجهورة، ولا مهموسة[٢]، أما الهاء فوصفها بأنها من أقصى الحلق، وهو في ذلك تبَعٌ للمتقدمين، والذي اتفق عليه المحدثون أنها حنجرية، من مخرج الهمزة، إلا أنها تضييق لما بين الوترين الصوتيين بما يسمح معه بمرور الهواء دون اهتزاز الوترين في مقابل الهمزة التي تنتج بالانغلاق التام للوترين الصوتين، يعقبه انفتاح مفاجئ[٣].

والحاء والعين من وسطه، والخاء والغين من أدناه، ولعل اكتفاءه بما ذكر سيبَوَيهِ أن المحدثين لم يقفوا على وصف دقيق لإنتاج الصوت الحلقي، سوى أنه ناتج من انقباضات عضلية في جدار البُلْعُوم أو الحلق[٤]، وهو وصف غير دقيق، استدعاه خفاء نقاط إنتاجها، حتى مع التقدم الحاصل في أجهزة الرصد والقياس.

ولعلي أتوسَّل بالجدول الآتي لأجلِّيَ فيه على نحو مقارن ما بقي من الأصوات اللغوية:

(١) ذكر سيبويه أنها تخرج من أقصى الحلق. الكتاب: ٤/٤٣٤.

(٢) ممن اختار عدم وصفها بالجهر ولا بالهمس من المحدثين: د محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٥٧.

(٣) علم الأصوات الكلامية: ١٤٢، ومدخل في الصوتيات: ١٠٤.

(٤) علم الصوتيات: ٢٦٩.

الوصف الصوتي بين المعجم الوسيط وكتاب سيبويه

	المعجم الوسيط	كتاب سيبويه[1]
ت	« ومخرجه من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا»	« ومما بين طرف اللسان، وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء »
ث	« ومخرجه من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا »	« ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء »
ج	ومخرجه من أول اللسان مع الحنك الأعلى	من وسط اللسان وبينه وبين الحنك الأعلى مخرج
ر	من طَرْق طرف اللسان لحافة الحنك الأعلى عدة مرات	من مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلًا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء
ل	من طرف اللسان ملتقيًا بأصول الثنايا والرَّباعيات	من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنيَّة[2]
ز	« ومخرجه من بين طرف اللسان وفويق الثنايا العليا »	« ومما بين طرف اللسان وفُويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد »

(١) الكتاب: ٤/٤٣١.

(٢) طبعة بولاق: ٢/٤٠٥.

	المعجم الوسيط	كتاب سيبويه[1]
ض	من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس	من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس
ع	مخرج من وسط الحلق	ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء
غ	مخرجه من بين أدنى الحلق إلى الفم قرب اللهاة	أدنى الحلقية مخرجًا من الفم
ظ	مخرجه من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا	مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء
ف	من بين الشفة العليا[1] وأطراف الثنايا العليا	من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا
ق	ومخرجه من اللهاة مع أقصى الحنك الأعلى	من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى
ك	مخرجه بين عَكَدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم	ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلًا ومما يليه من الحنك الأعلى

وما سبق يظهر أثر سيبويه في تعريفات المعجم الوسيط للصوت اللغوي، ولا يمنع ذلك من وجود خلافات تتفاوت من صوت إلى صوت آخَرَ، على نحو ما يأتي:

(١) هكذا في النسخة لدي: ٢/٦٧٠.

في تعريف الأصوات النِّطَعية لم يُشِر إلى البينية بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، كما صنع سيبَوَيهِ، وعندي أن صنيعَه في ذلك أدَقُّ وأوفق مما ذكره سيبويه، فالبينية تومئ إلى نوع من الفراغ بين عضوي النطق (طرف اللسان + أصول الثنايا العليا)، وهو ما لا يتحقق واقعًا؛ إذ إن إنتاجَ هذه الأصوات لا يحصل إلا بالتصاق كامل لطرف اللسان بأصول الثنايا العليا.

وعطفًا على ما سبق فالبينيةُ وصفٌ دقيق في الأصوات الصفيرية، وهو ما اتفق عليه المرجعان؛ إذ طرف اللسان يكاد يُسامِتُ الثنايا السفلى، وإن شئت قلت: إن أَسَلةَ اللسـان بين الثنايا العليا والسفلى.

الجيم:

ذكر المعجم أنها تخرج من أول اللسان مع الحنك الأعلى، مخالفًا ما في الكتاب من أنها تخرج من وسط اللسان، وهذا هو الذي قرره علماء التجويد؛ من أنها تخرج من وسط اللسان، بينه وبين الحنك الأعلى(١).

فلا وجهَ لأول اللسان في إنتاج صوت الجيم، كما ذكره المعجم، فلعلَّه تحريفٌ لحق المعجم، ومما يؤكد احتماليةَ التحريف ذكرُه في وصف الشين؛ أنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى، وهما من ذات المخرج، ولعل الأوفق به- فيما أرى- التعبيرُ بـ(مقدمة اللسان)؛ إذ مصطلح أول اللسان لا يُعرَف، وإنما المعروف طرَفُه، أو مستدَقُّه، كما هو مدوَّن في كثير من كتب التجويد والأداء، علمًا بأن المعجم تتكرر منه استخدام (أول اللسان) في وصفي الواو والياء، فانظره ثَمَّةَ.

قال ابن سينا: «وأما الشين فحادثة؛ حيث يحدث الجيم بعينه، ولكن لا حبس

(١) النشر: ٢٠١/١.

البتةَ، فكأن الشين جيم لم تُحبَس، وكأن الجيم شين ابتُدِئت بحبس، ثم أطلقت»[١].

ولا يمنعني ذلك من الإشارة إلى ما عثرت عليه في وصفٍ للجيم مغاير لما ذكره علماء التجويد عند ابن سينا؛ حيث قال: «وأما الجيم فتحدث من حبس بطرف اللسان تامٍ، وبتقريب للجزء المقدم من اللسان من سطح الحنك» [٢]، فالنص السابق يشير إلى طرف اللسان أو مقدمه؛ مما يمكن أن يكون قريبًا لاختيار المعجم، مع استبعادي لذلك التأثير.

الراء:

عندي أن اختيار المعجم في وصف الراء كان دقيقًا وسهلًا بالجملة في إدراك عملية إنتاج الصوت، مع اتفاقهما على الإشارة إلى طرف اللسان، إلا أن المعجم لم يوفَّق في كلمة (حافة الحنك)، فمصطلح الحافة للسان، وليس للحنك الأعلى، يُضاف إلى ذلك أن المعجم أشار إلى عملية التَّكرار في نطق الراء معبرًا عنه بالطَّرْق، وليس هذا محلَّه، ويُضاف إلى ذلك أنه أفادها من علماء التجويد عندما عَرَّفوا صفة التَّكرار بقولهم: ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف[٣].

الضاد:

في المعجم: (وما يليه)، بضمير الغائب، راجعًا إلى اللسان، والذي في الكتاب: (وما يليها)، راجعًا إلى الحافَّة، وهو الأدق؛ بل الصحيح، وذلك أن ما يلتصق بالأضراس هي حافَّة اللسان، لا اللسان.

---

(١) أسباب حدوث الحروف: ٧٦.

(٢) أسباب حدوث الحروف: ٧٥.

(٣) نهاية القول المفيد: ٨٣.

جاء في شرح الرضي: «من أقصى إحدى حافَّتي اللسان إلى قريبٍ من رأس اللسان...، وموضعها من الأسنان نفس الأضراس العليا، ويُقال للضاد: طويل؛ لأنه من أقصى الحافة إلى أدنى الحافة؛ أي: إلى أوَّل مخرج اللام، فاستغرق أكثر الحافة»[1].

ولم يبيِّن المعجمُ ولا سيبَوَيهِ مبدأ الحافة، وقد أوضح علماء التجويد ذلك عندما أشاروا إلى أن أَوَّل حافَّة اللسان ما يَلِي الحلقَ ممتدًا إلى طَرَفِه[2].

وأودُّ الإشارة إلى أنَّ المعجمَ أغفل ذكرَ صفة الاستطالة الخاصة بصوت الضاد، ولعل ذلك يعود لأمرين:

الأول: ما وقع من الغموض في مفهوم هذه الصفة، وإن كان قد تحقق أمر حقيقتها عند بعض المحققين.

الثاني: أنه وصف لم يُعْبَأ به في وصف الصوتيين المحدَثين، وعدم العناية بهذه الصفة يرجع- فيما أرى- إلى أن غالب البحث الصوتي الحديث مستعارٌ من دراسات الغربيين، والضاد معدومةٌ في لغاتهم، فلم يصفوها، والمحدَثون العرب تبعوهم في الشأن.

وأمر آخَر يُضاف إلى ما مضى: أن كثيرًا من الصوتيين العرب المحدثين- وبخاصة الرواد منهم- ما عرَّفوا بالقراءة أو الإقراء، وكل مَن عانى علم التجويد، واطلع على مباحثه، ولازم مشايخ الإقراء أدرك أهمية هذه الصفة.

قال ابن الجزري:

---

(١) بتصرف: ٢٥٢/٣.

(٢) نهاية القول المفيد: ٥٦.

والضادَ باستطالةٍ ومَخْرَجِ مَيِّز من الظاءِ وكلُّها تَجِي[1]

– العين

وقد تبع المعجمُ سيبَوَيهِ في عزوِ مخرج العين إلى وسط الحلق، إلا أنه خالفه في عَدِّها من الأصوات الرِّخْوة، وهي عند المتقدمين من المتوسطة بين الشدة والرخاوة[2]، ومفهوم التوسط عندهم الشديد الذي جرى معه صوت، ووجه عَدِّ صوت العين منها تجافي اللسانِ به حالَ النطق به، مما يقربها من صوت الحاء[3]، أما في الدراسات الصوتية ومن خلال صور الأشعة أمكن الوقوفُ على جزء حقيقة إنتاج هذا الصوت، فقد لُحِظ أن هناك تضييقًا بارزًا للحلق متمثلًا في اقتراب جَذر اللسان من الجدار الخلفي للحلق، بما يسمح معه بمرور الهواء[4].

– الغين

اختار المعجمُ التعبيرَ بالبينية، وحصر مِنطقةَ خروجِه مما بين أدنى الحلق إلى أول الفم، مع الإشارة إلى قُرْبِ اللَّهاة، علمًا بأن المعجم لما أشار إلى نظيره– وهو مخرج الخاء– لم يذكر هذه البينيةَ، وإنما اكتفى بخروجه من أدنى الحلق[5]، مع أن الصوتيين يخرجان من منطقة واحدة، فليته اختطَّ لنفسه منهجًا واحدًا.

---

(١) المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه: ١٤.

(٢) جاء في تعريف صفة التوسط بأنها: عدم اكتمال حبس الصوت، وعدم كمال جريه. نهاية القول المفيد: ٧٢.

(٣) التحديد: ١٠٦.

(٤) مناهج البحث اللغوي: ١٣٠، ودراسة الصوت اللغوي: ٢٧٢.

(٥) المعجم الوسيط: ٢١٣/١.

والمحدَثون يخطِّئون المتقدِّمين في عدِّهم الغينَ من أصوات الحلق، فهي عندهم طَبَقيةٌ، تخرج باحتكاك مؤخَّر اللسان بالطبق، أو الحنك اللين[١]، أو هي ناتجة من تضييق التجويف الحلقي بين جَذر اللسان والجدار الخلفي للحلق[٢]، ولا ريبَ أن هذا الوصف لم يتأتَّ إلا بعد الاستعانة بالوسائل الحديثة في التصوير الطيفي، إلا أنه لم يلزم المعجم متابعة ما استجدَّ في هذا الشأن، والقيام على التعديلات اللازمة، وهذا ما لم يحدث في غالبه؛ بل بقي جامدًا دون أي تطوير معتبر.

– الطاء

وصفه المعجم بأنه مهموس في النطق المعاصر، مخالفًا ما ذكره المتقدمون من أنه صوت مجهور[٣]، ولعل منزِعَ الخلاف في ذلك اختلافُ معيار تحديد الصوت المجهور من المهموس بين المتقدمين والمحدَثين، وللمسألة خلافٌ مذكور في مَظانِّه[٤].

– الظاء

هو تبَعٌ لسيبَوَيهِ في ذلك، إلا أن سيبويه اختار التعبيرَ بالبينية، والمعجم تبِعَ في وصفه بعضَ المتقدِّمين، كالمبرِّد في المقتضب[٥].

---

(١) مناهج البحث اللغوي: ١٢٩، والمدخل إلى علم اللغة: ٥٤.

(٢) مدخل في الصوتيات: ١٠٦.

(٣) الكتاب: ٤/٤٣٤، والمقتضب: ١/١٩٤، والمفصل: ٥٤٧.

(٤) علم الأصوات لكمال بشر: ١٠٢، ومقدمة لدراسة اللغة: ٢١٤، وعلم الصوتيات: ٢٦٤، والأصوات اللغوية: ١٠٧.

(٥) المقضب: ١/١٩٣.

– الفاء

تعريف سيبويه له أوفق وأدقُّ، وبخاصة عند تعبيره بباطن الشَّفَة السُّفْلى، فهو الموافق لهيئة نُطق الفاء، مع الإشارة إلى التحريف الذي وقع في المعجم من التعبير عن الشفة السفلى بالشفة العليا فيما وقع لي من طبعات هذا المعجم(١).

وقد وصفها سيبويه في موطن آخَرَ من مباحث الإدغام، يؤيد ما ذكرته من الدقة في الوصف؛ حيث قال: «لأنها من باطن الشَّفَة السفلى وأطراف الثَّنايا العُلى، وانحدرت إلى الفم، وقد قاربت من الثنايا مخرج الثاء»(٢).

– القاف

يكاد التعريفان يتفقان، إلا أن المعجم أشار إلى أهمية اللَّهاة في إنتاج هذا الصوت، وهذا لم يذكره سيبوَيْهِ، والمعجم أخذه من مقدمة العين(٣)، لما أشار إلى الحرفين اللَّهويين، وهما القاف والكاف، واللَّهاة هي اللحمة المُشرِفة في أقصى سقف الفم(٤) .

وكان سيبويه دقيقًا حين عرض لمخرجها مقارنة بالكاف؛ حيث قال: «وذلك أنها من أقصى اللِّسان، فلم تَنْحدِر انحدارَ الكاف إلى الفم، وتَصَعَّدت إلى ما فوقها من الحنك الأعلى»(٥)، فالكاف أقرب إلى الفم من القاف، وهو وصف غفَلَ المعجم عن الإشارة إليه مع أهميته.

---

(١) المعجم الوسيط: ٦٧٠/٢.

(٢) الكتاب: ٤٤٨/٤.

(٣) العين: ٥٨/١.

(٤) المعجم الوسيط: ٦٧٠/٢.

(٥) الكتاب: ٤٧٩/٤.

وأمر آخَر: أنه وصفها بأنها مفخمة[1]، والتفخيم ليس مقصورًا عليه؛ بل تشاركه بعضُ الأصوات المعروفة، إلا أن المأخوذ عليه في ذلك اختصاصه بذلك؛ بُغْيةَ توحيد المنهج.

وأمر آخَر: أن صفة التفخيم سمعية، وليست عضوية، فالتعبير عنها بالصوت المستعلي أَوْلى.

- الكاف

والمعجم الوسيط كان أدقَّ في تحديد نقطتي إنتاج الصوت، بين عَكَدة اللِّسان واللَّهاة، بخلاف سيبويه الذي اختار لوصفه مساحةً أكبر، وقارنها بصوف القاف السابق لها في نقطة من الإنتاج من جهة الحلق، وليس هو في ذلك بِبِدْعٍ، فقد استلَّه من كلام الخليل في العين؛ حيث قال: «وأما مخرج الجيم والقاف والكاف فمن بين عَكَدة اللِّسان وبين اللَّهاة في أقصى الفم»[2]، وهو محسن في تحوير اقتباسه؛ حيث حذف الإشارةَ إلى صوت الجيم؛ إذ لا وجهَ لإدراجها في هذا الموطن، وهو ما لم أجِدْ له نظيرًا في كلام النحويين والقراء[3]، إلا أن الإغرابَ في وصف المخرج هو اختيارُه لمصطلح غير ذائعٍ؛ أعني: (عَكَدَة اللسان)، والعَكَدة- أو العَكْدة، كما في المعجم الوسيط-: أصل اللِّسان والذَّنَب[4].

---

(١) المعجم الوسيط: ٧٠٩/٢.

(٢) العين: ٥٢/١.

(٣) إلا إن كان يعني بها ما يشبه الجيمَ القاهرية على نحو ما عبَّر به المعجم في وصف إحدى التنوعات أو التحولات الصوتية لصوت الجيم من أنه قد يُحرَّف عن موضعه إلى أقصى الفم، فيقرُبُ من الكاف أو القاف. المعجم الوسيط: ١٠٣/١.

(٤) ٦١٨/٢.

الوجه الثاني: وهو ما صرح فيه بالأخذ عن سيبويه، وهو نادر، وذلك فيما ذكره في وصف الضاد؛ حيث قال: «وهو مجهور مزدوج، وقد تكتمل شدته في بعض البلاد العربية، فيصبح كالدال المفخمة، كما قد تكتمل رخاوته في نطق البعض الآخر، فيصبح كالزاي المفخمة، ومخرج الضاد القديمة عند سيبويه من بين أَوَّل حافَّةِ اللسان وما يليه من الأضراس»[(١)].

وعدم التصريح هو اللائق بمثل المعجمات، فما عُهِد مثله إلا أن يذكرَ في المقدمة على نحو ما ذكرناه سابقًا، وعليه فلا تثريبَ عليه في مثل ذلك.

المصادر الصوتية الحديثة:

وظهرت إفاداته منها على نحو ما يأتي من المسائل:

١- **المصطلح الصوتي**، نحو (مزدوج)[(٢)]، و(مائع).

فالمزدوج وصف به صوتيَ الجيم[(٣)]، والضاد[(٤)].

وما يُشكِل عليه في هذا الباب تعددُ المصطلح الصوتي للتعبير عن اجتماع الانفجارية والاحتكاكية حالَ النطق بصوت الجيم، فهي عند بعضهم مركب[(٥)]، وعند الآخر مزجي[(٦)]، وعندي أنه أوفق مما اختاره المعجم، فالمزدوج لا يعبر

---

(١) ٥٣٢/١.

(٢) عرّف المعجم الوسيط الصوت المزدوج بأنه: «صوت يتضمَّن صفتي الشدة والرخاوة، كالجيم الفصيحة» ٤٠٦/١.

(٣) المعجم الوسيط: ١٠٣/١.

(٤) المعجم الوسيط: ٥٣٢/١.

(٥) مناهج البحث في اللغة: ١٣١، ودراسة الصوت اللغوي: ١٤١، علم الصوت اللغوي: ١٤١، ومعجم لونجمان لتعليم اللغات وعلم اللغة التطبيقي: ١١٠.

(٦) جاء عند بعضهم التعبير عن الصوت الاحتكاكي مطلقًا بأنه صوت مزجي، معجم اللسانية: ١٠. وهذا فيه بعد لعدم الموافقة الدلالية لطبيعة إنتاج الأصوات الاحتكاكية.

حقيقة من جهة الدلالة عن المعنى المذكور، كما أنه قد استعمل في غيره، فالمزدوج عند بعضهم هو الصامت المضعَّف أو المشدَّد(١).

جاء في معجم المصطلحات اللغوية: الصوت المزجي affricate عبارةٌ عن صوت مكوَّن من انفجاري واحتكاكي، مشيرًا إلى أن المدة الزمانية لحالة الاحتكاكية فيه أقلُّ منها في الاحتكاكي الخالص(٢).

وعليه: نخلص مما سبق إلى أن التعبير بالمزجي أو المركب أوفَقُ، وهو المعتمد عند كثير من الباحثين المحدَثين في هذا الشأن، فلعل القائمين على المعجم يعاودون النظرَ في اعتماد المناسب وفقَ ما تقدم.

والوصف بالمائع خصَّ به الراء فقط(٣) دون غيره من الأصوات المتوسطة أو المائعة liquid بحسَب المصطلح عليه عند المحدثين(٤)، وهي النون، والميم، واللام، والراء فقط، وهذا الصَّنيع من المعجم لا مسوِّغَ له إلا الخلل والاضطراب.

٢- بعض قضايا التطور الصوتي الحادث لبعض الأصوات، وتتبع ذلك في العاميات المعاصرة، وعزوها إلى مناطقها لرسم خريطة جغرافية للهجات ما أمكن.

الجيم: وذكر لها من التنوعات الصوتية نوعين [ألفونين]:

أ- الجيم القاهرية الشديدة.

ب- الجيم الشامية(٥).

---

(١) معجم اللسانية: ٨٩.

(٢) ٣٥. ووافقه في ذلك: الأصوات اللغوية للخولي: ٣٨, ومعجم علم اللغة النظري: ٨.

(٣) المعجم الوسيط: ٣١٩/١.

(٤) اللغة: ٥٣، وأسس علم اللغة: ٨٦، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ٣٦.

(٥) المعجم الوسيط: ١٠٣/١.

الضاد: وذكر له تنوعين:

أ- الدال المفخمة الشديدة.

ب- الزاي المفخمة المجهورة، وهي ما يُعرَف عند القراء بالصاد المُشَمَّة صوتَ الزاي[١]، وهذا التنوع ليتَه أشار إلى منطقته، وهي مصرُ، وبعض نواحي الشام.

الطاء:

وذكر أنه أصبح في معظم البلاد العربية ينطق مهموسًا[٢].

القاف: وذكر لها من التنوعات:

أ- القاف المجهورة الفصيحة.

ب- القاف المهموسة، وهي في معظم الألسن العربية الآن.

ج- نطقها همزة، كما في النطق المصري، وإن أغفل الإشارة إلى موطنها.

د- الجاف[٣] الفارسية، وقد نسبها إلى اليمن، وصعيد مصر، وبين كثير من قبائل البدو[٤].

ولي على عرض هذه التنوعات النطقية لصوت القاف ما يأتي:

المعجم ذكر أنها أربعة، وهي في حقيقتها ثلاثة؛ إذ القافُ المجهورة الفصيحة- كما يزعم- هي الكاف الفارسية التي تكون عليها شرطة تفرقة بينها وبين الكاف، كما هو المتبع في الرسم الإملائي الفارسي، إلا إن كان يقصد بالقاف المجهورة الفصيحة القافَ السودانية على نحو ما وجَّه به د إبراهيم أنيس

(١) المعجم الوسيط: ٥٣٢/١.

(٢) المعجم الوسيط: ٥٤٩/١.

(٣) هكذا موجودة في النسخة التي لديّ، والأولى كتابتها (الكاف).

(٤) المعجم الوسيط: ٧٠٩/٢.

عدَّ سيبَوَيهِ صوتَ القاف من الأصوات المجهورة مع المنطوق به في الفصيح، والمستعمل في أداء القراء هو صوت مهموس، ولذلك زعم أن أقرب مثال عصري للقاف التي وصفها سيبويه هو القاف الممزوج بصوت الغين في كلام السودانيين(١).

كان الأَوْلى به التعبيرَ عن القاف المجهورة بالقاف المعقوفة، أو البدوية، أو التميمية(٢)، على ما هو ما مذكور في كتاب المعجمات والتجويد بدلًا من التعبير بالكاف الفارسية، وهذا جانب من العناية بالمصطلح الصوتي وضبط مدلوله.

لا يُوافَق المعجم على زعمه بأن القاف المجهورة هي القاف الفصيحة، فهذا محل خلاف بين الدارسين المحدثين؛ بل إن علماء القراءات وأهل الأداء يرفضون مثل هذا القول لمخالفته المُتلقَّى من أهل الأداء كابرًا عن كابر، والقراءة سنة متبعة، يأخذ الآخِرُ عن الأول كما أُدِّيت إليه، وقد تظاهرت النصوص قديمًا وحديثًا على مراعاة هذا الجانب، فلا ندَعُ ما اتُّفِقَ عليه إلى ما زعم دون دليل ثابت، وبرهان قاطع.

* * *

(١) الأصوات اللغوية: ٨٤.

(٢) أغرب بعض الباحثين المحدثين حين زعم القاف المسموعة عن القراء هي القاف التميمية، وحاول تكلفًا إثباتَ ذلك بما لا طائلَ من ورائه. المختصر في أصوات اللغوية العربية: ٩٦.

الخاتمة

- أهمية مواكبة المعجم لما استُجِدَّ من مُعطَيات الدرس الصوتي الحديث، ومعاودة النظر في الطبعات اللاحقة للوصول به إلى المأمول من أي معجم عصري يتوافق وأُسُسَ الصَّنعة المعجمية الحديثة.
- عدم وضوح الرؤية في بيان الأسس في اعتماد المصطلح الصوتي ومدلوله المناسب.
- أغفل المعجمُ الإشارةَ إلى بعض المصطلحات الصوتية القديمة لعدم اعتمادها، أو شيوعها في الدراسات الصوتية الحديثة بما يتناسب ومنطلقاتِه المنهجيةَ.
- لا شك أن المصطلح اعتور عليه ثُلَّة من متعددي المشارب علميًّا؛ مما ظهر أثره جليًّا في اختلال المنهج، والاضطراب في توحيد المصطلح.
- للأسف المعجم لم يتواءم والمصطلحاتِ الصوتيةَ الحديثة، فتجده يضم القديمَ إلى الحديث دونما منهج واضح نتج عنه غموض في دلالة المصطلحات.
- وقوع بعض التحريفات في النسخ المتداولة، وفيما وقفتُ عليه، قد أشرت إلى ذلك في مَظانِّه، فيستحسن بالقائمين على المعجم متابعته، وإصلاح ما يلزم.
- اعتماده على المصادر القديمة في بيان مخارج الأصوات، وإغفاله الإشارةَ إلى ما ذكر في المصادر الحديثة التي توسلت بوسائل التصوير الطَّيْفي، وبخاصة وصف الأصوات الحلقية، وهذا ما لم يُعِرْهُ المعجمُ أيَّ اهتمام.
- أظهر النظرُ الإحصائي تقديمَ الوصف بالصفة على الوصف بالمخرج في المعجم الوسيط، وهو ما يخالف المتبَعَ قديمًا وحديثًا.

المصادر والمراجع

- إبدال الحروف في اللهجات العربية. د. سلمان بن سالم السحيمي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة. ١٩٩٥م.
- إبراز المعاني من حرز الأماني، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت٦٦٥هـ)، تحقيق: محمود جادو، الجامعة الإسلامية، المدنية المنورة، ١٤١٣هـ.
- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة: د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثامنة.١٩٩٨م.
- الأصوات اللغوية، د محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٠.
- الأصوات اللغوية، رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، د سمير شريف إستيتية، دار وائل للنشر، عمَّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج (ت٣١٦هـ)، تحقيق: د عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة.
- إعلام السادة النجباء أنه لا تشابه بين الضاد والظاء، د/أشرف محمد طلعت، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
- التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، دراسة وتحقيق: د/ غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- تطور الفكر اللغوي في المعجمات العربية، د/ أحمد رزق مصطفى السواحلي، ط١. ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
- التمهيد في علم التجويد، محمد بن محمد بن يوسف بن الجزري (ت٨٣٣هـ)، تحقيق د. على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض. ط١. ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- التمهيد في علم التجويد، محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: د/على البواب، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٥م.
- الجمل في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت٣٤٠هـ)، تحقيق: د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١هـ)، تحقيق د. رمزي منير البعلبكي. دار العلم للملايين. ط١. ١٩٨٧م.
- حرز الأماني ووجه التهاني. أبو القاسم الشاطبي(ت٥٩٠هـ)، تحقيق: محمد تميم الزعبي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ١٩٩٠.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د غانم قدروي الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
- دراسة الصوت اللغوي، د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة. ١٩٩٠م.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: د رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- رسالة أسباب حدوث الحروف، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت٤٢٨هـ)، تحقيق: محمد حسان الطيان، ويحيى مير علي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٣م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ)، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: د/حسن هنداوي.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، و علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت٦٤٣هـ)، إدارة الطباعة

المنيرية، القاهرة.
- علم الأصوات، د كمال بشر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٠م.
- علم الأصوات الكلامية، د محمود إبراهيم السلامي، مكتبة المتنبي، الدمام، ١٤٣٩هـ.
- علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، د قاسم البريسم، دار الكنوز الأدبية، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- علم الصوتيات، د عبد العزيز علام، د عبد الله ربيع، مكتبة الرشد ناشرون، ٢٠٠٤م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د محمود السعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي.
- الكتاب، سيبويه، طبعة بولاق، ط١. ١٣١٦هـ.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.
- اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، د سمير شريف إستيتة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٥.
- المختصر في أصوات اللغة العربية، د محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦م.
- مدخل في الصوتيات، عبد الفتاح إبراهم. دار الجنوب للنشر، تونس.
- المدخل إلى علم أصوات العربية، د غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- المساعد على تسهيل الفوائد، بهاء الدين بن عقيل، تحقيق وتعليق د. محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١٤٠٥هـ=١٩٨٤.

- المعجم العربي بين القديم والحديث، د عدنان الخطيب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية،١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- معجم علم اللغة النظري، د محمد علي الخولي، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
- معجم اللسانية، د بسام بركة، منشورات جروس- برس، لبنان.
- معجم لونجمان لتعليم اللغات وعلم اللغة التطبيقي، جاك سي، وآخرين، ترجمة: د محمود فهمي حجازي، ود رشدي أحمد طعيمة، مكتبة النشر التربوي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- معجم المصطلحات اللغوية، د رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- المفصل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، دار الجيل، بيروت.
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م، ط٣.
- المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه، أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت٨٣٣هـ)، دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- مقدمة لدراسة اللغة، د حلمي خليل، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- مناهج البحث في اللغة، د تمام حسان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
- الموضَح في وجوه القراءات وعللها، ابن أبي مريم، تحقيق: د عمر الكبيسي، الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن، جدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- النشر في القراءات العشر، أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ)، أشرف على تصحيحه ومراجعته علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية،

بيروت.
- النُّكَت في تفسير كتاب سيبويه، أبو الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم الشَّنْتَمريّ، تحقيق: الأستاذ رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٩م.
- نهاية القول المفيد في علم التجويد، محمد مكي نصر الجريسي، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، ط١، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.

الدوريات

- المعجم الوسيط بين المحافظة والتجديد، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء ٦٩، ربيع الآخر ١٤١٢هـ - نوفمبر ١٩٩١م.
- المعجم الوسيط، تصحيحات واستدراكات واقتراحات، مجلة النجاح للأبحاث، المجلد الثاني، العدد السادس١٩٩٢م.

* * *

الإقناع في الخطاب الإعلامي المعاصر "وصايا قدموس نموذجا"

د. فاطمة جابر المسهري
قسم اللغة العربية – كلية العلوم والآداب بمحايل
جامعة الملك خالد

الإقناع في الخطاب الإعلامي المعاصر "وصايا قدموس نموذجا"

د. فاطمة جابر المسهري

قسم اللغة العربية – كلية العلوم والآداب بمحايل
جامعة الملك خالد

تاريخ تقديم البحث: ٢٨/ ١/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٨/ ٣/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

تسعى هذه الورقة للكشف عن تشكل الإقناع في الخطاب الإعلامي المعاصر في وصايا قدموس (الشاعر فواز اللعبون)، عبر أدوات التواصل الرقمي الحديث (تويتر–تليجرام)، من خلال دراسة العناصر السياقية والنظام اللغوي الذي استرفدها الإقناع في وصاياه، وشكلت بنية حجاجية غرضها التأثير والإقناع، انطلاقا من أن خطاب الوصايا هو خطاب موجه من مخاطِب إلى مخاطَب عبر تشكلات إقناعية متنوعة تتتبَّع العناصر التواصلية التي تجعل من الخطاب عموما خطابا إعلاميا تجسده البلاغة الجديدة التي وسع بيرلمان مفهومها لتشمل العلوم الفلسفية والإنسانية، ولغة الحياة اليومية، وتحاورات الناس في شتى المجالات.

وتناقش الورقة الإقناع في مبحثين، المبحث الأول: دور عناصر السياق في الإقناع، وتتضمن عناصر السياق: المخاطِب، والمخاطَب، والمعارف المشتركة، المبحث الثاني: الإقناع اللغوي وتتمثل في الدعاوى، والحجج بأنواعها، والسلم الحجاجي بآلياته اللغوية وأهمها الروابط والعوامل، على أن يسبق ذلك مقدمة تحوي أهمية الموضوع، وأهدافه، ومشكلة البحث، ومنهجه، ومفاهيمه، ويعقبه خاتمة تضم أبرز النتائج التي توصلت إليها الورقة؛ متوسلة بالمقاربة التداولية التي تهتم بدراسة علاقة العلامات بمستعمليها وبمؤوليها.

الكلمات المفتاحية: إقناع، خطاب إعلامي، سياق.

Persuasion in the Contemporary Media Discourse Qadmus Commandments as a Model

Dr. Fatima Jabir Al-Mashari
Arabic Language Department – College of Arts and Science
King Khalid university

Abstract:

This paper seeks to discover the formation of the contemporary media discourse in the Qadmus commandments (The Poet Fawwaz Al-Laaboon) via modern digital communication tools (Twitter-Telegram). Through the study of context elements and linguistic systems that persuasion has sought their support in his commandments and formed an argumentative structure whose purpose is to influence and persuade. It is based on the fact that commandments discourse is a discourse directed from an addresser to an addressee through various persuasive formations that follow communication elements. They generally make a media discourse represented by the new rhetorics, which Perelman expanded its concept to include philosophical and humanities sciences, the language of daily life, and the conversations of people in various fields. This paper discusses persuasion on two topics. Topic One: The role of context elements in persuasion, context elements include the addresser, the addressee, and common knowledge. Topic Two: linguistic persuasion that is represented in claims, arguments of all kinds, and the argumentative ladder with its linguistic mechanisms, the key of which are links and factors. That should be preceded by an introduction that includes the significance of the topic, its goals, research problem, method, and concepts that are followed by a Conclusion. This conclusion includes prominent results reached by this paper supported by a pragmatic approach. It is interested in the study of the relationship of signs to their users and their interpreters.

key words: Persuasion – Media discourse - Context.

المقدمة

يوصف عصرنا التواصلي المعاصر بأنه عصر إعلامي بامتياز، فقد انتقلت العلاقة التواصلية التي تربط بين المتفاعلين من محيطها الحقيقي الحي إلى محيط افتراضي يحمل كل خصائص التواصل الإنساني، وقد انبثقت هذه الدراسة في محيط تساؤلات تتتبَّع الخطاب الإعلامي بوصفه خطابا إقناعيا حجاجيا له قواعده وضوابطه وتقنياته التي تسعى الدراسة إلى استشفافها، ومن هنا تأتي أهمية الدراسة؛ فالإعلام الجديد يعكس واقع المستخدمين، وألفاظهم اليومية عبر رسالة معرفية تصريحية أو تلميحية ذات قوة فاعلة في استقطاب الجماهير، وهذا يظهره خطابا تواصليا لا ينفصل عن الأبعاد الثقافية والاجتماعية والدينية للمجتمع.

مشكلة البحث:

وتتمثل مشكلة البحث في أن منصات التواصل الاجتماعي تعطي فرصة رحبة للانفتاح على الآخر المؤتلف والمختلف، وتسهِّل الاطلاع غير المحدود على مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية...إلخ، وقد ألقى هذا الانفتاح ظلاله على الذوات المتفاعلة في حسابات التواصل الاجتماعي؛ فأضحت ميدانا لعرض الدعاوى والدعاوى المضادة، وإقامة الحجج قصد التأثير والإقناع لأكبر عدد من المتابعين.

ويتم تحديد المشكلة بالتساؤل الرئيس الآتي:

- ما دور السياق والنظام اللغوي في الإقناع، وكيف تشكلت في الخطاب الإعلامي في وسائل التواصل الاجتماعي، وكيف يتقاطع الإقناع والتواصل؛

لصنع التفاعل المطلوب بين أطرف الخطاب المفضي إلى الإقناع أو زيادة الإقناع ؟

أهداف البحث:

وتهدف الدراسة إلى تتبع العناصر السياقية المكونة للخطاب الإعلامي في نصوص (قدموس)، كما تهدف إلى تبين التشكلات اللغوية المتمثلة في الدعاوى، والحجج والكشف عن كفاءتها في التأثير على الجماهير وتوجيههم.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مبحثين:

المبحث الأول: دور عناصر السياق في الإقناع

- المخاطِب.
- المخاطَب.
- المعارف المشتركة.

المبحث الثاني: الإقناع اللغوي

- الدعاوى.
- الحجج.
- السلم الحجاجي

على أن يسبق ذلك مقدمة تحوي أهمية الموضوع وأهدافه، وإشكالاته ومنهجه، ومفاهيمه، ويعقبه خاتمة تضم أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الورقة.

وقد اختارت الدراسة المقاربة التداولية التي تعد الفرع الثالث من علم العلامات أو السيميائية، وهي: «الدراسة التي تعني باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية، والمقامية، والحدثية، والبشرية»[١]، وهي أيضا «دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية، في الوقت نفسه»[٢]، والتداولية في أبسط صورها هي كل ما يترتبط «بالوقائع الاجتماعية، ويدمجها ضمن علوم أخرى مثل علم النفس الاجتماعي وعلم النفس العام»[٣]، وتُعدُّ علما جديدا «للتواصل، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال؛ ويدمج، من ثم ، مشاريع معرفية متعددة، في دراسة "ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره»[٤].

وتقرُّ الدراسات التداولية بأنها ليست تداولية واحدة بل تداوليات؛ لأنها تسمح بتقاطع حقول ومجالات متعددة معها، كاللسانيات، والبلاغة، والفلسفة، والمنطق، والسيميائية...إلخ[٥]، وهي في كل تقاطعاتها تحاول «الإجابة عن أسئلة مهمة مثل: من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين

---

(١) فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غومفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع-اللاذقية، ط١، (٢٠٠٧م) :١٨

(٢) المرجع السابق: ١٩

(٣) أحمد يوسف، السيميائيات التداولية من البنية إلى السياق، ضمن كتاب التداوليات وتحليل الخطاب، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، كنوز المعرفة-عمان، ط١(١٤٣٥هـ-٢٠١٤م): ٢٣.

(٤) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب"دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي"، دار الطليعة-بيروت، ط١(٢٠٠٥م) :١٦.

(٥) ينظر: أرمنكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي(د.ت): ١١.

نتكلم؟ ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟ كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟ وتستدعي الإجابة عن هذه الأسئلة مقاصد المتكلم، وأفعال اللغة، وبعدها التداولي، والسياق، إلخ»[١].

أهم مفاهيم التداولية:

- الأفعال الكلامية وهي: «كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري»[٢].

-الاستلزام الحواري (أو المحادثي): لاحظ غرايس «أن جمل اللغات الطبيعية، في بعض المقامات، تدل على معنى غير محتواها القضوي...فتدل على معنيين اثنين في نفس الوقت، أحدهما حرفي، والآخر مستلزم...على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام (مبدأ التعاون)...» [٣].

- نظرية الملاءمة: وهي «تدمج...بين نزعتين كانتا متناقضتين؛ فهي تفسر الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة، وتعد في نفس الوقت نظرية إدراكية. والسبب أنها تدمج مشروعين معرفيين وتمتح منهما: الأول: مستمد من مجال علم النفس المعرفي، خاصة النظرية القالبية لفودور، الثاني: يستفيد من مجال فلسفة اللغة، وبخاصة النظرية الحوارية لغرايس»[٤].

وترتبط التداولية ارتباطا وثيقا بالسياق، إذ تعني التداولية عند بعضهم: «الاستعمال اللساني ضمن سياق، ما جعلهم يقترحون تغيير مسمى

(١) أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي: ٦٢٨.

(٢) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: ٤٠ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق: ٣٣ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق: ٣٦ وما بعدها.

التداولية إلى السياقية»[1]، كما أنه لا يمكن دراسة العلاقة بين أطراف العملية الحجاجية إلا من خلال التداول الذي يعطيها سمة التواصل والاستعمال والمشاركة.

وتنظر الدراسة إلى الخطاب الإعلامي من منظور حجاجي إقناعي تحدد مستوياته البلاغية وبناه العميقة، ذلك أن الحجاج والإقناع – بحسب أوستين فريلي– جزأين من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد، فقد عرف (توماس شايدل) الإقناع بأنه محاولة واعية للتأثير في السلوك، على حين أن موضوع الحجاج الدعاوى المنطقية وغير المنطقية– الأخلاقية والعاطفية– والإقناع ينعكس على التوكيد الذي يبطل ضده[2].

وللحجاج شكله الداخلي المرتبط بأشكاله البنائية، وشكله الخارجي المرتبط بالأثر الذي يرتبط به وهو الإقناع، «وقد وضع هذا الأثر في المرتبة الأولى في التعريف الكلاسيكي الجديد الذي وضعه ش. برلمان ول. أولبراخت تيتاكا، فموضوع النظرية الحجاجية هو دراسة الفنيات الخطابية التي تمكن من الحصول على موافقة العقول على الأطروحات التي تعرض عليها أو دعم موافقتها»[3]، كما يعرف الإقناع من منظور إعلامي بأنه :«حث الأفراد على تقبل رأي أو

(١) انظر: أرمنكو، المقاربة التداولية: ١١.

(٢) انظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي"دراسة في وسائل الإقناع"، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته"دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث– الأردن، ط١(١٤٣١هـ–٢٠١٠م): ٢/٨.

(٣) باتريك شارودو–دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري–حمادي صمود، دار سيناترا–تونس، دط(٢٠١٣): ٦٨.

فكرة معينة أو القيام بعمل معين»[١].

والحجاج من منظور حواري عقلي «نشاط لغوي واجتماعي غايته دعم أو إضعاف مقبولية وجهة نظر متنازع فيها لدى مسمتع أو قارئ، وذلك بعرض كوكبة من القضايا قصد تبرير (أو دحض) هذه الوجهة أمام قاض عقلاني»[٢].

وعليه يمكن النظر إلى الحجاج في الخطاب الإعلامي المعاصر على أنه نشاط اجتماعي غايته التأثير والإقناع ويتنازع مفهومه شقان أساسيان: (الخطاب، والإعلام)، وكلاهما يختص بمعان لغوية واصطلاحية تجعل لكل منهما حقله الخاص.

تعريف الإقناع:

يعرف الإقناع من زاوية تواصلية بأنه: «عملية إيصال الأفكار والاتجاهات والقيم والمعلومات إما إيحاء أو تصريحا، عبر مراحل معينة، في ظل حضور شروط موضوعية وذاتية مساعدة، وعن طريق عملية الاتصال»[٣].

تعريف الخطاب:

ورد في القاموس المحيط في معنى مادة (خَطَبَ) «الخَطْبُ: الشأن والأمر صغر أو عظم، (وخُطْبَة) الكلام المنثور والمسجوع ونحوه، وخطب المرأة خَطْبًا وخِطْبَةً، وهي خِطْبُه وهو خِطْبُها، وفصل الخطاب: الحكم بالبينة أو اليمين أو

(١) أعضاء المجمع"لجنة ألفظ الحضارة"، معجم مصطلحات الإعلام مجمع اللغة العربية- القاهرة، (د.ط)، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م): ٦٧.

(٢) باتريك شارودو-دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب: ٧٠.

(٣) عامر مصباح: الإقناع الاجتماعي، خلفيته النظرية وآلياته العملية، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، ط٢، (٢٠٠٦م): ١٧ وما بعدها.

الفقه في القضاء، أو النطق بأما بعد..»[١].

وفي لسان العرب: «(الخَطْبُ): قيل هو سبب الأمر، و(الخَطْبُ) الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن، والحال، والخِطابُ والمخَاطَبَة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخِطابا، وهما يتخاطبان، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة...»[٢].

وهناك عدة مدلولات للاستعمال المعجمي للفظ (خَطَبَ)، منها:

١- الدلالة على المشاركة من طرفين مفردين، أو من طرف وجمهور.

٢- تدل على المحيط الداخلي، أو الخارجي الذي يقع فيه الخطاب، وتتم فيه المخاطبة، أي سياق المقال، وسياق المقام.

٣- المفاعلة تعني «أن الخطاب نموذج حركي ذو مراحل مختلفة، تقتضي كل مرحلة منها من المعلومات مالا تقتضيه المراحل الأخرى...»[٣]، والحركية صفة لا تقتصر على بنية الخطاب المنجز فحسب، بل تلازم جميع مراحل تشكل الخطاب القبلية والبعدية[٤]، كما تقتضي لفظة (المفاعلة) الإحالة على مبدأ الغيرية أو التفاعل؛ ليدل على أحد أربعة مبادئ تؤسس أعمال اللغة (مع مبادئ التأثير، والتعديل، والإفادة)، ويحدد هذا المبدأ العمل

---

(١) الفيروزأبادي، القاموس المحيط، دار الحديث-القاهرة، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، مادة (خَطَبَ).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (خَطَبَ).

(٣) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية"بنية الخطاب من الجملة إلى النص"، (المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع-الرباط، د.ط، د.ت): ٥١.

(٤) انظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية"مقاربة تداولية"، (لبنان: الانتشار العربي-بيروت، ط١، ٢٠١٣م): ٤.

اللغوي على أنه فعل تبادل بين شريكين، هما في هذه الحالة الذات المتواصلة (أنا)، والذات المؤولة (أنت)، وهما يوجدان في علاقة تفاعلية غير متوازية، من جهة أن كل واحد منهما يقوم بدور مختلف، فيقوم بين الطرفين نظر تقييمي متبادل، يفترض وجود الآخر شرط بناء فعل التخاطب الذي يبنى داخله المعنى بالاشتراك(١).

وقد تعددت مفاهيم الخطاب في الدراسات الحديثة غير أن تعريف (إميل بنفنست) يرتبط بطرفي الخطاب وما يحدث بينهما من تواصل وتفاعل، كما يرتبط بالأثر الذي يحاول تركه أحد طرفي الخطاب في الآخر، فهو يرى أن الخطاب: «كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»(٢).

٤- تدل على أن الخطاب صنف من الكلام يراعى فيه عدة شروط، منها: (الإفصاح، الإفادة، التأثير).

تعريف الإعلام:

ورد في مادة (عَلِم) في لسان العرب: «علمت الشيء عرفته وخبرته، وتعالَمَه الجميع أي علموه، وعلم بالشيء: شعر، واستعلمني الخبر فأعلمته إياه، وقد أعلَمَه جعل فيه علامة»(٣).

ويشير المعنى اللغوي إلى عدة مدلولات منها:

---

(١) انظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب:٣٥ وما بعدها.

(٢) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط١(١٩٨٩م): ١٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: مادة (علم)

١- أن الإعلام خطاب كوني موجه للجماهير على اختلاف مستوياتهم.
٢- أن الإعلام يشمل الإخبار الصريح، أو المضمر الذي يشف عن الشيء فيُشعر به ولا يُتحقق منه.
٣- أن للإعلام أثرا مسببا عن التأثير، والتأثير «ما تحدثه الرسالة في عقل المتلقي ووجدانه، وكلما استجاب المتلقي لمضمون الرسالة دل ذلك على أنها أحدثت التأثير الذي استهدفه القائم بالاتصال»[١].

وفي الاصطلاح يعرف (أتوجرت) الألماني الإعلام بأنه: « التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت»[٢].

يبدو واضحا أن تعريف (أتوجرت) يتصف بالعمومية التي تصهر الإعلام التقليدي والإعلام الجديد في بوتقة واحدة، غير أن خاصية الحوار والتفاعل والتواصل الجماهيري عبر وسائط رقمية هي أهم ما يميز الإعلام الجديد عن التقليدي، ما يدفعنا إلى البحث عن تعريف خاص للإعلام الجديد تظهر فيه العلاقة التفاعلية بين طرفي الخطاب (المرسل/المتلقي) عبر القنوات التواصلية الرقمية المتعددة، وفي هذا الإطار ظهرت مجموعة من التعريفات للإعلام الجديد[٣] منها أنه:

١- اندماج الكمبيوتر وشبكات الكمبيوتر والوسائط المتعددة .

---

(١) معجم مصطلحات الإعلام: ٢٦

(٢) عبد اللطيف حمزة، الإعلام له تاريخه ومذاهبه، دار الفكر العربي-القاهرة، (د.ط)، (١٩٦٥م): ٢٣.

(٣) انظر: شروق سامي فوزي، تكنولوجيا الإعلام الحديث، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع-القاهرة، ط١(٢٠١٤م) :٢٣٠ وما بعدها

٢- مجموعة تكنولوجيات الاتصال التي تولدت من التزاوج بين الكمبيوتر والوسائل التقليدية للإعلام، والطباعة والتصوير الفوتوغرافي والصوت والفيديو.

٣- مصطلح يستخدم لوصف أشكال من أنواع الاتصال الإلكتروني [...] يتميز بخاصية الحوار بين الطرفين صاحب الرسالة ومستقبلها.

تعريف الخطاب الإعلامي:

الخطاب الإعلامي هو «النتاج المادي للغة بصفة نصوص اتصالية مرتبطة بشكل منطقي تستوقف المتلقي، وتجعله يتجاوب معها بالقبول أو الرفض بعد أن يصله المعنى بدلالات الفهم والفاعلية والانسجام».(١).

إن الاهتمام بالوسائط التفاعلية التي تربط المتكلم بالجماهير في الخطاب الإعلامي هي أهم المحاور التي يستند عليها البحث، إذ تعد الناقل الأول للخطاب، والمحيط الافتراضي الذي تقع فيه عملية التواصل، وقد انطلق أحمد القاعد في تعريفه للخطاب الإعلامي من هذا التصور حين عرفه بأنه: «مجموع الأنشطة الإعلامية التواصلية الجماهيرية»(٢).

إن التفاعل والتواصل الجماهيري لا يتم دون وجود منتوج لغوي يتحرك في إطار ثقافي واجتماعي يشترك فيه أطرف التواصل المفضي إلى التأثير والإقناع، ذلك ما حاول بشير إبرير مراعاته في تعريفه للخطاب الإعلامي، فقد عرف

---

(١) روبرت لوديس، خصوصيات الخطاب في خدمة الاتصال، ترجمة: ماري يعقوب، سلسلة دراسات، المركز الثقافي الفرنسي في لبنان- بيروت، (١٩٩٠م)، ٣١٣.

(٢) أحمد العاقد، تحليل الخطاب الصحفي من اللغة إلى السلطة، ط١، (٢٠٠٢م): ١١٠.

بشير إبرير الخطاب الإعلامي بأنه: «منتوج لغوي إخباري منوع في إطار بنية اجتماعية وثقافية محددة، وهو شكل من أشكال التواصل الفعالة في المجتمع، له قدرة كبيرة في التأثير على المتلقي وإعادة تشكيل وعيه ورسم رؤاه المستقبلية وبلورة رأيه، بحسب الوسائط التقنية التي يستعملها والمرتكزات المعرفية التي يصدر عنها»[1]، وهذا التعريف هو الإجراء المنهجي الذي استثمره البحث وانطلق منه في تحليل الوصايا.

علاقة الخطاب الإعلامي بالبعد التواصلي في بلاغته:

تكتسب العناصر السياقية المتفاعلة في الخطاب الإعلامي صفة الدينامية؛ لارتباطها بالسياق المتغير باستمرار، كما أنها تدخل جميعها بوساطة المقاربة التداولية في عملية تفاعلية، تخرج الأفعال من الدائرة الصوتية والصرفية والمعجمية للتراكيب، إلى دائرة الإنجاز والاستعمال، وهذا يعني أن النظام السياقي يكتسب بعدا تداوليا حين يتقاسم المحيط الخارجي المتغير باستمرار الأهمية مع المحيط الداخلي المتمثل في التعبيرات اللسانية بتمثيلاتها اللغوية، وهو ما يعطي السياق صفتي الدينامية والحركية التي هي أساس عملية التواصل والتفاعل بين عناصره المختلفة، والتي تسهم مباشرة في بناء الخطاب الإعلامي، فوجود هذه العناصر يعتبر ضرورة للتواصل: وبدونها لا يمكن أن يكون التواصل ممكنا، أضف إلى ذلك أن المقصد في وصايا قدموس بما تحويه من تمثلات إقناعية هو مقصد تواصلي في الأساس، وهو ما يقصد إليه المخاطِب من حمل المخاطَب على معرفة مقصده الإخباري كما يرى (دان سبربر)

(١) بشير إبرير، الصورة في الخطاب الإعلامي "دراسة سيميائية في تفاعل الأنساق اللسانية والأيقونية"، الملتقى الدولي الخامس: السيمياء والنص- جامعة عنابة: ٤

و(ديردر ولسن) [1].

تعريف الوصايا:

تعد الوصايا من أهم الأجناس النثرية المتصدرة في الخطاب الإعلامي المعاصر، فهي جنس نثري أدبي تحوي طاقات إقناعية جلية، ذلك أنها تهتم بكل «أدب وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح الأعمال»[2]، كما أنها تأتي «بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، ويتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع، حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الفراق، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق»[3].

وتجري الوصايا في الفضاء الرقمي –خاصة تويتر– على ألسنة الحكماء ممن حذق أغلبهم صروف القول بصورة عفوية أو موجهة حسب ما يقتضيه سياق القول، وتظهر في صورة حقائق ثابتة تتوسل بتقنيات إقناعية حجاجية للتدليل على صحتها بغرض إقناع المخاطَب والتأثير فيه.

---

(١) انظر: انظر: آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ترجمة: سيف الدين دغفوس–محمد الشيباني–لطيف زيتوني، دار الطليعة– بيروت، ط١، (٢٠٠٣م): ٧٠ وما بعدها.

(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة الرحمانية–مصر، (د.ت)، (١٩٣٥م): ٨.

(٣) علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث–القاهرة، ط١(١٤١٢هـ): ٢٦٨.

وقد تصدى الشاعر فواز اللعبون[١] لمثل هذا اللون من القول الحجاجي عبر صفحته الخاصة في تويتر وقناته الرسمية في التليجرام، فنسج بوصاياه الشعرية والنثرية بردة الحكماء وألبسها (قدموس) الذي تناول كافة الموضوعات اليومية والقضايا الاجتماعية التي انبثقت في المجتمع السعودي المعاصر.

والقدموس «الصخرة العظيمة، وجيش قدموس: عظيم، والقدموس: المِلِكُ الضخم وقيل هو السيد، والقدموس القديم والمتقدم، وقدموس العسكر: مُقَدَّمُه»[٢].

وإلى جانب المعاني المعجمية التي تشف عن مدلولات العظمة والسيادة والملك، يحيل لفظ (قدموس) على الأسطورة اليونانية (قدموس) الملك الفينيقي المقدام الحكيم الآتي من الأزمان الغابرة، تلقَّاه المبدع العربي في أعماله ووظفه توظيفا أسطوريا[٣]، واختار الشاعر فواز اللعبون قدموس ليكون رمزا أسطوريا وتاريخيا فريدا يغذيه المعجم العربي بأبعادٍ دلاليةٍ وثقافيةٍ واجتماعيةٍ يحتاجها المجتمع المعاصر الذي يمضي قدمًا لبناء نهضة حضارية واقتصادية شامخة،

(١) فواز بن عبد العزيز بن محمد اللعبون، شاعر سعودي ولد بالرياض عام (١٩٧٥)، أستاذ جامعي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مثَّل المملكة رسميا في عدد من الفعاليات الشعرية والثقافية، من أهم أعماله النقدية والإبداعية "فائت الأمثال: مقاربة أدبية ساخرة"، "شعر المرأة السعودية: دراسة في الرؤية والبنية" , "الخالديات" و ديوانان شعريان: "مزاجها زنجبيل" عن نادي حائل الأدبي، و"تهاويم الساعة الواحدة" عن النادي الأدبي بالرياض. انظر: صفحة التعريف بالشاعر في الويكيبيديا.
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D9%88%D8%A7%D8%B2_%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%B9%D8%A8%D9%88%D9%86

(٢) ابن منظور، لسان العرب: مادة (قدمس).

(٣) انظر الشاعر سعيد عقل وقصيدة قدموس التي تعد ملحمة حضارية وظف فيها أسطورة قدموس.

وتأسيس مجتمع إنساني متحضر يتخذ من التراث العربي الأصيل قاعدة راسخة ومنهجا قويما للانطلاق والمضي.

وقدموس لقب قدَّم به الشاعر نفسه لمخاطبيه، يقول في الجزء الخاص بالتعريف في صفحته على تويتر: (هنا قدموس بكل تلقائيته)، وكان قد سُئل عن قدموسٍ هذا فقال: " ترجمة قدموس :هو قدموس بن سابر من بني الجحاجحة القداميس، وُلِدَ في بيداء نجد، وعاش أزمانا، ويزعمون أن له تابعًا من الجن يسمى عَندل بن مَندل يُملي عليه أفانين الشعر والنثر بكرة وأصيلا، ويَذكرون أنه جاء من زمن سحيق، وانقطعتْ به الأسباب في غير زمنه، فهو فيه غريب الطبع والشكل واللسان!"[١].

ويمكن إيجاز التفصيل السابق بأن البحث في وصايا قدموس ينطلق في التحليل والقراءة من اعتقاد يرى أن الخطاب الإعلامي يعتمد اعتمادا كبيرا على التواصل والتفاعل بين أطراف الخطاب، عبر العقل التقني الناقل (تويتر/ تليجرام) القادر على استيعاب كافة الأجناس النثرية التي تعد الوصايا من أهمها، من خلال مجموعة من آليات الإقناع الذي تتعاضد لتحقيقه اللغة والسياق.

---

(١) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr/status/1089580563709771776، ٢٧ يناير ٢٠١٩.

المبحث الأول: دور عناصر السياق في الإقناع

للسياق دوره الرئيس في عملية التخاطب؛ إذ لا يتم التواصل إلا بتفاعل عناصره تفاعلا دلاليا وتداوليا؛ للوصول إلى أغراض الكلام المختلفة، سواء كانت تبليغا، أو إخبارا، أو إقناعا، أو التماسا، أو حثا، أو تهديدا، أو وعيدا...إلخ.

وللسياق عدة عناصر، منها ما يرتبط بالقول، ومنها ما يرتبط بالحال، وهي عناصر متداخلة فيما بينها لا يمكن الفصل بينها أو استبعاد أحدها، ويمكن تقسيمها إلى:

١- المخاطِب:

المخاطِب هو«الشخص الذي يحاور ويناقش شخصا آخر...فكل متكلم يتناول الكلمة هو إذن مخاطِب...في لسانيات اللغة ولسانيات الخطاب...فالمخاطِب يعتبر دائما هو الذي يكون، في آن واحد، في وضع المتقبل لعمل تواصل، ووضع من يستطيع تناول الكلام بدوره»[١].

وقد بنى طه عبد الرحمن مفهوم التعدد الصوتي على اعتباره إحدى نظريات تحليل الخطاب، «ومدارها على أن القول المنطوق لا تقوم به ذات واحدة، وإنما تشارك في القيام به ذوات كثيرة كما لو كانت أصواتًا مختلفة تأتلف فيما بينها للنطق به مرة واحدة، ولا تقتصر هذه الذوات على ذات المتكلم الذي تولى النطق بالقول وذات المستمع الذي توجه إليه هذا القول، وإنما تتعداها إلى ذوات أخرى تكون هي المسؤولة عن الأغراض الكلامية التي يحملها هذا القول،

(١) باتريك شارودو، دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب: ٣١٦.

وذوات غيرها تكون هي التي تتوجه إليها هذه الأغراض الكلامية؛ وهذا يعني أن المتكلم عبارة عن ذوات كثيرة ، كل واحدة منها تقوم بوظيفة خطابية مخصوصة، فمنها الذات الخارجية، والذات الناطقة، والذوات الفاعلة، وهي تتعدد بتعدد أغراض الكلام التي انطوى عليها القول»[1].

ويتمثل المخاطِب في وصايا قدموس في عدة تشكلات أصواتية يحمل كل صوت وجهة نظره الخاصة، ومن أمثلة الأصواتية في وصايا قدموس قوله:

قال قدموس: ألا أنبئكم بصفات الذين لهم عقول أكبر من أعمارهم؟

قالوا أنبئنا !

قال:

متواضعون.

واثقون.

علاقاتهم محدودة.

حدسهم دقيق.

يصعب خداعهم.

يكرهون الظهور.

يجيدون التجاهل والتغابي.

يتأقلمون بصعوبة مع الواقع.

غريبو الأطوار في منظور أقرانهم.

---

(١) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي-المغرب، ط٤(٢٠١٦م): ٢٨.

بقي أن تعرفوا أنهم يتعبون أكثر من غيرهم[١].

يستعمل المتكلم أسلوب الاستفهام في بناء الملفوظ الحجاجي، وتعد أدوات الاستفهام أكثر الآثار الدالة على تعدد الأصواتية في الملفوظ، فإذا أُريد رصد الطاقة الحجاجية للاستفهام، فلا بد من الحديث عن «دور الاستفهام في الربط بين ما يصرح به في الكلام وما يضمَّن، لذلك ليس من الصدفة أن يكون الاستفهام من الاختبارات المعتمدة في تحديد الاقتضاء[...]وإذا سلمنا بما سبق فإن لافتراض الاستفهام والسؤال أدوارا تختلف بحسب تقدير السؤال وسياقه»[٢]، ويحوي الملفوظ قضية جدلية تعبر عنها وجهتا نظر مختلفتين لمتكلم ومتلفظَين:

المتلفظ١ (قدموس): وجود صفات خارقة يملكها بعض صغار السن.

المتلفظ٢: رفض وجود هذه الصفات الخارقة لأنها تتنافى مع طبيعة صغار السن في الأساس، وهو مضمون قضوي استلزمه الاستفهام.

المتكلم (فواز): صوت خارجي يراقب الذوات المتلفظة ويُفترض فيه الحياد، لكنه يتماهى هنا مع المتلفظ١، لا مع المتلفظ٢.

وعليه، فإنه وبمقتضى المحتوى الدلالي يحمل الاستفهام مضمونا قضويا مؤداه أن هناك فئة من صغار السن تشذ عن أقرانها وتملك صفاتا لا توجد لدى أقرانها يمكن بموجبها وصف عقولهم بالكبيرة، إلى جانب أن الاستفهام عمل

(١) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٨/ ١/ ٢٠٢٠م.

(٢) شكري المبخوت، إنشاء النفي وشروطه النحوية، (تونس: مركز النشر الجامعي-٢٠٠٦م): ٥٧.

على إلزام المخاطَب بمواصلة التحاور في اتجاه معين، فالسؤال المصنوع من المتكلم يخرج عن معنى الاستفهام الحقيقي وهو طلب الفهم[1] إلى معانٍ أخرى مستلزمة يحددها السياق وهو تنبيه المخاطَب وتشويقه وشد انتباهه للقول.

واستفهام المتكلم بـ(ألا) التي تفيد العرض والتحضيض يأتي احتذاء بالأسلوب النبوي في استعمال الاستفهام[2]، فقد استعمل الاستفهام بـ(ألا) جريا على عادة الحديث النبوي في استعمالها في مقامات التشويق وجذب انتباه السامع للقول العظيم المستلزم انتباها عميقا ووعيا كبيرا من السامع، وهذه الأهمية للقول يؤكده التشكيل البصري الذي يتحكم في مساحة الصفحة البيضاء في التغريدة نفسها، فالمتكلم يضع كل صفة في سطر منفرد، ويغلقه بنقطة ليوحي إلى السامع أن كل صفة تمثل قضية مستقلة بنفسها منفصلة عن غيرها.

(١) انظر: ابن قتيبة الدينوري، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة-مصر، ط٤(١٣٨٢هـ-١٩٦٣م): ٣٦٠.، وانظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المطبعة الأزهرية-مصر، ط١(١٩٧٩م):١/٢٩٤.

(٢) الشواهد على الاستفهام بـ(ألا) في الحديث النبوي كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله صلى الله عليه وسلم : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟): رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، برقم (٢٦٥٤)، وبرقم (٥٩٧٦)، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧)

٢- المخاطَب

المخاطَب هو: «الكائن الإنساني الواقعي الذي يتوجه إليه المتكلم بالخطاب في زمان ومكان محددين، والمخاطَب هو هذا الكائن نفسه وقد انتقل إلى متخيل المتكلم ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه»[١]، وللمخاطب أنواع يمكن حصرها فيما يلي:

- المخاطَب الحقيقي: وهو المخاطب المنخرط مباشرة في التفاعل/التخاطب، ومن أجله أنتج البناء اللغوي والبلاغي، وتظهر في هذا البناء الذي ينتجه المخاطِب أمارات تدل على أنه يتوجه إليهم مباشرة بالخطاب، وقد تظهر أمارات من المتكلم تدل على أنه يوجه الخطاب إلى مخاطب مشارك، لكنه غير مؤهل، يظهر ذلك من خلال موقفه[٢].

- المخاطَب المفترض[٣]: وهو مخاطب ثانوي غير مباشر «قبلي..يستحضره المتكلم قبل إنتاج خطابه، فالخطاب يقتضي أن يكون المتكلم قد كون فكرة مفترضة وصورة متخيله عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه»[٤].

---

(١) حسن المودن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، ضمن كتاب "الحجاج مفهومه ومجالاته": ٢٢٨/١.

(٢) انظر: دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتين، الدار العربية للعلوم ناشرون-الجزائر، ط١(١٤٢٨م-٢٠٠٨م): ١٣ وما بعدها.

(٣) لا يعني وصف المخاطب بالمفترض أنه من صنع الخيال، بل يعني أن المتكلم قبل أن يواجه المخاطب الواقعي بخطابه، يكون قد استطاع أن يكون عن المخاطب الواقعي تمثلا ذهنيا وصورة متخيلة، انطلاقا من معطيات سياقية تخص المخاطب الواقعي، حسن المودن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، ضمن كتاب "الحجاج مفهومه ومجالاته" ٢٢٨/١، بتصرف.

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ومن الوصايا التي يظهر فيها المخاطَب بنوعيه قول قدموس:

فيمَ التشاؤم والحياة جميلةٌ

وعطاء ربك عنك ليس بزائل

اشكر عطاياه وعش متفائلا

ما ارتاح في الدنيا سوى المتفائل

انظر إلى المتشائمين تراهمُ

يشكون من جور الزمان المائلِ

وإذا استقام زمانُهم أزرى بهم

إرجافُ وهم ما له من طائل

يحيون في وقت النعيم تعاسةً

ويرون في الأفراح ظل غوائلِ[1].

يظهر في الملفوظ السابق نوعان من المخاطبين المفترضين:

- مخاطب خالي الذهن لا يفترض المتكلم اتصافه بالتشاؤم، يوجه له الخطاب بغرض الإخبار والنصح والإرشاد، وهذا المخاطب هو المخاطب الكوني الذي تكوَّن في ذهن المتكلم قبل عملية التلفظ.
- مخاطب متشائم على الحقيقة، يوجه له الخطاب بغرض الإقناع وتغيير دعواه القائمة على التشاؤم.

وفي كلا النوعين يحاول المتكلم طرح وجهة نظره وإقناع المخاطَب مفترضا

(١) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٧/ ١/ ٢٠٢٠م.

أن للمخاطَب الحق إما في إقرارها والاقتناع بها، أو ردها ونقضها بحسب قوة الحجج التي ساقها في الملفوظ أو انهزامها، ولإقناع المخاطب والتأثير فيه يستعمل المتكلم عدة منبهات تداولية منها توظيف الأفعال الكلامية وما فيها من قوة إنجازية لإقناع المخاطَب أو زيادة إقناعه والتأثير فيه، ويتأثر بناء الفعل الكلامي في الملفوظ السابق بأنواع المخاطبين؛ لأن الفعل الكلامي يهتم في الأساس بإخراج اللغة من محيطها الصوري إلى المحيط الإنجازي، الذي يعطي اللغة ديناميتها وحركيتها في محيط تواصلي يجمع مختلف أصناف المخاطبين، والأفعال الكلامية هي: «كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري»[١]، وهي ذاتها الأنواع الثلاثة للأفعال التي ميز بينها (أوستين) [٢]، وكل فعل من

(١) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: ٤٠ وما بعدها.

(٢) صنف (سيرل) الأفعال الكلامية، فجعلها في خمسة أصناف «يحقق المرسل بكل منها هدفا معينا، فتصبح أهداف الأفعال اللغوية كما يلي: ١- التأكيديات،أو الأفعال التأكيدية أو التقريرية، والهدف منها انخراط المتكلم-بدرجات مختلفة- في حقيقة الحالات المعبر عنها، أي بأن شيئا ما هو واقعة حقيقية وصادقة. ٢- الأوامر، أو الأفعال التوجيهية، تقوم وجهة الإنجاز في الأوامر على حصول المتكلم بواسطتها على قيام المستمع بشيء أي جعل المخاطَب يفعل شيئا ما، ويكون الأمر على درجات مختلفة تتراوح بين الاقتراح الخجول اللين كالنصح والإرشاد والالتماس، وبين القوة والإجبار، وذلك بالإصرار على فعل الشيء. ٣- الالتزامات، أو الأفعال الالتزامية، وهدفها جعل المتكلم ينخرط في إنجاز فعل مستقبلي، وهي مبنية على شرط الإخلاص. ٤- الأفعال التعبيرية، وهدفها التعبير عن حالة نفسية محددة بشرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب عن تلك الأمور المحددة. ٥- الأفعال التصريحية، وهدفها مطابقة المضمون القضوي للواقع، أي، جعل العالم يطابق الخطاب والخطاب يطابق العالم» راجع: فرانسواز أرمنكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي(د.ت): ٦٨.

هذه الأفعال يؤثر في الآخر[1]:

-الفعل الفونطيقي الصوتي (فعل القول): وهو مجرد فعل التلفظ ببعض الأصوات ذات البناء النحوي السليم القائم على الصوت والتركيب والدلالة.

- الفعل الكلامي الإنجازي (الفعل المتضمن في القول): هو النطق بالألفاظ الصوتية الخاضعة لأنحاء مخصوصة، متصلة على نحو معين بمعجم معين، مرتبطة به، وخاضعة لنظامه، وهو العمل المنجز بقول ما، وهو أهم فعل عند أوستين ومحور نظريته.

- الفعل الخطابي أو التأثيري (الفعل الناتج عن القول): الطريقة التي يؤدى بها فعل الإنجاز، باستعمال تلك الألفاظ مقرونة بالمعنى أو المرجع، فالمتكلم قد يقول شيئا يترتب عليه حدوث بعض الآثار على إحساس المخاطب وأفكاره أو تصرفاته، كالإقناع، أو التثبيط، أو التضليل...إلخ.

وارتبط الفعل الكلامي بالمخاطِب من جهة القصد المؤثر في نظرية أفعال الكلام، «فقد يكون من الممكن مثلا في حال التلفظ بهذه الجملة (إنه سيهجم عليك) أن نصرح: "بما يقصده قولنا"، حينما أصدرنا تلك الجملة...ولكن بدون أن نوضح ما إذا كان من الواضح جدا ما أعنيه عندما أقول "أغلق الباب"، ولكن ما ليس واضحا هو ما إذا كنت أقصد إثبات حكم (خبر) أو

(١) انظر: جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة "كيف ننجز الأشياء بالكلام"، تر: عبدالقادر قينيني، أفريقيا الشرق-الدار البيضاء، ط٢، (٢٠٠٨م): ١٢٣ وما بعدها.

توجيه تحذير (إنشاء) وغير ذلك»[١].

ومن صور توظيف المتكلم للأفعال الكلامية في الشاهد السابق استعماله للفعل الكلامي (انظر) الذي لم يكن قصد المتكلم فيه توجيه الخطاب إلى مخاطَب حقيقي مقصود، بل إنه موجه إلى أي مخاطَب مفترض تتلبسه خصلة من خصال التشاؤم، وكذا لم يقصد المتكلم معنى الأمر الحقيقي، بل خرج عن معنى الأمر إلى معانٍ أخرى يحددها السياق؛ فالقوة الإنجازية في (انظر) تتمثل في التنبيه واستحضار الوعي الذي يقوم مقام جارحة العين في النظر والاستبصار.

وتحضر الاستعارة في القول السابق كأحد أهم المنبهات التداولية لإقناع المخاطَب، فالقول الاستعاري هو قول حواري حجاجي عملي في مقام يتكون من المتكلم والمستمع ومن أنساقهما المعرفية والإرادية والتقديرية ومن علاقتهما التفاعلية المختلفة، كما أن الاستعارة تدخل في سياق التواصل الخطابي باعتباره نسقا من القيم والمعايير العملية الهادفة إلى تغيير الاعتقاد والقصد والتي تنزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمها، وأن يتعرف المستمع على هذا القصد منه، وعلى معنى كلامه وما يلزم عنه[٢] .

وجاءت الاستعارة في قوله:

يشكون من جور الزمان المائلِ

---

(١) المصدر السابق: ١٢٨.

(٢) انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٣٠١ وما بعدها.

وإذا استقام زمانُهم أزرى بهم

إرجافُ وهم ما له من طائل

حيث استعار صفات الجور والإزراء من المستعار منه (الإنسان) للمستعار له (الزمان) على سبيل الاستعارة المكنية، فمن خلال التشكيل الاستعاري استطاع قدموس اختزال علاقة المتشائم بما حوله وهي علاقة قائمة على البغض وترقب الأذى حتى من الجمادات التي لا تنفع ولا تضر، وبالمقابل استطاعت الاستعارة تجسيم موقف غير الأحياء من المتشائم نفسه وهو موقف يقوم على ازدراء المتشائم والسخرية منه؛ فهي تراه ينسج حول نفسه شبكة من الأوهام التي تقيد فكره وعقله وجوارحه فلا فرق بينه وبين الأموات، فصنعت الاستعارة قوة حجاجية لها تأثيرها العميق في نفس المتلقي تأثيرا لا يستطيعه القول الإخباري.

كما تظهر الاستعارة في قوله:

ويرون في الأفراح ظل غوائلِ

والغوائل جمع غائلة وهي المصيبة أو الداهية التي تحل بالإنسان، وهي في عمومها أمر معنوي أخرجته الاستعارة الإقناعية[1]من محيطه المعنوي إلى العالم المادي المحسوس فجسمت الأفراح واستعارت لها الظل الذي يحضر علامة أو إشارة لصاحبه الحقيقي، فصورت الأفراح بما فيها من بهجة وحبور بالإنسان جميل الهيئة، لكن هذه الهيئة الجميلة تثير قلق المتشائم الذي يرى فيها علامة

(١) هي التي تعتمد على أساليب البلاغة القائمة على استخدام الاستعارة في إقناع المتلقي بفكرة أو سلعة معينة من خلال مادة إعلامية أو إعلانية، معجم مصطلحات الإعلام: ٥٦

وإشارة لمصيبة مترقبة آتية، فساعدت الاستعارة المخاطَب على طرح المدلولات الفائضة، وحصرها فيما يقصده المخاطِب.

وإذا كانت ذات المتكلم واحدة، لكنها ظهرت في الملفوظ بأشكال متنوعة، «فكذلك الشأن بالنسبة للمستمع، فهو أيضا متعدد الذوات الاعتبارية»[١]، وتظهر هذه التعددية في وصايا قدموس على مستوى الضمائر، وللسياق الفضل في تحديد نوع المخاطَب ما إذا كان حقيقيا أو مفترضا، وقد ظهرت هذه التمثيلات للمخاطَب على النحو الآتي:

– ضمير المخاطَب الجمع (أنتم)، وأظهر السياق أن أغلب حضوره كان حضورا مجازيا، أي أنه جاء موجها إلى مخاطَبين مفترضين ضمهم الفضاء الرقمي دون تجسيد حقيقي لهم حتى على مستوى الأسماء الحقيقية، فأغلب المخاطبين يدخلون مع المخاطِب في علاقة تفاعلية بأسماء وهمية مستعارة غير حقيقية، غير أن المخاطَب قد يأتي محددا من خلال تصنيفه باعتبار صفة من الصفات، أو جنس من الأجناس...إلخ، من ذلك في وصايا قدموس، ما أورده المتكلم في قوله:

قال قدموس :أيها الأماجد، ألا **أنبئكم** بتقلبات الحاسد؟ قالوا أنبئنا.[2]!

يشير ضمير الجمع في النص السابق إلى صنف من الناس المقصود توجيه الوصية إليهم وهم صنف الأماجد، والأماجد جمع ماجد، « يقال: رجل شريف

(١) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٦٥.

(2) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ١٠ يناير ٢٠٢٠.

ماجد، له آباء متقدمون في الشرف، والتمجيد أن ينسب الرجل إلى المجد، ورجل ماجد: مفضال،كثير الخير، شريف»[١]، وتخصيص هذه الطبقة من الناس بالخطاب يكشف بجلاء جنسا آخر من الناس يقعون في منطقة الضد للأماجد ويتصفون بنقيض صفاتهم، وهم الحساد، وقد جاء ضمير الجمع في (أنبئكم) عائدا على صنف الأماجد في مقابل الإفراد للصنف الآخر الذي جعله المتكلم مفردا؛ في إشاره إلى كثرة الصنف الأول وغلبتهم، وقلة الصنف الثاني ومحدوديتهم في المجتمع.

- ضمير المخاطب المفرد (أنت)، من ذلك:

قال قدموس رضي الله عنه :متى **اقتنعتَ** بجمال شيء فلا **تُقارنه** بغيره، ولا **تَنبِش** في تفاصيله .حتمًا **ستجد** أجمل منه، **وستجد** أجمل من الأجمل، **وستظل تطارد** الجَمال حتى **تكتشف** أنه **فيك** لا في الأشياء، **وستكتشف** أيضًا أنه لا كمال للجمال إلا هناك قرب شجرة طُوبَى[٢].

إذا كان الضمير في المثال السابق جاء محددا لصنف من المخاطبين، فإن السياق في هذا الملفوظ يبيِّن أن ضمير المخاطب (أنت)، عائد على مخاطَب ثانوي غير مباشر وغير محدد، استحضره المتكلم قبل إنتاج خطابه، فأنت في الخطاب تصدق على أي أحد من جنس المخاطبين، سواء كان من صنف الأماجد أو الحساد، أو الأغنياء أو الفقراء، أو العامة أو الخاصة...إلخ، ويكثر

---

(١) مادة (مَجَدَ)، لسان العرب.

(٢) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ١٠ يناير ٢٠٢٠.

هذا النوع من الضمائر في مقام تأصيل قضية من القضايا أو صفة من الصفات التي يقصد المتكلم إلى تعميقها وتأكيدها في نفس المخاطَب.

٣- المعارف المشتركة

توضع المعارف المشتركة «مسبقا وتكون بالاشتراك أثناء حصول التفاعل»[١]، وعليه فإنه «يمكن أن نعرف الخلفية المشتركة بين المتكلم والمخاطب بأنها مجموع المقامات الممكنة التي ينوي المتكلم تمييزها بواسطة إخباراته»[٢]، وهناك نوعان من المعرفة المشتركة:

«- معرفة عامة بالعالم، ومنها معرفة كيف يتصل الناس بعضهم ببعض، وكيف يفكرون، وكيف يستطيعون أن ينجزوا أفعالهم اللغوية داخل المجتمع، مع إقامة الاعتبار لأطره العامة الدينية، الثقافية، الاقتصادية، الاجتماعية.

- المعرفة بنظام اللغة، في جميع مستوياتها، بما في ذلك دلالاتها، وعلاقتها بثقافتهما»[٣].

وتؤثر الإيديولوجيا في المعارف المشتركة لمجتمع ما، وهي «علاقة خيالية للأفراد بوجودهم المتجسم ماديا في أجهزة وممارسات»[٤]، وترتبط بالمجتمع من حيث إنها الفكر المسيطر على الجماعة من الأفراد، والمجتمع في الأساس يطلق على «الجماعة من الأفراد يجمعهم غرض واحد، أو على الاجتماع الإنساني

(١) باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب: ٩١.

(٢) انظر: موشلر، ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف: عزالدين المجدوب، المركز الوطني للترجمة، (تونس: دار سيناترا ،٢٠١٠م): ٢٤٥ وما بعدها.

(٣) انظر: عبدالهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٨٧/١.

(٤) باتريك شارودو، دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ٢٩٢.

من جهة ما هو ذو صفات متميزة عن صفات الأفراد...ويطلق لفظ المجتمع بمعنى أخص على المجموع من الأفراد تؤلف بينهم روابط واحدة، تثبتها الأوضاع والمؤسسات الاجتماعية، ويكفلها القانون، أو الرأي العام بحيث لا يستطيع الفرد أن يخالفها، أو ينحرف عنها، إلا إذا عرض نفسه للعقاب، أو السخط، أو اللوم»[١].

والتمثيلات الاجتماعية في الفكر التداولي تحيل على الطريقة التي يؤول بها الفرد ملفوظاته، وتحيل أيضا بمعنى أوسع على المعارف المشتركة التي يتقاسمها المتخاطبون حتى يتحقق لهم عملية التفاهم[٢]، فلكل «مجتمع من المجتمعات ظواهر عامة مشتركه بين جميع أفراده، وهي لا تنحل إلى الظواهر النفسية الفردية؛ لأن الاجتماع يولد في نفوس الأفراد كيفيات جديدة من الشعور والتفكير والإرادة يمكن أن يطلق عليها اسم الوعي الجماعي»[٣].

يقول قدموس:

خذوا طاقة الأيام من يومِ جمعةٍ

فيا رُبَّ يومٍ كان أفضل من ألفِ

أفيضوا عليكم من عطاياه واسكبوا

على ظلمة الأرواحِ من سورةِ الكهفِ[٤]

في هذه الوصية يقيم قدموس علاقة تواصلية مع مخاطَبيه معتمدا على المعارف

(١) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (لبنان: دار الكتاب اللبناني-بيروت)، د.ط، (١٩٨٢م): ٣٤٥.

((٢)) باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب: ٤٨٩.

((٣)) جميل صليبا، المعجم الفلسفي: ٣٤٥.

(٤) https://telegram.im/dr_fawaz: ٤ يناير ٢٠١٤.

المشتركة، ذلك أنها تضطلع بمهمة كبيرة في عملية التخاطب، إذ تقوم بترتيب أعقد المعلومات الدلالية في الذاكرة عند كل تداول، فأطراف التخاطب لا يستطيعون ولا يحتاجون أن يحتفظوا بسائر المعلومات المصاغة في الخطاب، أو تفصيل القول اللغوي في الخطاب؛ ولهذا السبب فإن هذه المعلومات أو جزءا منها ينبغي أن يكون موجودا في ذاكرة طرفي الخطاب؛ ليُستَنتج بواسطة أتم دلالة لمعلومات الخطاب[١].

ولا يمكن بناء خطاب تواصلي بين طرفي الخطاب ما لم تكن هناك معرفة مشتركة بيوم الجمعة وما يرمز إليه هذا اليوم في الضمير الجمعي المسلم وما فيه من طقوس دينية من اغتسال وتطيب وصلاة وتلاوة لسورة الكهف وتحرّي ساعة الاستجابة، ويظهر مثل ذلك في قول قدموس:

حذرتكم من عدو كامن لكمُ
فما اكترثتم بتحذيري ولم تثقوا
كم صحت فيكم: سحاب الكره ظللكم
والأرض توشك أن يجتاحها الغرق
ناديتُ ناديتُ: يا قومي اركبوا سفني
لا يخدعنكمُ في لطفه الوَدَقُ
هيهات ما قممُ الأجبال تعصمكم
لا عاصم اليوم إلا الحب فاعتنقوا

((١)) انظر: فان دايك، النص والسياق النص والسياق"استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبدالقادر قنيني، (المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م): ٢٥٥.

وكلكمُ كان يلقاني بسخريةٍ

والآن دمعي على الجودي منهرقُ[1].

لا يمكن للمتكلم بناء عملية تواصلية مع مخاطبيه ما لم يكن هناك افتراض بالعلم بما هو معلوم بداهة وبما يمكن أن يكون محمولا كذلك، وقد ظهرت المعارف المشتركة في القول السابق على مستوى المعارف المشتركة بين المتكلم وعموم المخاطبين، تمثل في افتراض العلم بقصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه، وما آل إليه أمر القوم الذين كذبوا، وماذا تمثل الرموز المكانية (الجبل/الجودي) في الوجدان الجمعي المسلم، وهذه لا شك من المسلمات الأساسية المشتركة بين المتكلم ومخاطبيه تكفي المتكلم عناء القص والحكي في تفاصيل معلومة بداهة يستحضرها المخاطب حال التلقي فتقصر مسافة الظفر بمقصود القول في الوصية.

(١) https://telegram.im/dr_fawaz: ٤ يناير ٢٠١٤.

المبحث الثاني: الإقناع اللغوي

يتألف النظام اللغوي في بعده الإقناعي من الدعاوى، والحجج، والسلم الحجاجي، والروابط والعوامل:

١- الدعاوى

تعني الدعوى في القواميس الغربية: «وجهة نظر المحاجج حول مسألة فيها خلاف، ينظم خطابه ويقيمه بناء عليها، وغالبا ترد في مقدمة الخطاب الحجاجي»(١)، ويرى طه عبد الرحمن أن «المنطوق به لا يكون خطابا حقا حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما يقول من نفسه وتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة»(٢).

ومن الدعاوى المساقة في وصايا قدموس قوله:

لُذ بالفراق إذا شكوت جحودهم
ما في فراق الجاحدين جناح
ما العيب لو فارقت أهل خساسة
بعض الفراق تطيب فيه جروح
أولست تبتر منك جزءًا فاسدًا
ليعم سائر جسمك الإصلاح
ابتر خسيس الطبع لا ترأف به

(١) باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب: ١١٤ وما بعدها.

(٢) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط١، (١٩٩٨م):٢٢٥.

وستستبدُّ بقلبك الأفراح[١].

تتكون الدعوى في الملفوظ السابق من وجهتي نظر متصادمتين، تنبني وفق سياقات معينة، تتحدد بملاءمة السياق للقول، والدعوى تتكون من:

- دعوى موجبة (اعتزل أهل الخسة)
- دعوى سالبة (لا تعتزل أهل الخسة)

فيظهر مما سبق أن المدِّعي يفترض معارضا ضمنيا يحمِّله وجهة نظر مخالفة، فيعرض الدعوى المفترض فيها الخلاف، ثم يسوق الحجج على صحتها بهدف إقناع المخاطَب الكوني بالدعوى المعروضة.

وتظهر الدعوى على سبيل المجاز في قوله (ابتر خسيس الطبع لا ترأف به) فيكفي الصفة «الحجاجية للقول الاستعاري، أن نستبين فيها وجوه تداخل آليتي (الادعاء) و(الاعتراض) اللتين تميزان الحجاج»[٢]، فالمتكلم في الشاهد السابق أقام ذاتا ادعت وجود المعنى المجازي للقول الاستعاري الذي استعار البتر الذي هو من لوازم الإنسان لصاحب صفة الخسة، فصور صاحب الخسة في صورة عضو فاسد من أعضاء الإنسان يستلزم البتر مع ما يصاحب ذلك من ألم ووجع، فالرأفة الملازمة عادة لعلاقة الصداقة لا مكان لها مع خسة الطبع، فالمراد هنا الانقطاع عن حامل صفة الخسة مهما بلغت شدة الارتباط به، وقد نقلت قرينة (خسيس الطبع) البتر من حالته المادية (قطع العضو) إلى حالته المعنوية (الانقطاع عن صاحب صفة الخسة).

---

(١) فواز اللعبون، https://telegram.im/dr_fawaz: ، ١٤ديسمبر ٢٠١٩م.

(٢) طه عبدالرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٣١١.

أما دور الاعتراض فتتكفل به الذات المؤولة التي تعترض على وجود المعنى المجازي للقول وترى أن «المعنى المبلَّغ هو أولى بالظهور من المعنى الحقيقي غير المبلغ»[١]، وذلك الاعتراض الدافع الأساس لصياغة الدعوى على قاعدة القياس، وهو فعالية استدلالية خطابية حجاجية تنطلق من ثلاث مسلمات:

- حوارية الخطاب بناء على كون الكلام لا يكون مفيدا إلا بين اثنين أحدهما عارض والآخر معترض.
- وصفية الخطاب: تقوم على أن الموضوع عبارة عن موجود مخصوص والتخاطب عبارة عن لغة، والطريق لنقل الموجود المخصوص إلى لغة لا يكون إلا في صورة صفات مخصوصة يحوله إلى مجموعة من المحمولات أو الصفات.
- بنائية الخطاب: انطلاقا من كون الخطاب ينشئ موضوعاته إنشاء تدريجيا فتتحول من الادعاء إلى الاعتراض، ومن الإثبات إلى الإبطال والعكس بالعكس؛ لأن التخاطب عملية بناء وصنع وليست موجود خام وممنوح[٢].

وعليه، فإن صياغة الدعوى على طريقة القياس تتم في ثلاث مراحل:

- عرض القضية المثبتة: (بتر الجزء الفاسد يحفظ سائر الجسد)
- نفي القضية المثبتة: (بتر الجزء الفاسد لا يحفظ سائر الجسد)
- القضيتان السابقتان تنتج القضية الثالثة (الدعوى): (إبعاد الخسيس سرورٌ للقلب).

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان او التكوثر العقلي، ٢٧٩.

وتحمل كل دعوى بذور التصادم في بنيتها العميقة، ذلك أنها تقوم في الأساس على قيمتي الإثبات والنفي، والسلب والإيجاب وفق مراحل متتابعة تبدأ بعرض الدعوى التي تحمل قضية مثبتة أو منفية، وافتراض معترض عليها ينفي المثبت أو يثبت المنفي، ثم سوق الحجج بغرض إقناع المخاطَب والتأثير فيه.

٢- الحجج

الحجة بعامة «عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، والحجة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدا طبيعيا أو سلوكا غير لفظي إلى غير ذلك»[١]، والحجة تعني في البلاغة الملفوظ الذي يعطي النتيجة شرعيتها[٢].

والحجج متنوعة منها على سبيل المثال:

- حجة الدليل:

وهي الحجج الجاهزة، التي تساق في القول على شكل شواهد متعارف عليها، تحضر في الخطاب الحجاجي بطريقتين: «طريقة ظاهرة: يعرض فيها "المحاور" شواهد من أقوال الغير، مثل: (النقل) و (التضمين) و(الحكاية) و(العنعنة) و(الشرح) و(الاقتباس) و(التعليق) وهلم جرا ، طريقة باطنة: ينشئ "المحاور" نصه عبر نصوص سابقة مماثلة أو مباينة، ويفتح بها آفاق نصوص

(١) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، (لبنان: مؤسسة الرحاب الحديثة-بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م): ٢١ وما بعدها.

(٢) انظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب: ٦٦.

أخرى مكملة أو مبدِّلة، فيصطبغ عندها النص بصبغة المغايرة الصميمية»[١].

ومثال ذلك من وصايا قدموس قوله:(قال قدموس: وللشعر مملكة أنت بلقيسها)[٢]، فالحجة المساقة في هذا الملفوظ مقتبسة من قصة بلقيس ملكة سبأ، فإذا كانت المرأة قد تمكنت من اعتلاء عرش المملكة على سبيل الواقع والحقيقة فإنها استطاعت باقتدار اعتلاء عرش مملكة الشعر بكل صوره وعاطفته وموسيقاه.

ومن أمثلة حجة الدليل التي تعتمد الشرح في صياغتها قوله: "في الناس فئة تستمد معنى وجودها من المخالفة، فلو قلت لأحدهم: الطريق يمين، قال: بل يسار، ولو قلت: يسار، قال: بل يمين، ولو قلت: نلتقي السبت، قال: بل الأحد، ولو قلت: الأحد، قال: بل السبت .إن كنت تعرف منهم أحدًا فابتعد عنه، فمعظم أمراض العصر لا تكون إلا بسببه، والعجيب أنه لا يَمَرَض!" [٣]، فالدعوى التي يقيمها المتكلم هي وجود صنف المخالفين لأجل الخلاف لا غير، ويتبع الدعوى بشرح عن ماهية هذا الصنف من الناس وصفاته التي يعرف بها بين الناس.

– الحجج شبه المنطقية، وهي على قسمين:

---

(١) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي– الدرا البيضاء، ط٢(٢٠٠٠م): ٤٧.

(٢) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٨ يناير ٢٠٢٠.

(٣) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٨ يناير ٢٠٢٠.

أ: الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية، وسميت شبه منطقية لأنها غير ملزمة كمثيلتها المنطقية، وهي حجج تثبت صحة الموضوع من منظور عقلي عن طريق بعض الصيغ المنطقية والرياضية، ومن أهم هذه الحجج حجة التعدية التي تقوم على إثبات أن العلاقة الموجودة بين أ و ب من ناحية وب و ج من ناحية أخرى هي علاقة واحدة، تؤدي إلى استنتاج أن العلاقة نفسها موجودة بين أ و ج، ومن هذه العلاقات التي تقوم على ضروب التعدية علاقة التضمن، وهي من أهم علاقات التعدية التي تبين أن قضية ما تتضمن قضية أخرى(١)، ومن أمثلة ذلك في وصايا قدموس قوله:

قال قدموس رضي الله عنه :يعجبني اثنان: رَجُل يغتابه الرجال، وامرأة تغار منها النساء !أما الرجل فما اغتابه الرجال إلا لأنه بعيد المرام، رفيع المقام، وأما المرأة فما غارت منها النساء إلا لأنها باهرة الجَمال، عاطرة الخِصال (٢).

النتيجة المسكوت عنها: (بعض النساء قبيحات)

النتيجة المسكوت عنها: (ليس كل الرجال فضلاء)

ويمكن أن تكون النتيجة المسكوت عنها: الغيبة، والغيرة خصال ذميمة.

ومن **الحجج شبه المنطقية** حجة التناقض وعدم الاتفاق: والتناقض هو تقابل قضيتين إحداهما تنفي الأخرى وتنقضها في نظام واحد(٣)، وحجاج

---

(١) انظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، (تونس: دار مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م): ٤٣ وما بعدها.

(٢) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٨ يناير ٢٠٢٠.

(٣) انظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج: ٤٣ وما بعدها.

التناقض «هو الحجاج الذي يلغي عن طريق الرد العكسي المفهوم المخالف للمفهوم المقصود من لدن المتكلم»[١]، ومن الوصايا التي جاءت على حجة التناقض قوله:

قال قدموس: يا بني الإنسان، أتدرونَ ما الحِرمان؟ قالوا: أن يَطلب أحدُنا متع الحياة فلا يقدر عليها !قال: لا، بل الحِرمان أن تكون لديه مُتَع الحياة ولا يشعر بها! [٢].

فقد نقضت القضية الثانية (الحرمان امتلاك المتع مع عدم الشعور بها) القضية الأولى (الحرمان طلب متع الحياة وعدم القدرة عليها)

ب- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، ومنها:حجة التقسيم أو التوزيع: تقوم على تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له، كقولنا الكلام اسم وفعل وحرف، والغاية الأساسية من حجة التقسيم -حسب برلمان- إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم[٣].

وقد استعملها قدموس في وصاياه بكثرة، من ذلك قوله: "من أنواع الحُبّ :

١ .الحُبّ الإلهي، وهو أن تحب الله وأحبابه.

٢ .الحُبّ المقدس، وهو أن تحب أحدهم أكثر من حبك لنفسك.

٣ .الحُبّ العاطفي، وهو أن تحب امتلاك قلب أحدهم.

---

(١) عبد العزيز لحويدق، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته: ١/ ٨٦٨.

(٢) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٨ يناير ٢٠٢٠.

(٣) انظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٤٨وما بعدها.

٤ .الحُبّ الاجتماعي، وهو أن تحب للناس ما تحب لنفسك.

٥ .الحُبّ الشيطاني، وهو أن تحب نفسك، ثم نفسك، ثم نفسك[١].

ومثال ذلك أيضا قول قدموس:

"الاعتذار نوعان :

١ .اعتذار لمن أسأنا إليه؛ لأننا نحب الإنصاف!

٢ .اعتذار لمن أساء إلينا؛ لأننا نحبه تبّاً له ولمن يلومنا فيه ![٢].

– الحجج المؤسسة على بنية الواقع

وهي لا تصف الواقع وصفا موضوعيا، بل تصف الآراء المتعلقة بهذا الواقع، وهي تستعمل الحجج شبه المنطقية لتربط بين أحكام مسلم بها قبلا، وأحكام يسعى الخطاب إلى تثبيتها وجعلها مقبولة ومسلما بها، فتكون الأحكام المسلم وبها وغير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون الآخر، ويمكن أن تكون الآراء، وقائع، أوحقائق، أو افتراضات ومن أشكال الاتصال والترابط بين هذه الآراء ما يأتي:

أ– الاتصال التتابعي: ويكون بين ظاهرة ما ونتائجها أو مسبباتها، ومن وجوه الاتصال التتابعي الرابط السببي، ومن ضروبه الحجاج الذي يكون هدفه أن يُستَخلَص من حدث ما وقع سبب أدى إليه، وقد يكون الرابط السببي مضمرا يفهم من سياق القول ومن أمثلة ذلك في وصايا قدموس قوله:

(١) فواز اللعبون https://twitter.com/fawaz_dr/status/1215783860606324738 ١٠ يناير ٢٠٢٠م

(٢) فواز اللعبون https://twitter.com/fawaz_dr/status/1215783860606324738 ٥ يناير ٢٠٢٠م

"قيل إنهم وجدوا في صحائف قدموس قصاصة مكتوبًا فيها بحروف من ذهب:

المحتاج إلى الناس منبوذ، والمستغني عنهم عزيز، ومُعطيهم مَلِك"(١).

للشخص ثلاث صور مسببة عن ثلاث خصال:

-منبوذ لأنه محتاج

- عزيز لأنه مستغنٍ

- ملك لأنه معطٍ

أو قد يكون ظاهرا من خلال الرابط السببي (الفاء، لأن...إلخ) ومن ذلك قول قدموس: "يحدث أن يؤذيك أوغاد لا لأنك آذيتهم، بل **لأن** استقامتك فَضَحَت اعوجاجهم، **ولأن** نظافتك فَضَحَت ما هم فيه من دَنَس، **ولأن** ارتفاعك بَيَّنَ كم هم وضيعون!"(٢)

ب: الاتصال التواجدي، ومن وجوه الاتصال التواجدي حجة السلطة: وتعد أهم حجج الاتصال التواجدي، وهي حجج تعتمد على هيبة المتكلم ونفوذه وسطوته، فهي تستعمل أعمال شخص وأحكامه حجة على صحة أطروحته، ومن أشكال حجة السلطة:

- السلط الشخصية: مثل: (الإجماع، الرأي العام، العلماء، الفلاسفة، الكهنوت، الأنبياء).

- سلط الأشخاص المعينين بأسمائهم، بشرط الاعتراف بهم من قبل الجمهور.

(١) فواز اللعبون https://twitter.com/fawaz_dr/status/1215783860606324738 ١٠ يناير ٢٠٢٠م

(٢) فواز اللعبون https://twitter.com/fawaz_dr/status/1146865491698262016 ٤ يوليو ٢٠١٩م

– السلط غير الشخصية: مثل، (الفيزياء، الدين، الكتاب المقدس) [١].

ومن أمثلة حجة السلطة في وصايا قدموس احتجاج المدعي بسلطة الإجماع والعلماء لإقناع المخاطَب بصحة دعواه في قوله: "أجمَعَ جمهور العلماء على جواز ثلاثة أنواع من الموسيقا :ضحكة طفل، وهمس أنثى، وإيقاع مطر"[٢].

– الحجج المؤسسة لبنية الواقع:

١– تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة، ومن الحالات الخاصة المثل والغاية منه تأسيس قاعدة، وتكون عادة في الحالات التي لا يوجد بها مقدمات، والمثل يكون حالة خاصة قيلت في مناسبة خاصة، لكنها توسعت وتعممت حتى صارت قاعدة عامة تشكل قانونا[٣]، من ذلك قول قدموس: "لا تجادِلْ.. اعرِضْ رأيك، ثم أشِرْ إلى البحر[٤].

فهذه حالة خاصة، بنيت عليها حالة خاصة أخرى هو قولنا: (إن لم يعجبك قولي فاشرب من ماء البحر)، دلالة على أن المحاج لا يقيم وزنا لاعتراض المحجوج، فهنا مررنا من حالة خاصة إلى حالة خاصة أيضا وهو ما يسميه برلمان: (الحجاج من الخاص إلى الخاص).

---

(١) انظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٥٤ وما بعدها.

(٢) https://twitter.com/fawaz_dr/status/1215783860606324738 ١٠يناير ٢٠٢٠م

(٣) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، جمهرة الأمثال، تح: أحمد عبدالسلام–محمد سعيد بن بسيوني زغلول، (لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٨هـ–١٩٨٨م)، ١/١٧٥.

(٤) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٢ يناير ٢٠٢٠.

- **حجج القيم السائدة:** وتدخل في ذلك قيم المنطقي والمعقول، والشائع، والحلال والحرام، والمخالف للطبيعة، والأصالة والمعاصر...إلخ[١]، مثال ذلك في وصايا قدموس: "قال قدموس رضي الله عنه :لولا أوغاد يغتابون ويشتمون ويسيئون بنا الظنون لأقبلنا على الله مفاليس!" [٢].

تستعمل هذه الحجة قيمة محرمة وهي الغيبة، فالمتكلم يضمِّن عقاب المغتاب يوم القيامة في حجته، كما تستحضر الحجة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "أتَدرونَ ما المفلِسُ؟ إنَّ المفلسَ من أُمَّتي مَن يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي وقد شتَم هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعْطَى هذا من حَسناتِه، وهذا من حسناتِه، فإن فَنِيَتْ حَسناتُه قبلَ أن يُقضَى ما عليهِ، أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليهِ، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ"[٣]

(١) انظر: عبد العزيز لحويدق، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته: ١/ ٨٦٨.

(٢) فواز اللعبون، https://twitter.com/fawaz_dr?lang=ar، تغريدة بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠١٩

(٣) رواه مسلم (باب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم)

٣- السلم الحجاجي

السلم الحجاجي «هو علاقة ترتيبية للحجج، يمكن أن نرمز لها كالتالي:

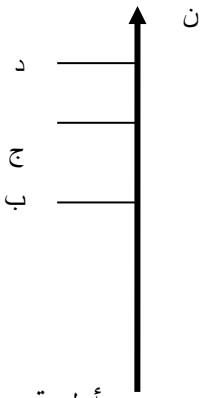

ن = النتيجة

"ب" و"ج" و"د": حجج وأدلة تخدم النتيجة "ن"»[١].

وللسلم الحجاجي ثلاثة قوانين:

- قانون النفي: وتفسيره أنه إذا كان قول ما مستخدما من قبل متكلم ما ليخدم نتيجة معينة، فإن نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.
- قانون القلب: وله علاقة بالنفي؛ لأن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية، فإذا كانت إحدى الحجتين أقوى من الأخرى في التدليل على نتيجة معينة، فإن نقيض الحجة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على النتيجة المضادة.
- قانون الخفض: إذا قلنا مثلا: (الجو ليس باردا) فنحن نستبعد التأويلات التي ترى أن البرد قارس وشديد، فلا تندرج الأقوال الإثباتية مثل: (الجو بارد)، والأقوال المنفية في نفس الفئة الحجاجية ولا نفس السلم الحجاجي؛ فإنه

(١) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج: ٢٦.

إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم الحجاجي، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها[١].

ومن الشواهد التي يظهر فيها ترتيب الحجج ما جاء في الانتصار للنفس في قوله: "قال قدموس :قد يظلمك أحدهم، فتسأل الله الإنصاف، أو تدعو عليه، ولا ترى ضررًا محسوسًا وقع عليه !اطمئن، الإنصاف قد يأتي في عدة صور : طمأنينة قلبك .حب الناس لك .سعة رزقك .بركة وقتك .رضاك بما أنت فيه . صرف أذى عنك .كما أن الضرر الواقع على خصمك ربما لا تعلمه؛ فقد يكون في كَرب وشتات وعذاب"[٢].

يخضع ترتيب الحجج في وصايا قدموس لمعطيات السلم الحجاجي وقوانينه، ففي الشاهد السابق تنتمي الحجج إلى فئة حجاجية واحدة تؤدي كلها إلى دعوى مضمرة هي (تحقق الإنصاف)، وقد صيغت بأسلوب الإثبات، وبدأت بالحجة الأقوى ثم الأقل فالأقل في السلم الحجاجي، وتظهر العلاقة الترتيبية التفاضلية للحجج في السلم الحجاجي على النحو الآتي:

- الحجج التي تعتمد الحاجات الروحية والاجتماعية: (طمأنينة القلب، حب الناس)
- الحجج التي تعتمد الحاجات المادية: (سعة الرزق، البركة في الوقت)
- الحجج التي تعتمد الحاجات الأمنية: (صرف الأذى)

---

(١) انظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ٢٧.

(٢) https://twitter.com/fawaz_dr/status/1215783860606324738 ١٠يناير ٢٠٢٠م

- الحجج التي تعتمد إشباع رغبة الانتصار للنفس ككرب الخصم وشتاته والعذاب الذي يحل عليه

النتيجة: (تحقق الإنصاف).

٤- الروابط والعوامل

بدأ التنظير في **الدراسات الغربية** للروابط والعوامل حين ظهر دورهما الوظيفي المتمثل في ثلاث وظائف عامة:

- فهم الأبعاد الدلالية للتسلسلات اللغوية.
- كونها قرائن مهمة تساعد في ترجيح المعاني وفهمها.
- دورها في تقسيم أطراف الكلام بين مقول، ومنطوق، ومقتضى مسكوت عنه.

- الروابط

ومن هذه الوظائف العامة للروابط انبثقت فكرة البحث في هذا الموضوع، خاصة من زاوية تداولية حجاجية، فبدأت عند (أوستين)، و (سيرل)، وغيرهما[١]، «ثم طورت معطياتها النظرية في أعمال لاحقة...»[٢]، أهمها الدراسات التي قام بها (ديكرو)، حيث اقترح «وصفا حجاجيا جديدا لهذه الروابط والأدوات باعتباره بديلا للوصف التقليدي»[٣].

---

(١) انظر: أحمد كروم، الروابط الحجاجية والطاقات الاستدلالية"قراءة في كتاب اللغة والحجاج للدكتور: أبو بكر العزاوي، ضمن كتاب (الحجاج اللغوي"قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي")، تنسيق: الدكتور حسن مسكين، (الأردن: عالم الكتب الحديث-إربد، ط١، ٢٠١٧م): ٤٦.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج: ٣٣.

الرابط هو الذي «يربط بين وحدتين دلاليتين (أو أكثر)، في إطار استراتيجية حجاجية واحدة»[١]، وهناك عدة أنواع للروابط، منها:

١- الروابط الحجاجية، التي تنبني عليها الاستدلالات، مثل:(حتى، ما دام، بالفعل، لأن) .

٢- الروابط الاستنتاجية، والمعاني التي تنتج عنها إما صريحة وظاهرة، أو مضمرة، من مثل: (إذن، كذلك، أيضا...)..

٣- روابط عكس-حجاجية، وتستعمل لإضعاف الحجة السابقة أو تقوية حجة أخرى، من مثل: (بالرغم، على أن، لكن...).

٤- روابط إعادة التقييم، من مثل: (أخيرا، في آخر الأمر، على كل حال، باختصار...)[٢].

ومن الروابط المدرجة للحجج الرابط (حتى) التي تربط بين حجتين/قولين أو أكثر، وتعمل على ترتيب الحجج داخل الخطاب «بحيث يكمن دورها في ترتيب عناصر القول ويفهم معناها الوظيفي من السياق الذي ترد فيه»[٣]

وقد وظف قدموس هذا الرابط في وصاياه ضمن سلم حجاجي يخدم نتيجة ضمنية قصد إليها، من ذلك قوله:

اصبرْ على نقصِ الصديقِ فلن ترى

أبدًا صديقا لا يسوؤكَ مَخْبَرا

---

(١) المرجع السابق: ٣٥.

(٢) انظر: المرجع السابق: ٤٢٥.

(٣) خديجة بوخشرة، الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي "مقاربة تداولية"، رسالة ماجستير، جامعة وهران-الجزائر (٢٠١٠م): ١٥٦.

ما ثَمَّ محمودُ الخصالِ جميعِها

مات الذين بمثلِهم يسمو الوَرَى

حتى لو استنسختَ نفسَكَ نُسخةً

وتَخِذتَ نفسَكَ صاحبًا لن تَشْكُرا[١].

ربط الرابط (حتى) بين حجتين:

١- لا يوجد إنسان تحمد له كل الخصال إلا الأنبياء

٢- استنساخ الصديق من نفسك لا يحقق كمال الخصال

للحجتين التوجه الحجاجي نفسه، لكن الحجة الثانية الواقعة بعد الرابط الحجاجي (حتى) لها درجة أعلى من تلك الواقعة قبله، وهي تخدم دعوى ضمنية واحدة وهي انعدام الكمال البشري.

ومن الروابط الحجاجية الرابط (لكن) المحصور في الغاية الحجاجية وهي عند كل من (روبول وجاك موشلر) حجاجية مضادة تعمل على التحكم في آليات التخاطب[٢]

"قال قدموس :

ألا أنبئكم بآداب الحرب، والفتك والضرب؟ قالوا:أنبئنا !قال:

إن آذاك فلان فحاربه ونحن معك، لكن لا تحارب أهله !

إن آذاك متدين فحاربه ونحن معك، لكن لا تحارب الدين !

---

(١) https://telegram.im/dr_fawaz: ٣٠ يوليو ٢٠١٩.

(٢) عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين-تونس، ط١(٢٠١١م): ٢٢

إن آذتك امرأة فحاربها ونحن معك، لكن لا تحارب كل النساء !

إن آذاكِ رجل فحاربيه ونحن معك، لكن لا تحاربي كل الرجال!"[١].

استعمل المتكلم الرابط الحجاجي الذي ربط بين حجتين تضاد إحداهما الأخرى؛ للحفاظ على النتيجة المناقضة للنتيجة السابقة، وبذلك تحال القوة الحجاجية للحجة الثانية فتظهر أقوى حجية من الأولى.

– العوامل:

يعرَّف العامل الحجاجي على أنه الأداة «التي تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية»[٢]، ومن أمثلة العوامل الحجاجية: أدوات النفي: (لا، لن، لم، ما، ليس)، وهي أكثر العوامل التي اهتم بها (ديكرو)[٣]،بعض الأفعال والأقوال من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، وجل أدوات القصر[٤].

ومن العوامل الحجاجية في وصايا قدموس (لا) النافية، والنفي هو «العامل الذي يحول القضية الصحيحة إلى قضية خاطئة، والخاطئة إلى صحيحة»[٥]، "قال قدموس :ألا أنبئكم عن فضيلة الحِلْم، ومَغْنَم السِّلْم؟

قالوا: **لا** .

---

(١) https://twitter.com/fawaz_dr/status/1212683583913177089 ٢ يناير ٢٠٢٠

(٢) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج: ٣٣.

(٣) انظر: ألطاف إسماعيل أحمد الشافي، العوامل الحجاجية في شعر البردوني(النفي نموذجا)، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، ع٤٣، ١٦ ذي الحجة ١٤٣٦هـ-٣٠ أيلول ٢٠١٥م: ٤٢٥.

(٤) انظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج: ٣٣.

(٥) عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ٤٨.

فقال: ألا تبًّا لكم ثم تبّا، وما لبث أن كَرَّ عليهم بعصا كانت معه، وألانَ ظهورهم واحدًا واحدًا"[١].

في هذا الملفوظ جاء النفي في سياق السخرية على شكل رأي معاكس يحمل معه بذور السخرية، للتأثير في السامع وحمله على القبول والإذعان بدعوى مضمرة هي (مخالفة الفعل القول)، وقد أدخل قدموس (لا) ضمن هذا النوع من العوامل؛ لأن (لا) متمحضة للنفي وحين استعملها المحاج في الإجابة عن سؤال موجه للمخاطبين أدخل بطريقة غير مباشرة مقولة أخرى متضمنة في النفي، وهي مقولة الإثبات التي مؤداها أن بعض الناس يقولون ما لا يفعلون، فربط عامل النفي.

ومن العوامل الحجاجية عاملية أدوات القصر وأهمها القصر بالنفي والاستثناء، «وهذا النوع من القصر يعمل على قصر الشيء وحصره بصاحبه من دون سواه، فهو يحصر فعالية الحجاج في جهة حجاجية واحدة؛ لأنه يضيف إلى الكلام قوة حجاجية تزيد من طاقته في توجيهه نحو النتيجة»[٢]، ومن أمثلة القصر بالنفي والاستثناء (ما...إلا) في وصايا قدموس قوله:"**وما** التوفيق **إلا** أبٌ راضٍ عنك، وأُمٌّ تدعو لك، وأحبابٌ يرجون لك السعادة"[٣]،

---

(١) https://twitter.com/fawaz_dr/status/1212683583913177089
٢٨ يناير ٢٠١٩

(٢) عايد جدوع حنون، العوامل الحجاجية في آيات الأحكام، مجلة أوروك-المجلد التاسع-العدد الرابع (٢٠١٦م): ١٥.

(٣) https://twitter.com/fawaz_dr/status/1212683583913177089
٢٢ يناير ٢٠١٩

وهنا قصر التوفيق على ثلاثة أمور لا غيرها:

- أب راضٍ.
- أم تدعو لك.
- أحباب يرجون سعادتك.

والعامل الحجاجي يصنع وجهتي نظر متصادمتين:

الأولى: أن التوفيق تلك الأمور الثلاثة

الأخرى: أن التوفيق غير ذلك

وجاء القصر بـ(ما .....إلا) ليبدد اعتراض المخاطَبين، ويحصر النتيجة جهة الدعوى المثبتة لا غيرها.

نخلص من ذلك أن النظام اللغوي الإقناعي له فعاليته في بناء الدعاوى وتنميط الحجج، كما تعمل العوامل والروابط على الربط بين قولين أو حجتين أو أكثر، أو تحصر القوة الحجاجية في جهة واحدة.

الخاتمة

قارب البحث وصايا قدموس من خلال عناصر السياق، ونظام الإقناع اللغوي ودورهما في الإقناع في الخطاب الإعلامي، وتأكدت له عدة نتائج، أهمها ما يأتي:

أن طرفي الخطاب في وصايا قدموس تمثل في عدة تشكلات أصواتية يحمل كل صوت وجهة نظره الخاصة، فاستعمل المتكلم أسلوب الاستفهام في بناء الملفوظ الحجاجي، وكانت أدوات الاستفهام أكثر الآثار الدالة على تعدد الأصواتية في الملفوظ.

استُعملت عدة منبهات تداولية منها توظيف الأفعال الكلامية وما فيها من قوة إنجازية لإقناع المخاطَب أو زيادة إقناعه والتأثير فيه، ويتأثر بناء الفعل الكلامي في الملفوظ بأنواع المخاطبين، وقد تمثل المخاطَب في صور مختلفة أهمها: ضمير المخاطَب الجمع (أنتم)، وأظهر السياق أن أغلب حضوره كان حضورا مجازيا، أي أنه جاء موجها إلى مخاطَبين مفترضين ضمهم الفضاء الرقمي دون تجسيد حقيقي لهم حتى على مستوى الأسماء الحقيقية، فأغلب المخاطَبين يدخلون مع المخاطِب في علاقة تفاعلية بأسماء وهمية مستعارة غير حقيقية، ومثله ضمير المخاطب المفرد (أنت) عاد على مخاطَب ثانوي غير مباشر، استحضره المتكلم قبل إنتاج خطابه.

وحضرت الاستعارة في الوصايا كأحد أهم المنبهات التداولية لإقناع المخاطَب، فالقول الاستعاري هو قول حواري حجاجي عملي، صنع قوة حجاجية أثرت تأثيرا عميقا في نفس المتلقي تأثيرا لا يستطيعه القول الإخباري.

وأقام قدموس علاقة تواصلية مع مخاطَبيه معتمدا على المعارف المشتركة، ذلك أنها تضطلع بمهمة كبيرة في عملية التخاطب، إذ تقوم بترتيب أعقد المعلومات الدلالية في الذاكرة عند كل تداول، فالمتخاطبين لا يتسطيعون ولا يحتاجون أن يحتفظوا بسائر المعلومات المصاغة في الخطاب، أو تفصيل القول اللغوي في الخطاب

وحملت كل دعوى بذور التصادم في بنيتها العميقة، ذلك أنها تقوم في الأساس على قيمتي الإثبات والنفي، والسلب والإيجاب وفق مراحل متتابعة تبدأ بعرض الدعوى التي تحمل قضية مثبتة أو منفية، وافتراض معترض عليها ينفي المثبت أو يثبت المنفي، ثم سوق الحجج بغرض إقناع المخاطَب والتأثير فيه.

وتنوعت الحجج في وصايا قدموس بين حجة الدليل التي تساق في القول على شكل شواهد متعارف عليها، وبين الحجج شبه المنطقية، وكانت على قسمين: الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية، وأهم الحجج الذي جاءت على هذا المثال في الوصايا حجج التعدية التي تعتمد علاقة التضمن، وحجة التناقض وعدم الاتفاق، ومن الحجج كذلك الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، ومنها حجة التقسيم أو التوزيع وقد استعملها قدموس في وصاياه بكثرة، وكذا استعمل الحجج المؤسسة على بنية الواقع، ومن أهمها الاتصال التتابعي، ومن وجوه الاتصال التتابعي الرابط السببي، وقد كان الرابط السببي مضمرا يفهم من سياق القول، وظاهرا من خلال الرابط السببي (الفاء، لأن...إلخ)، ومنها كذلك ما يسمى بالاتصال التواجدي، ومن وجوه

الاتصال التواجدي حجة السلطة: وتعد أهم حجج الاتصال التواجدي، وهي حجج تعتمد على هيبة المتكلم ونفوذه وسطوته، وقد احتج قدموس بسلطة الإجماع، والعلماء، والحكماء، ومن الحجج المستعملة في الوصايا الحجج المؤسسة لبنية الواقع بواسطة الحالات الخاصة، ومن الحالات الخاصة حجج القيم السائدة وتدخل في ذلك قيم المنطقي والمعقول، والشائع، والحلال والحرام، والمخالف للطبيعة، والأصالة والمعاصر، ويخضع ترتيب الحجج في وصايا قدموس لمعطيات السلم الحجاجي وقوانينه، كما تعمل العوامل والروابط على الربط بين قولين أو حجتين أو أكثر، أو تحصر القوة الحجاجية في جهة واحدة.

المصادر والمراجع

١- أحمد العاقد، تحليل الخطاب الصحفي من اللغة إلى السلطة، ط١، (٢٠٠٢م).

٢- أحمد كروم، الروابط الحجاجية والطاقات الاستدلالية"قراءة في كتاب اللغة والحجاج للدكتور: ٣- أبو بكر العزاوي، ضمن كتاب (الحجاج اللغوي"قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي")، تنسيق: الدكتور حسن مسكين، (الأردن: عالم الكتب الحديث-إربد، ط١، ٢٠١٧م).

٤- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية"بنية الخطاب من الجملة إلى النص"، (المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع-الرباط، د.ط، د.ت).

٥- أحمد يوسف، السيميائيات التداولية من البنية إلى السياق، ضمن كتاب التداوليات وتحليل الخطاب، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، كنوز المعرفة-عمان، ط١(١٤٣٥هـ-٢٠١٤م).

٦- أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة الرحمانية-مصر، (د.ت)، (١٩٣٥م).

٧- أعضاء المجمع"لجنة ألفظ الحضارة"، معجم مصطلحات الإعلام مجمع اللغة العربية-القاهرة، (د.ط)، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)

٨- آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ترجمة: سيف الدين دغفوس-محمد الشيباني-لطيف زيتوني، دار الطليعة- بيروت، ط،١ (٢٠٠٣م).

٩- باتريك شارودو-دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري-حمادي صمود، دار سيناترا-تونس، دط(٢٠١٣).

١٠- بشير إبرير، الصورة في الخطاب الإعلامي "دراسة سيميائية في تفاعل الأنساق اللسانية والأيقونية"، الملتقى الدولي الخامس: السيمياء والنص- جامعة عنابة.

١١- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، (لبنان: مؤسسة الرحاب الحديثة-بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م).

١٢- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المطبعة الأزهرية-مصر، ط١(١٩٧٩م).

١٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (لبنان: دار الكتاب اللبناني-بيروت)، د.ط، (١٩٨٢م).
١٤- جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة "كيف ننجز الأشياء بالكلام"، تر: عبدالقادر قينيني، أفريقيا الشرق-الدار البيضاء، ط٢، (٢٠٠٨م).
١٥- حسن الباهي ، العلم والبناء الحجاجي، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته"دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث- الأردن، ط١(١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
١٦- حسن المودن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته"دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث- الأردن، ط١(١٤٣١هـ-٢٠١٠م)
١٧- دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتين، الدار العربية للعلوم ناشرون-الجزائر، ط١(١٤٢٨م-٢٠٠٨م).
١٨- روبرت لوديس، خصوصيات الخطاب في خدمة الاتصال، ترجمة: ماري يعقوب، سلسلة دراسات، المركز الثقافي الفرنسي في لبنان- بيروت، (د.ط)، (١٩٩٠م).
١٩- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط١(١٩٨٩م)
٢٠- شروق سامي فوزي، تكنولوجيا الإعلام الحديث، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع- القاهرة، ط١(٢٠١٤م).
٢١- شكري المبخوت، إنشاء النفي وشروطه النحوية، (تونس: مركز النشر الجامعي- ٢٠٠٦م).
٢٢- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي- الدرا البيضاء، ط٢(٢٠٠٠م).
٢٣- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء، ط١، (١٩٩٨م)، و ط٤(٢٠١٦م).
٢٤- عبد العزيز لحويدق، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته"دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث- الأردن، ط١(١٤٣١هـ-٢٠١٠م).

٢٥- عبد اللطيف حمزة، الإعلام له تاريخه ومذاهبه، دار الفكر العربي-القاهرة، (د.ط)، (١٩٦٥م).
٢٦- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، (تونس: دار مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م).
٢٧- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب"مقاربة تداولية لغوية"، كنوز المعرفة-عمان،ط٢، (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م).
٢٨- عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية"مقاربة تداولية"، (لبنان: الانتشار العربي-بيروت، ط١، ٢٠١٣م).
٢٩- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين-تونس، ط١(٢٠١١م).
٣٠- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث-القاهرة، ط١(١٤١٢هـ).
٣١- فان دايك، النص والسياق النص والسياق"استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبدالقادر قنيني، (المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م).
٣٢- فرانسواز أرمنكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي(د.ت).
٣٣- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، دار الحديث-القاهرة، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).
٣٤- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غومفمان، ترجمة: صابر الحباشة، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع-اللاذقية، ط١، (٢٠٠٧م).
٣٥- ابن قتيبة الدينوري، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة-مصر، ط٤(١٣٨٢هـ-١٩٦٣م).
٣٦- محمد العبد، النص الحجاجي العربي"دراسة في وسائل الإقناع"، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته"دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث- الأردن، ط١(١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
٣٧- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب"دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي"، دار الطليعة-بيروت، ط١(٢٠٠٥م).

٣٨- موشلر، ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف: عزالدين المجدوب، المركز الوطني للترجمة، (تونس: دار سيناترا ،٢٠١٠م).
٣٩- أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، جمهرة الأمثال، تح: أحمد عبدالسلام-محمد سعيد بن بسيوني زغلول، (لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

الرسائل الجامعية:

١- خديجة بوخشرة، الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي "مقاربة تداولية"، رسالة ماجستير، جامعة وهران-الجزائر (٢٠١٠م).

المجلات والدوريات:

١- ألطاف إسماعيل أحمد الشافي، العوامل الحجاجية في شعر البردوني(النفي نموذجا)، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، ع٤٣، ١٦ ذي الحجة ١٤٣٦هـ-٣٠ أيلول ٢٠١٥م.
٢- عايد جدوع حنون، العوامل الحجاجية في آيات الأحكام، مجلة أوروك-المجلد التاسع- العدد الرابع (٢٠١٦م).

المواقع الإلكترونية

- صفحة الويكيبيديا

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D9%88%D8%A7%D8%B2_%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%B9%D8%A8%D9%88%D9%86

- حساب الشاعر الرسمي بتويتر

https://twitter.com/fawaz_dr?ref_src=twsrc%5Egoogle%7Ctwcamp%5Eserp%7Ctwgr%5Eauthor

- حساب الشاعر على التليجرام

https://telegram.im/dr_fawaz:

البنية التصوّريّة في الخطاب السرديّ من خلال "تضاريس الوجع" لإبراهيم التركي

د. محمّد الناصر كحّولي

قسم اللغة العربيّة وآدابها – كلية اللغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة

جامعة القصيم

البنية التصوّريّة في الخطاب السرديّ من خلال "تضاريس الوجع" لإبراهيم التركي

د. محمّد الناصر كحّولي

قسم اللغة العربيّة وآدابها – كلية اللغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة
جامعة القصيم

تاريخ تقديم البحث: ٢٨/ ١/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٩/ ٣/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

يهدف هذه المقال إلى دراسة البنية التصوّريّة في الخطاب السرديّ عموما والخطاب الروائيّ على وجه الخصوص، وبيان كيفيّة تشكّل مختلف مقوّمات السرد تصوّريّا والوقوف على الاستعارات التصوّريّة الكامنة خلفها.

فالاستعارات التصوّريّة تساهم بمقدار واسع في تشكيل الأعمال وإخضاعها لمنطق معيّن. وتتحكّم في البنى الذهنيّة والنفسيّة لدى الشخصيّات تحدّد طريقة فهما وإدراكها للعالم وأشيائه من حولها. فتترتّب على ذلك الإدراك ألوان مختلفة من القناعات والسلوك، تكون حاسمة في شبكة العلاقات. وينشدّ الزمان والمكان بدورهما إلى عمق إدراكيّ يُفرغهما ممّا فيهما من وظائف التأطير ويملؤهما بوظائف الفهم والتفكير.

ويطمح هذا المقال إلى الوصول إلى نتائج تنير جوانب جديدة من الخطاب السرديّ، وتفتح مسالك بحثيّة مختلفة، وتساهم في تثوير الخطاب النقديّ، تعزّز الجهود المبذولة في إطار تطوير علم السرد العرفانيّ.

الكلمات المفتاحية: البنية التصوّريّة / البَنْيَنَة / التصوّرات الاستعاريّة / مقوّمات السرد / الخطاب الروائيّ.

The conceptual structure in the narrative discourse Through "Terrain of Pain" by Ibrahim Al-Turki

Dr. Mohamed Naceur Kahouli
Department of Arabic Language and Literature – Faculty Arabic Language and Social Studies
Qassim university

Abstract:

This article aims to study the conceptual structure in narrative discourse in general and in the novel in particular, to show how the various components of the narrative are conceptually formed and to identify the conceptual metaphors behind them.

Conceptual metaphors contribute to a large extent to shaping writings and subjecting them to a certain logic. It controls the mental and psychological structures of the characters. It determines the way they understand and perceive the world and the objects, events, and emotions taking place around them. As a result of this awareness, different types of convictions and behaviors are crucial in the network of relationships. Time and space, in turn, seek a depth of awareness that empties them of the functions of framing and, instead, fills them with functions of understanding and thinking.

This article aspires to reach results that illuminate new aspects of narrative discourse, open various research avenues, contribute to revolutionizing the critical discourse, and strengthen efforts made in the framework of developing the science of cognitive narration.

key words: conceptual structure/ structuration/ conceptual metaphrical/ elements of narration/ narrative discourse.

المقدّمة

تُعدّ البنية إطارا نظريّا يُستخدم لتنظيم الموجودات المادّيّة وفهمها، تنظيما قائما على أولويّة العلاقة على الكينونة، وتقديم النظام على المعنى، وأسبقيّة الكلّ على الجزء، حيث لا قيمة للجزء في ذاته، بل يستمدّها من علاقته بغيره من الأجزاء، أي من النسق الذي ينتظمه مع بقيّة العناصر. وكلّ الموجودات والنشاطات وألوان السلوك تحقّق سطحيّ لبنية مّا، تُمكّن من تشكيلها وتنظيمها وفهمها. وتقوم البنية على خصائص ثلاث: الكمال والتحوّل والتنظيم الذاتيّ[١].

وتجري الدراسات النقديّة البنيويّة في مجال الأدب، من منظور إنشائيّ، إلى الكشف عن البنية القصصيّة أو السرديّة انطلاقا من المبادئ الأساسيّة والقوانين المتحكّمة في أنظمة العمل الأدبيّ عموما والسرديّ على وجه الخصوص، بوصفه بنية مستقلّة بذاتها، حيث تعمل تلك المبادئ والقوانين على تشكيل البنية القصصيّة والتحكّم في عمل السرد وصناعة المعنى، وتنهض بدورها في الجماليّة والإمتاع. في حين تنزع دراسات بلاغة الحجاج إلى البحث عن مظاهر تشكيل البنية الحجاجيّة في مختلف مقوّمات السرد، حيث تُظهر الروابط بين الأفكار البنية الاستدلاليّة[٢]، وتترابط الأقوال لتشكّل عمل المحاجّة[٣]، وتنهض بدورها في

---

١ لويس تايسون، النظريات النقدية المعاصرة، ترجمة أنس عبد الرزاق مكتبي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠١٣، ص ٢٠٧.

2 Bernard Meyer, Maîtriser l'argumentation, Armand Colin, Paris, 1996, p. 169.

3 Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, L'argumentation dans la langue, Mardaga, 3ème édition, Paris, 1997, p. 8.

التوجيه (Orientation) تمهيدا للتأثير والإقناع.

غير أنّ مقاربة الخطاب السرديّ من منظور عرفانيّ تختلف تماما، فقد اتّجه علم الأدب العرفانيّ إلى دراسة الأدب من زاوية دوره في الإدراك والمعرفة[1]. ونزع علم السرد العرفانيّ منذ ظهوره إلى النهج التجريبيّ على حساب النهج التأويليّ، وركّز على العمليّات العرفانيّة لفهم القصة على أساس أنّ القارئ يبني نموذج الحالة الذهنيّة المتعلّق بالكون المغلق وما يحدث فيه (القصّة). وذلك البناء يدعم العمليّات العرفانيّة الأكثر تعقيدًا مثل حلّ المشكلات وإمكان تجربة المواقف أو ألوان السلوك، باستخدام القصص مصادر للمعرفة[2]. وهذا فضلا عن ظهور روابط محتملة بين قصّة مثيرة وإنشاء ملفّ كبير ومعقّد في ذهن القارئ[3]. فينهض السرد بدوره في الفهم والإدراك وتعميق المعرفة.

وظلّت مسالك البحث في علم السرد العرفانيّ تدور حول كيفيّة توظيف الكون القصصيّ المغلق في زيادة الفهم وتعميقه، و"معالجة المعلومات بعبارات

1 Emily T. Troscianko and Michael Burke, A Window on to the Landscape of Cognitive Literary in Cognitive Literary Science Dialogues between Literature and Cognition, Oxford University Press, 2017, p. 4.

2 Baptiste Campion, Évaluer le récit comme acte cognitif Quel cadre pour les approches expérimentales?, in Cahiers de Narratologie Analyse et théorie narratives, No 28, 2015, p. ٧.

3 Marie Vanoost, De la narratologie cognitive à l'expérimentation en information et communication: comment cerner les effets cognitifs du journalisme narratif?, in http://journals.openedition.org/narratologie/7239.

سرديّة"[1]، وحول "فرضيّة المحاكاة المجسّدة" (Embodied simulation hypothesis) لذلك الكون المغلق، حيث يتمكّن القارئ من إبراز نفسه في عقول الآخرين وأفعالهم، بما في ذلك الأشياء والأحداث المسرودة[2].

وهذا يفتح الباب وسيعا لدراسة البنية التصوّريّة في الخطاب السرديّ عموما والروائيّ خصوصا، في إطار ترقية مباحث علم السرد العرفانيّ. ومدار البنية التصوّريّة على الكشف عن "البناءات التصوّريّة"[3] التي تمثّل العمق العرفانيّ لمختلف مقوّمات السرد من أعمال وشخصيّات وزمان ومكان، ودراسة كيفيّة بَنْيَنَة (Structuration) تلك المقوّمات، بوصفها مجالا هدفا، انطلاقا من المحيط الفيزيائيّ والتجارب الاجتماعيّة والثقافيّة، بوصفها مجالا مصدرا. فكيف تتشكّل البنية التصوّريّة في العمل السرديّ؟ وما التصوّرات الاستعاريّة القاعديّة الثاوية خلف مقوّمات السرد، والمتحكّمة في بَنيتها؟ وما وظائف تلك البنية التصوّريّة؟ وكيف تساهم في إنتاج الدلالة؟؟

وقد آثرنا للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها دراسة رواية "تضاريس الوجع" لإبراهيم التركي. ويُردّ اختيارنا هذا إلى عاملين أساسيّين: يتّصل أوّلهما بهيمنة العمق التصوّريّ على مختلف مقوّمات السرد في الرواية، ممّا ييسّر عمليّة البرهنة على البنية التصوّريّة. ويتعلّق ثانيهما بتجذّر الرواية في محيطها الفيزيائيّ، رغم

1 Brian Boyd, Patterns of Thought: Narrative and Verse, in Cognitive Literary Science, Oxford University Press, 2017, p. 95.

2 Raymond W. Gibbs, Jr, Embodied Dynamics in Literary Experience, in Cognitive Literary Science, Oxford University Press, 2017, p. 223.

٣ جورج لايكوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠١٨، ص ٩٢.

كونه تخييليّا، وارتباطها بتجارب اجتماعيّة وثقافيّة مخصوصة. وسنعتمد في البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ مستندين إلى المقولات العرفانيّة. فكيف تشكّلت البنية التصوّريّة في مستوى الأعمال؟

أوّلا: مستوى الأعمال:

١/ البنية الحرفيّة:

رأى العرفانيّون أنّ هناك بَنْيَنة مشتركة وعامّة للأعمال في أغلب اللغات، ووصل ناريان إلى بنية واحدة عامة وحرفيّة تتكوّن من سبعة عناصر:

* الوضع الأوّل: كلّ ما يتطلّبه العمل لكي يُستوفى.
* البداية: سيرورة الانطلاق بالنسبة إلى العمل.
* بداية النهاية: نهاية سيرورة الانطلاق وبداية السيرورة الرئيسيّة.
* السيرورة الرئيسيّة: الجهات الرئيسيّة للعمل.
* توقّفات ممكنة: انقطاعات السيرورة الرئيسيّة.
* إمكان التكرار أو استمرار السيرورة الرئيسيّة: تواصل السيرورة الرئيسيّة أو إعادتها.
* الوضع النهائيّ أو الناتج: الحالة التي تنتج عن السيرورة الرئيسيّة[١].

١ جورج لايكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ترجمة وتقديم عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط ١، بيروت، ٢٠١٦، ص-ص ٢٤٩-٢٥٠.

ويمكن اختزال هذه العناصر السبعة في ثلاثة عناصر فحسب، تجعلها أكثر تناسبا مع الأعمال في الخطاب السرديّ عموما والروائيّ على وجه الخصوص، وهي،

* البداية، وتشمل العناصر الثلاثة الأولى.
* السيرورة الرئيسيّة، وتشمل العناصر الثلاثة الموالية.
* الوضع النهائيّ أو الناتج.

وستكون هذه البنية الحرفيّة الثلاثيّة أساس دراسة الأعمال في رواية "تضاريس الوجع". وقد تأسّست الرواية على ثلاثة أعمال أساسيّة، تعلّقت بالراوي بوصفه الشخصيّة الرئيسة:

* إنقاذ أخيه سليمان من الإعدام.
* استرداد سيف أبيه من اللصّ منصور.
* المحافظة على علاقته الزوجيّة مع جاكلين.

أ/ عمل إنقاذ الأخ:

وردت البداية في عمل إنقاذ الأخ سليمان من الإعدام متعدّدة المراحل، فقد تطلّبت عمليّة استيفائه عودة الراوي من باريس إلى مدينته، ولئن كان الراوي حريصا على استيفاء ما يتطلّبه هذا العمل فإنّ استعداده الذهنيّ والنفسيّ لم يكن على قدر ما يقتضيه هذا العمل، فهو يقول: "لا أدري لمَ أنا مسقوف بالرهبة من مستقبل مظلم، غامض، مستقبل رسم الخبر الفاجع أوّل ملامحه؟ لقد وقع الخبر عليّ كالصاعقة، أحسست حين سماعه بالحياة تتوقّف، تظاهرت

كلّ خلايا جسمي رافعة لافتات الرفض والتكذيب" (ص ١٠)[١].

واقتضت البداية في مستوى سيرورة الانطلاق شروع الراوي في جمع المعلومات حول الأسباب التي أدّت سليمان إلى قتل طلال ابن عمّه وزوج أخته نورة. فاتّصل الراوي بأخته نورة، وكان مصرّا على جمع المعلومات، فجاءت أسئلته مباشرة: "نورة، هل قتل سليمان طلالا؟" (ص ٢٢).

وتمثّلت السيرورة الرئيسيّة في سعي الراوي إلى حمل أهل القتيل على التنازل عن حقّهم في القصاص، واستصدار عفو منهم. فاتّصل بعمّه بوصفه والد القتيل. وكان الراوي واعيا وعيا مسبقا بالمعرقلات التي ستواجه السيرورة الرئيسيّة بسبب صرامة مواقف العمّ فيما سلف من القضايا. فهو يقول: "أعلم أنّي جئت أنفخ في رماد، وأزعم إنّي إذ أقنعك بالعفو كمن يقنع الجبل أن يذوب. ولكن ليس أمامي غير هذا الطريق" (ص ٥٢). وصدق حدس الراوي، فقد استعصم العمّ بالرفض وأصرّ على القصاص، قائلا: "ليس عندي في هذا الموضوع كلام جديد، ولا أحبّ أن أسمع عنه شيئا، ولن أقبل من أحد شفاعة أو وساطة. القاتل يجب أن يُقتل كائنا من كان" (ص ٤٥).

ولكنّ الراوي امتلأ أملا، بعد أن اطّلع على مذكّرات أخيه سليمان، وعرف جميع ملابسات عمليّة القتل، فقد أقدم طلال على عمليّة انتحار بإطلاق الرصاص على نفسه، ولكنّ الرصاصة لم تقتله، وظلّ يعاني ألما شديدا، عندئذ أجهز عليه سليمان، إشفاقا عليه من أن يجتمع عليه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة من جهة، وليوفّر له نوعا من الموت المريح من جهة أخرى، يقول سليمان

١ سنحيل على المصدر طيّ المتن تجنّبا لتضخيم الهامش.

في مذكّراته: "لقد تعذّب في حياته بما فيه الكفاية، أأتركه يموت فيتعذّب في آخرته؟ لم لا أساعده وأساعد نفسي على إنهاء هذا العذاب؟ تركته فلم أحمله، لقد قرّرت وليكن ما يكون. أخذت منه المسدّس. وانتهى كلّ شيء" (ص ١٠٤).

وحملت هذه الحقيقة الجديدة الراوي على أن يكرّر السيرورة الرئيسيّة، فقصد عمّه من جديد أملا في تليين موقفه. ولم يكتف بذلك بل وظّف حجّة الباتوس (Pathos)[١]، فعمل على إخماد نازعة النقمة وإشعال نازعة الرحمة، قائلا: "أرجوك يا عمّاه أن تعفو. إذا كان موت طلال قد أفرز كلّ هذا الألم فكيف سيكون الحال بعد موت سليمان؟" (ص ١٢٤). ولكنّ العمّ ازداد إصرارا على القصاص، وفنّد كلّ حجج الراوي، بل رفض مواصلة سيرورة التفاوض، قائلا: "اسمعني هذه القصّة التي ألّفتها عليّ غير مقبولة، وعن إذنك، أريد أن أنام" (ص ١٢٥).

وقد ترتّب على السيرورة الرئيسيّة وضع نهائيّ تمثّل في فشل الراوي في إنقاذ أخيه من الإعدام، خصوصا أنّه قرّر ألّا يكرّر السيرورة الرئيسيّة مرّة أخرى، بعد أن يئس من عمّه، قائلا: "لن أطرق الباب ثانية، فأنا أعرف عمّي جيّدا... لو أنّي أملك مصل الرحمة لحقنته فيك، فأنت صخر صلد لا تهزّه التوسّلات" (ص

---

١ حجة الباتوس هي ثالثة الأثافي في حجج أرسطو الثلاث: الإيتوس واللوغوس والباتوس. وهي تفيد "هيأة السامعين لما يثير الخطاب انفعالاتهم، فنحن نصدر أحكاما مختلفة حسب ما نشعر به من حزن أو فرح، وصداقة أو كراهية".

Aristote, Rhétorique, trad. C-E Ruelle, le livre de poche, Librairie Générale Française, Paris, 1991, p. 83 (1356 a).

.(١٢٥

ب/ **عمل استرداد السيف:**

اقتضت البداية في عمل استرداد السيف أن يُهيّئ الراوي ما تتطلّبه عمليّة استيفاء هذا العمل. وكان الراوي قد أتاه حديث سرقة السيف من أبيه، ولكنّه أحجم عن الاستزادة من الحديث وطلب المزيد من التفاصيل بسبب توتّر الأب، قائلا: "كنت سأسأل عن التفاصيل لكنّي لحظت نبرة اللوم والتقريع تفوح في حديثك في أوّل لقاء لنا منذ أكثر من سنة، لذا دسست رأسي في الصمت" (ص ١٩).

ثم استجار الراوي بأمّه طلبا للمعلومات الضروريّة والكافية لينطلق في السيرورة الرئيسيّة، قائلا: "حدّثيني يا أمّي عن سرقة السيف، ولماذا يحزن أبي على سرقته إلى هذا الحدّ؟" (ص ٣٤). وأفادته الأمّ بأنّ أخاه سليمان هو من سلّم السيف إلى الفتى منصور، وهو في عين والده لصّ تسبّب في تأزّم الأب. وصارت كلّ أزمات العائلة التي تواترت بعد عمليّة السرقة، بسبب ما كان يعتقده الأب من أنّ "السيف الذهبيّ سيف الخير، سيف البركة" (ص ١٨). تقول الأمّ: "إنّه (الأب) قد علّق هذا السيف منذ زواجنا، ولم يحصل لنا خلالها أيّ مكروه، أمّا عندما غاب السيف تساقطت علينا المصائب كالمطر" (ص ٣٥).

ولئن كانت هذه المعلومات ضروريّة فإنّها غير كافية للانطلاق في سيرورة استرداد السيف، لاقتناع الراوي أنّ الفتى منصورا لن يرجع السيف بمجرّد أن يطلبه منه، فاضطرّ إلى مزيد الارتواء من تفاصيل غياب السيف من مكانه،

فزار أخاه سليمان في السجن. فوفّر له عوامل مساعدة إضافيّة، تمثّلت في منحه توكيلا لبيع بيته، لتوفير مبلغ من المال، يستعين به في سيرورة استرداد السيف، وزوّده برسالة شفويّة، هذا نصّها: "قل لسارق السيف: إنّ أخي سليمان يعطيك هذا المبلغ وهو يأمل أن تبدأ به حياتك من جديد، قل له أن يترك الطريق الذي يسير فيه الآن" (ص ٥٠).

كان سليمان يعلم مقدار قيمة تلك الرسالة الشفويّة في التأثير في اللصّ، لاستئثاره بحقيقة اختفاء السيف. وقد علم الراوي بتفاصيل تلك الحقيقة بعد اطّلاعه على مذكّرات أخيه سليمان. فاللصّ هو شقيق زوجة سليمان، وقد آثر سليمان إنقاذه من جريمة السرقة وما يترتّب عليها من حدّ، فأقرّ بأنّه هو من أعطاه السيف لما ادّعى اللصّ أمام الشرطيّ أنّه تسلّم السيف من سليمان، يقول سليمان: "أيّ ورطة نزلت بساحتي؟ ماذا أفعل؟ أأكذّبه فأجني عليه؟ أم أقول إنّه صادق وأغضب أبي؟ أين أرمي عود الكبريت المشتعل؟" (ص-ص ١٠٢-١٠٣).

ظفر الراوي بحقيقة عمليّة سرقة السيف، وظنّ أنّه قد جمع كلّ ما يتطلّبه استيفاء عمل استرداد السيف، لما وتوهّم أنّ اللصّ سيردّ الجميل مهما تقلّصت درجات المروءة لديه. فشرع في سيرورة استرداد السيف. ولكنّ اللصّ كان عديم المروءة، فواجه الراوي بشرط مفاده ضرورة دفع مبلغ من المال مقابل التنازل عن السيف، قائلا: "إذا كنتم تريدون السيف فعلا فيجب أن تدفعوا لي حتى أعيده إليكم" (ص ٥٩). وعند هذا الحدّ توقّفت السيرورة الرئيسيّة، وأُسقط في يد الراوي.

لم ييأس الراوي، وإنّما عزم على الاستجابة لشروط اللصّ، فباع بيت أخيه سليمان، وجمع المبلغ الماليّ، وأصرّ على الاستمرار في تحقيق السيرورة الرئيسيّة. ثمّ حمل المبلغ المطلوب واتّجه إلى اللصّ ثانية أملا في استرداد السيف. فسلّم المال واستلم السيف، قائلا: "أخذ السيف ومدّه لي، أخذته منه وألقيت أمامه المبلغ المطلوب على الطاولة، أخذه ليتأكّد من اكتمال المبلغ، أخيرا حصلت على السيف، لولا بقيّة من خجل لأهويت على السيف لثما وتقبيلا، حانت ساعة الخلاص يا أبتاه، سأعود إليك بالسيف في الحال" (ص ١٣١).

ولكنّ اللصّ أبى للسيرورة الرئيسيّة أن تنتهي، فقد أشهر مسدّسا في وجه الراوي، وأمره بترك السيف، طالبا إيّاه بمضاعفة المبلغ الماليّ، قائلا: "لقد قرّرت رفع سعر السيف إلى ستين ألف ريال، وسأعتبر المبلغ الذي سلّمته لي هو الدفعة الأولى. وسأعطيك السيف عندما تسلّمني الدفعة الثانية، فاترك السيف واخرج، هيا" (ص ١٣٢).

وجد الراوي نفسه بين حجريْ رحى طاحنة، فهو لا يريد الاستسلام لابتزاز اللصّ من جهة، فقال له: "أيّها الحقير تريد أن تتنصّل من اتّفاقنا السابق" (ص ١٣٢)، ولا يريد في الوقت ذاته أن يُخلف وعده لأبيه من جهة أخرى، لما قال له: "سأفعل يا أبي، بإذن الله سأفعل، سأعود بالسيف بأسرع ما يمكن" (ص ١٢٩). ويرتبط إخلاف وعد الأب بتوقّف جديد في السيرورة الرئيسيّة.

لم يكن بوسع الراوي تحمّل أيّ توقّف جديد في سيرورة استرداد السيف، فهجم على اللصّ وأجهز عليه بضربة سيف، فأرداه قتيلا، قائلا: "لقد انفصل السيف إلى نصفيْن، كان نصل السيف قد غاص في عظام جمجمته، وبقي

المقبض في دمي" (ص ١٣٤).

وعلى هذا النحو تنتهي سيرورة استرداد السيف بثلاث نتائج غير متوقّعة بالنسبة إلى المتلقّي تمثّل الوضع النهائيّ: إتلاف السيف، وموت اللصّ، ونهاية الراوي. ويكمن البعد التراجيديّ، في عمل استرداد السيف، في تحوّل الراوي من شابّ في مرحلة التحصيل العلميّ بالجامعة الفرنسيّة إلى مجرم قاتل، لا يجد أرضا تقلّه ولا سماء تظلّه، وسيُقاد إلى ساحة القصاص في مدينته ليُقتل.

ج/ عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة:

تطلّبت البداية التي اقتضاها عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة لكي يُستوفى جهودا مضنية من الراوي لإقناع زوجته السويسريّة جاكلين بأمريْن: أوّلهما العودة إلى مقرّ الزوجيّة في فرنسا بعد أن يسافر إلى وطنه ليساعد أسرته على تجاوز ما حلّ بها من صعوبات. وثانيهما التواصل معها باستمرار أثناء وجوده في أرض الوطن، فهو يقول: "أعدك يا جاكلين أنّي سأعود، وسنبقى على اتّصال مستمرّ طوال مكثي هناك" (ص ١٠).

بدا للراوي أنّه قد استوفى كلّ ما يتطلّبه عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة، فانتهى الوضع الأوّل وبدأت السيرورة الرئيسيّة. وكان الراوي حريصا على الوفاء بوعوده، فاتّصل بجاكلين مرّتيْن في الأسبوع الأوّل، وأكّد وعوده لها بأنّه سيعود في أقرب وقت ممكن، ووافقها على أن تبحث له عن قبول في إحدى الجامعات، قائلا: "افعلي ما تريدين يا جاكلين، فلن أجد من يهمّه أمري أكثر منك" (ص ٣٢).

ولكن سرعان ما تواترت التوقّفات لتبطئ حركة السيرورة الرئيسيّة أحيانا أو

تعرقلها كلّيّا أحيانا أخرى. فقد وصلته رسالة قصيرة عن طريق جوّال أخته نورة، من شركة الاتّصالات تطالبه بدفع المعلوم المستحقّ كي لا تضطر لفصل الخدمة. ولم يعالج الراوي الأمر في الإبّان، فنفّذت شركة الاتّصالات تحذيرها، ووجد الراوي نفسه مفصولا عن التواصل مع زوجته، مسكونا بهواجس لا يقين فيها، قائلا: "أربعة أيّام وأنا أحاول الاتّصال بك، ولكنّك لا تجيبين. أتراني تأخّرت كثيرا في الاتّصال بك حتى قرّرت استئصالي من حياتك؟... ليتني كنت تركت مهاتفتك باختباري، بل هو اختيار شركة الاتّصالات التي قطعت إرسال هاتف نورة الجوال في وقت انشغالي" (ص ٦٨).

وساهم انشغال الراوي بمعالجة قضايا أسرته في تنامي التوقّفات، فقد نسي تصفّح بريده الإلكترونيّ مدّة طويلة، وكانت جاكلين في تلك المدّة قد راسلته خمس مرّات دون أن تظفر بردّ. وفي كلّ مرّة تنقدح الشكوك في صدرها حول عودته، وتتضخّم الهواجس إلى أن استبدّت بها، وقُذف في صدرها ما يشبه اليقين أنّ زوجها قد نسيها، ولن يعود ثانية. عندئذ عزمت على القطيعة، واتّخذت قرارها في الرسالة الخامسة، قائلة: "وأخيرا أقول لك إنّي قد قرّرت وبعد تردّد كبير أن أقطع كلّ ما يمكنه أن يذكّرني بك، كلّ أشيائي وحاجياتي وأغراضي سأتخلّص منها. لذلك هجرت شقّتنا في باريس، وغيّرت رقم هاتفي الجوّال، وسألغي هذا البريد الإلكتروني بعد أن أبعث إليك هذه الرسالة. سأغلق كلّ منفذ قد يفتح على قلبي ذكراك" (ص ١١٣).

لم تتح هذه الرسالة المجال للراوي لمواصلة السيرورة الرئيسيّة، لا سيّما أنّ وسائل الاتّصال بجاكلين منعدمة تماما. فآل الوضع النهائيّ الناتج عن السيرورة

النهائيّة إلى الخيبة، حيث أخفق الراوي في المحافظة على علاقته الزوجيّة، وأذعن مكرها لقرار جاكلين، قائلا: "جئت أفتّش في رسائلك عن طوق نجاة فوجدت إسفين الغرق. ها هي رسالتك تصبح مثل رسالة حملها طرفة بن العبد إلى ملك البحرين، رسالة كان يأمل بها فلاحه فكانت حتفه. لم أكن أتوقّع هذا منك، أن تقتلي في داخلي الأحلام، وترشقي ذاكرتي بالقنابل، لقد اخترت القطيعة، دون أن تستنفذي وسائل البحث، كنت كطبيب رأى أسهل حلّ لاستئصال المرض هو إطلاق الرصاص على المريض" (ص ١١٥).

وتبدو النهايات في الأعمال الثلاثة تجري بما لا يشتهي الراوي، فقد آلت جميعها إلى الخيبة، فضلا عن طابعها القسريّ والإلزاميّ، حيث لا قدرة للراوي على تغيير مسارها. ففي العمل الأوّل، عمل إنقاذ أخيه من القصاص، كان الأمر موكولا إلى العمّ، فهو من رفض العفو، فحكم على هذا العمل بالخيبة، وفي العمل الثاني، عمل استرداد السيف، فإنّ الراوي قد ردّ الفعل تحت تأثير سياق الموقف، ولم يُحسن تقدير العواقب، فحكم على العمل بالخيبة. وأمّا في العمل الثالث، عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة، فقد ساهمت اعتبارات عديدة في جعل الزوجة هي صاحبة القول الفصل، فهي من اختارت القطيعة، فحكمت على هذا العمل بالخيبة. وشكّلت تلك الخيبات الثلاث تضاريس الوجع في رواية "تضاريس الوجع".

وتمثّل هذه البنية الثلاثيّة بنية حرفيّة عارية من كلّ بعد تصوّريّ، غير أنّ عمليّة فهم هذه البنية الحرفيّة وإدراكها تقتضي الاستعانة ببعض الاستعارات التصوّريّة التي تكسو هذا الهيكل العاري لحما، ليس في اللغة فحسب، بل في

البنيات الاستنتاجيّة، حيث تُتصوّر الأعمال حركات والحالات أوعية ومناطق محصورة في الفضاء. فيساهم ذلك في بناء تصوّرات للأعمال والتفكير فيها[١]. فكيف تتشكّل بنية الأعمال التصوّريّة.

٢/ البنية التصوّريّة

يصطلح جورج لايكوف (George Lakoff) ومارك جونسون (Mark Johnson) على تصوّرات الأحداث بـ"تصوّرات بنية الحدث"[٢]. وهي توفّر فهما متماسكا لمظاهر عدّة تتمثّل في الأسباب والتغيّرات والحالات والأعمال والأهداف[٣]. وتقوم بنية الأعمال التصوّريّة على عمليّة إسقاط بين مجاليْن: المجال المصدر، وهو مجال الحركة في الفضاء، والمجال الهدف، وهو مجال الأحداث، حيث تتوفّر مجموعة من الترسيمات (Mappings) بين العناصر المكوّنة للمجال المصدر والعناصر التي تناسبها في المجال الهدف، فيؤدّي ذلك إلى أنّ عناصر المجال المصدر ترسّم عناصر المجال الهدف. ممّا يتيح بناء تصوّر للأحداث ولكلّ مظاهرها، الأعمال والأسباب والتغيّرات والحالات والأهداف من خلال التجربة الواسعة مع الحركة في الفضاء والمعرفة بها. وهي معرفة غنيّة تأتي من حركات الإنسان وحركات الآخرين التي يدركها. فيوفّر هذا الترسيم

---

١ جورج لايكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٥٠.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

3 Raymond W. Gibbs, Jr, Metaphor Wars Conceptual Metaphors in Human Life, Cambridge University Press, 2017, p. 28.

فهما مشتركا وواسعا للبنية الداخليّة للأعمال[1].

وتستند بنية الأعمال التصوّريّة إلى استعارتيْن أساسيّتيْن: بنية الحدث مكان وبنية الحدث شيء. وكلتاهما تعتمد استعارتيْن أوّليّتيْن: الأسباب قوى، والتغيّرات حركات. وتشمل استعارة بنية الحدث مكان ترسيمات عدّة، نورد أبرزها في الجدول الآتي:

المجال الهدف: بنية الحدث	المجال المصدر: المكان
الأعمال	حركات تندفع ذاتيّا
الأسباب	قوى
التغيّرات	حركات إلى مناطق محصورة أو خارجها
الحالات	مناطق محصورة في الفضاء
الأهداف	وجهات
الصعوبات	معيقات الحركة

وتعنينا في هذا المستوى الأعمال، فهي تُتصوّر حركات ينجزها فاعل اعتمادا على قوّته الذاتيّة. وتُحدّ الحركة بوصفها تغيّرا للمكان عبر الزمن، وهي مُعَدّة للاستخدام من قبل الأنسقة التصوّريّة بوصفها مجالا مصدرا[2]. ويرتبط البرهان على ترسيم الأعمال حركات تندفع ذاتيّا بمجموعة من الاقتضاءات المرتبطة بالحركة، فتكون المظاهر المتعلّقة بالعمل مظاهر متعلّقة بالحركة. ومن أبرز تلك الاقتضاءات، نوع العمل نوع الحركة، وكيفيّة العمل كيفيّة الحركة،

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٥٤.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

والمساعدة على العمل مساعدة على الحركة، وعرقلة العمل عرقلة الحركة. فيأخذ كلّ عمل لغته وبنيته الاستنتاجيّة من الحركة[1]. وقد تباينت تلك الاقتضاءات في الأعمال الأساسيّة الثلاثة في رواية "تضاريس الوجع".

أ/ عمل إنقاذ الأخ حركة مندفعة ذاتيّا:

يندرج عمل إنقاذ الأخ، من حيث اقتضاء النوع، في إطار الأعمال القانونيّة الشرعيّة، فالقانون الشرعي يقضي بقتل القاتل، ولما كان الأخ سليمان قد قتل طلالا، فإنّه معرّض للقتل من باب القصاص، يقول والد طلال مخاطبا الراوي: "يجب أن يشرب أخوك من نفس الكأس التي أذاقها لطلال" (ص ٥٧). وما دام العمل قانونيّا فإن الحركة اتّخذت طابعا قانونيّا. وسيؤثّر هذا الطابع القانونيّ في كيفيّة العمل، بناء على اقتضاء كيفيّة العمل كيفيّة للحركة. فقد جاء عملا بطيئا، تطلّب من الراوي أن يحيط علما بمختلف تفاصيل عمليّة القتل، لتسهل عليه عمليّة التفاوض مع العمّ من أجل العفو. يقول الراوي في حواره الباطنيّ: "ربّما لا تعلمين أنّ ستّة أيّام أمضيتها هنا لم ألمّ خلالها بكامل تفاصيل المشكلة، فكيف بحلّها؟" (ص ٣١). ورغم بطء العمل فإنّه كان قائما على الحرص، ذلك أنّ الراوي كان حريصا كلّ الحرص على استنفاذ جميع الوسائل من أجل إنقاذ أخيه، يقول في حواره الباطنيّ: "لقد قطعت على نفسي العهد بأن أبذل ما في وسعي لتخليصك من حدّ السيف حتى آخر لحظة" (ص ١٢٢).

وتمثّل اقتضاء المساعدة على العمل مساعدة على الحركة في التفاصيل التي حصل عليها الراوي، فقد أفادته أخته نورة بتفاصيل عديدة حول عمليّة القتل،

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٦٤.

ومكّنته أمّه من تفاصيل أخرى حول طبيعة العلاقة بين أخيه سليمان والأب. ورغم أنّ سليمان هو المعني بعمل الإنقاذ فإنّه امتنع عن تقديم المساعدة. يقول الراوي معلّقا على موقف سليمان: "ما أعجب أمرك، ها أنت تحرص على إغلاق ملفّات القضيّة. لمَ تعيق جهودي في الوصول إلى حلّ؟ وحدك من يمكنه أن يعقّم ما علق بصورتك من تلويث، إن عليك إلّا الكلام، لكنّك انتخبت الصمت" (ص ٤٩).

لقد أوّل الراوي صمت سليمان بأنّه عرقلة، ولكنّ سليمان لا يرى صمته عرقلة، لعلمه أنّه دوّن الحقائق مفصّلة في مذكّراته، التي سيطّلع عليها الراوي بعد ذلك. وقد وجد فيها من التفاصيل ما ضاعف لديه الأمل في إقناع عمّه بالعفو عن سليمان. يقول الراوي مخاطبا عمّه: "لكنّي هذه المرّة مع مجيئي لطلب العفو، فقد أتيت لكي أضع أمام عينيك حقيقة غابت عنّا جميعا" (ص ١٢٣).

وأمّا اقتضاء عرقلة العمل عرقلة الحركة فيتعلّق بالصعوبات، وهي تُتصوّر شيئا قد يعيق الحركة. وقد جعل لايكوف وجونسون الصعوبات خمسة أنواع توافق خمسة أنواع من عوائق الحركة: العوارض وتضاريس المجال والأعباء والقوى المضادّة وانعدام مصدر للطاقة[١].

وكان الراوي قد واجه العديد من الصعوبات التي أعاقت حركته نحو إنقاذ سليمان من الموت، ومن أبرزها القوى المضادّة، وتمثّلت في موقف عمّه الرافض لأيّ عفو والمصرّ على القصاص في قوله: "ليس عندي في هذا الموضوع كلام جديد، ولا أحبّ أن أسمع عنه شيئا، ولن أقبل من أحد شفاعة أو وساطة.

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٦٥.

القاتل يجب أن يُقتل كائنا من كان" (ص ٥٤). وقد عطّل موقف العم حركة الراوي، فخاب مسعاه وتعطّل عمل إنقاذ الأخ.

ب/ **عمل استرداد السيف حركة مندفعة ذاتيّا:**

يكتسي عمل استرداد السيف من حيث النوع طابع العمل الاجتماعيّ، فالراوي ساع إلى إرضاء أبيه وإعادة التوازن النفسيّ إليه. وتمثّل اقتضاء كيفيّة العمل كيفيّة للحركة، في الحرص، بناء على اقتضاء الحرص في العمل حرص في الحركة. فقد كان الراوي حريصا على الحصول على السيف لإعادته إلى أبيه. وجاء حرص الراوي من مصدريْن: أوّلهما شدّة تعلّق الأب بالسيف، يقول الراوي: "ما أشدّ تعلّقك بهذا السيف يا أبي، أتراك تحبّه أكثر منّا جميعا؟ أتراه تمدّد داخلك فلم يترك مقعدا شاغرا لأحد؟" (ص ١٨). ويتعلّق المصدر الثاني بتحفيز الأمّ، فقد كانت تحثّ الراوي على بذل قصارى جهده للحصول على السيف، فهي تقول: "هذا السيف المسروق يجب أن يعود بأسرع ما يمكن، كلّ يوم يمرّ ولم يعد فيه السيف يقترب فيه أبوك خطوة من القبر، ابحث عنه، ابحث عنه في كلّ مكان" (ص ٤٠).

واتّخذ اقتضاء المساعدة على العمل مساعدة على الحركة، مظهريْن: تمثّل أوّلهما في المساعدة التي قدّمها سليمان، فقد أوكل إلى الراوي مهمّة بيع بيته لتلبية شروط اللصّ، يقول سليمان: "هذا هو اسمه ورقمه، ربّما يطلب منك مبلغا كبيرا مستغلّا حاجة أبي إلى السيف، سأكتب لك توكيلا تبيع بيتي وتدفع المبلغ" (ص ٥٠). وتمثّل المظهر الثاني في المساعدة التي قدّمها الأب للراوي، قائلا: "خذ هذا شيك بخمسين ألف ريال، إذا رفض السارق أن يعطيك فادفع

له هذا المبلغ" (ص ١٢٨).

وتجلّى اقتضاء الصعوبات عوائق للحركة، في شكل قوى مضادّة. ومثّل اللصّ منصور تلك القوّة المضادّة، فقد طلب ثلاثين ألف ريال مقابل تسليم السيف. ولما آنس من الراوي موافقة ضاعف المبلغ، وأصر على الاحتفاظ بالمبلغ الأوّل في انتظار تسلّم الدفعة الثانية، ثم صوّب مسدّسه نحو الراوي قائلا: "لقد قرّرت رفع سعر السيف إلى ستّين ألف ريال، وسأعتبر المبلغ الذي سلّمته لي هو الدفعة الأولى. وسأعطيك السيف عندما تسلّمني الدفعة الثانية" (ص ١٣٢). وقد عرقل موقف اللصّ حركة الراوي وعرقل عمل استرداد السيف.

ج/ عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة حركة مندفعة ذاتيّا:

يندرج عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة من حيث النوع في إطار الأعمال الشخصيّة. وتميّز اقتضاء كيفيّة العمل كيفيّة للحركة، بالتدرّج من البطء واللامبالاة إلى الحرص والسرعة. ظهر البطء واللامبالاة في المرحلة الأولى من عودة الراوي إلى مدينته، حيث انصرف إلى معالجة قضايا أسرته، يقول: "شهر ونصف أفنيتهما في بيع البيت، لم أفرغ خلالهما لنفسي ولا لحاجاتي الشخصيّة. زوجتي جاكلين وابني الذي يرقد في بطنها تنحّيا عن دائرة اهتماماتي قسريّا لأكثر من ثلاثة أسابيع" (ص ٦٥). وظهر الحرص والسرعة في المرحلة الثانية من عودة الراوي، فقد أصبح قلقا كأنّ الريح تحته، يستعجل لحظة التواصل مع زوجته إبقاء على علاقته بها، فهو يصوّر هيأته في طريقه إلى مقهى الانترنت لمراسلة جاكلين قائلا: "أركض نحو المقهى بحماس سجين المؤبّد لاحت له فرصة هروب. اجتزت البوّابة، ودفعت رسم الدخول. وانغرزت عند أقرب جهاز

كمبيوتر" (ص ١٠٧).

واقتصر اقتضاء المساعدة في عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة على المساعدة الذاتيّة. فقد كان الراوي شغوفا بزوجته، متعلّقا بها كلّ التعلّق، لكونها مثّلت له خلاصا من عناء الماضي. يقول في حواره الباطنيّ: "أنت يا جاكلين عطري الذي اخترته، أنت وصفة العلاج التي صرفها القدر لأتشافى بها من أحزاني، فهل أرضى بالعودة إلى المرض ثانية" (ص ٣٢).

وأمّا اقتضاء الصعوبات عوائق للحركة، فقد ظهر في شكل أعباء. فالراوي بدأ يرزح تحت أعباء عائلته، ويقول عن ذلك: "ها هي صدف الأيّام تنفتح كلّ يوم عن جديد، عن عراقيل ربّما تعثّر من عودتي السريعة" (ص ٣١). واستغرقت تلك الأعباء كامل وقته واستنفذت مختلف طاقاته. فصرفته عن التواصل مع جاكلين، وأدّت إلى خيبته في عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة.

وكانت جاكلين قد شاركت الراوي في عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة، ولكنّها أسرفت في اقتضاء كيفيّة العمل كيفيّة للحركة. وظهرت الكيفيّة في الحرص، تماشيا مع اقتضاء الحرص في العمل حرص في الحركة. حيث كانت شديدة الحرص على إنجاح علاقتها الزوجيّة مع الراوي، تقول في رسالتها الإلكترونيّة الثالثة: "مرّ الآن أكثر من أسبوعيْن وأنت لم تتّصل أو ترسل إليّ رسالة. هل تذكر ما قلته لك عند سفرك في المطار؟ لقد كنت متخوّفة من أن تسافر ولا تعود، وأخشى أن تكون الأيّام قد بدأت تثبت لي صدق مخاوفي" (ص ١٠٩). وقد قادها حرصها الشديد إلى تفكيك علاقتها الزوجيّة، يقول الراوي: "ألم أكن أستحق أن تنفقي عليّ مزيدا من ساعات الصبر والانتظار؟

لم أعهدك بخيلة إلى هذه الدرجة، وبماذا تبخلين؟ بحفنة أيّام من الانتظار. إنّها أكثر من ثلاثة أسابيع وأقلّ من أربعة، ومع هذا تستكثرينها عليّ؟ أحيانا تضطر إلى أن تلعن اليوم الذي عرّفك بفلان إذا كان سيجرّعك الجمر بقيّة حياتك. فهل ستقودينني إلى ذي الحال؟" (ص ١١٤). فتحوّلت المساعدة على يد جاكلين عرقلة من حيث لا تشعر. وحلّ اقضاء المساعدة في العمل مساعدة في الحركة، محلّ اقتضاء الصعوبات عوائق للحركة. وآل عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة إلى عمل تخريبها.

والجامع المشترك بين هذه الأعمال الأساسيّة الثلاثة في رواية "تضاريس الوجع" أنّها أهداف وغايات. وتُتصوّر الأهداف والغايات في استعارة بنية الحدث، وجهات يتمّ بلوغها. وتترتّب على ذلك مجموعة من الترسيمات الفرعيّة، نحو الأهداف والغايات وجهات، وبلوغ هدف هو الوصول إلى وجهة، وانعدام الهدف انعدام للاتّجاه. والدليل على هذه الترسيمات هو مجموع اقتضاءاتها والوسائل اللغويّة التي تعبّر عنها. ففي كلّ حالة يتمّ استدعاء لغة الحركة ومنطقها نحو وجهة معيّنة أو بلوغها أو عدم بلوغها، من مجال المصدر، الذي يفيد الحركة عبر الفضاء، فيُستخدم للتحدّث عن بلوغ الأهداف أو الإخفاق في بلوغها. ولما كانت الأعمال حركات، والأهداف وجهات فإنّ العمل الهادف حركة مندفعة ذاتيّا نحو وجهة [١].

وعلى هذا النحو فإنّ الأعمال في رواية "تضاريس الوجع" تستمد بنيتها

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص-ص ٢٦٧-٢٦٨.

التصوّريّة من استعارة بنية الحدث مكان، وتحديدا ترسيمة العمل حركة مندفعة ذاتيّا. فكما تقتضي الحركة فاعلا ومساعدا ومعرقلا، فإنّ كلّ عمل يقتضي بدوره فاعلا ومساعدا ومعرقلا. وهكذا فإنّ بَنْيَنَة كلّ الأعمال الملموسة والمجرّدة تنشأ من الكيفيّة التي تُبَنْيَنُ بها حركات الجسد[1]. ولا شكّ في أنّ لتلك الأعمال منطقا يشدّها إلى عمق تصوّريّ. فكيف ذلك؟

٣/ منطق الأعمال:

رأى طالمي (Leonard Talmy) في إطار التصفير السببيّ (Zeroing in on causative) أنّ السببيّة موجودة فقط في لحظة التفاعل بين حدثين[2]. وذهب لايكوف وجونسون إلى أنّ للسببيّة شكليْن: أوّلهما شكل مركزيّ، يتمثّل في تنفيذ نشاط بشريّ واع وإراديّ بواسطة قوّة فيزيائيّة مباشرة، وثانيهما شكل غير مركزيّ، وهو استعاريّ، يقوم على استعارة الأسباب قوى، واستعارة بنية الحدث[3].

والسببيّة في ضوء استعارة بنية الحدث لها تصوّران حول الشخصيّة–الخلفيّة: يتعلّق التصوّر الأوّل باستعارة بنية الحدث مكان، ومفاده السببيّة هي الحركة القسريّة لكيان مّا (الكيان المتأثّر) إلى مكان جديد (الأثر). والكيان المتأثّر هو الشخصيّة، والأثر هو الخلفيّة. ويتعلّق التصوّر الثاني باستعارة بنية الحدث شيء،

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٥٠.

2 Leonard Talmy, Toward a cognitive semantics, Massachusetts Institute of Technology, 2000, p. 475.

٣ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص–ص ٢٥١–٢٥٢.

ومفاده السببيّة تحويل شيء ممتلك (الأثر) إلى أو من كيان مّا (الكيان المتأثّر). والأثر هو الشخصيّة، وأمّا الكيان المتأثّر فهو الخلفية. وفي كلتا الحالتيْن تُتصوّر الشخصيّة متحرّكة والخلفيّة قارّة، حيث توجد قوّة مسبّبة تنسحب على الشخصيّة وتحرّكها بالنظر إلى الخلفيّة[1]. ويشترك التصوّران في استعارتيْن فرعيّتين، هما الأسباب قوى، والسببيّة حركة قسريّة.

وقد خضعت الأعمال الأساسيّة الثلاثة في رواية "تضاريس الوجع": عمل إنقاذ الأخ سليمان، وعمل استرداد السيف وعمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة، لمنطق سببيّ. ويمكن تفسير منطق السببيّة في تلك الأعمال الثلاثة بالوقوف على ثلاثة عناصر:

- القوّة المسبّبة: إنّ القوّة المسبّبة في الأعمال الثلاثة: قوّة ذاتيّة. ففي خصوص عمل إنقاذ الأخ فإنّ لسليمان مكانة مخصوصة في وجدان الراوي، فضلا عن القرابة الدمويّة المتمثّلة في الأخوّة. فقد كان سليمان على مقدار من الوعي مكّنه من الانسجام ثقافيّا مع الراوي. وجعل هذا التقارب في الرؤى والتصوّرات الراوي يتعلّق بأخيه سليمان، وينزّله منزلة الأب، قائلا: "برغم أنّك لا تكبرني بأكثر من عشر سنوات، إلّا أنّك شغرت وظيفة الأب باقتدار، في حين اكتفى أبي بوظيفة المنجب فقط" (ص ٤٦)، خصوصا أنّ الأب كان على مقدار من الغلظة والشدّة، حملت الراوي على التساؤل: "هل صنعتك الصحراء بكلّ هذا الجفاف؟" (ص ١٦).

واتّصلت القوّة الذاتيّة في عمل استرداد السيف برغبة الراوي في إخراج أبيه

١ المرجع نفسه، ص-ص ٢٧٧-٢٧٨.

من أزمته، وإعادة التوازن إليه. فكان دائم الوعد له، نحو قوله: "سآتي به إن شاء الله بعد ساعة تقريبا" (ص ١٢٨). وتدعّمت هذه القوّة الذاتيّة بقوّة أخرى موضوعيّة مصدرها الأم. فقد عملت على تحفيز الراوي لبذل قصارى جهده من أجل استعادة السيف من اللصّ، فهي تقول: "ابحث عن السيف، أعده إلى مكانه، من أجل أبيك، ومن أجلنا جميعا" (ص ٣٥).

وأمّا القوّة الذاتيّة في عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة، فهي قوّة ملازمة للراوي، فقد دأب على كشف جوانبها في حواراته الباطنيّة على مدار الرواية، نحو قوله: "جئتك وقد تسامقت داخلي نصب الألم، فأزهقتها بحسن تعامل ووجه بسيط. جئت مثقلا بهزائم الماضي وخيباته، ولكنّك استطعت أن تضغطي على الزرّ الذي أشعل فيّ تيّار الحياة" (ص ٦٩).

- الكيان المتأثّر: إنّ الراوي هو الكيان المتأثّر في الأعمال الأساسيّة الثلاثة في رواية "تضاريس الوجع"، لوقوع القوّة المسبّبة عليه. فهو الشخصيّة الرئيسة، والشخصيّة المعنيّة بمواجهة المعرقلات، ودفع كلّ عمل من الأعمال الثلاثة من مرحلة التأزّم إلى مرحلة الانفراج.
- الخلفيّة: تلوّنت الخلفيّة، من حيث هي الأثر الواقع في الشخصيّة، بتلوّن الحالة النفسيّة عند الراوي في كلّ عمل من الأعمال الثلاثة على مدار الرواية. ففي بداية الرواية كان الراوي متهيّبا ومرتابا في قدراته على دفع الأعمال نحو الانفراج، فهو يقول في حواره الباطني: "أأنت قادر على رتق الشرخ الذي فجّره أخوك، أم ضفائر الوجع التي انفرطت داخلك ستشغلك؟ وجع الدراسة هناك، شكّ جاكلين الذي قد يدمّرك ويدمّرها"

(ص ٦). وفي مرحلة متقدّمة من سيرورة الأعمال بلغ الراوي من الشعور بالألم منتهاه، فهو يقول: "عندما دخلت إليك يا سليمان قبل قليل لم أكن أدري أيّ أشواك الألم أعالج؟ ألمك أم ألمي أم ألم أبي أم ألم جاكلين؟ لقد تكالبت أشواك الألم على قلبي حتى غدا كالقنفد كوما من الإبر" (ص ١٢١).

وكانت الخلفيّة تتغيّر أثناء تقدّم السرديّة في الرواية، وتختلف من عمل إلى آخر، ففي عمل إنقاذ أخيه سليمان كانت مشاعر الراوي قُلّبا، فهو يقول أثناء زيارة أخيه في السجن: "لا أدري إذ أزورك أيّ الإحساسيْن أغلب؟ البهجة بلقاك أم الألم لوداعك؟ وربّما يتغلّب الإحساس الأخير بحكم سيرورة الأمور إليه" (ص ٤٤).

وفي عمل استرداد السيف كان الراوي في حالة من التوتّر شديدة، كشفها قوله: "متى سأقبض ثمن البيت وأعيد السيف وأنتهي؟ متى أنعتق من هذا العناء؟ أثمّة بصيص نور يبزغ آخر نفق الأحداث المظلم؟ وإن كان فهل ستحملني إليه خطايا، أم سأنهار قبل نهاية الطريق؟" (ص ٦٥). ثم انتابه إحساس بالمهانة والمذلّة وقد وجد نفسه مكرها على التفاوض مع لصّ انتهازيّ عديم المروءة، يقول الراوي: "يا له من ذلّ، ذلّ أن أذبح كرامتي بين يدي سارق، أن أبتهل إليه كي يعيد ما استلبه منّا" (ص ٥٨). وفي نهاية الرواية استبدّ الغضب بالراوي، فقاده إلى حيث الخسران المبين، يقول الراوي: "وحينما كادت يده تصل إلى المسدّس، كنت قد أهويت بالسيف على رأسه بأقصى ما لديّ من قوّة، ندّت عنه صرخات فظيعة اخترقت حواجز سمعي بعنف" (ص ١٣٣).

وأمّا في عمل المحافظة على العلاقة الزوجيّة، فقد كانت الخلفيّة المهيمنة هي الشوق إلى جاكلين، نحو قول الراوي: "سأذهب لأتّصل بزوجتي من أقرب كابينة هاتف، لم يعد في الكأس فضل صبر. كم أنا مشوق إليك يا جاكلين، إلى رؤيتك أو حتى سماع صوتك" (ص ٦٥). ولكنّ هذه الخلفيّة كانت متحوّلة باستمرار، فقد مرّ الراوي بحالات شكّ وحيرة، فهو يقول: "سأحسن بك الظنّ، لعلّك انشغلت، أو سافرت لظرف طارئ، أو ربّما كان هاتفك مقطوعا كحال هاتفي" (ص ٧٠). ولما تيقّن من خروج جاكلين من حياته استبدّ به اليأس، وآوى إلى الله يلتمس الخلاص: "ربّ ألهمني الحلّ السديد، ويسّر أمامي طريق الخلاص" (ص ١١٥).

وفي بعض الأحيان كانت الخلفيّة تتغيّر كلّيّا في جميع الأعمال، فيبدو الراوي متفائلا، وممتلئا بالأمل في تجاوز جميع المعرقلات، والوصول بالأعمال إلى مرحلة التوازن الجديد، فهو يقول: "سأحجز تذاكر السفر إلى سويسرا بعد عشرة أيّام. سيكون النقع قد انجلى عن قضيّة سليمان، إمّا بالقتل أو بالعفو. وغدا سأستعيد السيف من سارقه، سأدسّ في جيبه المبلغ المطلوب، وأسترجع منه السيف. لن يصبح لوجودي داع إذا انتهت الأمور، السيف وسليمان" (ص ١٢٦). ولكنّ ذلك لم يكن غير سراب خلّب وجرعة من أمل يحقن بها الراوي نفسه طلبا للثبات وتحفيزا على الصمود في مواجهة المعرقلات.

وهكذا استند المنطق السببيّ الذي خضعت له الأعمال الثلاثة في رواية "تضاريس الوجع" لتصوّرات استعاريّة للسببيّة أساسها استعارة الأسباب قوى والسببيّة حركة قسريّة. فكيف ستؤثّر التصوّرات الاستعاريّة في العلاقة بين

الفواعل؟

ثانيا: مستوى الفواعل والعلاقات بينها

إنّ الشخصيّات صنيعة التصوّرات الاستعاريّة، والعلاقات بينها علاقات بين التصوّرات. ويعدّ الراوي في رواية "تضاريس الوجع" هو الشخصيّة الرئيسة، وقد دخل في علاقات متنوّعة مع بقيّة الشخصيّات. وتحدّدت طبيعة تلك العلاقات بمقدار القرب أو البعد بين التصوّرات الاستعاريّة المؤسّسة للبنى الذهنيّة أو النفسيّة أو الأخلاقيّة لكلّ شخصيّة. ويمكن إجمال تلك العلاقات في نوعيْن: علاقة مساعدة وعلاقة عرقلة.

١/ علاقة المساعدة والانسجام الاستعاريّ:

أ/ الراوي والأخ واستعارة المعرفة رؤية:

إنّ العلاقة بين الراوي وأخيه قائمة على المساعدة، ومردّ المساعدة ليس الرابطة الأخويّة فحسب بل هو الرابطة التصوّريّة. فالراوي وأخوه ينطلقان من فهم مشترك للذهن، قائم على الاستعارة التصوّرية الذهن جسد. وتترتّب على هذه الاستعارة أربع حالات، "يُتصوّر فيها التفكير من خلال أربعة أنواع مختلفة من الاشتغال الفيزيائيّ: التحرّك والإدراك ومعالجة الأشياء والأكل"[١]، وحيث الإدراك يمثّل الآلية التي تسمح بالفهم واكتساب المعرفة ، وكذلك معالجتها[٢].

والاستعارة الجامعة بين الراوي وأخيه في مستوى البنية الذهنية هي استعارة

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٣٢٢.

2 Christian Balliu, Cognition et déverbalisation, in **خطأ! مرجع الارتباط التشعبي غير صحيح.**, p. 4.

المعرفة رؤية. وقد مثّلت العمق الإدراكيّ في أغلب التعابير الاستعاريّة الواردة في خطاب كليهما. يقول الأخ بعد أن أعلمه الراوي بسرّ زواجه من امرأة سويسريّة: "نحن فقط من يعرف أين تكون سعادتنا، وليس الآخرين. إنّها حياتك" (ص ٤٤). ويقول عندما سأله الراوي عن حاله: "كما ترى" (ص ٤٧). ثم يعقّب: "لا أرى داعيا للحديث في ملابسات القتل" (ص ٧٤). ويقول في مذكّراته: "سأنزل وأرى ما القصّة" (ص ١٠٢).

وورد خطاب الراوي مليئا بالعبارات الاستعاريّة المرتبطة باستعارة المعرفة رؤية، وسنقتصر على إيراد نماذج منها في الجدول الآتي:

	التعبير الاستعاريّ		التعبير الاستعاريّ
١	"كنت سأسأل عن التفاصيل لكنّي لحظت نبرة اللوم والتقريع تفوح في حديثك في أوّل لقاء لنا منذ أكثر من سنة" (ص ١٩).	٥	"إجابة غامضة لا تنبئ عن شيء... أتراك تحسّست ما يجول في رأسي" (ص ٤٧).
٢	"لم يكن الحديث المقتضب الذي دار بيننا أوّل أيّام قدومي كافيا لإمدادي بالصورة الكاملة لما حدث" (ص ٢٩).	٦	"ألا يمكن أن تفكّر ولو قليلا بحال أخيك" (ص ٥٤).
٣	"انطفأ النقاش بهذه الكلمات" (ص ٤٥).	٧	"سأجاريك لأرى إلى أين يمكن أن تصل بي" (ص ٥٨).
٤	"تركتني أتحسّس المبادئ في شقوق الحياة" (ص ٤٦).		

وقد عزّز هذا الانسجام الاستعاريّ الروابط بين الراوي وأخيه، وخلق ما يُصطلح عليه بـ"التوافق العرفانيّ" (Consonance cognitive). يقول

الراوي مصوّرا أثر ذلك التوافق: "كم كنت رائعا، بهذه الكليمات غسلتني من قلقي وارتباكي. فيلسوف أنت يحيا في ثياب شحّاذ" (ص ٤٥).

ب/ **الراوي والأب واستعارة الأخلاق سلطة:**

لتعامل الأب مع الراوي مظهران: يتمثّل أوّلهما في الشدّة والصرامة، ويتطابق مع نموذج الأب الصارم، حيث تعدّ الأخلاق مفتاح السلوك الأخلاقيّ. ويستند هذا المظهر من التعامل إلى استعارات عدّة من قبيل الأخلاق سلطة والأخلاق قوّة والأخلاق نظام، وهي تُبنى من خلال الهيمنة الموجودة في العالم الفيزيائيّ، فالسلطة الأخلاقيّة للأب على الابن، تُصاغ استعاريّا على غرار الهيمنة الفيزيائيّة للأب على الابن[١].

وقد كان الأب حريصا على فرض سلطته على أفراد الأسرة بمن فيهم الراوي، ولا يتردّد في استعمال العنف لإحكام سيطرته ونفوذه. يقول الراوي مستحضرا حادثة ماضية مع أبيه: "احمرّ وجهك كجمرة متّقدة، وتغيّرت ملامحك كشيطان، تفحّصتني، هجمت عليّ كأسد جائع، وأوسعتني ضربا وتجريحا، لم يشفع لك صوتي الذي جفّفه الصراخ والبكاء، ولولا أمّ أمّي جاءت فوقفت حائلا بيني وبينك لكنت تضربني إلى الأبد" (ص ١٨).

ويتمثّل المظهر الثاني في اللين والمساعدة، ويتطابق ذلك مع نموذج الأب المعتني. وهو يستند إلى استعارة الأخلاق اعتناء. وتُفهم هذه الاستعارة من خلال إسقاط الأسرة على المجتمع عبر عدّة ترسيمات، فالمجتمع يقابل الأسرة،

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص-ص ٤١٨-٤١٩.

والفاعلون الأخلاقيّون يقابلون الآباء المعتنين، والناس المحتاجون يقابلون الأطفال، والأعمال الأخلاقيّة تقابل أعمال الاعتناء[1]. وقد كان الأب شديد الاعتناء بأفراد أسرته، وحريصا على حمايتهم وتنشئتهم وفق نموذج الوالد المعتني، ويعمل جاهدا ليسهّل عليهم تحقيق أهدافهم. يقول الأب: "أنتم أغلى ما أملكه في هذه الدنيا، أنت وسليمان ونورة، ولا أريد أن أخسر واحدا منكم مهما كلّفني الأمر" (ص ١٢٩). ومتى حلّ مكروه بأفراد أسرته لا يدّخر الأب جهدا في العمل على تجاوز الأزمة، فقد منح الراوي شيكا بخمسين ألف ريال، وأمره بإعطائه السارق من أجل إرجاع السيف.

غير أنّ الأب كان يبالغ أحيانا في الاعتناء، فكانت لأخلاقه بعض "الصيغ المرضيّة"[2]. وذلك ما حمل الراوي أحيانا على الضجر والتبرّم. يقول الراوي متحدّثا عن أبيه: "لماذا تعوم على بحر من المخاوف والمحاذير؟ لقد ضيّقت أمامنا طريق المتاحات فكدت تدفعنا إلى أبواب المناحات. ألم تكن تعلم أنّ منعك قد يدفعنا إلى التجريب والممارسة؟ وهل كان أبناء يعقوب سيخترعون حكاية الذئب مع يوسف لولا تحذير، بل تذكير أبيهم؟" (ص ٤١).

إنّ سلوك الأب بناء على استعارة الأخلاق اعتناء، هو مظهر من مظاهر المساعدة التي كان يقدّمها باستمرار لأفراد أسرته بمن فيهم الراوي. ولكن ليس الأب هو من ساعد الراوي في مواجهة المصاعب والمحن، بقدر ما ساعدته الاستعارات التي كانت متحكّمة في إدراك الأب وتفكيره ومواقفه.

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٤٠٥.

٢ المرجع نفسه، ص ٤٢٣.

٢/ علاقة العرقلة والتقابل الاستعاري:

أ/ الراوي والعم واستعارة الأخلاق محاسبة

تقتضي استعارة المحاسبة الأخلاقيّة مجموعة من الخطاطات الأساسيّة، من أبرزها الجزاء والانتقام والمبادلة والاسترداد. فالقيام بشيء خيّر لشخص مّا، هو استعاريّا إعطاء هذا الشخص شيئا ذا قيمة، ويمنح المعطي رصيدا أخلاقيّا. وأمّا إلحاق الضرر والأذى بشخص مّا يعني إعطاؤه شيئا سلبيّا وإفقاده شيئا إيجابيّا، فيخلق دينا أخلاقيّا. ومثلما يجب أن تكون السجلّات الماليّة متوازنة، يجب أن تكون السجلّات الأخلاقيّة متوازنة.

وتتأسّس استعارة المحاسبة الأخلاقيّة على مبدأيْن: يقوم المبدأ الأوّل على أخلاق الصلاح والطيبة المطلقة، فلا يردّ المتضرّر الفعل على من ألحق به الضرر والأذى. ويقوم المبدأ الثاني على أخلاق الجزاء، حيث يُعدّ إلحاق الأذى والضرر بشخص مّا تصرّفا غير أخلاقيّ. ويكون ردّ فعل ذلك الشخص تصرّفا أخلاقيّا لكونه قد سدّد دينا أخلاقيّا. وكلّ ردّ فعل يكون انتقاما وثأرا متى كان من منطلق ذاتيّ، ويكون جزاء متى نهضت به سلطة شرعيّة[١].

وكان سليمان قد قتل ابن عمّه طلال، فآلم عمّه وألحق به الضرر والأذى، فيكون قد أعطى عمّه شيئا ذا قيمة سلبيّة، حسب استعارة الرفاه ثروة، وأخذ منه شيئا ذا قيمة إيجابيّة حسب استعارة المحاسبة الأخلاقيّة. وقد عامل العمُّ الراويَ، بوصفه شقيق القاتل، بناء على استعارة المحاسبة الأخلاقيّة، في

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص-ص ٣٩٤-٣٩٧.

خطاطتها الجزاء والانتقام، تبعا للمبدأ الثاني المتمثّل في أخلاق الجزاء. يقول العمّ: "لن أقبل من أحد شفاعة أو وساطة. القاتل يجب أن يُقتل كائنا من كان" (ص ٥٤).

وكان الراوي حريصا على إفراغ ذهن عمّه من المبدأ الثاني من مبادئ استعارة المحاسبة الأخلاقيّة المتمثّل في أخلاق الجزاء، وملئه بالمبدأ الأوّل، المتمثّل في أخلاق الطيبة المطلقة. ولكنّ العمّ ظلّ أبدا مستعصما بالمبدأ الثاني، ومصرّا على تسديد ما على الراوي وأسرته أخلاقيّا، فالحياة مقابل الحياة. فهو يقول: "يجب أن يشرب أخوك من نفس الكأس التي أذاقها لطلال، أخوك الذي حرم طلال الحياة يجب أن ينحرم من الحياة هو أيضا" (ص ٥٧).

وقد رفض العمّ إدارة الخدّ الآخر للراوي، وتعامل معه وفق أخلاق الجزاء، وهي تمثّل أساس "أخلاق الشرف"، فالشرف رأس مال اجتماعيّ، يقتضي الدفاع عنه أمام كلّ من يشكّل خطرا عليه. فـ"سبّ أحدهم هو بمثابة قذف وتوجيه ضربة استعاريّة لهذا الشخص. والطرف "المقذوف" عليه واجب أخلاقيّ، وهو موازنة السجلّات الأخلاقيّة من خلال إلحاق ضرر مماثل بهذا الشخص الذي صدر منه هذا الفعل"[١]. ولم يكن سليمان قد سبّ طلال، بل قتله، ولذلك وجد العمّ نفسه مجبرا على المطالبة بقتل سليمان تحقيقا لموازنة السجلّات الأخلاقيّة. وقد كان العمّ خاضعا في موقفه لـ"مفعول السلبيّة" (Effet de négativité)، القاضي بأنّ الذاكرة تخزّن الحجج السلبيّة أكثر من الحجج الإيجابيّة، لكون الحجج السلبيّة أثقل في الميزان.

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص٣٩٧.

وأدّى موقف العمّ إلى يأس الراوي، يقول: "لو أنّي أملك مصل الرحمة لحقنته فيك، فأنت صخر صلد لا تهزّه توسّلات" (ص ١٢٥). فخابت جميع محاولاته في إنقاذ أخيه، وأصبح على يقين أنّ موازنة السجلّات الأخلاقيّة في طريقها إلى التحقيق، يقول: "ها هو صباح الجمعة المشهود يحلّ برأسه، هذا الجمعة الذي سيخبو فيه ضوء روحك يا سليمان، وكيف تفتّتت صخرة اليقين التي استند إليها إحساسي بأنّك لن يُقتل؟ ها هي ساعات قلائل وتهجر ظهر الأرض إلى باطنها" (ص ١٢٧).

ولكنّ العمّ لم يكن ساديّا أو صخرا صلدا على نحو ما صوّره الراوي، ولم يخب الراوي في سعيه على نحو ما اقتنع به، ولن يُقتل سليمان بناء على قسوة العمّ على نحو ما توهم به حركةُ السرد القارئَ، وإنّما كلّ ذلك كان وليد الاستعارة، فاستعارة المحاسبة الأخلاقيّة نزعت الرحمة من قلب العمّ، وقادت جهود الراوي إلى الخيبة، وحكمت على سليمان بالموت، فالاستعارة هي القاتلة.

ب/ **الراوي وجاكلين واستعارة الأخلاق محاسبة:**

خضع تواصل جاكلين مع زوجها الراوي للاستعارة ذاتها التي تحكّمت في سلوك العمّ. فقد انتابها إحساس بعدم عودة زوجها، تقول في رسالتها الثالثة: "لقد كنت متخوّفة من أن تسافر ولا تعود، وأخشى أن تكون الأيّام قد بدأت تثبت لي صدق مخاوفي" (ص ١٠٩). ولما تحوّل الإحساس يقينا، سارعت جاكلين بتحميل الراوي مسؤوليّة إلحاق الضرر والأذى بها، حيث تقول في رسالتها الخامسة: "آلام الوضع هذه على شدّتها تهون، أمام الآلام التي سبّبها

لي هجرانك" (ص ١١٢).

تأكّدت جاكلين، أو هكذا بدا لها، أنّ الراوي قد أعطاها شيئا ذا قيمة سلبيّة تمثّل في الألم النفسيّ، وأخذا منها شيئا ذا قيمة إيجابيّة تمثّل في السعادة. ولم يكن بوسع جاكلين أن تطبّق المبدأ الأوّل في استعارة المحاسبة الأخلاقيّة، المتمثّل في أخلاق الطيبة المطلقة، وإنّا وجدت نفسها مجبرة على تطبيق المبدأ الثاني المتمثّل في أخلاق الجزاء، تحقيقا لموازنة السجلّات الأخلاقيّة، فهي تقول في نهاية رسالتها الخامسة والأخيرة: "وأخيرا أقول لك إنّي قد قرّرت وبعد تردّد كبير أن أقطع كلّ ما يمكنه أن يذكّرني بك، كلّ أشيائي وحاجياتي وأغراضي سأتخلّص منها. لذلك هجرت شقّتنا في باريس، وغيّرت رقم هاتفي الجوّال، وسألغي هذا البريد الإلكتروني بعد أن أبعث إليك هذه الرسالة. سأغلق كلّ منفذ قد يفتح على قلبي ذكراك" (ص ١١٣).

فتكون جاكلين بهذه الطريقة في التواصل قد عدلت عن أخلاق الجزاء إلى الثأر، لكونها وازنت السجلّات الأخلاقيّة بنفسها ولم تلتجئ إلى سلطة شرعيّة تقتصّ لها من زوجها. ومهما كان نوع الثأر فإنّ جاكلين ليست هي من ثأرت من زوجها أو عرقلت مسعاه في المحافظة على علاقته الزوجيّة، وإنّما استعارة المحاسبة الأخلاقيّة هي التي حملت جاكلين على التواصل مع زوجها على هذا النحو، فالاستعارة هي المعرقل، وليست جاكلين إلّا أداة من أدوات تنفيذ الاستعارة.

ج/ الراوي واللصّ واستعارة الأخلاق قوّة

تقتضي استعارة الأخلاق قوّة وجود قوّة تقهر قوى الشرّ وتحافظ على وضع

أخلاقيّ مستقيم. وتقوم هذه الاستعارة على مجموعة من الترسيمات، فالاستقامة تقابل الخير، والانحراف يقابل الشرّ، والوقوع يقابل عمل الشرّ، والقوّة المفقدة للاستقرار تقابل الشرّ بنوعيْه، وقوّة المقاومة تقابل الفضيلة الأخلاقيّة، ولذلك تُفهم الاستقامة الأخلاقيّة استعاريّا من خلال الاستقامة الفيزيائيّة، فأن تكون ذا أخلاق هو أن تكون مستقيما، وأن تكون بدون أخلاق هو أن تكون منحرفا. وتترتّب على استعارة الأخلاق قوّة مجموعة من الاقتضاءات، من بينها أنّ ضعف الأخلاق شكل من انعدام الأخلاق، وأنّ الشخص الضعيف أخلاقيّا لا يستطيع أن يتصدّى، ولذلك سيرتكب الشرّ.

وترتبط باستعارة الأخلاق قوّة استعارة الشرّ قوّة. وتندرج الخطايا السبع القاتلة في لائحة الشرور: الطمع والشهوة والشراهة والكسل والغرور والحسد والغضب. والفضائل التي تقابل هذه الخطايا هي، الإحسان والعفّة والاعتدال والاجتهاد والتواضع والقناعة واللطف. وقد يكون ذلك الشرّ خارجيّا أو داخليّا. ويُفهم الشرّ الخارجيّ استعاريّا بوصفه شخصا آخر يرغب في السيطرة عليك، أو قوّة طبيعيّة تؤثّر فيك. وأمّا الشرّ الداخليّ فهو الرغبة المرتبطة بالجسد، ويُفهم استعاريّا بوصفه شخصا أو حيوانا أو قوّة طبيعيّة، مثل فيض الأحاسيس. وعلى المرء أن يكون قويّا وذا عزيمة ليتمكّن من مواجهة الشرّ، وعلى هذا النحو تكون الأخلاق قوّة.

وتظهر قوّة الأخلاق في شكليْن: يتمثّل أوّلهما في الشجاعة، فعلى المرء أن يكون شجاعا أثناء مواجهة شرور خارجيّة. ويتمثّل ثانيهما في الإرادة. فعلى المرء أن يكون ذا إرادة قويّة لمواجهة الشرور الداخليّة. ويقتضي منطق استعارة

الأخلاق قوّة أن يعدّ الضعف الأخلاقيّ في حدّ ذاته شكلا من اللاأخلاقيّة، فالشخص الضعيف أخلاقيّا كأنّه يقع، إذ يستسلم للشرّ، ويأتي أعمالا غير أخلاقيّة، وبذلك يصير جزءا من قوى الشرّ[1].

وقد ظهر الشرّ بشكليْه في شخصيّة اللصّ. فاللصّ يمثّل شرّا خارجيّا بالنسبة إلى الراوي. فقد طلب ثلاثين ألف ريال لإرجاع السيف الذي سرقه. ولما وافق الراوي عدل اللصّ عن طِلبته، وطلب مضافة المبلغ، وعدّ المبلغ الأوّل دفعة أولى، قائلا: "لقد قرّرت رفع سعر السيف إلى ستّين ألف ريال، وسأعتبر المبلغ الذي سلّمته لي هو الدفعة الأولى. وسأعطيك السيف عندما تسلّمني الدفعة الثاني" (ص ١٣٢). فأُسقط في يد الراوي، وخابت جميع مساعيه في استرداد السيف، وإرضاء والده المتعلّق تعلّقا كاملا بالسيف. وأمّا الشرّ الداخليّ فتمثّل في تضخّم نازعة الطمع لدى اللصّ، واستسلامه للشرّ، فضعف أخلاقيّا، وأقدم على أعمال غير أخلاقيّة. فهو يقول: "ولكنة عندما علمت بقيمة السيف عند أبيك وأهمّيته بالنسبة إليه، قلت لا يمكنني أن أعيده إلّا بمبلغ محترم يضمن لي الحياة الكريمة" (ص ٦١).

وكان اللصّ واعيا بأنّه قد انحرف سلوكيّا، وتجاوز "الحدود الأخلاقيّة" المسموح بها، ودخل فضاءات محرّمة أخلاقيّا. وقد بلغ من الضعف الأخلاقي مراتب قصيّة أصبح بمقتضاها جريئا على تلك الحدود الأخلاقيّة، ويعمل على تبرير سلوكه. فهو يقول للراوي: "أنا أعلم أنّ هذا حرام، وأنّ هذه سرقة، ولكن

---

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص-ص ٤٠٣-٤٠٤.

هل تريدني أن أتضوّر جوعا، وأنتم تعلّقون سيفا من الذهب للزينة؟ أيّهما الأهمّ حياة إنسان أم جمال مكان؟" (ص ٦١).

وتكشف جرأة اللصّ على ما يتميّز به من الأنانيّة الأخلاقيّة من حيث هي "ذلك الرأي الذي يرى أنّ التصرّف يكون صائبا حين يزيد من رفاهي إلى أقصى درجة"[١]. فهو يقول: "كنت أقول لنفسي إنّ سيفا من الذهب الخالص بهذا الحجم سيوفّر لي مبلغا محترما، يمكّنني من عمل مشروع صغير أعيل به نفسي، وأبدأ به حياتي" (ص ٦١).

إنّ اللصّ كان شرّا خارجيّا بالنسبة إلى الراوي، وازدادت مخاطره لما استسلم للشرّ الداخليّ، فأصبح كتلة من الشرور تواجه الراوي. وقد أفلح في عرقلة الراوي وحرمه السيف، من حيث هو مطلب أساسيّ يعيد التوازن النفسيّ إلى الأب، ويرجع الاستقرار إلى الأسرة. ولا تكمن مخاطر اللصّ في المساومة في إرجاع السيف وإصراره على الابتزاز فحسب، بقدر ما تكمن في استفزاز الراوي واستدراجه إلى ارتكاب جرم فظيع، وهو قتل اللصّ. وقد ترتّب على ذلك الحكم على كلّ البرامج السرديّة بالانفصال، والمشاريع الحجاجيّة بالخيبة. وليس اللصّ من عرقل الراوي أو حرّك السرديّة نحو التأزّم، وإنّما هي استعارة الشرّ قوّة. فهي التي منعت الراوي تحقيق طلبته، وتجاوز النقص الذي يعانيه، وآلت بالسرديّة إلى التأزّم.

ويتّضح أنّ العلاقة بين الشخصيّات قائمة على التنوّع بين مساعدة الراوي في تحقيق طلبته وعرقلتها. وقد تبيّن أنّ الشخصيّات غير مسؤولة عمّا بدر منها

١ المرجع نفسه، ص ٤٣٢.

من أفكار ومواقف وألوان سلوك، لكونها كانت محكومة بالاستعارات التصوّريّة. فكلّ موقف هو تجلّ لاستعارة ثاوية في العمق الإدراكيّ عند الشخصيّة. وعلى هذا النحو تحصل المساعدة بين الشخصيّات عند تقارب التصوّرات الاستعاريّة، وتحصل العرقلة عند التقاطع بين التصوّرات، حيث تكون الحروب بين الشخصيّات "حروب استعارة" على حدّ عبارة جيبس (Raymond W. Gibbs, Jr)[1]. وبذلك فإنّ الشخصيّات هي مجرّد دمى في الكون الروائيّ تحرّكها خيوط خفيّة ليست إلّا الاستعارات التصوّريّة. وقد يتعزّز هذا العمق العرفانيّ في رواية "تضاريس الوجع" بالوقوف على الاستعارات المتحكّمة في بنية الزمن.

ثالثا: الزمن واستعارة التوجيه الزمنيّ.

إنّ الزمن في المنظور الإنشائيّ هو الإطار الذي استغرق حركة الأعمال في رواية "تضاريس الوجع". وهو في حدود شهر منذ أن حلّ الراوي بأرض الوطن في بداية الرواية، إلى أن قتل اللصّ في نهايتها. وهذا التصوّر للزمن ليس إلّا تصوّرا حرفيّا قائم على الزمن المقيس والتسجيليّ بناء على حركة الأرض حول الشمس.

ولكنّ الزمن يكتسب مظهرا آخر في المنظور العرفانيّ، فهو حسب جيل فوكونيي (Gilles Fauconnier) ومارك تورنر (Mark Turner)

1 Raymond W. Gibbs, Jr, Metaphor Wars Conceptual Metaphors in Human Life, op. cit, p. ١.

يُفهم من خلال المكان بناء على استعارة "الزمان مكان"[١]، وهو حسب لايكوف وجونسون يُبنى اعتمادا على تصوّرات استعاريّة عدّة. فلنسقه الاستعاريّ بنية ثلاثيّة يُصطلح عليها بـ"استعارة التوجيه الزمنيّ"، وتتكوّن من ثلاثة مكوّنات:

"موقع الملاحظ الحاضر

الفضاء الذي أمام الملاحظ المستقبل

الفضاء الذي وراء الملاحظ الماضي"[٢].

وترتبط باستعارة التوجيه الزمنيّ استعارتان إضافيّتان قائمتان على الحركة، حيث المعرفة والاستنتاجات المتعلّقة بالحركة عبر الفضاء تُرسّم في المعرفة والاستنتاجات المتعلّقة بمرور الزمن.

* استعارة الملاحظ المتحرّك، حيث تُتصوّر الأزمنة مواقع في مشهد ومسار على خلفيّة يتحرّك عليها الملاحظ.

* استعارة الزمن المتحرّك، حيث يكون الملاحظ قارا وثابتا في الحاضر، والزمن يتحرّك في اتّجاه الملاحظ ويتجاوزه. ويكون المستقبل أمام الملاحظ ، والماضي وراءه.

وتعدّ كلّ استعارة "قلبا للأخرى في العلاقة بين الخلفيّة والشخصيّة. في استعارة الزمن المتحرّك، الملاحظ هو الخلفيّة والأزمنة شخصيّات تتحرّك بالنظر إليه. وفي استعارة الملاحظ المتحرّك، الملاحظ هو الشخصيّة والزمن هو الخلفيّة،

1 Gilles Fauconnier and Mark Turner, Rethinking Metaphor, in The Cambridge Handbook of Metaphor and Thought, Cambridge University Press 2008, p. 54.

٢ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٠٤.

الأزمنة مواقع والملاحظ يتحرّك بالنظر إليها"[1].

وقد هيمنت استعارة الملاحظ المتحرّك في بداية رواية "تضاريس الوجع"، ويمكن الانطلاق من بعض التعابير الاستعاريّة:

١/ "أقف أمام الباب منذ دقائق منتظرا ردّ أحد" ص (ص ٥٣).

٢/ "متى سأقبض ثمن البيت وأعيد السيف وأنتهي؟ أثمّة بصيص نور يبزغ آخر نفق الأحداث المظلم؟ وإن كان فهل ستحملني إليه خطايا أم سأنهار قبل نهاية الطريق؟" (ص ٦٥).

٣/ "غدا بإذن الله سأبادر إلى أحدها في الصباح الباكر" (ص ٧٠).

٤/ "سأحجز تذاكر إلى سويسرا بعد عشرة أيّام... وغدا سأستعيد السيف من سارقه" (ص ١٢٦).

٥/ "كلّها دقيقة أو أقلّ وأصل إلى البيت الذي يربض آخر الشارع" (ص ١٢).

وردت جميع هذه التعبيرات الاستعاريّة في خطاب الراوي، وهي منشدّة في عمقها التصوّري إلى استعارة الملاحظ المتحرّك. فالأزمنة مواقع قارّة، وهي الخلفيّة، فدقائق الانتظار المشار إليها في المثال الأوّل توجد في الماضي المتّصل بالحاضر، وهو ماض يوجد خلف الراوي. والأزمنة الأخرى المذكورة في بقيّة الأمثلة هي المستقبل، وتوجد أمام الراوي. وأمّا الراوي فهو في حركة عبور في الزمن الحاضر لتلك المواقع من الماضي في اتّجاه المستقبل، وهو الشخصيّة. وقد أكّد الراوي تلك الحركة في الجزء الثاني من المثال الثاني.

---

١ المرجع نفسه، ص ٢١٦.

ويفيد المدلول الثاني في هذه الاستعارة سلطة الراوي على الزمان. فهو المتصرّف في الزمان والقادر على تكييفه على النحو الذي يريده. وهو المسيطر على الأحداث والمتحكّم في الواقع الذي يعيشه، بفضل ما تميّز به من إرادة الفعل (Vouloir-faire)[1]، فهو يقول في خصوص إنقاذ أخيه: "لقد قطعت على نفسي العهد بأن أبذل ما في وسعي لتخليصك من حدّ السيف حتى آخر لحظة" (١٢٢).

غير أنّ الأمر تغيّر كلّيّا في عديد المواضع في الرواية، حيث تواترت تعبيرات استعاريّة من قبيل:

١/ "الوقت يزحف كسلحفاة عجوز" (ص ١٠٦).

٢/ "مضى أكثر من نصف ساعة" (ص ١٠٦).

٣/ "هاهو صباح يوم الجمعة المشهود يطلّ برأسه" (ص ١٢٧).

٤/ "وحين تقترب ساعة التنفيذ يحجزون مقاعدهم في الصفوف الأولى" (ص ١٣٠).

تمثّل هذه العبارات الاستعاريّة تجلّيّا لغويّا لاستعارة الزمن المتحرّك، فالأفعال يزحف/ مضى/ يطلّ/ تقترب، تسند الحركة إلى الزمان، فهو قادم في حركته في اتّجاه الراوي، ليخترقه من الأمام نحو الخلف، فأصبح بذلك هو الشخصيّة. وأمّا الراوي فقد أصبح ثابتا في مكانه، فتحوّل خلفيّة.

ويرتبط هذا التحوّل الاستعاريّ في تصوّر الزمان بتحوّل موقع الراوي في

1 Philippe Hamon, Le personnel du roman, Librairie Droz S.A. Genève, 1983, p. 236.

أعمال الرواية. فبعد أن كان متحكّما في سيرورة الأعمال، وموجّها لها، ومطوّعا الزمان لإرادته، أصبح منهزما أمام تأزمّ الأعمال في الرواية، ولم يعد قادرا على الصمود ومواجهة الأزمات المتتالية والعراقيل المتتابعة. فتحوّل من شخصيّة وفاعل في سيرورة الأعمال مؤثّر فيها، إلى خلفيّة ومفعول به للأعمال متأثّر بها. وقد قلّص هذا التحوّل من سلطة الراوي والقدرة على الفعل لديه، وأصبح عاجزا ينتظر مرور الزمان وما قد يحمله في طيّاته من أحداث.

وعلى هذا النحو اكتسب الزمن في رواية "تضاريس الوجع" بنية تصوّريّة نُسخت بمقتضاها البنية الاستنتاجيّة لخطاطة الحركة في الفضاء، بوصفها المجال المصدر، في البنية الاستنتاجيّة لعبور الزمن، بوصفه المجال الهدف[1]. ولعلّ بنية المكان تعزّز هذا المنظور التصوّريّ.

رابعا: المكان واستعارة بنية الحدث مكان

يمثّل المكان في المنظور الإنشائيّ الإطار الذي تدور فيه الأحداث، وهو في رواية "تضاريس الوجع" أمكنة عدّة: الشارع الرئيسيّ في مدينة الراوي/ البيت/ السجن/ بيت العمّ/ بيت اللصّ/ بيت الأخ/ مقهى الانترنت. وهناك أماكن أخرى حاضرة نصّا وغائبة ركحا، مثل المطار، وبعض المناطق في فرنسا وبلجيكا.

ولكنّ المكان في المنظور العرفانيّ يتجاوز مستوى التأطير إلى مستوى التفكير. حيث يتحوّل مجالا مصدرا، تُفهم من خلاله الأحداث بمختلف مظاهرها، مثل الأعمال والحالات والتغيّرات والسببيّة والأهداف. والمقصود

١ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٠٨.

بالأمكنة "مناطق محصورة في الفضاء. كلّ منطقة محصورة لها داخل وخارج وحدود"[1]. ويمكن الانطلاق من بعض العبارات الاستعاريّة لبيان ذلك:

١/ "لذا دسست رأسي في الصمت" (ص ١٩).

٢/ "أحسست بأنّي أسير في أزقّة عتيقة لا أعرف مسالكها" (ص ١٣٣).

٣/ "لا طاقة لي بهذا الجحيم وقد دخلت جنّتك، لجّة الأحزان التي عبرتها على راحتيك لا أريد لها أن تعود" (ص ٣٢).

يبدو الصمت في المثال الأوّل حالة، وقد تصوّره الراوي استعاريّا منطقة ترابيّة محصورة في الفضاء، وهو يوجد داخلها، وقد لاذ بها واختفى فيها. وأمّا في المثال الثاني فقد تصوّر الراوي الحالة التي شعر بها استعاريّا بوصفها أزقّة عتيقة. ومن خصائص الأزقّة العتيقة الضيق والالتواء وغموض الرؤية، ويزداد سالكها قلقا متى كان غير عليم بمسالكها. وتُرسّم هذه الخصائص في الحالة التي يعانيها الراوي، فإذا هو في حيرة من أمره. وتزداد الحيرة تعقيدا، بسبب عجز الراوي عن معرفة كيفيّة الخروج من تلك الحالة من التوتّر والحيرة.

وتضمّن المثال الثالث ثلاثة أمكنة: الجحيم والجنة واللجّة. يحيل المكان الأوّل إلى العرقلة. حيث تصوّر الراوي عوائق الحركة والمسارات التي يواجهها استعاريّا جحيما، وهو مكان غير مرغوب فيه، ويعرقل الحركة في اتّجاه المكان المنشود[2]. ويحيل المكان الثاني إلى الأهداف. حيث تصوّر الراوي أهدافه في السعادة والتوازن والاستقرار جنّة، من حيث هي مكان مرغوب فيه ووجهة يريد

---

١ المرجع نفسه، ص ٢٥٥.

٢ لايكوف وجونسون، الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ص ٢٧٢.

الوصول إليها، والبقاء فيها. ثمّ تصوّر الراوي الحزن لجّة، وللجّة البحر داخل وخارج، يواجه من يمرّ بها إرهاقا شديدا.

واستند الراوي في تصوّره للحالات والعراقيل والوجهات في هذه الأمثلة إلى استعارة بنية الحدث مكان، ومن البراهين على ذلك برهان التعدّد الدلاليّ في حرف الجرّ "في" المتواتر في المثالَيْن الأوّل والثاني، فهو يحمل معينم الفضاء إلى جانب معينم الحالة. ويظهر برهان التعدد الدلاليّ كذلك في فعليْ "دخل" و"عبر" في المثال الثالث. ففعل "دخل يفيد الدخول في منطقة محصورة فضائيّا مثلما يفيد الدخول في حالة مّا، وهي حالة السعادة. ويفيد فعل "عبر" أنّ الراوي قد دخل في منطقة محصورة مكانيّا وخرج منها، على نحو ما يفيد الدخول في حالة والخروج منها. ومن البراهين كذلك البرهان الاستنتاجيّ[1]. فالاستنتاجات المتعلّقة بالمناطق المحصورة في الفضاء ترسّم الاستنتاجات المتعلّقة بالحالات. وتقتضي عمليّة الإدراك، اختيار شخصيّة-خلفيّة. وقد ورد الراوي في جميع الأمثلة شخصيّة، ووردت الأمكنة خلفيّة، حيث الشخصيّة كيان يتحرّك في خلفيّة قارّة وثابتة.

وعلى هذا النحو كفّ المكان عن أن يكون إطارا تقع فيه الأحداث، ليصبح وسيلة تُمكّن بواسطتها من فهم الأحداث بمختلف مظاهرها، حيث يكون المكان مجالا مصدرا، والأحداث مجالا هدفا. فالمكان هو مصدر الوعي ومركزه، وقد تحوّل من آلية تأطير إلى آلية تفكير.

---

١ المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

الخاتمة

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ رواية "تضاريس الوجع" في ظاهرها لا تزيد عن كونها عملا سرديّا ذا بنيّة قصصيّة محكمة البناء، وفي باطنها عمل تصوّريّ ذو بنية تصوّريّة مختلفة المظاهر باختلاف مقوّمات السرد. ففي مستوى الأعمال تحكّمت استعارة بنية الحدث بما اشتملت عليه من استعارات فرعيّة في بنية الأعمال الأساسيّة الثلاثة، وأخضعتها لمنطق سببيّ.

وفي مستوى الفواعل والعلاقات بينها فقد اتّضح أنّ الشخصيّات ليست إلّا تجلّيا سطحيّا (Surface manifestation) لتصوّرات استعاريّة عدّة شكّلت فهمها وإدراكها ووجّهت سلوكها، وحدّدت مواقفها، وفرضت عليها توعا معيّنا من العلاقات مع الراوي بوصفه الشخصيّة الرئيسة في الرواية.

وأمّا الزمان والمكان فكانا أكثر المقوّمات السرديّة انشدادا إلى العمق الإدراكيّ. فقد استند الزمان في بنيته التصوّريّة إلى استعارة التوجيه الزمنيّ حيث اختلفت المواقع بين الملاحظ والزمن باختلاف أحداث الرواية. وتحوّل المكان من وسيلة تأطير إلى آلية من آليات التفكير، وأصبح مجالا مصدرا توظّفه الشخصيّات في القبض على بعض التصوّرات المجرّدة ومَقولتها (Categorisation).

وقد ساهمت تلك التصوّرات الاستعاريّة في بناء المعنى، فجاءت الآلام وتضاريس الوجع التي عاشها الراوي انتشارا لعنوان الرواية "تضاريس الوجع"، ومنسجمة مع التصوّرات الاستعاريّة الثاوية في العمق. ولم تساهم الحبكة في وسم الرواية بميسم تراجيديّ بقدر ما كانت الاستعارة التصوّريّة هي المسؤولة

عن ذلك الطابع التراجيديّ. فالاستعارة التصوّريّة هي الفاعل والمساعد والمعرقل والقاتل.

وعلى هذا النحو فإنّ الخطاب السرديّ عموما والخطاب الروائيّ خصوصا خطاب مجسدن (Embodied)، وأنّ البنية التصوّريّة تتيح الوقوف على البناءات التصوّريّة المتحكّمة في مختلف مقوّمات السرد، وبيان كيفيّة تشكّلها استنادا إلى المحيط الفيزيائيّ وجميع التجارب الاجتماعيّة والثقافيّة في الرواية. وبذلك فإنّ الخطاب الروائيّ ليس تشكيلا فنّيّا فحسب بقدر ما هو تشكيل تصوّريّ بالأساس.

المصدر والمراجع

أوّلا: المصدر:

التركي (إبراهيم)، تضاريس الوجع، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ط ١، الرياض، ٢٠٠٣.

ثانيا: المراجع:

١/ المراجع المترجمة:

* تايسون (لويس)، النظريات النقدية المعاصرة، ترجمة أنس عبد الرزاق مكتبي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠١٣.

* لايكوف (جورج) وجونسن (مارك)،

– الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ، ترجمة وتقديم عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط ١، بيروت، ٢٠١٦.

– الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠١٨.

٢/ المراجع الأجنبيّة:

* Anscombre (Jean-Claude) et Ducrot (Oswald), L'argumentation dans la langue, Mardaga, 3ème édition, Paris, 1997.

* Aristote, Rhétorique, trad. C-E Ruelle, le livre de poche, Librairie Générale Française, Paris, 1991.

* Boyd (Brian), Patterns of Thought: Narrative and Verse, in Cognitive Literary Science, Oxford University Press, 2017.

* Campion (Baptiste), Évaluer le récit comme acte cognitif Quel cadre pour les approches expérimentales?, in Cahiers de Narratologie Analyse et théorie narratives, N° 28, 2015.

* Fauconnier (Gilles) and Turner (Mark), Rethinking Metaphor, in The Cambridge Handbook of Metaphor and Thought, Cambridge University Press 2008.

* Gibbs (Raymond W, Jr),

- Embodied Dynamics in Literary Experience, in Cognitive Literary Science, Oxford University Press, 2017.

- *Metaphor Wars Conceptual Metaphors in Human Life*, Cambridge University Press, 2017.

* Hamon (Philippe), Le personnel du roman, Librairie Droz S.A. Genève, 1983.

* Meyer (Bernard), Maîtriser l'argumentation, Armand Colin, Paris, 1996.
* Talmy (Leonard), Toward a cognitive semantics, Massachusetts Institute of Technology, 2000.
* Troscianko (Emily T.) and Burke (Michael), A Window on to the Landscape of Cognitive Literary in Cognitive Literary Science Dialogues between Literature and Cognition, Oxford University Press, 2017.

٣/ المراجع الإلكترونيّة:

* Balliu (Christian), Cognition et déverbalisation, in **مرجع الارتباط التشعبي غير صحيح.**
* Vanoost (Marie), De la narratologie cognitive à l'expérimentation en information et communication: comment cerner les effets cognitifs du journalisme narratif?, in http://journals.openedition.org/narratologie/7239.

الحجاجُ في قصيدةِ أبي فراس الحمدانيّ
(يا حَسرَةً ما أَكادُ أَحمِلُها)
دراسة بلاغيّة

د. ضحى عادل بلال
قسم اللّغة العربيّة – كلية الآداب
جامعة الإمام عبد الرّحمن بن فيصل

الحجاجُ في قصيدةِ أبي فراس الحمدانيّ (يا حَسرَةً ما أَكادُ أَحمِلُها) دراسة بلاغيّة

د. ضحى عادل بلال

قسم اللّغة العربيّة – كلية الآداب
جامعة الإمام عبد الرّحمن بن فيصل

تاريخ تقديم البحث: ٢/ ٢/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٧/ ٣/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

تهدفُ هذه الدّراسةُ إلى إبرازِ بلاغةِ الحِجَاج في لاميّةِ أبي فراس الحمدانيّ الشّهيرة " يا حَسرَةً ما أَكادُ أَحمِلُها"، وكيفيّةِ بناءِ اللّاميّةِ وَفقَ استراتيجيّةٍ تعبيريّةٍ توظّفُ الأساليبَ اللّغويّةَ بأبعادِها الحِجَاجيّةِ، في سبيلِ إقناعِ سيفِ الدّولةِ، والتّأثيرِ فيهِ للمسارعةِ بفداءِ الشّاعرِ، وتحريرِهِ من الأسرِ.

وقد اتّبعَتِ الدّراسةُ المنهجَ الوصفيَّ التّحليليَّ بانتقاءِ المقاطعِ الشّعريّةِ الدّالّةِ، وتحليلِ البنى التّركيبيّةِ الّتي كثّفَ الشّاعرُ من استخدامِها لاستشرافِ الجماليّاتِ البلاغيّةِ، واستنباطِ ما تحويهِ من طرائقَ حِجَاجيّةٍ، والوقوفِ على الخيطِ النّفسيّ النّاظمِ لها ضمنَ السّياقِ الكلّيّ للّاميّة.

وخلُصَ البحثُ إلى أنّهُ على الرّغمِ من تمكُّنِ الشّاعرِ من عرضِ حججِهِ، وتوظيفِها فنيّاً في نسيجِ قصيدتِهِ فإنّه لم يتمكّنْ من تحقيقِ هدفِهِ .

الكلمات المفتاحية: بلاغة، الحِجَاج، اللّاميّة، أبو فراس الحمدانيّ .

Argumentative in Lamiat Abu Feras AlHamadani (Oh repentance, I can not tolerate) Rhetorical Study

Dr. Doha Adel Bilal
Department Arabic Language - Faculty
Imam Abdulrahman Bin Faisal university

Abstract:

This study aims to highlight the rhetoric of the pilgrims in the famous Lamiat Abu Feras AlHamadani(Oh repentance, I can not tolerate) and how to build Lamaism according to an expressive strategy that employs linguistic methods with its predicate dimensions. To Persuade the sword of the state, and influencing you to hasten the poet's redemption, and liberate him from captivity This study aims to highlight the rhetoric of the pilgrims in the famous Lamiat Abu Feras AlHamadani(Oh repentance, I can not tolerate) and how to build Lamaism according to an expressive strategy that employs linguistic methods with its predicate dimensions. To Persuade the sword of the state, and influence you to hasten the poet's redemption, and liberate him from captivity. Al-Bohsali concluded that Ansou Ali Al-Sargham was the site of the Sanctuary of Al-Shaa`ar, the sanctuary of the Hijjis era, and he used it artistically inThe texture of your poem was not able to achieve its goals.

key words: Balagha, Argumentative, Lamaism, Abu Firas Al-Hamdani.

المقدّمة

إنّ أبا فراسٍ وهو ينسجُ خيوطَ تجربتِهِ المريرةِ في الأسرِ سطّرَ لنا أصدقَ المشاعرِ وأخصَّها في روميّاتِهِ، الّتي اخترْنا إحداها مجالاً للتّطبيقِ، وتتميّزُ هذه القصيدةُ المختارةُ بأنّها ارتبطَتْ بحادثةٍ كانَ لها أكبرُ الأثرِ في حياةِ أبي فراس، فقد علِمَ أنّ أمَّهُ ذهبَتْ من منبج إلى حلب لتكلّمَ سيفَ الدّولةِ في أمرِ افتدائِهِ، ولكنّه ردّها خائبةً، وبعدَ تلك الحادثةِ ازدادَتْ وطأةُ اليأسِ من الخلاصِ من الأسر، ما انعكسَ على ذاتِهِ تصدُّعاً وتشظّياً وتمرّداً.

ومن هنا فالشّاعرُ كان صادقاً في معاناته، له هدفٌ محدَّدٌ، يسعى إلى تبليغِهِ لسيفِ الدّولةِ الحمدانيّ، هذا الهدفُ عكسَتْهُ اختياراتُهُ اللّغويّةُ في القصيدة، ونظمَها في علاقاتٍ سياقيّةٍ ذاتِ أبعادٍ حجاجيّةٍ.

ومن المعلومِ أنّ طبيعةَ الظّروفِ الّتي مرّ بها الشّاعرُ، ومستوى الحدثِ، وصعوبتَهُ تتطلّبُ من الحنكةِ والبلاغةِ والقدرةِ على إيصالِ صوتِه ما يفرضُ حضورَ بلاغةِ الحجاجِ في خطابِهِ؛ إذ بالحجاجِ يدافعُ عن نفسِهِ، ويعترضُ، ويلفتُ نظرَ المتلقّي إلى عدالةِ قضيّتِهِ، وحقِّهِ الطّبيعيّ في التّحرّرِ، موظّفاً سلطتَهُ الخاصّةَ (سلطة الشّعر)الّتي لم يتبقَّ له غيرُها في أسرِهِ.

وتتحدّدُ إشكاليّةُ البحثِ في تتبُّعِ الحجاجِ وطرائقِ الإقناعِ الّتي استعانَ بها الشّاعرُ في سبيلِ تغييرِ موقفِ سيفِ الدّولةِ، واستمالتِهِ للمسارعةِ في فدائِهِ وتحريرِهِ من الأسرِ، كما رصدَ تجاذباتِ ذاتِ الشّاعر عبرَ تتبّعِ المعاني النّفسيّةِ في إطارِ المشهديّةِ الكاملةِ للقصيدة.

وقد اخترتُ أن أنظرَ في القصيدةِ من زاويةٍ تُعنى ببلاغةِ الحجاجِ وطرائقِهِ، للكشفِ عن فاعليّتِهِ في بنيةِ النّصِّ الشّعريّ، إذ يُعدُّ الحجاجُ خطاباً إقناعيّاً يؤثّرُ في سلوكِ المتلقّي، وقد يدفعُهُ إلى تغييرِ آرائه ومواقفِهِ، والقصيدةُ مهما كان غرضُها فهي خطابٌ موجَّهٌ لغايةٍ ما؛ لذلك لا يمكنُ أن نكونَ حياديّينَ تماماً في رحابِ الشّعرِ.

وتأتي أهميّةُ هذه الدّراسةِ من ناحيتين؛ أولاهُما:أنّها تحلّلُ مدوَّنةً من موروثِنا الشّعريّ في ضوءِ نظريّةٍ حديثةٍ، فقد أخذَتْ من القديمِ نصيباً، ولها من الحديثِ نصيبٌ، وثانيهما: من أهميّةِ الحجاجِ نفسِهِ في واقعِ الحياة، ففي الحياةِ سياقاتٌ كثيرةٌ تتطلّبُ حضورَهُ، لإثباتِ الحقائقِ، وحمايةِ الذّاتِ، وتبادلِ وجهاتِ النّظرِ، كما يعدُّ الحجاجُ والحوارُ الإقناعيُّ السّبيلَ الأمثلَ للصّلحِ، والطّريقَ الأفضلَ لدفعِ الخصوماتِ، وحلّ النّزاعاتِ على المستوى الاجتماعيّ العامّ. وأفضلُ وسيلةٍ لتأديةِ الحجاجِ دورَهُ تكمنُ في اللّغةِ وأدواتِها، لذلك من المهمّ معرفةُ هذه التّقنيّةِ، واكتشافُ طرائقِ استعمالِها.

***

الدّراساتُ السّابقة:

نالَ أبو فراسٍ الحمدانيُّ وشعرُهُ حظّاً وافراً من الدّراسةِ والبحث، و لم يتناولْ أحدٌ –فيما أعلم– بلاغةَ الحجاجِ في لاميّتِهِ الّتي بين أيدينا، إنّما وردت دراسةٌ تطبيقيّةٌ تناولتِ الحجاجَ في شعرِهِ عموماً ضمنَ فصلٍ من فصول رسالة الدكتوراه، وهي: "التّحليلُ التّداوليُّ للخطابِ الشّعريّ، روميّات أبي فراس أنموذجاً"(١) للباحث عمّار لعويجي، كشفَ فيها الباحثُ أبعاداً تداوليّةً في الخطابِ الشّعريّ شملتِ الحجاجَ، والاستلزامَ الحواريَّ، والاستعارةَ. وفي الجانبِ الحجاجيّ بيّنتِ الدّراسةُ أهمَّ الملامحِ الحجاجيّةِ الواردةِ في سجنيّاتِ أبي فراس مع خصومِهِ الرّومِ، وعلى رأسهم الدّمستق.

وهناك بحثٌ آخر تناولَ الحجاجَ في قصيدةٍ أخرى لأبي فراس، بعنوان" الحجاج في شعر أبي فراس الحمدانيّ، قصيدة أناديك لا أنّي أخافُ من الرّدى"(٢) للباحث زايد محمّد ارحيمة الخوالدة، تناولَ فيه الوسائلَ اللّغويّةَ والتّركيبيّةَ والبلاغيّةَ في القصيدةِ الّتي كان لها أثرٌ في تكثيفِ الحجاجِ، ومحاولةِ التّأثيرِ في سيفِ الدّولة.

ومن الأبحاثِ المهمّةِ الّتي تناولتِ القصيدةَ: "بلاغةُ النّصّ من منظورٍ لغويٍّ، دراسة في مستويات التّحليلِ اللّغويّ لقصيدةِ أبي فراس الحمدانيّ (يا

(١) التحليل التداولي للخطاب الشعري روميات أبي فراس الحمداني"انموذجا"، رسالة دكتوراه، عمار لعويجي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، ، ٢٠١٦م.

(٢) بحث: الحجاج في شعر أبي فراس الحمداني، قصيدة أناديك لا أني أخاف من الردى، زايد محمد ارحيمة الخوالدة، مجلة الأثر، الجزائر، العدد (٢٢)، صفحات (٤-٣٣).

حسرةً ما أكادُ أحملُها)[1] للباحثتين: أماني سليمان داوود، وحنان إبراهيم عمايرة. وتطرّقَ البحثُ إلى إبرازِ بلاغةِ النّصّ من منظورٍ لغويٍّ أسلوبيٍّ متتبّعاً المستوى الصّوتيَّ والتّركيبيَّ والدّلاليَّ في القصيدة، من دون التّعمّقِ في ربطِ تلك المستويات بالأبعادِ الحجاجيّةِ للقصيدة، كما هو مخطَّطٌ له في هذا البحثِ.

ومن الكتبِ المهمّةِ الّتي اعتمد عليها البحثُ كتابُ سامية الدّريديّ:" الحجاج في الشّعر العربيّ القديمِ من الجاهليّةِ إلى القرن الثّاني للهجرةِ؛ بنيته وأساليبه "[2]، لأنّه اهتمَّ بدراسةِ الحجاجِ في النّصّ الشّعريّ.

وهناك دراساتٌ وكتبٌ عديدةٌ تتعلّقُ بالحجاجِ من ناحيةٍ نظريّةٍ وتطبيقيّةٍ في مجالاتِ الخطابِ غيرِ الشّعريّ، من هذه الكتب "أهمّ نظريّاتِ الحجاجِ في الغرب من أرسطو إلى اليوم " للباحث حمادي صمود، و"الحجاج مفهومه ومجالاته". للباحث حافظ إسماعيليّ علويّ ومجموعة مؤلّفين[3].

وقد سعت الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الأساليبُ والطرائقُ الحجاجيّةُ الّتي وظّفها الشّاعرُ لتحقيقِ غايتِهِ في الإقناعِ والتّأثيرِ؟ وكيف ربطَها بتحقيقِ غايةٍ إنسانيّةٍ كبرى؛ هي الحريّة؟

---

(١) بحث: بلاغة النص من منظور لغوي، دراسة في مستويات التحليل اللغوي لقصيدة أبي فراس الحمداني(ياحسرة ما أكاد أحملها)، أماني سليمان داوود، حنان ابراهيم عمايرة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٨م، عدد٩٦.

(٢) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عمان، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٨م.

(٣) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مجموعة باحثين، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، تونس.

- كيف يمكن المواءمةُ بين حضورِ الوظيفةِ الشّعريّةِ، والوظيفةِ الحجاجيّةِ من خلال لاميّة أبي فراس؟
- هل للقصيدةِ وحدةٌ حجاجيّةٌ تجمعُ الأبياتَ، وتؤلّفُها؟

منهج البحث وإجراءاته:

اعتمدَتِ الدّراسةُ المنهجَ الوصفيَّ التّحليليَّ، إذ بدأت بوصفِ المنطلقاتِ الحجاجيّةِ ومقدّماتِها في القصيدةِ، ثمّ بيّنتْ طرائقَ الحجاجِ وآليّاتِهِ، وحلّلتْ تلك الطّرائقَ ضمن مفاصلِ القصيدةِ الحجاجيّةِ، و هي: الاستمالةُ العاطفيّةُ وتصدّعُ الذّات، وتشظّي الذّاتِ بين المدحِ والعتاب، غضبٌ وتعنيفٌ، الاستعطافُ و تمرُّدُ الذّات.

بنية الحجاج في القصيدة:

الحجاجُ لغةً كما جاء في لسان العرب: حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومحاجَّةً حتى حَجَجْتُه، أيغلبته بالحُجَج الّتي أدليتُ بها، ... وحاجّه مُحاجّة وحِجاجاً: نازعهُ الحُجّة ... والحُجّة الدّليلُ والبرهان، وقيل: الحُجّة ما دوفع به الخصم(١).

يدلُّ ارتباطُ معنى الحجاجِ بالخصومةِ والقدرةِ عليها، ومقابلةِ الحجّةِ بالحجّةِ على المشاركةِ بين طرفين في تقديمِ الحججِ، وعلى مقارعةِ الحجّةِ بالحجّةِ، وبهذا يؤدّي مفهوماً مهمّاً تقومُ عليه النّظريّةُ الحديثةُ (aargumention،L)، وهو مفهومُ المناقشةِ والحوارِ، وهو أشملُ وأوسعُ من المفهومِ الّذي يجعلُ الحجاجَ مرادفاً للجدلِ والاستدلالِ البرهانيّ بحدّهِ المنطقيّ القطعيّ، أو الّذي يقومُ على استنتاجِ قضيّةٍ من أخرى استنتاجَ لزومٍ

(١)ينظر:اللسان، ابن منظور، مادة (حَ جَ جَ) .

وتوقّفٍ وضرورةٍ، يبدو معه البرهانُ نقيضاً للحجاجِ الّذي ينطلقُ من مبدأ الحريّةِ، ويقومُ على الحوار[١]، ويقتضي الحجاج "تفاعل الذّواتِ المنتجةِ للنّصوصِ بالكيفيّةِ الّتي يرتضيها المحاجِجُ، وفقَ خطاطةٍ حجاجيّةٍ مقصودةٍ"[٢].

وقد اختلفتِ الآراءُ، وتنوّعتْ نظريّاتُ الحجاجِ إلى درجةٍ يصعبُ معها تحديدُ مفهومٍ معيّنٍ له واعتمادُهُ بحيث يشملُ جميعَ مجالاتِ الخطابِ المكتوبِ وغيرِ المكتوبِ.

ونظراً لتعدُّدِ مفهوماتِ الحجاجِ فإنّ هذا البحثَ سيقومُ على تعريفِ بيرلمان(Perlman)" إنّه دراسةُ التّقنيّاتِ الخطابيّةِ الّتي تسمحُ بإثارةِ الأذهانِ، أو زيادةِ تعلُّقِها بالأطروحاتِ الّتي تُعرضُ من أجلِ تقبُّلِها "[٣].

وغايةُ الحجاجِ " أن يجعلَ العقولَ تذعنُ لما يُطرحُ عليها أو يزيد في درجةِ ذلك الإذعانِ، فأنجحُ الحجاجِ ما وُفّقَ في جعلِ حدّةِ الإذعانِ تقوى درجتُها لدى السّامعين بشكلٍ يحثُّهم على العملِ المطلوبِ إنجازُهُ أو الإمساكُ عنه، أو هو ما وُفِّقَ على الأقلّ في جعلِ السّامعين مهيَّئينَ لذلك العملِ في اللّحظةِ المناسبةِ "[٤]؛ وسيدرسُ البحثُ الحجاجَ القائمَ على الأساليبِ البلاغيّةِ الّتي استعانَ بها الشّاعرُ للتّعبيرِ عن مشاعرِهِ، وفي طرائقِ تحريكِ وجدانِ سيفِ

(١) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، عبدالله صولة ٩.

(٢)حجاجيّة الخطاب في إبداعات التّوحيديّ، أميمة صبحي ٢٠٢.

(٣) تاريخ نظريّات الحجاج، فيليب بروتون، وجيل جوتيه، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامديّ ٤١.

(٤) أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود ٢٩٩.

الدّولةِ الحمدانيِ في سبيلِ استمالتِهِ إلى صفِّهِ، ومحاولتِهِ الوصولَ إلى "مناطقِهِ بالدّليلِ الدّقيقِ والحجّةِ المقنعةِ، وبفضلِهِ يقتربُ الشّعرُ من سائرِ الخطاباتِ الحجاجيّةِ في قدرةِ صاحبِهِ على توظيفِ مختلفِ أنواعِ الحججِ في ربطِ مفاصلِ الكلامِ، وتعليقِ بعضِهِ ببعضٍ بواسطةِ روابطَ حجاجيّةٍ دقيقةٍ"(١).

وحاولَتِ الدّراسةُ رصدَ قدرةِ الشّاعرِ على توظيفِ البُنى التّركيبيّةِ، والصّورِ، والتّضادِّ والمفارقةِ، وغيرِها من أساليبَ بلاغيّةٍ، لإبرازِ ما فيها من طاقاتٍ حجاجيّةٍ، وبيانِ مدى مساهمتها في تقويةِ حججِ الشّاعرِ وأدائه؛ لأنّ من مصلحتِهِ أن يقوّيَ طرحَهُ بالاعتمادِ على الأساليبِ البلاغيّةِ الّتي تُظهرُ المعنى بطريقةٍ آكدَ وأوقعَ في النّفسِ.(٢)، وهنا تقترنُ البلاغةُ بالحجاجِ ويضطلعُ كلٌّ منهما بالآخر، فالبلاغةُ هي "فنّ الإقناعِ بالخطاب "(٣) كما يقول ابن الأثير(ت٦٣٠ هـ) " مدار البلاغةِ كلِّها على استدراجِ الخصمِ إلى الإذعانِ والتّسليمِ، لأنّه لا انتفاعَ بإيرادِ الألفاظِ المليحةِ الرّائقةِ، ولا المعاني اللّطيفةِ الدّقيقةِ دونَ أن تكونَ مستجلبةً لبلوغِ غرضِ المخاطبِ بها"(٤).

وعليه يتقاطعُ مفهومُ البلاغةِ مع مفهومِ الحجاجِ في أكثر من جانب، وعلى رأسها جانبُ الإقناعِ أو الإذعانِ والاستمالة، وهذا ما يؤكّدُهُ قولُ ابنِ الأثيرِ السّابقُ، ونجد القرطاجنيّ(ت٦٨٤ هـ) يربطُ غايةَ الخطابِ البلاغيّ

(١) الحجاج في الشّعر العربيّ القديم من الجاهليّة إلى القرن الثّاني للهجرة، بنيته وأساليبه، سامية الدّريديّ ٨٣.

(٢) ينظر: التّداوليّة والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة ٥٠.

(٣)استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، عبد الهادي الشّهريّ ٤٤٥.

(٤) المثل السّائر، ابن الأثير٦٤.

بالتّأثيرِ والإقناعِ وحملِ النّفوسِ على فعلِ شيءٍ أو اعتقادِهِ، وذلك في معرضِ حديثِهِ عن مفهومِ الشّعرِ والنّثرِ، والفصلِ بينهما بوصفهما طرفين يشكّلان مفهومَ البلاغة، وذلك في قوله: "وما كان مبنيّاً على غيرِ الإقناعِ مما ليسَ فيه محاكاةٌ فإنّ ورودَهُ في الشّعرِ والخطابةِ عبثٌ وجهالةٌ سواءٌ كان ذلك صادقاً أو مشتهراً أو واضحَ الكذب "[1]، فقولُهُ يجعلُ غايةَ القولِ البلاغيّ بشقّيه(الشّعر والنّثر) هي الإقناع.. وهذا ما سيحاول هذا البحث تجليته.

القصيدة[2]:

١- يا حَسرَةً ما أَكادُ أَحمِلُها ... آخِرُها مُزعِجٌ وَأَوَّلُها

٢- عَليلَةٌ بِالشّآمِ مُفرَدَةٌ ... باتَ بِأَيدي العِدى مُعَلِّلُها

٣- تُمسِكُ أَحشاءَها عَلى حُرَقٍ ... تُطفِئُها وَالهُمومُ تُشعِلُها

٤- إِذا اطمَأَنَّتْ وَأَينَ أَو هَدَأَت ... عَنَّت لَها ذُكرَةٌ تُقَلقِلُها

٥- تَسأَلُ عَنّا الرُكبانَ جاهِدَةً ... بِأَدمُعٍ ما تَكادُ تُمهِلُها

٦- يامَن رَأى لي بِحِصنِ خِرشَنَةٍ ... أُسدَ شَرىً في القُيودِ أَرجُلُها

٧-يامَن رَأى لي الدُروبَ شامِخَةً ... دونَ لِقاءِ الحَبيبِ أَطوَلُها

٨- يامَن رَأى لي القُيودَ موثَقة ... عَلى حَبيبِ الفُؤادِ أَثقَلُها

٩- يا أَيُّها الراكِبانِ هَل لَكُما ... في حَملِ نَجوى يَخِفُّ مَحمَلُها

١٠- قولا لَها إِن وَعَت مَقالَكُما ... وَإِنَّ ذِكري لَها لَيُذهِلُها

١١- يا أُمَّتا هَذِهِ مَنازِلُنا ... نتركها تارة وننزلها

١٢- يا أُمَّتا هَذِهِ مَوارِدُنا ... نَعُلُّها تارَةً وَنُنهَلُها

١٣- أَسلَمَنا قَومُنا إِلى نُوَبٍ ... أَيسَرُها في القُلوبِ أَقتَلُها

١٤- وَاستَبدَلوا بَعدَنا رِجالَ وَغىً ... يَوَدُّ أَدنى عُلايَ أَمثَلُها

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، القرطاجنيّ٢٠ .

(٢) الدّيوان، أبو فراس الحمدانيّ ٢٦٣ -٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦.

١٥- يا سَـيِّداً مـا تُعَـدُّ مَكرُمَـةٌ إلّا وَفِي راحَتَيـهِ أَكمَلُهـا

١٦- لَيسَت تَنالُ القُيودُ مِن قَدَمي وَفِي اِتِّبـاعي رِضـاكَ أَحمِلُهـا

١٧- لا تَتَـيَمَّم وَالمـاءُ تُدرِكُـهُ غَـيرُكَ يَرضـى الصُـغرى وَيَقبَلُهـا

١٨- إِنَّ بَـني العَـمِّ لَسـتَ تَخلُفُهُـم إن عـادَتِ الأُسـدُ عـادَ أَشـبُلُها

١٩- أَنـتَ سَمـاءٌ وَنَحـنُ أَنجُمُهـا أَنـتَ بِـلادٌ وَنَحـنُ أَجبُلُهـا

٢٠- أَنـتَ سَـحابٌ وَنَحـنُ وابِلُـهُ أَنـتَ يَمـينٌ وَنَحـنُ أَنمُلُهـا

٢١- بِأَيِّ عُـذرٍ رَدَدتَ والِهَـةً عَلَيـكَ دونَ الـوَرى مُعَوَّلُهـا

٢٢- جاءتـك تمتـاح ردَّ واحـدِها ينتظـرُ النّـاسُ كيـف تُقفِلُهـا

٢٣- سمحْـتَ مـنّي بمهجـةٍ كَرُمَـتْ أنـتَ علـى يأسِـها مؤمِّلُهـا

٢٤- إن كُنـتَ لَم تَبـذِلِ الفِـداءَ لَهـا فَلَـم أَزَل في رِضـاكَ أَبـذِلُها

٢٥- تِلـكَ المـودّاتُ كَيـفَ تُهمِلُهـا تِلـكَ المواعيـدُ كَيـفَ تُغفِلُهـا

٢٦- تِلـكَ العُقـودُ الَّـتي عَقَـدتَ لَنـا كَيـفَ وَقَـد أُحكِمَـت تُحَلِّلُهـا

٢٧- أَرحامُنـا مِنـكَ لِم تُقَطِّعُهـا وَلَم تَـزَل دائِبـاً تُوَصِّـلُها

٢٨- أَينَ المعالي الَّتي عُرِفتَ بِها تَقولُهـا دائِمـاً وَتَفعَلُهـا

٢٩- يا واسِعَ الـدارِ كَيـفَ توسِـعُها وَنَحـنُ في صَـخرَةٍ نُزَلزِلُهـا

٣٠-يا ناعِـمَ الثَـوبِ كَيـفَ تُبدِلُـهُ ثِيابُنـا الصـوفُ مـا نُبَـدِّلُها

٣١-يا راكِبَ الخَيلِ لَو بَصُرتَ بِنا نَحمِـلُ أَقيـادَنا وَنَنقُلُهـا

٣٢- رَأَيتَ في الضُـرِّ أَوجُهـاً كَرُمَـت فـارَقَ فيـكَ الجَمـالَ أَجمَلُهـا

٣٣- قَـد أَثَّـرَ الـدَهرُ في مَحاسِـنِها تَعرِفُهـا تارَةً وَتَجهَلُهـا

٣٤- فَـلا تَكِلْنـا فيهـا إِلى أَحَـدٍ مُعِلُّهـا مُحسِـناً يُعَلِّلُهـا

٣٥- لا يفـتحُ النّـاسُ بابَ مَكرُمَـةٍ صـاحبُها المسـتغاثُ يُقْفِلُهـا

٣٦- أَينْـبَري دونَـكَ الكـرامُ لَهـا وأنـتَ قَمقامُهـا وأحمَلُهـا

٣٧- وأنـتَ إنْ عـنَّ حـادثٌ جَلـلٌ قُلّبُهـا المرتجـى وحُوَّلُهـا

٣٨- منـكَ تَـردّى بالفضـلِ أفضَـلُها منـكَ أفـادَ النّـوالَ أنوَلُهـا

٣٩- فَـإِن سَـأَلْنا سِـواكَ عارِفَـةً فَبَعـدَ قَطـعِ الرَجـاءِ نَسـأَلُها

٤٠-إذا رَأَينا أولى الكِرامِ بِها يُضيعُها جاهِداً وَيُهمِلُها
٤١- لَم يَبقَ فِي النـاسِ أُمَّـةٌ عُرِفَت إِلّا وَفَضلُ الأَميرِ يَشمَلُها
٤٢- نَحنُ أَحَقُّ الوَرى بِرَأفَتِهِ فَأَينَ عَنّا وَأَينَ مَعدِلُها
٤٣- يا مُنفِقَ المالِ لا يُرِيدُ بِهِ إِلّا المعالي الَّتي يُؤَثِّلُها
٤٤- أَصبَحتَ تَشري مَكارِماً فُضُلاً فِداؤُنا قَد عَلِمَت أَفضَلُها
٤٥- لا يَقبَلُ اللهُ قَبلَ فَرضِكَ ذا نافِلَةً عِندَهُ تُنَقِّلُها

***

أولاً– منطلقاتُ الحجاجِ، ومقدّماتُهُ في القصيدة

يتكوّنُ الحجاجُ عند بيرلمان (Perlman) من منطلقاتٍ ومقدّماتٍ يبني عليها المحاججُ أدلّتَهُ وحججَهُ، وتشملُ: الوقائعَ، والفرضيّاتِ، والمواضعَ، والقيمَ، وأهمُّ ما يميزُ هذه المقدّماتِ على اختلافِ أنواعِها أنّها تمثّلُ منطلقاً للمحاججةِ يعتمدُ المشتركَ لدى النّاسِ، أو مجموعةٍ من النّاسِ، فهي جماعُ معتقداتِهم، ومناطُ موافقتِها وموافقةِ كلِّ عاقلٍ، وتسمّى المحاجّةُ في هذه الحالةِ المحاجّةَ الموجّهةَ للإنسانِ عامّةً(١).

وجاءت في القصيدة على النّحو الآتي:

١–الوقائع: واقعةُ الأسرِ (بات بأيدي العدا معلّلُها)، وردّ الأمّ مخذولةً (ردَدْتَ والهةً).

٢–الافتراضات: افترضَ الشّاعرُ إقدامَ سيفِ الدّولةِ لفدائِهِ لأسبابٍ وحججٍ عديدةٍ (فداؤنا قد علمت أفضلها)، لكنّ سيفَ الدّولةِ خالفَ هذا الافتراضَ، وخذلَ الشّاعرَ وأمَّهُ (فأين عنّا وأين معدلُها).

٣–المواضع و القيم وهرميّة القيم:

تعدُّ المواضعُ مخازنَ الحججِ، وتقومُ على المشتركِ العامّ، وتُصنّفُ حسب "بيرلمان" (Perlman) إلى مواضعِ الكمّ، ومواضعِ الكيف، ونستطيعُ بوساطةِ مواضعِ الكمّ إثباتَ أنّ أمراً ما أفضلُ من آخرَ انطلاقاً من معاييرَ

(١) ينظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان، في: الحجاج مفهومه ومجالاته، محمد سالم الأمين٥٠٦، و الحجاج، أطره ومنطلقاته، في: أهمّ نظريّات الحجاج في الغرب، عبدالله صولة ٣١٣.

كميّةٍ، كقولنا: الكلُّ أفضلُ من الجزء[1]، وقد برزتْ مواضعُ الكمّ في القصيدةِ من خلالِ أسماءِ التّفضيلِ، وهي:

- كمّ المعاناةِ والألمِ:(أطولُها، أثقلُها، أقتلُها).
- كمّ القيمِ والقدرةِ عليها:(أحملُها، أفضلُها، أنولُها، أمثَلُها).

وقد مثّلَ الكرمُ بالفداءِ هرمَ القيمِ في القصيدةِ لخصوصيّةِ الموقفِ، وسياقِ القصيدةِ العامّ، إذ نُظمَتْ للظّفرِ بتلك القيمةِ(فداؤنا أفضلُها)، وعوّلَ الشّاعرُ على قيمٍ أخرى تعاضدُها لتقويةِ المنطلقِ الحجاجيّ، مثل:(المكارم، المودّات، المواعيد، العقود، أرحامنا.. توصلها، المعالي، باب مكرمة، الفضل، عارفة/ المعروف، برأفته/الرّأفة، الإنفاق/ يا منفق المال).

***

(١)ينظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان، في: الحجاج مفهومه ومجالاته، محمد سالم الأمين٥٠٦، و الحجاج، أطره ومنطلقاته، في: أهمّ نظريّات الحجاج في الغرب، عبدالله صولة ٣١٣.

ثانياً– طرائق الحجاج وآليّاته في القصيدة

يقومُ الحجاجُ عند بيرلمان(Perlman) على طرائقَ وآلياتٍ تشملُ طرائقَ الوصلِ والفصلِ، وتتمثّلُ طرائقُ الوصلِ بالحججِ شبهِ المنطقيّةِ، والحججِ المؤسَّسةِ على بنيةِ الواقعِ، والحججِ المؤسِّسةِ لبينةِ الواقعِ، وقد يتحقّقُ الفصلُ الحجاجيُّ بطرائقَ لغويّةٍ، كالاعتراضِ والمفارقةِ وأساليبِ البلاغةِ المختلفةِ، وقد يؤدّي فحوى الخطابِ وظيفةً حجاجيّةً، ورسالةً إقناعيّةً تلفتُ نظرَ المتلقّي، وتجذبُ سمعَه.

١- فحوى الخطاب:

يمكنُ رصدُ اتّجاهِ الخيطِ الحجاجيّ في القصيدة من خلال (فحوى الخطاب)، لتتشكّلَ مفاصلُ القصيدةِ الحجاجيّةُ على النّحو الآتي:

١-الاستمالةُ العاطفيّةُ: إذ قامَت فحوى الخطابِ الحجاجيّ العامّ في المقطعِ الأوّلِ من القصيدةِ، الأبيات (١-٩) في ظاهرِهِ على الاستمالةِ العاطفيّةِ من خلال صورةِ الأمّ، وفي مضمرِهِ على رفعِ القضيّةِ، وتوجيهِ أصابعِ الاتّهامِ إلى سيفِ الدّولة.

٢-تلطّف وعتاب واستدراج: الأبيات(١٠-٢٠).

٣-غضب وتعنيف/اعتراض واستنكار: الأبيات(٢١-٣٣).

٤-استعطاف وعتاب ومبالغة في المديح/ تهديد مبطّن إيذاناً بالتمرد:(٣٤-٤٥).

٢- الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع:

ينضوي تحت الحججِ المؤسَّسةِ على بنية الواقع الحججُ الآتيةُ:

١-الوصل السببيّ؛ وذلك بربطِ النتائجِ بالعللِ والأسبابِ:(يا حسرة، مفردة، عليلة، بات بأيدي العدا معلّلها)، (فإن سألنا سواك... فبعد قطع الرّجاء، أولى الكرام...يضيّعها، يهملها).

٢-الغائيّة/التّبرير:(في اتّباعي رضاك، في رضاك أبذلها).

٣-التّبذير:(لم أزل أبذلها).

٤-التّجاوز:(ليست تنال القيود من قدمي...).

٥-الاستحقاق:(نحن أحقّ الورى...).

٦-الوصل التّواجديّ: (إنّ بني العمّ لستَ تخلُفُهُم، أنت ... ونحن).

٧-السّلطة:(ياسيّداً، قمقامُها، الأميرِ)، سلطة الشّرع والدّين(لا تتيمّم والماءُ تدركُهُ...، لا يقبلُ اللهُ قبلَ فرضِكَ ذا نافلةً...)، سلطة القيمِ والأخلاق.

٨-حجّة الشّخصِ وأعمالُهُ: القدرةُ على الأعمالِ(في راحتَيهِ أكملُها، صاحبُها المستغاثُ، قلبُها المرتجى وحُوَّلُها، أُولى الكرامِ).

٩-الاتّجاه: الأبيات (يا منفقَ المالِ لا يريدُ بهِ إلّا المعالي...).

٣- الحجج شبه المنطقيّة:

وتمثّلت في القصيدة من خلال:

١-الحجاج بالتّناقضِ/المفارقة

- مفارقة الموقف/مقارعة الشّخصِ بأعماله: (أين المعالي،المودّات..تهملُها، المواعيد..تغفلُها، أرحامُنا.. تقطّعُها...).
- المقارنة و المقابلة:(ياواسعَ الدّارِ كيفَ توسعُها ... ونحن في صخرةٍ نُزلزِلُها،...).

- التّعارض وعدم الاتّفاق:(غيرُك يرضى الصّغرى...)، (ياسيّداً...كيف، وأين، ولم)،(أينبري دونك الكرامُ لها وأنت..).
- الحجج القائمة على العلاقة التّبادليّة:(سمحتَ منّي بمهجةٍ...، لم تبذلِ الفداءَ لها...، أسلمَنا قومُنا...،واستبدَلوا بعدَنا).

٢-إدماج الجزء في الكلّ(الاشتمال):(يا أمّتا هذه موارِدُنا..، يا أمّتا هذه منازلُنا..).

٣-التّعدية:(لم يبقَ في الورى أمّةٌ عُرِفَت. ..إلّا وفضلُ الأميرِ يشمَلُها).

٤-التّمثيل:(التّشبيهات، والاستعارات، والمثل والحكمة).

٥-الحجاج بالقوّة والتّضمين: يتمثّل بوابل الاستفهامات، والتقريع، ومضمرات الخطاب الّتي تنطوي عليها الصّورُ والتّشبيهاتُ والتّراكيبُ..

ثالثاَ- أبرز آليّات الحجاج اللّغويّةِ في القصيدة:

١-أساليب الإنشاء: أساليب تجسّدُ الانفعالَ، وتحوّلاتِ الشّاعرِ النّفسيّةَ والعاطفيّةَ، كان أبرزها (الاستفهام، النّداء).

٢-الاعتراض(الجمل المعترضة): (وأين، إن وعت قولكما، قد علمت، جاهداً، قد أحكمت، دائباً، دائماً)

٣-التّضادّ، تضادّ الألفاظ، وتضادّ المواقف:(آخرُها، أوّلُها)،(تطفئها، تشعلها)،(اطمأنّت،تقلقُها)،(أيسرُها،أقتلُها)،(عقدْتَ،تحلّلُها)،(تقطعُها،تو صلُها)،(تُبدِلُهُ،مانبدّلُها)،(تعرفُها،تجهلُها)، (يفتحُها، يقفلُها).

رابعاً– مفاصل القصيدة الحجاجيّة:

المقطع الأوّل: الاستمالة العاطفيّة (تصدّع الذّات)

الأبيات(١–١٤).

يتّكئ الحجاجُ على مجموعةٍ من المقدّماتِ والمنطلقاتِ الّتي تفضي إلى نتائجَ معيّنةٍ يبتغيها المخاطبِ، وبتتبُّعِ حركةِ الحجاجِ في القصيدةِ نلحظُ هيمنةَ الحجاجِ العاطفيّ، وسيطرتَهُ على القصيدةِ في المشهدِ الأوّلِ تحديداً، فكانَ الخطابُ الموجَّهُ كلاماً يصدمُ ضميرَ المتلقّي؛ ليوقظَ عاطفتَهُ، ويستفزَّ مشاعرَهُ، ويطرقَ قلبَهُ، فيتفاعل مرغماً مع قضية أبي فراس الخاصّة، ويدرك ضمناً بشاعةَ موقفِ مخاطبِ الشّاعرِ الخاصّ(سيف الدّولة الحمدانيّ)، علّه يغيّرُ موقفَهُ، ويلتفتُ إلى نداءِ الشّاعرِ وصرخاتِهِ.

وقد تجلّى حجاجُهُ العاطفيُّ بمناجاةِ شخصيّةٍ تتحرّكُ لذكرِها مشاعرُ أيّ إنسانٍ؛ لما لها من مكانةٍ خاصّةٍ، وموقعٍ حسّاسٍ في النّفسِ وفي المشتركِ العامّ لدى الإنسانيّةِ، ألا وهي "الأمّ"، فقلبُ الأمّ وعاطفتُها وحبُّها صدقٌ لا شائبةَ فيها ولا نفاقَ، ولا سبيلَ إلى الكذبِ والتملّقِ في حضرةِ قلبِ الأمّ.

وتلك اللّوعةُ الّتي تقطرُ من قلبِ الأمّ تجاه أبنائها بدافعِ الحبّ والعاطفةِ الصّادقةِ تورثُ الحسرةَ، وتدمي القلبَ إذا ما تعرّضَ فؤادُها الحاني للانكسارِ والخذلان .

وفي هذا المنطلقِ الحجاجيّ العاطفيّ تعريضٌ ضمنيٌّ ورسالةٌ تلميحيّةٌ إلى سيفِ الدّولةِ، يتّهمُهُ فيها بارتكابِ جرمٍ عظيمٍ، وفادحةٍ تمثّلَتْ في كسرِ قلبِ

أمٍّ مكلومةٍ على ولدِها، وردِّها خائبةً مخذولةً بالإعراضِ عن مطلبِها في ردِّ ولدِها الوحيدِ .

وقد افتتحَ الشّاعرُ قصيدتَهُ بالحديثِ عن أمِّهِ الّتي ذهبت إلى مقابلةِ سيفِ الدّولةِ، تطالبُهُ بفداءِ ابنِها من الأسرِ، وصورّ حالها في قوله:(١)

يا حَسـرَةً مـا أَكـادُ أَحمِـلُها آخِـرُها مُـزعِـجٌ وَأَوَّلُهـا
عَليلَـةٌ بِالشّـآمِ مُفـرَدَةٌ باتَ بِأَيـدي العِـدى مُعَلِّلُهـا

يتجلّى البعدُ الحجاجيُّ الأوّلُ في هذا المقطعِ بوصفِهِ مشهداً من مشاهدِ تصدُّعِ الذّاتِ، إذ أصبحَ التّأزّمُ النّفسيُّ لازمةً من لوازمِ الذّاتِ في ظلّ غيابِ الأملِ بالخلاصِ من الأسرِ وقيودِهِ، والواضحُ في هذا المقطعِ المثقلِ بتراكمِ الدّوالّ المأساويّةِ أنّ التّصدُّعَ تجاوزَ الذّاتَ المفردةَ (الشّاعر)، واندمجَ في ذاتِ الآخر(الأمّ)، إذ تقاسما مرارةَ انكسارِ الحلمِ بالخلاصِ، ولأنّ أبا فراس يعلمُ علمَ اليقين أنّ خلاصَهُ وخلاصَ أمّه بيد سيف الدّولة اختار أن يصلَ إلى قلبِهِ وصولاً سريعاً، عبر أسلوبِ النّداءِ الّذي جعله مطلعاً للاميّته، واللافتُ أنّه لم ينادِ سيفَ الدّولة، وإنّما نادى ألمه وتلهُّفَهُ اللّذين سبّبهما سيفُ الدّولة، وفي هذا دخولٌ مباشرٌ في صلبِ الموضوع ؛ لأنّه لو كان هناك مطلعٌ آخرُ لأضعفَ موضوعَه(٢)، ونظراً لأنّ الخاصيّةَ الانفعاليّةَ تعدُّ مصدراً من مصادرِ المحاججةِ(٣)، فقد استعملَ النّداءَ المقترنَ بلفظةِ الحسرةِ ليؤسّسَ عليه فعلَهُ

(١) الدّيوان، أبو فراس الحمدانيّ ٢٦٣ .

(٢) ينظر: دراسات في النّصّ الشّعريّ – العصر العبّاسيّ، عبده بدوي٢٢٢.

(٣) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرّحمن٢٠.

الحجاجيَّ ؛ إذ أخرجَ الشّاعرُ نداءَهُ للحسرةِ مخرجاً انفعاليّاً، بناه على حجّةِ الاستدراجِ الّتي تنطوي على إثارةِ الانتباهِ، وجذبِ السّمعِ؛ بغرضِ التودُّدِ والاستعطافِ لحصولِ الإقناعِ، وهو مقصدُ الحجاجِ الرئيسُ؛ إذ صدّرَ بيتَهُ بأداةِ النّداءِ (يا)، وجاء مدُّ الصّوتِ، ليشيعَ نوعاً من الصّراخِ لاتّساعِ مجراها ووضوحِهِ، وليتيحَ لحزنِهِ أن يمتدَّ بامتدادِها الصّوتيّ؛ لتكونَ صرخةَ أسيرٍ لا يملكُ إلّا الصّوتَ والصّدى، فالشّاعر في هذا النّداءِ أرادَ أن ينبئ بمدى انفعالِهِ، وامتلاءِ نفسِهِ بالتوجُّعِ والحنين، ونظراً لأنّ الشّاعرَ قصدَ توجيهَ ندائِهِ توجيهاً حجاجيّاً عمدَ إلى تجسيمِ المعنويّ (الحسرة) في صورةٍ حسيّةٍ(المتاع الثّقيل)، فقرّبَ غيرَ المحسوسِ من المحسوسِ؛ ليسهّلَ عمليّةَ الفهمِ والإدراكِ عن طريقِ الاستعارةِ المكنيّةِ الّتي تعدُّ آليةً حجاجيّةً بامتيازٍ(١)، ويكشفُ توظيفُهُ التّضادَّ (أوّلُها وآخرُها) عن رغبتِهِ في تسويغِ حالةِ اليأسِ المطلقِ الّتي وصلَ إليها، ولمزيدٍ من الاحتجاجِ على ألمِهِ اختارَ صيغةَ التّفضيلِ الّتي تمثّلُ نوعاً من مواضعِ الكمِّ في المنطلقِ الحجاجيّ، للوصولِ إلى تصويرِ الذّروةِ في الألمِ، وكأنّ اللّفظتين المتنافرتين زمانيّاً اتّسقتا معنويّاً بوصفهما بوحاً نفسيّاً عميقاً لما آلت إليه حالُ الشّاعر، وبالنّظرِ إلى البنيةِ التّركيبيّةِ للبيتِ نجدُ أنّ الشّاعرَ أخرجها مخرجاً نفسيّاً؛ لتؤدّي دوراً حجاجيّاً مهمّاً في بيانِ عميقِ ألمِهِ ويأسِه ؛ فقد نكّر لفظةَ (حسرةً) للإيحاءِ بمزيدِ معاناته، إذ أطلقها نكرةً عصيّةً على التّحديدِ لتذهبَ نفسُ المتلقّي بتخيّلِ ماهيّتِها كلَّ مذهب، ثم أتبعَ هذه اللّفظةَ بصورةٍ مأساويّةٍ لضعفِهِ وتهالكِهِ، فأردفَ المنادى بجملة (ما أكادُ

(١) ينظر: عندما نتواصل نغيّر ، عبد السّلام عشير،١٢٠.

أحملُها) المنفيّةِ لإبعادِ المثبتِ عن ذهنِ المتلقّي، وإثباتِ العجزِ الّذي جاهدَ نفسَهُ على رفضِ مظاهرِهِ، ولكنّه أخفقَ، ليس لضعفِهِ، ولكن لأنّ حسرتَهُ المترامیةَ الأطرافِ بينَ أوّلها وآخرِها سدّتْ عليه منافذَ السّكينةِ، وأثقلتْهُ بموجباتِ القلقِ النّفسيّ، ومن هنا اكتسبَتْ لفظةُ (مزعج) بتنكيرِها بعداً مكانيّاً وزمانيّاً ؛ فغدتْ مؤشّراً مأساويّاً على حال الشّاعرِ الّذي تبدو فيه آخرُ الحسرةِ تحملُ من جديدٍ مقدّماتِ بدايتِها، واحتجّ لتقديمِ آخرِها على أوّلِها بحجّةٍ مستمدّةٍ من الواقعِ سببها حزنه لردّ أمّه خائبةً، وللعنايةِ والأهميّةِ قدّم لفظةَ آخرِها على أوّلِها، وختمَ بيتَهُ بحذفِ المسندِ (مزعج) في نهايةِ الشّطرِ؛ لأنّه أبلغُ في الاحتجاجِ لحالةِ الضّعفِ الّتي يعانيها، فكأنّ الضّيقَ النّفسيَّ أعجزه عن إتمامِ بناءِ البيتِ، فجاء التّركيبُ منقوصاً ليعكسَ حالةً من التّصدّعِ لذاتٍ كبّلها الأسرُ وأرهقها.

انتقلَ الشّاعرُ في البيتِ الثّاني ليبرزَ سببَ حسرتِهِ ؛ إذ بنى بيتَه على الحجّةِ السببيّةِ الّتي تحيل: " بطبيعتها على عملٍ منطقيٍّ ؛ لأنّ جوهرَها ربطُ الأسبابِ بنتائجِها في محاولةٍ جادّةٍ للإقناع "[1] فأبو فراس قلبَ السّلّمَ الحجاجيَّ، وقدّمَ نتائجَ ثلاثاً أوّلُها: أمُّهُ العليلةُ والوحيدةُ في الشّآم، وثانيها: أسرُهُ في سجنِ خرشنةَ الّذي منعه أن يكونَ بجانبِها وهو معيلُها الوحيدُ، وثالثُها: ما كان يحيطُ مناسبةَ نظمِ القصيدةِ، وهو علمُهُ أنّ أمّهُ ذهبت من منبج إلى حلب لتكلّمَ سيفَ الدّولة في أمرِ افتدائه، وقد ردّها خائبةً، ولتعميقِ

(١)بحث:الحجاج في هاشميّات الكميت ، سامية الدّريدريّ، سامية، حوليّات الجامعة التّونسية ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، ١٩٩٦، العدد ٤٠ ، ٢٥٥.

البنيةِ الحجاجيّةِ السببيّةِ وظّفَ الشّاعرُ تقنيّتي الحذف والتّنكير في قوله: (عليلةٌ –مفردةٌ) ليشكّلا رافداً مهمّاً للدّلالاتِ الإيحائيّةِ الّتي تتشكّلُ منها عاطفةُ الشّاعرِ، الّتي تكمنُ في التّحسّرِ ومعاناةِ تصدّعِ الذّاتِ الّتي تمخّضت عن تأخّرِ سيفِ الدّولة بافتدائه، وعلّةُ الاحتجاجِ في الحذفِ التّدليلُ على أهميّةِ المذكور، والإشعارُ بقوّةِ الحدثِ، وعظَمِ وقعِهِ الخاصّ على نفسِهِ، وقد أسهمَ الحذفُ والتّنكيرُ والتّنوينُ في سياقِ التّركيبِ الاسميّ في إضفاءِ صفةِ الثّباتِ والديمومةِ على هذه العبارةِ الّتي استطاعت على قصَرِها منحَ التّركيبِ مدى صوتيّاً، عمّقَ دلالتَه الإيحائيّةَ، ومنحه طاقةً تعبيريّةً إضافيّةً بفضلِ ما فيه من ترجيعٍ وصدى، وأردف الشّاعرُ التّركيبَ الّذي حُذفَ فيه المسندُ إليه بخبرٍ ثانٍ(مفردةٌ) لمزيدٍ من الاحتجاجِ والإقناعِ بتطوّراتِ ردّ والدتِه خائبةً، والموقفِ المتأزّمِ لذاتٍ تصدّعت بين الضّعفِ الجسديّ والتّأزّمِ النّفسيّ، والمسكوتُ عنه في الحذفِ يحملُ في طيّاتِه لوماً مبطّناً لسيفِ الدّولةِ الّذي تأخّرَ في افتدائه، وأسهمَ تقديمُ شبهِ الجملةِ (بأيدي العدا) في توجيهِ الأنظارِ إلى مركزيّةِ الحدثِ المأساويّ– الأسر – وهنا مكمن حجّةِ الشّاعرِ واعتراضِه على سيفِ الدّولة، فقد كان يتوقّعُ أن يسارعَ الأميرُ في افتدائه، وألّا يتجاهلَ أمرَ أسره، لا بل كانت المفاجأةُ له أنْ ردَّ سيفُ الدّولةِ أمَّهُ خائبةً، ويعدُّ التّشكيلُ الإيقاعيُّ بين(عليلة–معلّلها) رافداً من روافدِ الحجاجِ البلاغيّ، من جهةِ التّأثيرِ في النّفوسِ، وامتلاكِ الأسماعِ، فما كانَ أملكَ للسّمعِ كان أفعلَ باللّبّ والنّفسِ[1].

(١) ينظر: الحجاج في الشّعر العربيّ القديم ، سامية الدّريدريّ ١٢٧.

وبالنّظرِ إلى حججِهِ، وتتبُّعِ خيطِ الإقناعِ نجدُ الشّاعرَ قلبَ السّلَّمَ الحجاجيَّ، فتتابعتِ النّتائجُ مفضيةً إلى مقدّمةٍ أو سببٍ واحدٍ، هو "الأسر"، ما يعزّزُ احتجاجَهُ العاطفيَّ، ويلفتُ النّظرَ إلى ما آلَتْ إليه حالتُهُ النّفسيّةُ، فيتحقّقُ هدفُهُ في استمالةِ متلقّيه. ويمكنُ إيضاحُ اتّجاهِ السّلَّمِ العاطفيِّ بالشّكلِ الآتي:

(ن١) حســـــــرة+ (ن٢)إزعـــــــاج + (ن٣)مرض(عليلـــــــــة)+ (ن٤)وحدة(مفردة) ⟵ سبب (بات بأيدي العدا معلّلها).

وفي قوله:

تُمسِــكُ أَحشــاءَها عَلــى حُــرَقٍ تُطفِئُهــا وَالهُمــومُ تُشــعِلُها
إِذا اِطمَأَنَّــت وَأَيــنَ أَو هَــدَأَت عَنَّــت لَهــا ذُكــرَةٌ تُقَلقِلُهــا

نجدُ أنَّ المحتجَّ لعدالةِ قضيّتِهِ يتحدَّثَ عن الحجّةِ الواحدةِ بعدّةِ أساليب، ويتفنّنُ في ذلك لعلّه يفلحُ في استمالةِ سيفِ الدّولة، وإقناعِهِ بضرورةِ افتدائه، وهذا ما أفصحَ عنه الشّاعرُ من خلال حجّةِ الوصلِ السّببيّ الّتي تقتضي التّتابعَ والاستلزامَ، فغيابُ المعلِّلِ في أيدي العدا استدعى عيشَها في حالةٍ من القلقِ والتّوتّرِ والانفعالاتِ النّفسيّةِ المأساويّة، وقد استرسلَ أبو فراس في وصفِ دقائقِ هذه الحالة بالأفعال، ومعلوم أنّ الفعل يفيد تجدد الحدث[١]، إذ تضافرَتِ المتواليات الفعليّةُ (تمسكُ-تطفئُها- تشعلُها-اطمأنّت-عنّت-تقلقُها-تسألُ)، لرسمِ صورةٍ حجاجيّةٍ تبرزُ سوءَ حالِ أمّهِ، ولتكثّفَ

(١) ينظر: معاني الأبنية في العربيّة، د. فاضل السّامرائيّ: ٩

الإحساسَ بتصدُّعِ الذّاتِ وتشظّيها المتجدّدِ إزاءَ ما تواجهُهُ، ومن طرفٍ خفيّ تبيّنُ مقدارَ استيائه واستياءِ أمّه من تجاهلِ سيفِ الدّولة لأمرِ افتدائه، وكذلك أدَّتِ القيمةُ الدّلاليّةُ للطّباقِ دورَها في تقويةِ احتجاجِهِ ؛ ليكونَ وسيلةً للتّأثيرِ على الأمير، ورافداً من روافدِ إقناعِهِ، وانتقى الشّاعرُ ألفاظَهُ وتراكيبَهُ بعنايةٍ (حُرَقٍ- أدمع- ذُكَرَةٌ) للرّبطِ بين تعظيمِ الألمِ وكثرتِهِ من خلالِ تتابعِ النّكرات، ولم يغفلِ الشّاعرُ الجانبَ الفنيَّ في تراكيبِ الأبياتِ السّابقة، فها هو ذا يشبّهُ حالَ أمّهِ بحالِ الفارسِ المطعونِ الّذي يمسكُ أحشاءَه خشيةَ تمزُّقِها، ويحاولُ النّهوض، وإمعاناً في التّأثيرِ لم يجعلْها تمسكُ أحشاءها على جروحٍ، بل على حرقٍ كثيرةٍ: حرقة العلّة، وحرقة أسر ابنها في أيدي العدا، وحرقة يأسها من افتدائه، وهذا مشهدٌ مؤلمٌ، وقد دلَّ التّركيبُ الفعليُّ (تطفئُها) على تجدُّدِ تماسكِها مقابلَ دلالةِ التّركيبِ الاسميّ (الهمومُ تشعلُها)؛ إذ يدلُّ على ديمومةِ الألمِ وثباتِهِ[1]، وأسهمَ توظيفُ الطّباقِ بين(تطفئها –تشعلها) في الكشف عن الحركة الدّاخليّةِ للصّورةِ الّتي قيّدها الشّاعرُ بأسلوبِ الشّرطِ (إذا اطمأنّتْ أو هدأت) للتّشكيكِ في إمكانيّةِ حدوثِ الاطمئنانِ أو الهدوءِ، وأسهمَ أسلوبُ الشّرطِ في بناءِ الاستدلالِ على الجزمِ، بأنّها لن تهدأ، وستذهلُ لهولِ الحدثِ؛ وفي هذا يتجلّى البعدُ الحجاجيُّ لتصدُّعِ الذّاتِ، والشّاعرُ بهذا التّصويرِ يرفدُ عمليّةَ الحجاجِ بالمؤثّراتِ الانفعاليّةِ أوّلاً، وبآليّاتِ الإقناعِ العقليّ ثانياً، فالاستعارةُ في بعدِها الحجاجيّ ليست لوناً بيانيّاً فحسب، أو وسيلةً من وسائلِ إيرادِ المعنى البلاغيّ، وإنّما "نجدُ في مقابلِ الغايةِ الجماليّةِ للاستعارةِ

(١) ينظر: السّابق: ٩

الشّعريّةِ مطمحاً إقناعيّاً للاستعارةِ الحجاجيّة"[1] فالوسائلُ البلاغيّةُ " تمثّلُ عاملاً مهمّاً يرفدُ عمليّةَ الحجاجِ وينمّي قدرةَ الشّاعرِ على الإقناعِ "[2]، وممّا لاشكّ فيه أنّ التّصويرَ في التّراكيبِ السّابقةِ أدّى دوراً حجاجيّاً، فهو بتصويرِهِ المؤثّرِ وجّهَ لوماً مبطّناً إلى سيفِ الدّولة – وإن لم يذكرْهُ صراحةً- مفادُهُ: أنت سببُ تدهورِ حالتِها ويأسِها، وهل يرضيكِ ما آلت إليه حالُها ؟ ولو عاتبَهُ بمعانٍ مباشرةٍ لما كان لكلامِهِ التّأثيرُ نفسُه.

وتتالت أسئلةُ الأمِّ للرّكبانِ في قوله:

تَســـأَلُ عَنّـــا الرّكبـــانَ جاهِـــدَةً ... بِأَدمُـــعٍ مـــا تَكـــادُ تُمهِلُهـــا

يامَـــن رَأى لي بِحِصـــنِ خِرشَـــنَةٍ ... أُســـدَ شَـــرىً في القُيـــودِ أَرجُلُهـــا

يامَـــن رَأى لي الـــدُروبَ شـــامِخَةً ... دونَ لِقـــاءِ الحَبيـــبِ أَطوَلُهـــا

يامَـــن رَأى لي القُيـــودَ موثَقـــةً ... عَلـــى حَبيـــبِ الفُـــؤادِ أَثقَلُهـــا

يقدّمُ الشّاعرُ صورةً مشهديّةً لواقعِ الأمِّ وهي تتبّعُ أخبارَ ولدِها سائلةً الرّكبانَ عنه، فوصفَ حالَها على حقيقتِهِ دونَ اللّجوءِ إلى الإغراقِ في التّشبيهاتِ والاستعاراتِ؛ فصدقُ المشهدِ يعبّرُ عن نفسِهِ، وقد يكونُ وصفُهُ كما هو أبعدَ أثراً في النّفسِ من تغليفِهِ بالإيماءاتِ والتّلميحاتِ، وتلك اللّهفةُ لا تحتاجُ إلى التّنميقِ والتّزويقِ لتصلَ إلى شعورِ المتلقّي، ويدركَ صدقَها.

(١)الحجاج في الشّعر العربيّ القديم ، سامية الدّريدريّ ١٢٠.

(٢)الحجاج في الشّعر العربيّ القديم ، سامية الدّريدريّ ١٢١.

و يدلُّ تتابعُ الأسئلةِ على شدّةِ توتُّرِ الأمِّ ولهفتِها، مستعيناً بالتّضادّ السّياقيّ؛ فأسدُ الشّرى لا تقابلُ معجميّاً الأرجلَ المقيّدةَ، لكنّ الشّاعرَ أوجدَ بينها تضادّاً سياقيّاً، فأسدُ الشّرى دلالةٌ على الفرسانِ الأشدّاءِ الشّجعانِ، ولكنّها باتت الآن في الأسرِ تكبّلُها القيودُ، وتمنعُها من الحركةِ والانطلاقِ.

وإذا كانت الصّورةُ الأولى(صورة الفرسان تكبّلها القيود) تثيرُ في النّفسِ الألمَ والحسرةَ لما آلت إليه حالُ الفرسانِ، فإنّ صورةَ (حبيب الفؤاد تقيّده القيود) تزيدُ في النّفسِ الألمَ والمرارةَ والحزنَ، فكيف للأمِّ أن تهدأ وهي ترى وحيدَها في الأسر؟! وقد عزّزتْ ألفاظُ الشّاعرِ المعجميّةُ تلك الحقيقةَ، فاستعملَ لفظةَ " الفؤاد" مثلاً، ولم يقل حبيب القلب، فالقلبُ معجميّاً يدلُّ على التّقلُّبِ والتّحوّلِ، وأمُّهُ الآن لا تحوِّلَ ولا تقلِّبَ داخلَها يشغلُها بغيرِ ابنِها حبيبِها، بل إنّ قلبِها في حالةٍ من التّصدُّعِ، ويكادُ ينفتقُ شوقاً وحزناً، وهذا ما تدلُّ عليه لفظةُ الفؤاد في هذا السّياقِ؛ إذ لا يمكنُ لها الهدوءُ والرّاحةُ؛ لذا صوّرها تبذلُ قصارى جهدِها في سؤالِ الرّكبانِ عن ابنِها في قوله:

تســـأَلُ عَنّـــا الرُّكبـــانَ جاهِـــدَةً بِأَدمُـــعٍ مـــا تَكـــادُ تُمهِلُهـــا

استحضرَ الشّاعرُ حالةَ الفقدِ والمرارةِ الّتي تعيشُها أمّهُ، وبدأ بالوصفِ التّفصيليّ لذاتٍ خنقتها حقيقةُ الواقع، فانطلقت تتلمّسُ الوصولَ إلى حافاتِ الأمانِ في مجازِ اللّغة، فخرجت صيغُ النّداءِ والاستفهام (يامن رأى) عن معناها الحقيقيّ إلى المعنى المجازيّ، وهو التّحسّرُ والتّوجّعُ، وبدا هذا النّسجُ التّركيبيُّ تكثيفاً للبنيةِ الدّراميّةِ في المقطعِ؛ إذ عكسَ تصدُّعاً داخليّاً انعكسَ من خلال الالتزامِ بأداةٍ واحدةٍ في الاستفهامِ، وهذا يناسبُ مقامَ التّفجُّعِ

والنّدبِ[1]، وقد أسهمَ الاعتراضُ بالجارّ والمجرورِ (لي) بإفادةِ الاختصاصِ، وقصرِ الاهتمامِ بأمرِه على أمِّهِ وحدَها، وفي هذا القصرِ إشارةٌ إلى تجاهلِ الآخرين أمرَهُ، أمّا التعريفُ الّذي تلا أشباهَ الجملِ في الأشطرِ الثّلاثةِ المتصدّرةِ بالنّداءِ والاستفهامِ فكأنّه إيحاءٌ من طرفٍ خفيٍّ إلى أنّه لا عذرَ لتجاهلِ أمرِ الشّاعر، واحتجَّ الشّاعرُ بتقديمِ أدلّةٍ ماديّةٍ محسوسةٍ ومرئيّةٍ لا مجالَ لإغفالها، فمكانُه متعيّنٌ ومعروفٌ (حصن خرشنة) مكان أسره، و (الدّروب) الموصلةُ إليه بارزةٌ للعيان، وكذلك وضعُه في الأسر(القيود) يبينُ حالَه تمامَ الإبانةِ، ومثّلت لفظةُ (دون) ذات الدّلالةِ الزّمكانيّة مؤشّراً لفظيّاً يعمّقُ معاناةَ الذّاتِ على المستويين النّفسيّ والمعيشيّ ؛ لارتباطها باللّقاءِ زماناً، وبالبعد مكاناً . وأفادَ تقديمُ شبهِ الجملة (دون لقاء الحبيب- على حبيب الفؤاد) تعميقاً لدلالاتِ الشّوقِ، وتخصيصاً لبؤرةِ الألمِ الّتي تجتمعُ حولها الأطيافُ النّفسيّةُ والدّلاليّةُ لتصدُّعِ الذّاتِ، ويلاحظُ أنّ السّياقَ التّركيبيَّ المشفوعَ بالاعتراضِ والتّقديمِ ساعدَ على تخصيصِ الدّلالةِ العائمة، وشفّ عن الرّكيزةِ النّحويّةِ الأهمِّ للتّعبيرِ النّفسيّ في هذا المقطع المأساويّ، ولعلّ اعتمادَ الشّاعرِ على مواضعِ الكمّ الحجاجيّةِ من خلال صيغِ التّفضيلِ (أطولها-أثقلها) لوصفِ معاناةِ الذّاتِ يعمّقُ المعنى النّفسيَّ والدّلاليَّ ببلوغِ الذّروةِ في الشّدّةِ.

ويلفتُ نظرَنا في المقطعِ السّابقِ سؤالُ الأمّ للرّكبانِ وعدمُ سؤالها سيفَ الدّولةِ عن حالِ ابنِها، وهو الأميرُ المسؤولُ عن رعيّتِه، وفي هذا تعريضٌ

(١) ينظر: شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ حتّى القرن الثّامن الهجريّ، جودت فخر الدّين ، ١٣٨.

بسيفِ الدّولةِ، وإبرازُ تجاهلِ الأمّ له؛ وبذا يكونُ خلفَ الصّورِ الّتي رسمها الشّاعرُ صورةٌ محذوفةٌ من هذا السّياقِ، وهي صورةُ المسؤولِ المباشرِ عمّا حلّ بالأمّ ووحيدِها، وبفعلِه هذا يكونُ قد أشركَ المتلقّي في إنتاجِ نصّهِ، وتركَ له حريّةَ التّفاعلِ معه، بعد أن تركَ له مفاتيحَ الاختيارِ ومرجعيّاتِه.

وبذا يتّسقُ الحجاجُ مع الشّعورِ الإنسانيّ، وتهيمنُ الاستمالةُ العاطفيّةُ، ويكادُ يغيبُ الحجاجُ العقليُّ أو المنطقيُّ في المشهد، وعبثاً حاولَ الشّاعرُ تقديمَ حججٍ شبهِ منطقيّةٍ لمواساةِ أمّهِ نهايةَ المطاف في رسالةٍ حمّلها للرّكبانِ، وقد أقرَّ الشّاعرُ نفسُه أنّ تلك الحججَ، وإن كانت منطقيّةً للإقناعِ فإنّه مشكوكٌ في نجاعتها، ولن تؤتي أكلَها، أو تجدي نفعاً في توجيهها للأمّ، لكنّه بصيصُ الأملِ والحرقةُ الّتي تشعلُ قلبَ الشّاعرِ، ورغبتُه الحقيقيّةُ في التّخفيفِ عنها جعلته يلجأ إلى تلك الحججِ، فبدا أكثرَ تماسكاً عمّا كان عليه في مطلعِ القصيدة، ووجّهَ عدّةَ رسائلَ إلى أمّه؛ موظّفاً حجّةَ "إدماج الجزء في الكلّ (حجّة الاشتمال)"، لعلّه يخفّفُ عنها ما حلّ بها، وأرسلَ رسائلَه مع الرّكبانِ الّذين سألتهم، في قوله:

يا أَيُّهـا الراكِبـانِ هَـل لَكُمـا	في حَمـلِ نَجـوى يَخِـفُّ مَحمَلُهـا
قـولا لَهـا إِن وَعَـت مَقالَكُمـا	وَإِنَّ ذِكـــري لَهـــا لَيُـــذهِلُها
يا أُمَّتـــا هَـــذِهِ مَنازِلُنـــا	نتركهـــــا تارة وننزلهـــــا
يا أُمَّتـــا هَـــذِهِ مَـــوارِدُنا	نَعُلُّهـــــا تارَةً وَنُنهَلُهـــــا

وهنا يُسدَلُ السّتارُ على المشهدِ لتتّخذَ القصيدةُ مساراً آخرَ من البيتِ التّاسع، حيث يبدو الشّاعرُ أكثرَ اتّزاناً ومنطقيّةً في التّعبيرِ عن حسرته معتمداً

على تقنيّةِ التّجريد، إذ نراه يفتعلُ خطاباً مع ذواتٍ افتراضيّةٍ محاولاً اختراقَ جدارِ الأسر، فيبدأ نداءه المتخيّلَ مستفهماً استفهاماً مجازيّاً خرجَ إلى معنى الطّلبِ (يا أيّها الرّاكبانِ هل لكما)، وعلى الرّغمِ من أنّها محاورةٌ من طرفٍ واحدٍ فإنّه حاولَ من خلالها تخفيفَ حالةِ التّوتّرِ الشّديدةِ الّتي بلغت ذروتَها، والّتي ساعدت على تسلسلِ الحدثِ وتناميه. وقد تجلّى المنطلقُ العاطفيُّ للحجاجِ في البيت الثّاني من خلال حجّة" الاعتراض "(إن وعت قولكما)، إذ يتحقّقُ الفصلُ على صعيد المعاني في الحجاجِ عن طريقِ الاعتراضِ(١)، كما أنّ" الجملة المعترضة في كلّ أحوالها أجنبيّةٌ عن مجرى السّياقِ النّحويّ، فلا صلةَ لها بغيرها، ولا محلّ لها من الإعراب، وإنّما هي تعبيرٌ عن خاطرٍ طارئ، من دعاءٍ أو قسمٍ أو قيدٍ بشرطٍ أو نفيٍ أو وعدٍ أو أمرٍ أو نهيٍ أو تنبيهٍ إلى ما يريدُ المتكلّمُ أن يلفتَ انتباهَ السّامعِ إليه"(٢)، فجاءت الجملةُ الاعتراضيّةُ للتّشكيكِ بقدرةِ الأمّ على استقبالِ ما سيقالُ لها واستيعابِه، كما جاء عجزُ البيتِ لتأكيدِ تلك الحقيقة، فوظّفَ الحجاجُ الوصلَ السّببيَّ حين ربطَ المقدّمةَ (إن وعت/ لن تعي "ضمنا") بالسّببِ (إنّ ذكري ليذهلها)، ليؤكّدَ أنّه لا مكانَ للحجاجِ العقليّ في هذا المقام، لأنّ مجرّدَ ذكر أبي فراس أمامَ أمّه سيكون سبباً لذهولِها وذهابِ عقلِها، بل وتأجُّجِ نارِ الشّوقِ والحنينِ والحزنِ في قلبها.

(١) ينظر: الحجاج، البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، في: الحجاج مفهومه ومجالاته، عبدالله صولة، ١/ ٥٢.

(٢) البيان في روائع القرآن، دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّصّ القرآنيّ، تمام حسّان، ١٨٣.

واستخدمَ الشّاعرُ الخطابَ التّضامنيَّ موظّفاً للنّداءِ صيغةَ (أمّتا) مستنفداً بذلك الطّاقةَ الشّعوريّةَ الّتي يضرمُها الحنينُ في داخلِه للقاءِ أمّه، والملاحظ أنّ هذه الصّيغةَ تشعُّ بمعاني التّرفُّقِ بالمنادى وطمأنته.

وتتراصفُ الجملُ الاسميّةُ والفعليّةُ بشكلٍ مسترسلٍ حيناً، ومتدافعٍ حيناً آخر، لرسمِ أبعادِ الحدثِ الّذي تمّ (الأسر) إذ يحاولُ الشّاعرُ أن يظهرَ تجلُّدَه، فهو أمرٌ متوقَّعٌ لمن كانت الحروبُ عادتَه، وبتأمّلِ المستوى التّركيبيّ لتعالقِ الجملِ الاسميّةِ والفعليّةِ نجدُ أنّ الأفعالَ المضارعةَ بدلالاتها الضّديّةِ (ننزلها – نتركها) التفّت حول المسندِ إليه (هذي منازلنا) ليطغى الحجاجُ شبهُ المنطقيّ، والإخبارُ السّرديُّ المفعمُ بالحكمةِ حيناً، وبالاستسلامِ لناموسِ الحياةِ الّذي يعمُّ البشرَ جميعاً حيناً آخر، موظّفاً لذلك حجّةَ إدماجِ الجزءِ في الكلّ (الاشتمال)، فتبدُّلُ الأحوالِ قانونٌ كونيٌّ عامٌّ، وهو جزءٌ من هذا الكون، ولا بدّ أن يصيبَهُ ما أصابَ غيرَه، ولعلّ في استخدامِ الضّميرِ الدّالِّ على الجماعةِ (نا) تعميقاً لهذه الدّلالة .

ويمكننا القولُ: إنّ الأبياتَ وإن بدت في ظاهرها موجَّهةً نحوَ أمّ الشّاعرِ فإنّها ضمناً موجَّهةٌ إلى سيفِ الدّولةِ حتّى لا يغترَّ بالدّنيا، فالدّهرُ متقلّبٌ، والمحذوفُ في النّصّ السّابق" أسهمُ في إنتاجِ الدّلالةِ، وإن كان غيرَ مباحٍ له أن يظهرَ بشكلٍ مباشرٍ بأيّ حالٍ من الأحوال"[1]

في هذين البيتين، وبعد أن بثَّ الشّاعرُ فلسفتَهُ في الحياةِ المرتهنةَ بالثّنائيّاتِ المتناقضةِ الّتي عدّها ناموساً للحياة، نجده – وعلى الرّغم من كلّ محاولاتِ

(١) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانيّ، محمّد عبد المطّلب ١١٩.

إنقاذِ ذاتِهِ المحبَطةِ- يرتدُّ إلى واقعِهِ المؤلِمِ المفعمِ بالحسرةِ والإحباط، ويحمّلُ سيفَ الدّولةِ ضمناً ما حلّ به في قوله:

أَســـلَمَنا قَومُنـــا إلى نُـــوَبٍ أَيسَـرُها في القُلـوبِ أَقتَلُهـا

اعتمدَ الشّاعرُ الحجاجَ "بالتّضمين"؛ إذ لم يصرّحْ باسمِ سيفِ الدّولةِ، ولم يوجّهِ الكلامَ إليه مباشرةً من بابِ التّلطّفِ في العتاب، ويكمنُ خلفَ الصّورةِ الظّاهرةِ في النّصّ الصّورةُ المضادّةُ لها، المفهومةُ ضمناً من السّياقِ، ويمكن للمتلقّي تقديرُها أو تخيُّلُها؛ لأنّ المذكورَ في الكلامِ يشيرُ بقوّةٍ إلى المحذوفِ "بل إنّ هذا الغائبَ قد يكون أكثرَ إفرازاً للدّلالةِ من الحضور"(١)، فهو الآن يعاني ما يعانيه، بينما كان في ماضيه المشرقِ لا يعاني من الأسر، فالصّورةُ المشرقةُ الماضيةُ غائبةٌ الآن؛ لذا غيّبَ الشّاعرُ ذكرَها في النّصّ، ولكنّ هذا لا يعني أنّه لا يحنّ إلى تلك الأيّامِ، ويشتاقُ لها، ويتمنّى عودتَها، كما أنّه يريدُ القولَ لسيفِ الدّولة: لو كانَ مكانَهُ لما فعلَ مثلَ ما فعل.

ولم يكتفِ سيفُ الدّولةِ بعدم فدائه:

وَاِســتَبدَلوا بَعــدَنا رِجــالَ وَغــىً يَــوَدُّ أَدنى عُــلايَ أَمثَلُهــا

وبفعلِه هذا يكونُ قد اتّخذَ فرساناً لا يكافئون أبا فراس في شجاعتِهِ وفروسيّتِهِ، وهذا ما آلم الشّاعرَ وأحزنَهُ. وخلفَ صورةِ الحاضرِ المؤلِمِ تكمنُ صورةُ الماضي السّعيدِ عندما كان يحظى بمكانةٍ عند سيف الدّولة، وهو بقوله هذا يعاتبُهُ ضمناً؛ كيف يستبدلُ الأدنى بالأعلى، وفي ذلك مخالفةٌ للحجّةِ

(١) جدليّة الإفراد والتّركيب في النّقد العربيّ القديم، محمد عبد المطلب ١٦٠.

القائمةِ على العلاقةِ التّبادليّةِ الّتي يترتّبُ عليها المبادلةُ بالمثلِ، إلّا أنّ سيفَ الدّولة استبدلَ بمعروفِ الأميرِ الفارسِ تقريبَ من هم أدنى منه مكانةً وشأناً، وفي الوقتِ نفسِه أعلى الشّاعرُ بتلك الحجّةِ من شأنِ نفسِه.

وتتوالى الجملُ الفعليّةُ المتّسمةُ بالتّقريريّةِ المباشرةِ لتكشفَ حقيقةَ توجُّعِهِ (أسلَمنا قومُنا- استبدلوا بعدنا)، إنّه تنكُّرُ من يُفترضُ أن يكونوا الملاذَ الحامي لا الغادرَ الجاني، وأبرز هذان الفعلان المزيدان معنى القصديّةِ في التّصرُّفِ، وهنا بيتُ القصيدِ كما قال الشاعر طرفة بن العبد" وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً .... "، وحقّقَ الالتفاتُ عن ضميرِ المفردِ المتكلّمِ إلى ضميرِ جماعةِ المتكلّمين، وإضافةُ الضّميرِ (نا) إلى (قومنا) تأثيراً نفسيّاً متناقضاً بين شدّةِ التّفجّعِ ممّا لحقه من قومِه، ورغبتِهِ في الالتصاقِ بهم لأنّهم مركزُ الانتماء، وقد يكون في هذا الالتفاتِ إنقاذٌ لذاتِ الشّاعرِ من حالةِ التّصدُّعِ والانهيارِ، وتضخيمٌ لمكانتِها، وقد تجلّت بوصفها معادلاً ذاتيّاً للقوم، وفي السّياقِ نفسِه مثّل اختيارُ صيغةِ التّفضيلِ (أقتلها) انتصاراً لذاته الّتي أعلنَها ذاتَ عنفوانٍ وتجلُّدٍ رغم ما تعرّضَتْ له من ضغوطٍ أيسرُها أقتلُه للنّفس، وأفادَ التّنكيرُ في لفظةِ (نُوَبٍ)الدّلالةَ على كثرة ما آله من قومِه؛ ما شفّ عن الإحساسِ بتنامي الفجيعةِ، وتعاظمِ وقعِها على النّفسِ، ويظهرُ في هذا المقطعِ أنّ ظاهرةَ الفصلِ بين الجملِ كانت الأغلبَ، وكأنّها تعكسُ في المستوى الأعمقِ للصّياغةِ الواقعَ الّذي يعيشُهُ الشّاعرُ، فالبعدُ المكانيُّ عبّرَ عنه بتراكيبَ منفصلةٍ، وقد أُفرغَتْ مرارةُ هذا البعدِ، وما لحِقَهُ من حالاتِ التّأزُّمِ النّفسيّ في

تراكيبَ إنشائيّةٍ أظهرت انفعالَ الشّاعرِ، وانفعلَ بها المتلقّي مثيرةً إحساسَهُ بشدّةِ الموقفِ، وقسوةِ الواقعِ الّذي فُرضَ عليه.

بنى الشّاعرُ حجاجَهُ على تقنيّةِ "المفارقة "، وهي من حججِ الفصلِ الحجاجيّ، وما يميزُ المفارقةَ أنّها نوعٌ من التّضادّ بين المعنى المباشرِ للمنطوقِ والمعنى غيرِ المباشر، وقيامُها على التّناقضِ الظّاهريّ يجعلُ المتلقّي يرفضُ المعنى الحرفيَّ للكلامِ لصالحِ المعنى الآخر، فيصبحُ مطالباً بإعادةِ إنتاجِها دلاليّاً ليصلَ إلى المعنى المراد(١)، وتجلّت في مفارقةِ الموقفِ، والغايةُ منها العتابُ واستنكارُ فعلِ القومِ، وفعلِ سيفِ الدّولة، وكأنّ القومَ سلّموا الشّاعرَ للأسرِ بكاملِ إرادتِهم حين تخلّوا عنه، وإن كانَ الأسرُ متوقّعاً لمن يسعى سعيَ أبي فراسٍ إلى خوضِ الحروبِ، فلا ينبغي للقومِ والعشيرةِ أن يتخلّوا عن فارسٍ مثلِه، وفي ذلك افتراضٌ ضمنيٌّ أنّ على القومِ حمايةَ أبي فراس لا تسليمَهُ وتجاهلَ أمرِه.

وهكذا نجدُ مع نهايةِ هذا المقطعِ أنّ لغةَ الشّاعرِ في مستواها التّركيبيّ بدتْ ذاتَ حضورٍ شعريّ وحجاجيّ بامتياز عكستْ وبصدقٍ الإحساسَ بغربةٍ فرضَها الأسرُ، وتغريبٍ فرضَه القومُ، فاللّغةُ بطبيعتِها ترجمانٌ حقيقيٌّ للمشاعرِ والأحاسيسِ، فيها ترتبطُ الألفاظُ بالحالاتِ النّفسيّةِ ... كما ترتبطُ بحجمِ الأشياءِ وأبعادِها(٢).

(١) ينظر: المفارقة في الشّعر العربيّ، ناصر شيانة، ٦٤.

(١)ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس ٧٠.

المقطع الثّاني: تشظّي الذّات بين المدح والعتاب

الأبيات (١٥-٢٠).

يقول الشّاعر:

يا سَـــيّداً مـــا تُعَـــدُّ مَكرُمَـــةٌ إلّا وَفي راحَتَيـــهِ أَكمَلُهـــا

التفت الشاعر في خطابِه من التّلميحِ إلى التّصريحِ، واتّكأ على سلسلةٍ من الحججِ منها:

١_الحججُ المؤسّسةُ على بنيةِ الواقعِ: حجّةُ السّلطةِ، وحجّةُ الشّخصِ وأعمالِهِ، وحجج الوصلِ التّواجديّ؛ إذ يسعى المحاججُ في هذا الضّربِ من الحججِ إلى تفسيرِ الأحداثِ والوقائعِ، وتوضيحِ العلاقاتِ الرّابطةِ بين عناصرِ الواقعِ وأشيائه، وبذا تبدو الأطروحةُ الّتي يعرضُها أكثرَ إقناعاً، ويكون الخطابُ الحجاجيُّ أنجعَ وأقدرَ على التّأثيرِ في المتلقّي كلّما ارتبطَ في الواقعِ وارتبطت عناصرُهُ فيما حدث وما يحدث[١]

٢_حججٌ شبهُ منطقيّةٍ: حجّةُ عدمِ الاتّفاقِ والتّعارضِ:

يستحضرُ الشّاعرُ حجّةَ "السّلطة" (سيّداً)، وحجّة "الشّخصِ وأعمالِه في خطابِه الموجَّهِ،" إذ يُعدُّ الإنسانُ في الحجاجِ موضوعَ تقويمٍ من الآخرين، في ضوءِ الصّفاتِ والأعمالِ الّتي تعبّرُ عن ماهيّةِ الشّخص[٢]، فينادي سيفَ الدّولة مذكّراً إيّاه بمكانتِه وموقعِه في السّلّم الاجتماعيّ، فهو يمثّلُ رأسَ الهرمِ،

(١) ينظر: الحجاج في الشّعر العربيّ القديم، سامية الدّريديّ٢١٤.

(٢) ينظر: الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنيّاته، عبدالله صولة٣٣٤.

وهو السّيّدُ، ويترتّبُ على تلك المكانةِ أفعالٌ ومسؤوليّاتٌ يجبُ عليه أن يكونَ أهلاً لها .

وعوّلَ في خطابِه الموجَّهِ إلى سيّدِه على مقدّمةٍ حجاجيّةٍ، متمثّلاً القيمَ وهرميَّتها، ومكانتَه الّتي تفرضُ عليه الالتزامَ، بل ابتغاءَ الكمالِ في تحقيقِ العدالةِ أكثرَ من غيرِه، وله من القدرةِ عليها ما لغيرِه (إلّا في راحتيه أكملها).

واللّافتُ أنّ صورةَ المثلِ الأعلى لم تفارقْ أبا فراسٍ في خضمّ عذاباتِهِ وتوتُّرِه، " ولاغرابةَ أن يكونَ للأميرِ سيفِ الدّولةِ مكانةٌ جليليةٌ، فيحبّه أباً برّاً، وأخاً شقيقاً، ونديماً نجيّاً. كما أنّه كان له مثلاً أخلاقياً حين يفعَ وشبّ فمدحه "[1] ولذلك لم يخاطبْهُ بلقبِهِ، بل ناداه (يا سيّداً)، بما يلازمُ الفضلى من الصّفاتِ، والأعلى في المكانةِ، وإمعاناً في استرضائِهِ واستثارةِ همّتِهِ استخدمَ أسلوبَ القصرِ؛ لتخصيصِ أكملِ المكرماتِ، وحصرِها بسيفِ الدّولةِ، على سبيلِ المدحِ، ولما كانت هذه هي مكانةَ سيفِ الدّولةِ عنده فقد خاطبَهُ خطابَ الواثقِ من عدالةِ قضيّتِهِ، وتلبيتِهِ مطلبَهُ، فمن كان سيّدَ المكارمِ فلن يخذلَ رجاءَ طالبِ المعروفِ منه، ولا سيّما أنّه قادرٌ على ذلك، كما أنّ تحريرَ الأسيرِ من أعلى المكارمِ وأفضلِها، فالحاضرُ هنا دلّ على الغائبِ، والغائبُ دلّ على الحاضرِ، ما يتيحُ للحركةِ الذّهنيّةِ للمتلقّي ممارسةَ دورِها بفاعليّةٍ، بينما الذّكرُ يجعلُ حضوراً للمتلقّي يمكنُ وصفُهُ بالحضورِ السّالبِ، وليس الفاعلِ[2]

(١) التّجربة الإنسانيّة في روميّات أبي فراس الحمدانيّ، عبد المالك المومنى، ١٣٢.

(٢) ينظر: البلاغة العربيّة قراءة أخرى، محمّد عبد المطّلب ٢١٨.

لَيسَـت تَنـالُ القُيـودُ مِـن قَـدَمي وَفي اِتِّبــاعي رِضــاكَ أَحمِلُهــا

ثمّ يتصاعدُ وقعُ المفارقةِ في البيتِ الّذي يليه بردّ فعلِ الشّاعرِ غير المتوقَّعِ حين وظّفَ حججَ الوصلِ التّتابعيّ، كحجّة "التّجاوز" على مستوى البيت (ليست تنالُ القيودُ من قدمي...)، وحجّة "الوصلِ السّببيّ" و"الغائيّة" (في رضاك أحملها) ليسوّغَ اختيارَه وغايتَه المتمثّلةَ في إرضاءِ سيفِ الدّولةِ، والتّمسّكِ بالجماعةِ والقومِ رغمَ ما سبّبوه له من ألم، فقابلَ تخلّي القومِ عنه وإيذاءهم بموقفٍ مضادّ، وذلك بإظهارِ التودّدِ والتّلطّف، وحتّى إظهار التّجلُّدِ وقوّةِ الاحتمالِ، وتجاوزِ أيّ ألمٍ إن كان ذلك يرضي سيفَ الدّولة . وبذلك يتشظّى البيتُ الاستهلاليُّ في هذا المقطع بين حجّتين متنافرين: حجّة القوّةِ متمثّلةً بالتّجلّدِ والصّبر في قوله: (ليست تنال القيود)، وحجّةِ الاستكانةِ والرّضى بذلِّ القيودِ، وتحمُّلِ المزيدِ منها استرضاءً للأمير(أحملها)، وهما من سماتِ الضّعفِ؛ لأنّه قَبِلَ بذُلِّ الأسرِ، وهذا التّشظّي بين مقتضياتِ العقلِ (القوّة) وتداعياتِ النّفسِ (الضّعف) لو نظرنا إليه من خلال المنبعِ النّفسيّ والحجاجيّ لاستسغنا هذا التّناقضَ المعنويَّ، الّذي استوفى السّلامةَ النّحويّةَ في التّعبيرِ، فهذا الخطابُ المتناقضُ فرضَهُ العمقُ النّفسيُّ للشّاعرِ لأسبابٍ عدّةٍ، أهمّها: مكانةُ سيفِ الدّولةِ عند الشّاعرِ، إذ يعدُّهُ المثلَ الأعلى، والقريبَ الّذي ربّاه، والأميرَ الّذي يمثّلُ خلاصَه، وكأنّه في تقديمِ شبهِ الجملة (في اتّباعي رضاك) يقدّمُ ما يهمّه ويعنيه، أمّا تكرارُ لفظةِ (رضاك) في البيت الرّابع والعشرين (إن كنت لم تبذل الفداء لها... فلم أزل في رضاك أبذلها)، فجاء

تأكيداً لمحاولةِ الشّاعرِ استرضاءَ سيفِ الدّولة، ولعلّ الغرضَ من هذا التّأكيدِ هو محاولةُ الالتئامِ مع ذاتِ سيفِ الدّولةِ الّتي تشظّت عنه، وجسّدت عبارةُ (لم أزل) حجّةَ "التّبذير" لتعميقِ تأكيدِ ولائِهِ وانتمائِه إلى سيّده وقومِه رغم ما حلّ به، وهي حجّةٌ "تقومُ على ضرورةِ استكمالِ ما بدئ فيه، وإتمامِ ما شرع بعد في القيام به"(١)، انطلاقاً من القول حسب بيرلمان (Perlman):" بما أنّنا شرعنا في إنجازِ هذا العملِ، وضحّينا في سبيلِه بما لو أعرضْنا عن تمامِه لكانَ مضيعةً للمالِ وللجهدِ، فإنّ علينا أن نواصلَ إنجازَه"(٢)، وبنى حجّته على طباقِ السّلبِ، والمرادُ به: "الجمع بين فعلي مصدر واحد: مثبت ومنفيّ، أو أمر ونهي"(٣)، وبهذا النوعِ من الطباقِ يُذكرُ المعنى مرّتين؛ مرّةً بإثباتِ المعنى، ومرةً بنفيِه، ما يسهمُ في تثبيتِ المعنى وتقريرِه؛ ليقارنَ بين ما فعلَهُ سيفُ الدّولةِ به وبيانِ ردّ فعلِهِ إزاءَ ذلك، حتى لا يظنَّ ظانٌّ أنّه تغيّر على سيفِ الدّولة؛ لعدمِ مسارعتِهِ إلى فدائِهِ، فعلى الرّغم من تخلّي سيفِ الدّولةِ عنه فإنّه ظلّ وفياً له، لكنّه لم ينسَ معاتبتَه على تقصيرِهِ في فدائِه، وقد أراد أن يقولَ: إنّه هو هو في ماضيه وفي حاضرِه، لا يتغيّرُ بتغيُّرِ الأحوالِ، إنّه هو هو كما كان في الماضي وفيّاً لسيفِ الدّولةِ، وحريصاً على رضاه، حتّى بعد وقوعِه في الأسر.

(١) الحجاج في الشّعر العربيّ القديم، سامية الدّريديّ ٢٢٤.

(٢) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنيّاته من خلال مصنّف في الحجاج، في: أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة، عبدالله صولة ٣٣٣.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ، شرح وتعليق وتنقيح: محمّد عبد المنعم خفاجي٦/١١.

ولتعزيزِ حجّةِ السلطة دعمَها بحجّةِ عدم الاتّفاق والتّعارض؛ إذ يرفعُ المحاججُ "أطروحة ما مبيّناً أنّها لا تتّفقُ مع أخرى"[١] مستحضراً من خلالها سلطةً تعلو سلطةَ سيفِ الدّولةِ، وهي سلطةُ الشّرعِ والدّينِ من خلالِ حكمٍ شرعيٍّ، ليكونَ مثلاً لافتاً لسيفِ الدّولةِ، ومستفزّاً له كي لا يستمرَّ في السّيرِ في الاتّجاه الخطأ، وذلك في قوله:

لا تتيمَّمْ والماءُ تدركُهُ غيرُك يرضى الصُّغرى ويقبلُها

فما كان له أن يبدّلَ بأبي فراسٍ ومن معه من الفرسانِ من هم دونه، وهو بمنزلةِ الماءِ لسيفِ الدّولةِ كما صوّرَهُ، وهم كالتّرابِ، وعنده القدرةُ التّامّةُ على الاحتفاظِ بأبي فراسٍ ومن معه من الأسرى في حال افتداهم، وتمثّلَتْ حجّةُ عدمِ الاتّفاقِ في عجز البيت، وفي لفظةِ "غيرك" تحديداً؛ إذ لا تتّفقُ مكانةُ سيفِ الدّولةِ وسيادتُهُ مع اتّخاذِ الضّعفِ والعجزِ سبيلاً، وهو القادرُ على تقديمِ أفضلِ ما عندَه، وذاك سبيلُ من هم أدنى منه مكانةً، وأقلُّ شأناً.

وينتقلُ الشّاعرُ أبو فراس الحمدانيّ للبحثِ عن سلامٍ عقليٍّ، يكون خلاصاً له وسط دوّامةِ التّوتّراتِ النّفسيّةِ فيقول:

إنَّ بَني العَمِّ لَستَ تَخلُفُهُم إن عادَتِ الأُسدُ عادَ أَشبُلُها
أَنتَ سَماءٌ وَنَحنُ أَنجُمُها أَنتَ بِلادٌ وَنَحنُ أَجبُلُها
أَنتَ سَحابٌ وَنَحنُ وابِلُهُ أنت يَمينٌ وَنَحنُ أَنمُلُها

(١) مدخل إلى الخطابة، روبول أوليفي ٧٤، نقلاً عن الحجاج في الشّعر العربيّ القديم،سامية الدّريديّ١٩٢.

إذ حاولَ تجاوزَ تشظّياتِ الذّاتِ بين الرّؤيةِ والرّؤيا، وأعلنَ التئامَهُ مع مثلِهِ الأعلى في لحظةِ مكاشفةٍ، حرّرَ فيها الرّغباتِ المحتبسةَ في اللّاشعور[١]، وأطلقَها من مكامنِها ليحقّقَ شيئاً من توازنِهِ الدّاخليّ، فتجلّت حجّةُ "الوصل التّواجديّ" في العلاقةِ الّتي أبرزها الشّاعرُ بسيفِ الدّولةِ، وهي علاقةُ القرابةِ، وصلةِ الرّحم، وفي علاقةِ الفردِ (سيف الدِولة) بالجماعةِ من أبناءِ عمومتِهِ، وهي حجّةٌ تقومُ على الجوهرِ وتجلّياتِهِ، كأن يقالَ إنّ فلاناً عظيمٌ اعتماداً على أنّ أباه –فلاناً– عظيمٌ[٢]. وعليه فإنّ عزَّ سيفِ الدّولةِ ووجودَه وكينونَتَهُ لا تكتملُ إلّا بعزِّ أبناءِ عمومتِهِ، ودعمِهِم له، واستمرارِ ما بينهم من علاقةٍ تكامليّةٍ؛ إذ جعلَ علاقتَهُ بسيفِ الدّولةِ علاقةَ الجزءِ بالكلِّ، لا يكتملان إلّا معاً، ولا قيمةَ لأحدِهما منفرداً عن الآخر، إنّها لحظةُ انتصارٍ على تصدُّعِ الذّاتِ وانكسارِها أعلنها أبو فراس، وعبّرَ عنها بخطابِ الموازنةِ بين الضّمائرِ (أنت –نحن)، طيّاً لمسافاتِ البعدِ بدلالتيهِ المقاميّةِ والمكانيّةِ، وبهذا تبرزُ قوّةُ الذّاتِ المعظِّمةِ لنفسِها بالتفاتِها من المتكلّمِ المفردِ إلى المتكلّمِ الجمعِ، كما أفادَ تنكيرُ (سماءٌ–بلادٌ–سحابٌ–يمينٌ) التّعظيمَ وتعميقَ الإيحاءِ بأنّ الدّالَّ على هذه المعاني عصيٌّ على تحديدِ ماهيّتِهِ، ويمثّلُ حالةً متفرّدةً لا يمكنُ تأطيرُها، وعندما انتقل إلى المتكلّمِ جعلَه جمعاً معرّفاً (أنجمها – أجبلها)، وكأنّه يريد أن يقولَ: أنت الشّمسُ وكلُّ ما في الكونِ يدورُ في فلكك، وقد أضفى العطفُ بالواو أثراً مهمّاً في تحقيقِ التّرابطِ والتّماسكِ، لقد استطاعَ الشّاعرُ من

(٢)ينظر: الأبعاد الأساسيّة للشّخصيّة ، أحمد حمد عبد الخالق ٢٠٥.

(٢) ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته، عبدالله صولة ٣٣٢.

خلال أسلوبِ الوصلِ بين التّراكيبِ رسمَ صورةٍ حجاجيّةٍ تُظهرُ التّكافؤَ بين الرّجلين، والالتئامَ بينهما، فبدتِ الذّاتُ الشّاعرةُ متّحدةً برمزِ خلاصِها.

وكشف التّضادُّ في (أنت ونحن) عن علاقةِ الفردِ بالجماعةِ، فسيفُ الدّولةِ لا يستطيعُ العيشَ بمفرده بعيداً عن أقاربِه، أو أن يتغافلَ عن واجبِهِ نحوهم، والشّاعرُ واحدٌ منهم، وممّا لاشكَّ فيه أنّ جماليّةَ التّشكيلِ التّصويريّ في هذه التّشبيهاتِ خدمَتْ قضيّتَهُ الّتي يحتجُّ لها؛ إذ إنّ الصّورةَ تغني عن كثيرٍ من الشّرحِ والتّفصيلِ، فهو يريدُ إظهارَ أن لا غِنى لأحدِهما عن الآخر، فالسّماءُ لا تزدانُ إلّا بنجومها، والبلادُ لا تستقرُّ إلّا بجبالها، والسّحابُ لا يُطلبُ إلّا لوابلِهِ، واليدُ لا تضربُ وتأخذُ الأشياءَ إلّا بأناملها، إذن ملكُ سيفِ الدّولةِ لن يستقرَّ إلّا بجنودِهِ(١)، وعلاقتُه بأقاربِهِ كعلاقةِ السّماءِ بنجومِها، وعلاقةِ الأرضِ بجبالِها، وعلاقةِ السّحابِ بالمطرِ، وعلاقةِ اليدِ بأصابعِها، فهذه المتلازماتُ المتتاليةُ هي الّتي تقوّي الأملَ في نفسِ الشّاعرِ؛ ليسارعَ سيفُ الدّولةِ إلى فدائه، وإذا ما أدرك أنّه لا يعيشُ بمفرده، وأنّه بحاجةٍ إلى أقاربِهِ لا بدّ سيسارعُ إلى افتدائه، وهو يبيّنُ له أهميّةَ الجماعةِ في حياتِهِ، وتبرزُ قيمتُهُ عندما يتّحدُ مع جماعتِه، فالجماعةُ تقوّي الفردَ وتساندُه.

يمكننا القولُ: إنّ أبا فراسٍ بنى كلامَه على" إفحامِ المخاطبِ انطلاقاً من تعجيزِهِ على أن يدليَ بما ينفي الحجّةَ المقدّمةَ إليه"(٢).

---

(١) ينظر: صورة سيف الدّولة في شعر أبي فراس الحمدانيّ (دراسة موضوعيّة وفنيّة)، محمد بن يحيى آل عجيم بحث تكميليّ لنيل الماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٩، ١٨٥.

(٢)الحجاج في الشّعر العربيّ القديم من الجاهليّة إلى القرن الثّاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدّريديّ، ١٩٦-١٩٧.

ولم يغفلِ الشّاعرُ النواحيَ الفنيّةَ في غمرةِ انشغالِهِ بعرضِ حاجتِهِ بين يدي سيفِ الدّولة؛ لذا تضافرَ التّشبيهُ البليغُ مع التّضادّ مع" مراعاة النّظير"[١]، مع حسن التّقسيم في إيصال رسالته إلى سيفِ الدّولة؛ أن لا عيشَ للإنسانِ بعيداً عن أقاربِه، ولا يمكنُ للأقاربِ أيضاً فعلُ الأمرِ نفسِه، فالذّاتُ ينبغي أن تتّحدَ مع الجماعةِ، والجماعةُ ينبغي أن تحتوي الفرد، فالوجوهُ البلاغيّةُ أدّت دوراً حجاجيّاً " في إبرازِ حضورٍ ما، أو تلطيفِهِ كما تجلو للعيانِ ما قد نفهمه، أو نعتبرُه غيرَ مفيد"[٢]

وباعتمادِ حجّةِ "التّمثيل" بالتّشبيهِ البليغِ، والتّلميحِ، والمبالغةِ بالمديحِ توؤُّداً واستدراجاً، يصلُ الشّاعرُ إلى أعلى درجةٍ، وأقوى حجّةٍ على عتباتِ السُّلَّمِ الحجاجيّ، وقد نجحَ حين ختمَ به المقطعَ متلطّفاً قبل أن ينعطفَ صعوداً معنّفاً سيفَ الدّولةِ في الأبياتِ الّتي تليها. فتلك الحججُ السّامقةُ في سلَّمِ التّلطُّفِ والتّودُّدِ كانت بمنزلةِ أساسٍ متينٍ هيّأ للشّاعرِ القدرةَ على التّصعيدِ بقوّةٍ وجرأةٍ، واعتلاءَ السّلّمِ الحجاجيّ بكلّ ثقةٍ.

وقد وضعَ بيرلمان (Perlman) التّمثيلَ ضمن الحججِ شبهِ المنطقيّةِ؛ لأنّ جوهرَهُ في نظره "عمليّة قياس (mesuse) يتمُّ فيها الانتقالُ من أحدِ الطّرفين إلى الآخر اعتماداً على علاقةٍ أو علاقاتِ المشابهةِ بينهما، وهي علاقاتٌ لا تكون بالضّرورةِ واقعيّةً، بل تكون متخيَّلةً لا أساسَ للوصولِ إليها

(١) يُقصد به:"أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتّضادّ" كما في الجمع بين الشّمس والقمر في قوله تعالى:{ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}[الرّحمن:٥]. الإيضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ، شرح وتعليق وتنقيح: محمّد عبد المنعم خفاجي ٦/ ١٩.

(٢) البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشيل مايير، محمد علي القارصي٣٩٧.

إلّا بالرّجوعِ إلى السّياقِ الواردةِ فيه"[١] وللتّمثيلِ دورٌ فاعلٌ في كلّ ميادينِ الحجاجِ وطرائقه في الوصل أو الفصل، ويتأصّلُ الحجاجُ بالتّمثيلِ في قيامه على مفهوم المشابهة، "ولكنّه لا يقومُ على علاقةِ مشابهةٍ، وإنّما تشابه علاقات"[٢]

وصيغة التّمثيل العامّة هي: "إنّ العنصر (أ) يمثّل بالنسبة إلى العنصر (ب) ما يمثّله العنصر (ج) بالنسبة إلى العنصر (د)"[٣]، ويمكن توضيحها بالشّكل الآتي:

أ ب ⟵ ⟶ ج د

ويمثّلُ العنصر(أ): بني العم/نحن(أبا فراس)، وعلاقته بالعنصر(ب):أنت (سيف الدّولة)، ما يمثّله العنصر(ج):(أشبلها، أنجمها، أجبلها، وابله، أنملها)، بالنّسبة إلى العنصر(د):(أسد، سماء، بلاد، سحاب، يمين).

ويمكن تمثيلُ العلاقةِ الرّابطة بين تلك العناصر بالشّكل الآتي:

Ø أ ب ⟵ ⟶ Ø ج د

حيث يكون مدار الحجاج على المحلّ الشّاغر (Ø)، وهو المطلوبُ ملؤه في التّصوير؛ "فطيّ

المحلّ الشّاغرِ وبقاؤه مخفيّاً يدعو المتلقّي إلى إماطةِ اللّثامِ عنه انطلاقاً من عناصرِ الصّورة"[٤] في الطّرفِ الآخرِ من المعادلةِ، وعليه يمكنُ ملءُ المحلّ

(١)حجاجيّة الصّورة في الخطابة السّياسيّة لدى الإمام عليّ، كمال الزّمانيّ ١٢٦.

(٢)الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنيّاته، في: أهمّ نظريّات الحجاج، عبدالله ٣٣٩.

(٣) السّابق، الصّفحة نفسها.

(٤) الحجاج في القرآن، عبدالله صولة ٥٥٦.

الشّاغرِ بما يراه المتلقّي لكشفِ العلاقاتِ الرّابطةِ في الصّورِ المتتابعةِ من الأبيات: (قوّة، سند، دعم، تكامل، ثبات، رفعة وعلوّ...الخ).

وهكذا نجدُ أنّ الشّاعرَ في هذا المقطع يتقرّبُ من سيفِ الدّولةِ من خلال قصرِهِ لصفاتٍ نبيلةٍ عليه، وتحقيقِ هذه الصّفاتِ إلّا أنّه يربطُها بسياقِ العتابِ ليحقّقَ التّكافؤ بين بينةِ المدحِ وبينةِ العتابِ، اللّتين يظهرُ أنّهما متناقضتان، لكنّهما تتكاملان لتحقّقا غايةَ الشّاعرِ، وهي أنّه رغمَ عتبِهِ على سيفِ الدّولةِ فإنّه يبقيهِ في إطارِ الصّورةِ المثاليّةِ الّتي ارتسمَتْ في ذهنِهِ منذُ الصِّغَر.[١]

***

(١) ينظر: تواصليّة الأسلوب في روميّات أبي فراس ، عائشة عويسات، مذكرة لنيل الماجستير، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة، الجزائر، ٢٠١٠م، ١٠٣.

المقطع الثّالث: غضب وتعنيف(٢١-٣٣).

ثم ينعطف الشّاعر قائلاً:

بأَيّ عُـــــذرٍ رَدَدتَ والهَـــــةً ... عَلَيــكَ دونَ الــوَرى مُعَوَّلُهــا
جاءتــــك تمتـــاح ردَّ واحـــدِها ... ينتظـرُ النّـاسُ كيـف تُقفِلُهـا
سمحْـتَ مــنّي بمهجــةٍ كَرُمَــتْ ... أنــتَ علــى يأسِــها مؤمِّلُهــا
إن كُنــتَ لَم تَبــذِلِ الفِــداءَ لَهــا ... فَلَــم أَزَل في رِضــاكَ أَبــذِلُها
تِلــكَ المــودّاتُ كَيــفَ تُهمِلُهــا ... تِلــكَ المواعيــدُ كَيــفَ تُغفِلُهــا
تِلــكَ العُقــودُ الَّــتي عَقَــدتَ لَنــا ... كَيــفَ وَقَــد أُحكِمَــت تُحَلِّلُهــا

إنّ الشّاعرَ، وعلى الرّغمِ من إصرارِهِ على الالتئامِ في ذاتِ سيفِ الدّولة من خلال المدحِ والفخرِ، نستشفُّ في هذا المقطع أن جرحَه الّذي اكتوى بناره مازال مستعراً في داخله، وبعد تلك الجولةِ من التّلطُّفِ والخطابِ الإقناعيّ العقلانيّ نجدُهُ يستشيطُ غضباً، وتزدادُ حدّةُ توتُّرِهِ حين يعاودُ ذكرَ أمّهِ، فيُحرجُ مخاطَبَهُ مستفهماً (بأيّ عذرٍ رددْتَ والهةً...؟)، وحتماً ستكون الإجابةُ الضّمنيّةُ لسيفِ الدّولة هي: الصّمتُ عجزاً عن تقديمِ إجابةٍ شافيةٍ مقنعةٍ لأبي فراس.

وانطلاقاً من هذا الاستفهامِ تبدو الحججُ الّتي أوردها الشّاعرُ مقنعةً في نظرِهِ، وكافيةً لتغييرِ موقفِ سيفِ الدّولةِ، ودفعِهِ لفداءِ الشّاعرِ، وتحريرِهِ من الأسر.

ويتضمّنُ الاستفهامُ دلالاتٍ حجاجيّةً أخرى تتعلّقُ بحضورِ الأمّ، وصورتِها المؤلمةِ مرّةً ثانيةً، لنجدَ الانفعالَ العاطفيَّ يعاودُ الحضورَ مرّةً أخرى، ويهيمنُ، ويتلاشي معه الخطابُ المنطقيُّ، فيمثّلُ الاستفهامُ حجّةً في ذاتِهِ تنطوي على

حقيقةِ أنّ ما تقدّمَ من حججٍ وأساليبَ، وإن كانت منطقيّةً ومقنعةً، فإنّه قد يُستغنى عنها حين تدحرُها حجّةٌ واحدةٌ قويّةٌ تغني عن تلك الحججِ على أهميّتها، وهي قدومُ أمِّهِ راجيةً متوسّلةً إلى سيفِ الدّولةِ، وهذه وحدَها كافيةٌ لترقيقِ قلبِهِ، وقد نكّرَ لفظةَ "والهة"؛ لأنّ هذا المشهدَ يتعلّقُ بكلّ أمٍّ والهةٍ، وكلِّ ملهوفةٍ سواءٌ أكانت أمَّ أبي فراسٍ أم أمَّ غيرِهِ، فالموقفُ يستوجبُ إغاثتَها لا ردَّها خائبةً، فإغاثةُ الملهوفِ من القيمِ الّتي يفخرُ بها التّفكيرُ الجمعيُّ عند العرب، ومن المعيبِ الإخلالُ بتلك القيمةِ، فكيف إن كان ذلك الملهوفُ امرأةً وأمّاً ؟! وما يزيدُ بشاعةَ ذلك الخذلانِ أنّه لا أنيسَ لها غيرُه، ولا ولدَ لها سواه، وهو البطلُ الفارسُ الّذي ينتظرُ النّاسُ أوبتَهُ، لذا كرّرَ الاستفهامَ مستنكراً في عجز البيت (كيف تقفلها؟!)

و انفجرَ الشّاعرُ بخطابه سيفَ الدولة موظّفاً (أيّ) الاستفهاميّةَ لتجسيمِ حيرتِهِ، والتّعبيرِ عن الاستنكارِ والنّدبةِ الحائرةِ، وكأنّ ما سبق كان مدحاً حائراً تشظّى على عتباتِ البوحِ والمكاشفةِ، وتأكّدَ التّخصيصُ باللّومِ بقوّةٍ من خلال تقديم (عليك – دون الورى) على (معوّلها) ليقرّعَهُ بالسّؤالِ عن تلك الوالهةِ، أمّا التّنكيرُ في لفظتي (عذر –والهة) فله أثرُهُ المعنويُّ العميقُ في تخصيصِ الحالةِ وتعظيمِها، ومع انعدام التّضادِّ بين (تمتاح وتقفل) فإنّ الشّاعرَ استطاعَ إيجادَ علاقةٍ سياقيّةٍ بينهما؛ ليبيّنَ مقدارَ الأملِ الّذي ملأ قلبَ أمِّهِ عندما جاءت لمقابلةِ سيفِ الدّولةِ ترجوه فداءَ ابنِها، مقابلَ صدودِه وإعراضِهِ عنها، ناسياً أو متناسياً صلةَ الرّحمِ الّتي وجب عليه شرعاً أن يصلَها، كما يتّضح من قوله:

أَرحامُنـــا مِنـــكَ لِم تُقَطِّعُهـــا وَلَم تَـــزَل دائِبـــاً تُوَصِّـــلُها

وجاء الطّباقُ بين (تقطّع وتوصّل) ليرسمَ صورتين متقابلتين:الأولى صورةٌ مشرقةٌ تمثّلُ سيفَ الدّولةِ وهو يصلُ أرحامَهُ (قبل وقوع الشّاعرِ في الأسرِ)، والثّانيةُ متضادّةٌ مع الأولى، تتمثّلُ في سيفِ الدّولةِ وهو يقطّعُ أرحامَهُ، فالشّاعرُ في الأسرِ، وقد ردَّ أمَّهُ ردّاً قبيحاً، ولم يحقّقْ رجاءَها، وأظهرت الزّيادةُ في (تقطّعها توصّلها) البونَ الشّاسعَ بين الصّورتين، بين الماضي السّعيدِ والحاضرِ الكئيبِ، فبمقدارِ ما كان سيفُ الدّولةِ يصلُ أرحامَهُ في الماضي ها هو ذا الآن يقطّعُها .

ويتابعُ الشّاعرُ التّنفيسَ عن غضبِهِ في ثورةِ استفهاماتٍ حائرةٍ، يُعرّضُ فيها بسيفِ الدّولةِ، ويسلبُهُ ما أغدقَهُ عليه في أوّلِ المقطع، " إنّه يعيشُ لحظةً من لحظاتِ الصّراعِ النّفسيّ المتفاقمِ في داخلِهِ، فتكونُ حالتُهُ أقربَ إلى الهوسِ، فنراه يرجّحُ كفّةً من المشاعرِ، ثم يعودُ ليرجّحَ كفّةً أخرى من المشاعرِ المناقضةِ للأولى "(١)

وهنا يتشظّى عن ذاتِ سيفِ الدّولةِ ليلتئمَ مع ذاتِهِ المتصدّعةِ، ويتّخذُ قرارَهُ النّفسيَّ بأن ينتقلَ من التّلميحِ إلى التّصريحِ والمساءلةِ المنبّهةِ إلى فداحةِ ما أقدمَ عليه سيفُ الدّولةِ، ومن هنا تزدادُ موجةُ الغضبِ، وتنهالُ الحججُ، فيمتزجُ العتابُ بالتّعنيفِ، ونداءُ البعيدِ بالاستفهامِ بـ (كيف، ولماذا، وأين)، لتصعيدِ وتيرةِ الحجاجِ، ومقارعةِ سيفِ الدّولةِ بأعمالِهِ، إذ تأتي أهميّةُ الاستفهامِ في إطارِ الخطابِ الحجاجيّ؛ لأنّه استفهامٌ" يستلزمُ تأويلَ القولِ

(١)- الإنسان بين الواقع والنّهاية ، عارف الطّراويّ ١٨٧.

المرادِ تحليلُهُ انطلاقاً من قيمتِهِ الحجاجيّةِ"[١]، ويُعدُّ الاستفهامُ من أنجعِ الوسائلِ اللّغويّةِ؛ إذ إنّ "طرح السّؤالِ يمكنُ أن يضخِّمَ الاختلافَ حول موضوعٍ ما إذا كان المخاطبُ لا يشاطرُ المتكلّمَ الإقرارَ بجوابٍ ما "[٢] فتوجيهُ هذا الكمّ من الأسئلةِ إلى سيفِ الدّولةِ ينمُّ على ضخامةِ الخِلاف بينهما؛ لأنّ المخاطبَ لا يبالي بتأزُّمِ الشّاعرِ وخذلانِ أمّهِ، فحَمَلَ الاستفهامُ دلالةً حجاجيّةً تنطوي على الاستنكارِ والتّوبيخِ، وتحقّقَ الفصلُ الحجاجيُّ من خلال التّضادّاتِ المصاحبةِ للاستفهامِ ومفارقاتِ الموقفِ، فالتّضادُّ كان له أكبرُ الأثرِ في استجلاءِ الفروقاتِ، وكان التّكرارُ تأكيداً لتلك الحقائقِ، كما أنّ التّكرارَ للرّابطِ الحجاجيّ، وكذا مفرداتٍ بعينِها أسهمَ في جعلِ النّصّ بيانيّاً وحجاجيّاً، إذ يمكنُ القولُ: إنّ في المقطعِ فصلاً حجاجيّاً في مواقفَ تحتملُ (الثّبات والتّحول)، الحدّ الأوّل(l): الثّبات، وهو ما أراده الشّاعرُ من سيفِ الدّولةِ للمحافظةِ على القيمِ والعهودِ والمواثيقِ وصلةِ الرّحم، والحدّ الثّاني(l l): التّحوّل، ويتمثّل بالخذلان، وتفريطِ سيفِ الدّولةِ بكلِّ تلك المقدّماتِ والقيم.

ونجمَ عن تلك الغضبةِ سلسلةٌ متتابعةٌ من المفارقاتِ وحججِ التّعارضِ وعدمِ الاتّفاقِ؛ لتصبحَ تلك الأعمالُ بحكمِ موقعِ سيفِ الدّولةِ ومكانتِهِ حجّةً عليه، وهي لا تليقُ بسيّدٍ ولا بذي رحمٍ: كنقضِ العهودِ، وقطعِ الرّحمِ،

(١) الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجيّة لمناظرة أبي سعيد السيرافيّ لمتّى بن يونس، في: الحجاج مفهومه ومجالاته، أحمد اتزكنرمت ٢٩٩/٢.

(٢) البلاغة والحجاج من خلال نظريّة المساءلة لميشيل مايير، في:أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة، محمد القارصيّ ٣٩٩.

وادّعاءِ طلبِ المعالي، والسّعي إلى المكارم، وقد أغفلَ أحسنَ مكرمةٍ لأولى النّاسِ بها، وأكثرِهم استحقاقاً لها.

وقد وظّفَ الاعتراضَ بالجملةِ المؤَكَّدةِ (وقد أحكمت) حجّةً دامغةً للتّهويلِ، وتنامي الإحساسِ بأهميّةِ الأمرِ، وقد أدَّتِ الجملُ المتعاطفةُ المصدّرَةُ بأسماءِ الإشارةِ وأسماءِ الاستفهامِ بمحتواها الإيحائيّ معانيَ مجازيّةً لدفقاتٍ انفعاليّةٍ، هدفَ من خلالها الشّاعرُ إلى أمرين هما: التّنفيسُ عن المشاعرِ المخنوقةِ، ومحاولةُ محاصرةِ المخاطبِ ولومِهِ لاستنهاضِ همّتِهِ من جديدٍ، واستخدامُ اسمِ الإشارةِ (تلك العهودُ) الدّالِّ على البعدِ أنسبُ للمقامِ ؛ لأنّ المشارَ إليه بعيدٌ عن ذهنِ المخاطبِ، بينما هو شديدُ الصّلةِ بذهنِ الشّاعرِ، ومن هنا أفادَ التّعريفُ بأل العهديّةِ للمشارِ إليه توجيهَ الأنظارِ إلى المعرّفِ الّذي تدلُّ الصّيغةُ التّعريفيّةُ الّتي اختارَها الشّاعرُ على أنّه معهودٌ بين الطّرفين، وهو موضوعُ الكلامِ، وفيه دعوةٌ إلى الاستذكارِ واليقظةِ النّفسيّةِ (العهود– العقود – المواثيق)، ويختمُ الشّاعرُ هذا المقطعَ ببيتٍ حضرَتْ فيه لغتا العاتبِ والتّائبِ، فجمعَ بين السّؤالِ ذي النّبرةِ الحجاجيّةِ، والأسلوبِ الخبريّ ذي الصّبغةِ التّقريريّةِ المباشرةِ؛ ما نشّطَ فاعليّةَ الدّلالةِ، وأكسبَها الدّيمومةَ المنشودةَ، الّتي تعمّقَتْ أكثرَ مع حجّةِ الاعتراضِ بالظّرفِ(دائماً)، الّذي مثّلَ لازمةً قوليّةً وفعليّةً للمخاطبِ،كثّفتِ المعنى ومنحتْهُ عمقاً زمانيّاً يتناسبُ مع السّياقِ المدحيّ، وكأنّه تشظّى عن اللّومِ والتّقريعِ، وهو مقصدٌ رئيسٌ في القصيدةِ، والتأمَ بالمدحِ الّذي شكّلَ مقصداً هامشيّاً، هدفُهُ استثارةُ همّةِ المخاطبِ واسترضاؤه.

ويتتالى التّضادُّ في الأبياتِ؛ ليكشفَ عمّا في نفسِ الشّاعرِ من مشاعرَ مضطربةٍ، فإذا ما ذكّرَ سيفَ الدّولةِ بما كان بينهما من مودّةٍ تذكّرَ ماضيهما معاً، وإذا ما نظرَ إلى الحاضرِ وجدَهُ يهملُ تلك المودّةَ، وكأنّها لم تكنْ موجودةً، والأمرُ نفسُهُ في المواعيدِ؛ إذ عَهِدَ سيفَ الدّولةِ محافظاً على مواعيدِهِ، فما بهِ الآنَ لا يحافظُ عليها؟ بل ينقضُها، وهذا التّناقضُ في أفعالِهِ جعلَ الشّاعرَ في حيرةٍ من أمرِهِ، وقد صارحَهُ بما يجولُ في نفسِهِ في قوله:

أَيــنَ المعــالي الَّــتي عُرِفــتَ بِهــا تَقولُهُـــا دائِمـــاً وَتَفعَلُهـــا

ولئن لجأ إلى الاستفهامِ لهو من بابِ التّلطُّفِ في الخطابِ، ولولا ذلك لصرخَ في وجهِه مطالباً إيّاهُ أن يتبعَ قولَهُ بالفعلِ، كما كان في السّابقِ؛ لا يقولُ قولاً إلّا وينفّذُهُ.

ولجأ إلى استعطافِهِ لعلّهُ يسرعُ في تحريرِهِ في قولِهِ:

يا واسِــعَ الــدارِ كَيــفَ توسِــعُها وَنَحــنُ في صَــخرَةٍ نُزَلزِلُهــا

يا ناعِــمَ الثَــوبِ كَيــفَ تُبدِلُــهُ ثِيابُنــا الصــوفُ مــا نُبَدِّلُــه

متّكئاً على التّضادِّ السّياقيّ، وما ينطوي عليه من مفارقاتٍ يستنكرُ بها موقفَ سيفِ الدّولةِ، بين مظاهرِ التّرفِ والنّعيمِ الّتي هو عليها مقابلَ حالةِ الشّقاءِ وشظفِ العيشِ الّتي يعيشُها في أسْرِهِ، وكشفَ هذا التّضادُّ البونَ الشّاسعَ بين الحالتين: حالةِ المنعمِ المترفِ مقابلَ حالةِ المعذَّبِ في أسرِهِ، ولا

يسعى سيفُ الدّولةِ إلى فدائه، وقد لجأ الشّاعرُ إلى الاحتجاجِ بالمفارقةِ لتنبيهِ سيفِ الدّولةِ إلى بشاعةِ هذا ليُحدثَ أعمقَ التّأثيرِ فيه(١) .

و يرسمُ صورةً ملأى بالحزنِ والمعاناةِ لحالِهِ في الأسرِ في قوله:

يا راكِبَ الخَيلِ لَو بَصُرتَ بِنا ... نَحمِلُ أَقيادَنا وَنَنقُلُها

رَأَيتَ في الضُّرِّ أَوجُهاً كَرُمَت ... فارَقَ فيكَ الجَمالَ أَجمَلُها

قَد أَثَّرَ الدَهرُ في مَحاسِنِها ... تَعرِفُها تارَةً وَتَجهَلُها

وهذه الصّورةُ الظّاهرةُ في النّصّ تخفي خلفها صورةً متضادّةً معها من ماضيه، كما يتّضحُ في الجدولِ الآتي:

الحاضر	الماضي
القيود تكبّله	حرّ طليق
أسير	أمير فارس
مسّه الضّرّ	يشعّ نضارةً وحيويّة
فارقه الجمال	يتحلّى بالجمال والرّاحة
أزرى به االدّهر	كان متصالحاً مع دهره

وحرصَ الشّاعرُ على ذكرِ أدقّ التفصيلاتِ في الصّورةِ السّلبيّةِ لحالِهِ في الأسر، ولم يذكرْ في النّصِّ الصّورةَ الإيجابيّةَ المتضادّةَ معها (لماضيه المشرق)؛ لأنّها صورةُ الواقعِ أملاً منه في التّأثيرِ في سيفِ الدّولةِ، وإقناعِهِ بالمسارعةِ في

(١) ينظر: بحث:الحجاج في شعر أبي فراس الحمداني قصيدة (أناديك لا أخاف الردى) ، زايد محمد ارحيمة الخوالدة مجلة الأثر، الجزائر، المجلد ١٧/ العدد ٣٣، ١٢.

فدائه؛ لأنّ خُلُقَهُ لا يسمحُ له أن يتركَ أحدَ أفرادِ أسرتِهِ يعاني شظفَ العيشِ، ويلاقي صنوفاً شتّى من العذابِ والمهانةِ على يدِ الأعداءِ، وهنا يحاولُ الشّاعرُ التّقرُّبَ من قلبِ سيفِ الدّولةِ و عقلِهِ، فكلّما كان الكلامُ قريباً منهما كان مدعاةً للفهمِ والتّأمُّلِ والتّدبُّرِ، والعملِ بمحتواه[١].

وفي الجانبِ النّفسيّ، شكّلَ الاستفهامُ والنّداءُ في المقطعِ متواليةً تركيبيّةً ذاتَ أطيافٍ نفسيّةٍ تلوّنَتْ بتلوُّنِ الحالةِ النّفسيّةِ للشّاعر، إذ بدأ بالنّداءِ، وهو نداءٌ للمسؤولِ –مجازاً– /(سلطة) الّذي وجّه إليه الأسئلةَ بأداةِ استفهامٍ واحدةٍ (كيف)، وقد أوحَتِ الاختياراتُ اللّفظيّةُ والقرائنُ الدّلاليّةُ في النّظمِ التّركيبيّ للأبياتِ بحالةِ توتُّرٍ عالٍ استحوذَتْ على نفسيّةِ الشّاعرِ، فأفرغَها استفهاماتٍ كانت أقربَ إلى التّوبيخِ منها إلى اللّومِ، فبعد أن ختمَ المقطعَ السّابقَ بالمحاسبةِ الوجدانيّةِ انتقلَ في هذا المقطعِ إلى المحاسبةِ الماديّةِ، وأخرجَ النّداءَ والاستفهامَ محمَّلَينِ بدلالاتِ المحاسبةِ والاحتجاجِ، ومتلازِمَينِ مع الكبتِ النّفسيّ المكتنزِ بالتّوجّعِ والحسرةِ لحظةَ نظمِ القصيدة، وهو تمثيلٌ حقيقيٌّ لصدقِ الأنا في إخراجِ المكبوتِ النّفسيّ[٢]، وفي كلا الأمرين جعلَ النّداءَ والاستفهامَ مرآةً عاكسةً لأسفِهِ من خلال المفارقةِ المعقودةِ بين الماضي والحاضر، أو بين النّعيمِ والمعاناةِ ؛ ما خلقَ فجوةً بين المنادي والمنادى عبّرَ عنها بأداة النّداءِ (يا) ومدّ الصّوتِ في المنادى (واسع – ناعم – راكب)،

(١)– ينظر: حجاجيّة الأسلوب في الخطابة السّياسيّة لدى الإمام عليّ رضي الله عنه، كمال الزمانيّ ١٨٧.

(١) ينظر: علم النّفس ، جميل صليبا ٤٨٦.

وأعتقدُ أنّ هذه المقارنةَ كانت إيذاناً بالتّمرُّدِ؛ إذ وجدْنا الشّاعرَ ينادي سيفَ الدّولةِ ليحاصرَهُ بأسئلةٍ متتابعةٍ بدلالاتِ التّعجُّبِ من صنيعِهِ، ويتعالى صوتُهُ مكرّراً إنكارَهُ، فلا يجدُ إلا الأسئلةَ المتتابعةَ الّتي سُبقَ كلٌّ منها بنداءٍ ارتكزَتْ عليه نقطةُ التّأزُّمِ، ومخاضُ الكشفِ والمواجهةِ.

وتميّزَ هذا المقطعُ بالحوارِ الدّراميّ الّذي كان له دورٌ متميّزٌ في المحافظةِ على الوحدةِ النّفسيّةِ للمقطعِ، وتوزيعِ الانفعالاتِ بين أبياته وبين شطري البيتِ الواحدِ ؛ ليتحقَّقَ الانسجامُ والنّموُّ النّفسيُّ عن طريقِ العاطفةِ المسيطرةِ عليها جميعاً، وقد استطاع الشّاعرُ من خلال توظيفِ المعاني النّحويّةِ أن يقدّمَ لوحةً متكاملةً تترابطُ أحداثُها ترابطاً نفسيّاً محكماً، وتتسلسلُ معانيها تسلسلاً منطقيّاً إلى أن تصلَ إلى ذروةِ الحدث.

***

المقطع الرّابع: التّشظّي بين الاستعطاف والتّمرُّد

الأبيات (٣٤-٤٥):

فَــلا تَكِلْنــا فيهــا إلى أَحَــدٍ ... مُعِلُّهــا مُحسِــناً يُعَلِّلُهــا

لا يفــتحُ النّــاسُ بابَ مَكرُمَــةٍ ... صــاحبُها المســتغاثُ يُقْفِلُهــا

أيَنْــبَري دونَــكَ الكــرامُ لهــا ... وأنــتَ قَمقامُهــا وأحمَلُهــا

وأنــتَ إنْ عــنَّ حــادثٌ جَلــلٌ ... قُلّبُهــا المرتجــى وحُوَّلُهــا

منــكَ تَــردّى بالفضــلِ أفضَــلُها ... منــكَ أفــادَ النّــوالَ أنوَلُهــا

فَــإن سَــأَلْنا سِــواكَ عارِفَــةً ... فَبَعــدَ قَطــعِ الرَجــاءِ نَســأَلُها

إذا رَأَينــا أولى الكِــرامِ بِهــا ... يُضــيعُها جاهِــداً وَيُهمِلُهــا

لَم يَبــقَ في النــاسِ أُمَّــةٌ عُرِفَــت ... إلّا وَفَضــلُ الأَمــيرِ يَشــمَلُها

يتجلّى حجاجُ القوّةِ بعد المقارنةِ الّتي عقدها بين ماضيه وحاضرِهِ في المقطعِ السّابقِ بوصفه مسوّغاً للتّمرُّدِ وردّاً طبيعيّاً على الظّلمِ الواقعِ عليه، وذلك من خلال الخطابِ التّوجيهيّ في هذا المقطعِ؛ إذ يمتزجُ الالتماسُ بالتّهديدِ من خلال النّهي والشّرط (لاتكلْنا – فإن سألنا سواك..)، وأُردِفَتْ هذه الدّلالةُ بما يسوّغها؛ إنّها عدمُ مبالاةِ الأميرِ بتضييعِ المكارمِ، وبأنّ الاستمرارَ في الإهمالِ سيجعلُ الشّاعرَ يلوذُ بغيرِ الأميرِ للخلاص؛ وهنا تتجلّى حجّةُ "الاستبدال" أو "الحجّةُ القائمةُ على العلاقةِ التّبادليّة"، وهي حججٌ شبهُ منطقيّةٍ يحاولُ المخاطِبُ من خلالها "أن يصفَ الحلَّ نفسَهُ لوضعين في سياقين متقابلين، وذلك ببلورةِ علاقاتٍ متشابهةٍ بين السّياقات..."[١]، وأهمُّ

(١)آليّات الحجاج وأدواته، عبد الهادي الشّهريّ ٨٧.

ما يميزُ هذه الحجّةَ هو توجيهُ المخاطبِ إلى تطبيقِ قاعدةِ العدلِ[1]، والأصلُ في ظلِّ هذه الحجّةِ أن يعاملَ سيفُ الدّولةِ الشّاعرَ بالمثل، وأن يردَّ المعروفَ بالمعروفِ، وقد احتجَّ بمقدّماتٍ تُظهرُ تضحيتَهُ وتكرُّمَهُ المطلقَ حين فدى سيفَ الدّولةِ بنفسِهِ ومهجتِهِ (سمحت منّي بمهجةٍ كرُمَتْ/رأيت في الضّرّ أوجهاً كرُمت)، ورغم ذلك خالفَ سيفُ الدّولةِ مبدأ حجّةِ التّبادل، ولم يقابلْ تضحيةَ الشّاعرِ بالمثلِ، ولا بأقلَّ منه، إذ لم يكلّفْ نفسَهُ دفعَ مبلغٍ من المال مقابلَ فدائه له بالمهجةِ والرّوحِ (لم تبذل الفداء لها،/ أين عنّا وأين معدِلُها)، لذا حقَّ للشّاعرِ أن يتمرّدَ ويعترضَ ويستبدلَ بسيفِ الدّولةِ "أحداً" إن تطلّبَ الأمرُ؛ لأنّ الواقعَ المعيشيَّ لأبي فراس أصبحَ لا يُحتملُ، فمقوّماتُهُ قيودُ الأسرِ وضيقُ العيشِ، وقد عبّرَ عن هذا الواقعِ بضميرِ الجماعة (نحن- نا)، وكأنّه يستحضرُ معاناةَ الآخرين معه ليستمدَّ القوّةَ لموقفِهِ، فالموضوعُ لا يتعلّقُ بالجانبِ الشّخصيِّ فقط، وإنّما هو شأنٌ جماعيٌّ لا يجوزُ للمسؤولِ عنه – وهو الأميرُ المنادى (سلطة)- التّمادي في تجاهلِهِ، ولذلك يستحثُّهُ على اتّخاذِ قرارٍ يخصُّ الافتداءَ لأهميّةِ الأسرى في قومهم، وقد انطوَتِ التّراكيبُ على حزنٍ عميقٍ، وقلقٍ طاحنٍ بسببِ القصورِ العاطفيِّ لدى الأميرِ، أمّا الغرضُ النّفسيُّ من تنكيرِ لفظةِ (أحد) فهو إطلاقُ المعنى، وجعلُ اللّفظِ رمزاً للخلاصِ الّذي قد يجعلُ الشّاعرَ يتمرّدُ تطلُّعاً إليه، وهذا التّوتّرُ النّفسيُّ جسّدَهُ التّواترُ الشّرطيُّ في البيتين الّذي لم يأتِ عبثاً، بل جاء متواشجاً مع الحالةِ النّفسيّةِ للشّاعر.

(١)ينظر: آليّات الحجاج وأدواته، الشهري ٨٧، و الأسس النّظريّة لبناء شبكات قرائيّة، لحويدق عبد العزيز ٨٦٨.

وفي قوله:

لا يَفــتَحُ النــاسُ بابَ مَكرُمَــةٍ صــاحِبُها المسـتَغاثُ يُقفِلُهــا

اتّكأ على التّضادِّ المباشرِ (يفتح ويغلق) ليعلي من قدرِ سيفِ الدّولة وشأنِهِ بتصويرِهِ صاحبَ المكارمِ الّذي يفتحُ أبوابَها، ولا يغلقُها أمام صاحبِ حاجةٍ، فهو الجديرُ بكلِّ مكرُمةٍ، وصاحبُ الفضلِ الّذي يرنو إليه النّاسُ عندما تدلهمُّ الخطوبُ، ولا يخيّبُ رجاءَ من يقصدُهُ كما تجلّى في قوله:

أَيَنــبَري دونَــكَ الكِــرامُ لَهــا وَأَنــتَ قَمقامُهــا وَأَحمَلُهــا

وَأَنــتَ إِن عَــنَّ حــادِثٌ جَلَــلٌ قُلَّبُهــا المرتَجــى وَحُوَّلُهــا

مِنــكَ تَــرَدّى بِالفَضــلِ أَفضَــلُها مِنــكَ أَفــادَ النَــوالَ أَنوَلُهــا

فإذا كان سيفُ الدّولةِ –كما صوّرَهُ– صاحبَ الفضلِ الكبيرِ، يفتحُ بابَهُ لكلِّ ذي حاجةٍ، فكيفَ له أن يغلقَه في وجهه، وإذا كان يعطي العطاءَ الكثيرَ فكيف له أن يضنَّ بالقليلِ عليه، وهو فداؤه وتحريرُه من الأسر .

وأكّدَ هذا المعنى في قوله:

لَم يَبــقَ في النــاسِ أُمَّــةٌ عُرِفَــت إِلّا وَفَضــلُ الأَمــيرِ يَشــمَلُها

ظاهرُ النّصّ مبالغةٌ في المدحِ بقصرِ الفضلِ والمكارمِ على ممدوحِهِ، أمّا باطنُ النّصّ ففيه عتابٌ، ولجأ إلى حجّةِ التّعديةِ شبهِ المنطقيّةِ ليصوّرَ ضمناً عمقَ الظّلمِ الواقعِ عليه، فإذا كان الأميرُ يتعدّى فضلُهُ القاصي والدّاني فكيف يتباطأ في فدائِهِ والإحسانِ إليه؟!

وعندما بدأ الشّكُّ يتسرّبُ إلى نفسِ الشّاعرِ بسببِ مماطلةِ سيفِ الدّولةِ، صرّحَ بمطلبِه في قوله:

نحـــنُ أَحَـــقُّ الـــوَرى بِرَأفَتِـــهِ فَـــأَينَ عَنّـــا وَأَيـــنَ مَعـــدِلُها

مستحضراً حجّةَ "الاستحقاق" ليعلنَها مدوّيةً بأنّ له الأحقيّةَ في الفضلِ على كلّ الورى للأسبابِ الّتي قدّمها مسبقاً. وبذا شكّلَ البيتان طريقةً تشبهُ الاستدلالَ القائمَ على الاستنباطِ المنطقيّ الّذي يتّضحُ بالشّكلِ الآتي:

م١_ فضلُ الأميرِ (سلطة) يشملُ كلَّ الورى

م٢_ أبو فراس جزء من الورى (مضمرة)

ن_ فضلُ الأميرِ يشملُ أبا فراس (أين عنّا وأين معدلها؟) ∅

وجاءت النتيجةُ حلقةً مفرغةً خاليةً من المضمونِ لعدمِ تحقُّقِها، رغم أنّها نتيجةٌ طبيعيّةٌ ومنطقيّةٌ، فجاء الاستفهامُ حجّةً دامغةً تجسّدُ العتابَ الشّديدَ واللّومَ لسيفِ الدّولةِ، وتثبتُ تقصيرَه وعدولَه عن تحقيقِ العدالةِ لمن هو أولى الناسِ، وأحقُّهم بفضلِه.

وتوحي حجّةُ الاعتراضِ بلفظةِ (جاهداً) بين الفعلين (يضيّعُها ويهملُها) بشدّةِ إمعانِ سيفِ الدّولةِ في تجاهلِ أمرِه، وضرورةِ المبادرةِ إلى حسمِ أمرِ افتدائه، وشكّلَ القصرُ في البيتِ التّالي قوّةَ انتفاءٍ وإقراراً أُفرغا في سياقِ مدحِ الأميرِ، ثمّ تحوّلَ عنه فيما بعدُ إلى نسقٍ دلاليّ آخرَ، هو أقربُ إلى النّصحِ والإرشادِ، وارتهنتِ الدّلالةُ بتشكيلٍ تركيبيّ تحرّكَ نحو بؤرةِ الوجعِ (الحسرة) الّتي افتتحَ بها قصيدتَه، إنّه تطلُّعُ الذّاتِ إلى الخلاصِ الّذي لن يكونَ إلّا بالمال.

يا مُنفِــقَ المــالِ لا يُريــدُ بِــهِ إِلّا المعــالي الَّــتي يُؤَثِّلُهــا
أَصبَحتَ تَشري مَكارِماً فُضُلاً فِـداؤُنا قَـد عَلِمَـت أَفضَـلُها
لا يَقبَــلُ اللهُ قَبــلَ فَرضِــكَ ذا نافِلَــةً عِنــدَهُ تُنَقِّلُهــا

لقد شكّلَتِ الأبياتُ الثّلاثةُ الأخيرةُ من القصيدةِ حجّة "الاتّجاه"، الّتي تنصُّ على"" رفض أمرٍ ما، حتّى وإن اعترفْنا أنّه في ذاتِهِ أمرٌ مقبولٌ أو جيّدٌ؛ لأنّه سيكونُ الوسيلةَ الّتي تقودُنا إلى غايةٍ لا نريدُها"(١)، فالإنفاقُ في حدِّ ذاتِهِ أمرٌ جيّدٌ وقيمةٌ عليا، لكنّه يفقدُ تلك القيمةَ إذا كان في غيرِ محلِّهِ، والأَوْلى بالسّيّدِ أن يرتّبَ أولويّاتِهِ في تحديدِ من يستحقُّ الإنفاقَ، كما أنّ تأديةَ النّوافلِ أمرٌ مستحبٌّ في ذاتِهِ، لكن تفقدُ قيمتَها إن لم تُسبقْ بالفرائض.

وقد استحضرَ الشّاعرُ المنادى بالحالةِ الّتي تمهّدُ لخلاصِه، وهي الإنفاقُ، وأتبعَهُ بالقصرِ الّذي أفادَ عن طريقِ التّضادِّ الأسلوبيّ النفيَ والإثباتَ، فأبو فراس لم يُرِدْ أن يُعلمَ سيفَ الدّولةِ أنّه يرخصُ مالَه في طلبِ المعالي، وليس ذاك خفيّاً، ولكنّه أرادَ أن يذكّرَهُ بما يعلمُ ليبنيَ عليه استدعاءَ ما يوجبُهُ إنفاقُ المالِ، إذ افتداءُ الأسرى من أكملِ المعالي، وما دونَ الافتداءِ ليس فرضاً، بل نافلة لا تُقبلُ إن فُرِّطَ بالفريضة، إنّه أسلوبٌ حجاجيٌّ استدعى فيه حكماً شرعيّاً لا يقبلُ نقضاً، هدفُهُ حملُ المخاطبِ على تأديةِ الفريضةِ الّتي بها يتجسّدُ الخلاصُ، وتنتهي المعاناةُ والحسرةُ، لتكونَ نهايةُ القصيدةِ حجاجيّةً مفحمةً و حاسمةً ومنطقيّةً لا جدلَ فيها ولا اعتراض .

(١)الحجاج، في الشّعر العربيّ القديم، سامية الدّريديّ ٢٢٥.

وختاماً لابدَّ من التنويهِ بصوتِ الرّويّ في القصيدةِ، وما منحَهُ من طاقةٍ إقناعيّةٍ تجذبُ سماعَ المتلقّي، فقد أسهم بهائِهِ المطلقةِ في إيصالِ صوتِ الشّاعرِ وأنّاتِهِ، وكان بمنزلةِ تنفيسةٍ (ها) لزفرةِ الآه والحسرةِ الّتي تملأ جوفَهُ في أثناءِ حديثِهِ عن أمّهِ، ثم أخذَ ذلك الصّوتُ يمتدُّ، وتعلو موجتُهُ في المقاطعِ التاليةِ لنسمعَ من خلالِهِ صوتَ أبي فراسٍ المتودّدِ والعاتبِ حيناً، والغاضبِ أحياناً أخر، فتراه ينهرُ سيفَ الدّولةِ (ها) ويعنّفُهُ ضمنَ موجةِ غضبٍ عارمةٍ، غلّفها بوابلٍ من النّداءاتِ الصّارخةِ، والاستفهاماتِ والحججِ شبهِ المنطقيّةِ، وطرائقِ الإقناعِ المتنوّعةِ، ليبدوَ في المقطعِ الأخيرِ أكثرَ هدوءاً وعقلانيّةً وقدرةً على السّيطرةِ، وتوجيهِ دفّةِ الخطابِ بما يخدمُ قضيّتَهُ، ويفحمُ خصمَه رغم حزنِهِ وحنقِهِ وغضبِهِ.

وهكذا نجدُ أنّ الألفاظَ انتظمَتْ في تراكيبَ تلاحمَتْ فيها المعاني النّحويّةُ بالأبعادِ النّفسيّةِ تلاحماً عضويّاً، وسرى خيطُ الحجاجِ تباعاً، فبدَتِ القصيدةُ ترجمةً وحجّةً لموقفٍ شعوريٍّ واحدٍ، هو الحزن، تجلّى في المقطعِ الأوّلِ تمهيداً يحيلُ إلى الحدثِ – الأسر– وانعكاساتِهِ على الشّاعرِ ووالدتِهِ، وفي المقطعِ الثّاني كان مدحاً وعتاباً لسيفِ الدّولةِ، ثمّ انعطفَ نحو الغضبِ والتّعنيفِ ومقارعةِ سيفِ الدّولةِ بأعمالِهِ، وفي المقطعِ الثّالثِ تنتهي القصيدةُ بظهورِ بوادرِ التّمرُّدِ، وإعلانِه شعوريّاً لا فكريّاً.

ويمكن توضيحُ السّلَّمِ الحجاجي والتسلسل الإقناعي والعاطفي للقصيدة ضمن الشكل الآتي:

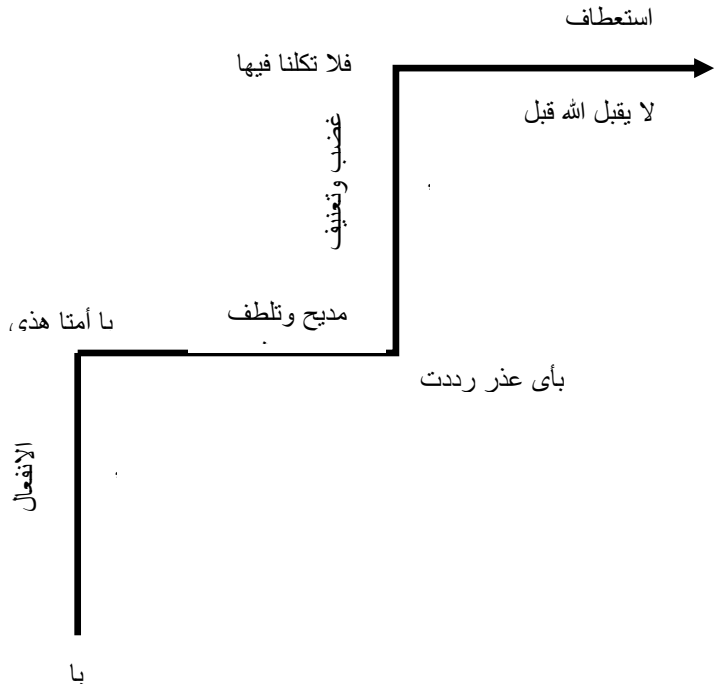
استعطاف
فلا تكلنا فيها
لا يقبل الله قبل
غضب وتعنيف
مديح وتلطف
يا أمتا هذي
بأى عذر رددت
الانفعال
يا

***

النّتائج

وختاماً خلص البحثُ إلى النّتائج الآتية:

- حاولَ الشّاعرُ تقويضَ الأسسِ الّتي بنى عليها سيفُ الدّولةِ قناعاتِهِ في عدمِ المسارعةِ إلى فدائه أو تحريرِه من الأسرِ، وتمكّنَ من توجيهِ رسالتِه الإقناعيّةِ لمحاججتِهِ متنقّلاً بين الاستمالةِ العاطفيّةِ حيناً من خلالِ صورةِ الأمِّ، والحجاجِ العقلانيّ والاستدراجِ بالتّلطُّفِ والعتابِ حيناً آخر، معتمداً طرائقَ الإقناعِ التّلميحيّةَ والتّصريحيّةَ وشبهَ المنطقيّةِ، ومنطلقاً من القيمِ المعروفةِ، ومعوّلاً على أهميّتِها، وسلطةِ حضورِها في المشتركِ الجمعيّ لمقارعةِ سيفِ الدّولة، جاعلاً الكرمَ و فداءَ الأسيرِ على رأسِ تلك القيمِ، انطلاقاً من خصوصيّةِ الموقفِ ولبِّ القضيّةِ الّتي يحاججُ لأجلها، قضيّةِ "الأسر". وسلّطَ الشّاعرُ الضّوءَ على صورةِ واقعِهِ في الأسر؛ لأنّها هي المتحقّقةُ، تاركاً للمتلقّي تخيُّلَ الصّورةِ المتضادّةِ معها، والمحذوفةِ من السّياق، والمفهومةِ ضمناً، وبذا يكون قد أشركَ المتلقّي في إنتاجِ نصّهِ.
- لم تتعارضْ طبيعةُ الشّعرِ التّخييليّةُ مع طبيعةِ الحجاجِ الإقناعيّةِ، والشّعرُ قادرٌ على الإقناعِ والتّأثيرِ شأنُهُ شأنُ الخطابِ النّثريّ، ويغلبُ عليه حجاجُ المنطقِ الطّبيعيّ الّذي يقومُ على الاحتمالِ لا الحجاجِ البرهانيّ أو اليقينيّ الصّارم.
- لم تتعارضْ حجاجيّةُ الشّعرِ مع الأسلوب الجماليّ والبلاغيّ والفنيّ في القصيدةِ، فقد كان يعمدُ إلى التّعبيرِ عن المعنى نفسِهِ بأكثرِ من صورةٍ أو أسلوبٍ لتعزيزِ حججِهِ، ونجحَ الشّاعرُ في توظيفِ الطّاقاتِ الإيحائيّةِ

للأدواتِ البلاغيّةِ كالاستفهامِ والنّداءِ والاعتراض وغيرِها من الأساليبِ البلاغيّةِ في قصيدتِهِ، و تمكّنَ من تحويلِها إلى فعلٍ منتجٍ ومؤثّرٍ ومقنعٍ، ما يعني أنّ تلك الأساليبَ ليست مجرّدَ حليةٍ شكليّةٍ، ويمكنُ للمبدعِ أن يحمّلَها المضموناتِ الفكريّةَ والقيمَ الرّوحيّةَ الّتي يسعى إلى ترسيخِها في ذهنِ المتلقّي ووجدانِهِ، محمّلةً برسائلَ إقناعيّةٍ وطاقةٍ حجاجيّةٍ قد تسهمُ في تغييرِ موقفِ المخاطبِ وإذعانِهِ أو على الأقلّ في إفحامه، عدا توظيفَ الصّورِ الفنيّةِ من تشبيهاتٍ واستعارات؛ لأنّها أساليبُ تخدمُ الحجاجَ، وتقوّيهِ، وتزيدُ نجاعتَهُ من ناحيةِ التّأثيرِ في المتلقّي واستمالتِهِ، وتثبتُ قدرةَ الشّاعرِ الفنيّةَ وشعريّتَهُ.

- تتداخلُ طرائقُ الحجاجِ وتتشابكُ في القصيدة، فقد ينطوي البيتُ الشّعريُّ أو العبارةُ على حجّةٍ شبهِ منطقيّةٍ، وفي الآن نفسِهِ يندرجُ ضمن الحججِ المؤسَّسةِ على بنيةِ الواقع، وذلك يرجعُ إلى مرونةِ الحجاجِ في الشّعرِ، واحتمالِهِ أكثرَ من تأويل، وانفتاحِ الدّلالةِ فيه، وقيامِهِ على الدّلالةِ الضّمنيّةِ وغيرِ المباشرةِ، لا على التّفسيرِ والوضوحِ والمعنى المباشر.

ويُوصي البحثُ بأهميةِ دراسةِ الرّوميّاتِ من خلال الأبعادِ المأسَاويةِ ؛ لأنّها تمثّلُ خطاباً مهمّاً جديراً بالدّراسةِ يمسُّ مسألةً وجوديّةً في حياةِ الإنسانِ بصورةٍ دائمةٍ ومؤثّرةٍ وهي الحريّة .

المصادر والمراجع:

- آليّات الحجاج وأدواته، عبد الهادي الشهري، بحث مقدم ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ٢٠١٠م
- الأبعاد الأساسيّة للشّخصيّة، أحمد حمد عبد الخالق، دار المعارف الجامعيّة،الإسكندريّة، ط٤، ١٩٨٧.
- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية، عبد العزيز لحويدق، بحث مقدم ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- الإنسان بين الواقع والنّهاية، عارف الطراوي، دار الحامد – الأردن،ط١، ٢٠٠٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.
- البلاغة العربيّة قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، لبنان، والشّركة المصريّة العالميّة للنّشر لونجمان، ١٩٩٧م.
- البلاغة والحجاج من خلال نظريّة المساءلة لميشيل مايير، بحث مقدم ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مجموعة باحثين، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، تونس.

- البيان في روائع القرآن، دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّصّ القرآنيّ، تمام حسان، عالم الكتاب الحديث، القاهرة، ١٩٩٣م.
- تاريخ نظريّات الحجاج، فيليب بروتون، وجيل جوتيه، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامديّ، مركز النّشر العلميّ، جامعة الملك عبد العزيز، ط١، ٢٠١١م.
- التجربة الإنسانية في روميات أبي فراس الحمداني، عبد المالك المومني، دار الكتب العلمية، ١٤٣١هـ.
- التّحليلُ التّداوليُّ للخطابِ الشّعريِّ، روميات أبي فراس أنموذجاً"، عمار لعويجي، أطروحة مقدمة لنيل الدكتوراه، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر،
- ٢٠١٦ م.
- التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.
- تواصلية الأسلوب في روميات أبي فراس الحمداني، عائشة عويسات، مذكرة نيل الماجستير، جامعة قاصدي مرباح–ورقلة، الجزائر،٢٠١٠م.
- جدليّة الإفراد والتّركيب في النّقد العربيّ القديم، محمد عبد المطلب مكتبة لبنان، لبنان، والشّركة المصريّة العالميّة للنّشر لونجمان، ط١، ١٩٩٥م.
- حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، الزماني كمال، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٦م.
- الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج–البلاغة الجديدة، عبدالله صولة، بحث مقدم ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مجموعة باحثين، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، تونس.

- الحجاج، البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، بحث مقدم ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- الحجاج في شعر أبي فراس الحمداني (قصيدة أناديك لا أخاف الردى)، زايد محمد ارحيمة الخوالدة، مجلة الأثر، الجزائر، مجلد (١٧) عدد (٣٣)، ٢٠١٠م.
- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عمان، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٨م.
- الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، عبدالله صوله، دار الفارابي، بيروت، ط٢،٢٠٠٧م.
- الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتى بن يونس، أحمد اتزكنرمت، بحث مقدم ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- الحجاج في هاشميّات الكميت، سامية الدريديّ، سامية، حوليّات الجامعة التّونسية، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ١٩٩٦م
- حجاجية الخطاب في إبداعات التوحيدي، أميمة صبحي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان،ط١، ٢٠١٥م.
- حجاجيّة الصّورة في الخطابة السّياسيّة لدى الإمام عليّ، كمال الزماني، عالم، عالم الكتب الحديث، إربد،ط١، ٢٠١٢م.
- دراسات في النّصّ الشّعريّ – العصر العبّاسيّ، عبده بدوي، منشورات مكتبة الشّباب، ١٩٧٧م.

- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس ط٢، مكتبة الأنجلو المصريّة،ط٢، ١٩٧٦م.
- الديوان، أبو فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهيّ، دار الكتاب العربيّ،ط٢، ١٩٩٤م.
- شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ حتّى القرن الثّامن الهجريّ، جودت فخر الدين، دار الكتب، ط١، ١٩٨٤.
- صورة سيف الدّولة في شعر أبي فراس الحمدانيّ (دراسة موضوعيّة وفنيّة)، محمّد بن يحيى آل عجيم، بحث تكميليّ لنيل الماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٩م.
- علم النّفس، جميل صليبا، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- عندما نتواصل نغيّر، عبد السلام عشير، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، ٢٠٠٦م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثّقافيّ العربيّ، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م.
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانيّ، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، والشّركة المصريّة العالميّة للنّشر لونجمان، ١٩٩٥م.
- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٠.
- المفارقة في الشّعر العربيّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ناصر شيانة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، دار فارس، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.

- مفهوم الحجاج عند بيرلمان، محمد سالم الأمين، بحث مقدم ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم بن حسن القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب، القاهرة، دار الكتب الشرقية، ١٩٦٦م.

***

صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ

د. وائل بن يوسف العريني
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ

د. وائل بن يوسف العريني

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ٨/ ٢/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٤/ ٦/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

يرصد البحث رحلة الأديب الشيخ علي الطنطاوي إلى المملكة العربية السعودية بعد توحيدها بعام واحد، إثر دعوة تلقاها أعيان الشام من جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله، وهذه الرحلة نشرت في الصحف وقت الرحلة، ثم أعاد الكاتب كتابتها تذكراً في ذكرياته بعد نصف قرن.

وينطلق البحث من زاوية النظر الأنثروبولوجية ومنهج النقد الثقافي، لتلمس الأنساق المختلفة في البلاد السعودية وكيف اطلع عليها الكاتب وكيف رصدها، كما أن هذا المنهج يتيح للباحث قياس مستوى التمايز بين الذات والآخر وأوجه اللقاء والاختلاف وكيف تعامل الكاتب مع كل ذلك.

كما أن الكاتب، وهو الأديب المعروف، قد استعمل عددا من التقنيات الأسلوبية التي أسهمت في تشكيل رؤيته للأنساق وإحساسه بها، وقد راوح بين هذه المستويات مبدعا حينا، وخارجا عن سياق الرحلة حينا آخر.

وقد خلصت الدراسة إلى استجلاء شكل التطور الأولي للملكة، ومستويات العلاقات الاجتماعية، والتغير الذي حدث للمجتمع بعد توحيد المملكة حتى بدت المملكة في خضم تشكيل هوية متجانسة ملتفة حول جلالة الملك عبدالعزيز وأجهزته الإدارية التي أنشأها.

آمل أن تكون هذه الدراسة مسهمة في قراءة مشهد المملكة العربية السعودية في حقبة مهمة من حقب تأسيسها وإرساء دعائمها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في يومها الوطني الحادي والتسعين.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، الآخر، علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، النسق.

Al Jazeera's picture in Sheikh Ali Tantawi's journey During the establishment of the Kingdom of Saudi Arabia in 1934 AD

Dr. wael yuseef aloraini
Department Rhetoric, Criticism and the Method of Islamic Literature
Faculty Arabic Language
Imam Muhammad Bin Saud Islamic university

Abstract:

The research traces the journey of the writer Sheikh Ali Al-Tantawi to the Kingdom of Saudi Arabia a year after uniting the whole kingdom, following an invitation received by the notables of the Levant from His Majesty King Abdulaziz, may God have mercy on him. This journey was published at the time of the journey. also, the writer documented this journey again in his novels a half-decade from returning .

The perspective of the research is to demonstrate two methodologies one anthropological point of view and a cultural criticism approach, in which the writer observed how abroad the cultural differences in the kingdom. Moreover, this methodology allows the writer to notice the differences in cultural behaviours, and how he dealt with all these cultural differences .

The writer in his journey used different methods, which, contributed to having a clear perspective and vision, which reached out to the feelings that enable him to live the moment between the journey and the study.

The conclusion of the study is to clarify the development of the Kingdom, and the levels of social relations. In addition, the transformation that occurred to the society after the union of the Kingdom and due to great leadership by his majesty King Abdulaziz and his appointed directors. As a result, the mission of a great kingdom has started from the foundation of all government departments to the development of the railroad of the country, which connected the main cities in the Hijaz region to the Two Holy Mosques

I hope that this study will contribute to illustrating the situation in the Kingdom of Saudi Arabia in an important era from the foundation of the kingdom until today the - 91st Saudi National Day.

key words: Cultural criticism, Alterity, anthropology, syntagme- ordre.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتعد الرحلة نافذة مهمة للاطلاع على الآخر وقراءته في بلاده في عدد من تشكلاته الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها، لتقرأ شكل الذات كما يراها الآخر ويعايشها ويقرأ تنوعها الاجتماعي في مختلف شرائح المجتمع قادة ومثقفين وعامة.

ولأهمية مرحلة تأسيس المملكة في تشكيل حاضرها المزدهر فقد انطلق الباحث ليبحث عن مدونة مناسبة لتلك المرحلة، حتى وقع الاختيار على تلك الرحلة الفريدة التي قام بها الأديب الشيخ علي الطنطاوي مع ثلة من أعيان الشام في تلك الفترة عام ١٣٥٣هـ، بدعوة من جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه، وكان من مميزات الرحلة ومحفزات دراستها طرافتها في الفكرة والأهمية والسبب، وكونها جاءت استجابة للدعوة والاستضافة، بالإضافة لشكل المدونة التي راوحت بين التدوين المحايث/ الآني، والتدوين التذكري بعد نصف قرن، بعد أن تطورت المملكة ونشأت المدن الحديثة، وأصبح الكاتب شاهدا على عصرين وراسما التطور بدقة حسب ما رآه وعايشه.

ومدونة البحث التي اعتمدها الباحث تنقسم إلى قسمين، قسم دونه الرحالة في وقت الرحلة وبعدها بقليل وأودعها في مجلة الرسالة ثم طبعها في كتاب (من نفحات الحرم)، والقسم الثاني المدونة التي كتبها تذكّرا بعد نصف قرن، وتحديدا في الأعوام التالية لعام ١٤٠١هـ، ونشرها تباعا في جريدة

المسلمون ثم جريدة الشرق الأوسط، ونشرها ضمن كتابه الكبير (ذكريات)، وجاءت الرحلة كاملة في الجزء الثالث من الكتاب المذكور.

وبعد بحث وجدت عددا من الدراسات العلمية بعضها يدرس الرحلة وغالبها لا يتجه إلى هذه المدونة، وهذه الدراسات هي:

١- أدب الرحلة عند الشيخ علي الطنطاوي: دراسة موضوعية فنية، وهي من إعداد الدكتورة أحلام الوصيفر، وقد طبعت لاحقا في كتاب عن نادي الأحساء الأدبي عام ١٤٣٦هـ.

وهذه الدراسة تتجه إلى دراسة جميع رحلات الشيخ وخاصة الرحلات العملية إلى العراق ولبنان ومصر، ورحلة التعريف بالقضية الفلسطينية إلى شرق آسيا، بالإضافة إلى رحلته إلى الجزيرة العربية موضوع الدراسة.

وكما هو العنوان فإن الدراسة في النقد الأدبي بتحليل المضامين تربويا وعلميا، والأدوات الفنية من الناحية الإنشائية (الفضاء والشخوص والسرد) والفنون البلاغية.

ومن هنا يفارق هذا البحث تلك الدراسة في المنطلقات والنظرة الخاصة والتركيز على الدراسة النسقية وتحليل المضامين أنثروبولوجيا.

٢- النص الرحلي في كتاب من نفحات الحرم لعلي الطنطاوي: تجلياته وجمالياته، للباحث: الدبيسي، محمد إبراهيم، وقد نشر عام ٢٠١٠م، وهو بحث قصير يتجه إلى الجانب الأدبي الجمالي ويدرس جانبا من الرحلة غير مكتمل لاسيما وأن كتاب من نفحات الحرم لا يعرض كل ما كتبه

الطنطاوي عن الرحلة، إذ عاد إلى الذكريات وأعاد تذكر الرحلة وعقد مقارنة بين واقع المملكة وقت الرحلة ووقت التذكر.

٣- ذكريات علي الطنطاوي (دراسة فنية)، للباحث الدكتور: أحمد علي أحمد آل مريع العسيري، وهي رسالة ماجستير أنجزها الباحث في جامعة أم القرى عام ١٤١٩هـ، وطبعها الباحث فيما بعد في كتاب بعنوان (علي الطنطاوي كان يوم كنت). والدراسة إنشائية تتجه إلى دراسة الكتاب بوصفه سيرة ذاتية للكاتب ولم تتطرق للجوانب الثقافية بشكل واضح.

٤- علي الطنطاوي وآراؤه في الأدب والنقد: رسالة ماجستير للباحث رائد السمهوري، وهي مطبوعة في كتاب يحمل نفس العنوان، والدراسة تتجه لجمع آراء الطنطاوي ودراستها بالإضافة لفصل كامل عن حياة الكاتب، وهي دراسة في نقد النقد.

٥- القصة في أدب الشيخ علي الطنطاوي: دراسة نقدية، للباحث الدكتور وائل العريني، وهي رسالة ماجستير أنجزها الباحث في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٣٢هـ، وتتجه إلى فن القصة عند الطنطاوي وفق المنهج الإنشائي.

٦- التشبيه في ذكريات علي الطنطاوي: دراسة بلاغية نقدية، للباحث: إبراهيم بن عبدالله المجلي، وهي رسالة ماجستير أنجزها الباحث في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٣٥هـ، وهي دراسة بلاغية.

وتنطلق هذه الدراسة الموسومة بـ(**صورة الجزيرة في رحلة الشيخ علي الطنطاوي إبان تأسيس المملكة العربية السعودية: مقاربة نسقية**) من

مناهج تحليل الخطاب اللساني بوجهة نظر ثقافية (أنثروبولوجية)، إذ اللسانيات (الأنثروبولوجية) مصطلح يدل على تحليل الخطاب اللغوي في سياق علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، والنظر للخطاب بوصفه ممارسة ثقافية يمكن دراسته واستنباط الأنساق منه(١).

وتقوم اللسانيات (الأنثروبولوجية) على افتراض علمي يتلخص في عد اللغة ثروة ثقافية وتتشكل من خلال الكلام/ الخطاب لتكون ممارسة ثقافية بدلالاتها وطريقة بنائها وأنساقها المضمرة أو الظاهرة، واللغة والخطاب وجوه ثقافية للإنسان الاجتماعي(٢).

ومن خلال تحليل الخطاب نتوصل إلى تحليل الثقافة وأنساقها المختلفة، انطلاقا من أن اللسانيات بمناهجها المختلفة مفاتيح يعبر من خلالها الباحث من بحث اللسان إلى ما قيل عبر اللسان وتفاعلاته تلك في أي وجه معرفي أو ثقافي كان(٣).

وقد قامت الدراسة على تمهيد ومباحث ثلاثة، حيث اتجه التمهيد إلى صنع توطئة للمدونة تقرأ طبيعة الفن الرحلي وما يتعلق به من مشكلة التجنيس والانفتاح على الأجناس واشتمالها إن جنح إليها الرحالة، ثم أهمية الرحلة وباعثها.

---

(١) ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية، ألسندرو دورانتي، ص ٢١.

(٢) ينظر: نفسه، ص٢٢.

(٣) اللسانيات الأنثروبولوجية، جواد التميمي، ص ٤٤.

وجاء المبحث الأول لدراسة النسق السياسي في المملكة، وقد قدمته لكونه الباعث الأساس وسبب الرحلة، ولأن الرحالة يرصده في بداية كل مرحلة أو دخول أي مدينة، فيما جاء المبحث الثاني لدراسة النسق الاجتماعي بوصفه صورة أظهر لشكل الحياة وطبيعة المواطن السعودي في تلك الحقبة وما توافر عليه من عمل ومهام وما اشتملت عليه العلاقات من طوابع اجتماعية وعلاقات مع الآخر. فيما جاء المبحث الثالث لدراسة النسق الثقافي وطبيعته وأهميته، خاصة وأن الرحالة ممتلئ بهذا الشغف باحث عنه، لا يترك فرصة ثقافية إلا انتهزها وبحث عنها وتأمل فيها.

وفي الختام جاءت الخاتمة لتجمل أهم نتائج البحث وتوصياته حسب رؤية الباحث المجتزأة مما يتيحه المقام ويمكن إنجازه في هذا الوعاء البحثي.

آمل أن أكون وفقت في رسم صورة الأنساق ورصدها كما ظهرت في حينها أمام الكاتب وأصحابه، وأن يكون هذا البحث لبنة من لبنات الرصد الاجتماعي والثقافي لتاريخ المملكة العربية السعودية.

والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

الرحلة الفن والتجنيس:

تتشكل رحلة الشيخ علي الطنطاوي إلى المملكة العربية السعودية من عدد من النصوص المتناثرة في أكثر من سياق على امتداد زمن التدوين بين عامي ١٣٥٣هـ وقت الرحلة، حتى عام ١٤٠٢هـ آخر كتابة روى فيها الشيخ بعض مذكراته عنها.

ومن حق هذا الامتداد الطويل ألا يكون ضمن بناء نصي واحد، ولا فن من فنون الكتابة الرحلية حسب ما يعرف من الرحلات وأدبها [١]؛ إذ رحلة الشيخ علي الطنطاوي تنطلق من فن المقالة تحديداً، لتتشكل فيها الرحلة على شكل حلقات متتابعة حينا، وحلقات تذكّرية حيناً آخر، وتبثّ هذه الحلقات في عدد من الأوعية الثقافية التي كان يشارك فيها الشيخ علي الطنطاوي، فمن مجلة الرسالة المصرية، التي كان يرسل إليها المقالات وهو في المملكة، وتكتسب فيها الكتابة ميزة المعاصرة والمحايثة والرصد المباشر الدقيق، إلى وعاء النشر بعد الرحلة في المقتطف والرسالة وغيرها من مجلات مصر والشام وصحفهما. ثم بعد أن دار الزمان وانتقل الشيخ إلى المملكة معلماً ثم مقيما أصبح ينشر في جرائدها (البلاد، المسلمون، الشرق الأوسط).

---

(١) يعرف أدب الرحلة بأنه: "كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده، وعاشه من أحداث، مازجاً ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم". الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، محمد الحاتمي، ص١٨.

وتأسيساً على هذا التناثر في البناء النصي للرحلة فإن هذه الطبيعة الأدبية لموضوع رحلة الطنطاوي إلى المملكة يكتسب خصوصية ظاهرة لهذا التدوين، وملامح متنوعة لهذه الفصول أو المقاطع أو المرئيات أو الذكريات، كما أننا نلمح تبايناً حتمياً في المستويات الخطابية تبعاً لتطور الأديب وتقدمه في السن، وانتقال أسلوبه للخبرة، وما يتبعه من انتقال المشاهدات من الحضور إلى التذكر، والتفاصيل من الرؤية القريبة إلى الطيف والذكرى. ومن المعايشة المباشرة الآنية، إلى المقارنة المتأخرة بين ماضي المكان وحاضرة، وماضي التنظيم وتطوره، وعادات الآخر/ السعودي وثباتها أو تحولها تبعاً لتطور البلاد والحياة وتقدم الزمان.

إن بناء رحلة ثرية في شكل مقالات ممتدة زماناً وفكرة ووعاء ومسوغاً؛ ليحتم على الكاتب أن يعدد زوايا النظر، ويكثر تكرار المواقف استنباطاً لحكم وحكمة وعادات وأحوال غابت في مقالة لتظهر في أخرى، وغفل عنها في شبابه ليتذكرها في كهولته أو شيخوخته، وهذا ما سيفسر الكثير من التنوع والتمايز بين تشكيلات الموقف الواحد حين ترد في ثنايا هذا البحث بحول الله.

ومن مربكات التجنيس، أو مزاياه، أن الطنطاوي لا يلتزم بكتابة الرحلة/ السرد، بل يطعمها بمباشرة المقالة وتوجيهها، فيعلق، ويوجه، ويستوقف القارئ لينبهه على الاختلاف والتميز على مستوى التنظيم، أو الثقافة، أو الأخلاق والعادة، كما أنه في أحيان كثيرة ينبه القارئ، في الكتابة التذكرية المتأخرة زمنياً، إلى التحول الحضاري والتنظيمي الذي شهدته المملكة في وقتها

الراهن، راهن الكتابة بالطبع، عن ذكرى الرحلة الأولى، ليدعو المواطن السعودي إلى حمد الله وتذكر النعمة والمحافظة عليها في وجه من أوجه التوجيه الأبوي والنصح الديني الذي عرف به الشيخ في مختلف منابر الإعلام التي شارك فيها وأثراها.

وأمر آخر تختلف فيه رحلة الطنطاوي/ الموضوع، عن أدب الرحلة/ الجنس، أن هذه المقالات تُقتطع كثيراً لظروف النشر أو دواعي المناسبات المختلفة التي يلتفت إليها الكاتب أو تطلبها منه الصحيفة أو المجلة، ومن ثم نجد شكلاً خطابيا مميزا لكتابة الطنطاوي يتمثل في القطع والاستئناف والتذكير بالمرحلة السابقة التي وقفت عندها المقالة، ليستأنف منها ويكمل الرحلة أو يتمم فكرة وكأن الكاتب يفترض في المتلقي أن يحفظ المقالة ويحتفظ بها ليصل ما انقطع ويراجع درساً تعليميا.

ومن شأن المقالة أيضاً أن تلتفت للمتلقي بصورة أظهر من الكتابة الارتحالية المكتملة في جسد واحد، فالطنطاوي يجيب عن الأسئلة الواردة بعد الحلقة الماضية من حلقات الرحلة[1]، ويتنبه إلى تفاصيل لم يقلها بعد أن ذكره

(١) بدأ الطنطاوي الكتابة في مجلة الرسالة في ١٣٥٢/٨/١٦هـ. كان يكتب مقالتين في الشهر، وبينهما تصله مكاتبات القراء وردودهم إما في مكانه في دمشق، أو عبر الرسالة حيث كان الزيات يفرد صفحة للقراء في مخاطبتهم للكتاب سؤالا أو استدراكا أو اعتراضا أو غير ذلك. وفي وقت لاحق كان الطنطاوي يكتب في جريدة المسلمون والشرق الأوسط أسبوعياً، ويصرح كثيراً بتواصل الجريدة معه هاتفياً لنقل رسالة أو رجاء أو غير ذلك، بالإضافة للرسائل التي ترد إليه من القراء مباشرة وقد كان معروف مكان الإقامة، وله عنوان مباشر عبر تلفزيون مكة وكان يسجل الحلقات الإذاعية فيه بشكل أسبوعي طوال السنة، ويومي في رمضان. ينظر: الذكريات، ٣٢/٣.

أحدهم أو سأله فتذكر هو بنفسه، وهذه العناية بالمتلقي تحيل الرحلة من بناء مغلق ونص أدبي مكتمل، إلى جسد ينمو ويتفاعل، وتتدخل فيه يد المزيّن وربما عالجته يد الطبيب وشفت جراحه.

أخيراً فإن من الاختلافات بين الرحلة التامة ورحلة الطنطاوي المنجّمة المتقطعة زماناً ووعاء تلك اللفتات الاستطرادية التي عرف بها الطنطاوي، وهذه من السمات الخطابية الحاضرة في أدب الشيخ، فتبدأ المقالة بتذكر وما تلبث أن عادت للواقع وانحرفت عن عنوانها المثبت في بدايتها، فيحدث الإخلال بالوعد الضمني وتستحيل المقالة أحياناً إلى حديث عن الراهن المختلف تماما عن هدف الرحلة وهذا يرد خاصة في كتاب الذكريات ذي الخصوصية البنائية العجيبة، فالشيخ يصرح بأن كثيراً من مقالات الذكريات؛ لكبر سنه وعجزه عن الكتابة، كان يمليها إملاء من ذهنه على الكاتب عبر الهاتف، وهذا يجعله يغفل عن العنوان ويستطرد، ويستجيب للتداعي الحر دون سياج المقالة المكتوبة التي تتقيد بمساحة بيضاء إمامها العنوان وقيدها المساحة وعدد الأوراق (١).

إن خصوصية هذه الرحلة على جانب الموضوع، وجانب البناء الفني، والامتداد التاريخي للتدوين؛ لتجعلها ذات أبعاد متشعبة ثرية، يمكن من خلالها الوقوف على الكثير والكثير من التفاصيل المهمة على مستوى العادات الاجتماعية والتنظيمات السياسية بين مملكة الأمس ومملكة اليوم،

(١) ينظر: الذكريات، ٣/٢٣٩-٢٤٠.

وامتيازها يأتي أولاً من طبيعتها نشأة وتفاصيل وسبباً ونوعا، ومن كاتبها المتميز ثانياً، ومن رعايتها على أعلى مستوى رسمي في المملكة ثالثاً، حتى استوت كلاً متكاملاً يمكن أن يدرس ويحلل في مستوياته الخطابية المتنوعة وأبعاده المختلفة تأثيراً وتأثراً.

أهمية الرحلة: التزمين وأهمية المرحلة:

ينطلق الرحالة في هذه الرحلة عام ١٣٥٣هـ، أي بعد عامين فقط من تغيير اسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ليصبح: **المملكة العربية السعودية**، وبعد بضعة أعوام من توحيد المملكة [١]، ومن هنا تأتي أهمية الرحلة في الجانب الزمني منها، إذ يفد الرحالة وصحبه على المملكة وقد توحدت أطرافها واستقرت قيادتها[٢]، ليكونوا من أوائل الوفود المدعوة إلى زيارة المملكة والحرمين الشريفين، ولنلمس من خلال هذا الوفد أبرز التغيرات التي حدثت

(١) ضم جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه الحجاز بين عامي ١٣٤٣-١٣٤٤هـ، واستكمل ضم الأجزاء الجنوبية من المملكة عام ١٣٤٩هـ. ينظر: تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله العثيمين، ١/ ١٩٠-٢٠١، و ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) من مظاهر استقرار الدولة العناية بالحدود وتسمية الدولة، وقد ذكرت أن اسم المملكة قد تغير إلى المملكة العربية السعودية بعد الاسم القديم (مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها) قبل عامين من الرحلة، وقد يظن الظان أن هذا التغيير سيحتاج لأعوام حتى يسجل على اللافتات مثلا، لكن الطنطاوي ذكر صراحة شكل الحدود ولوحة تذكر اسم المملكة: "**لقد رأينا خطا ممدودا فيه السلك الشائكة، وفي وسطه لوحة مكتوب عليها (المملكة العربية السعودية)، فعلمت أني قد وصلت إلى ديار الأمان...**". ذكريات علي الطنطاوي، ٣/٧٢.

للطريق والبلدات والمدن السعودية التي عرفها الوفد أو بعضهم قبل تلك الحقبة التاريخية أو سمعوا عنها.

كما أن الرحالة وصحبه قد قدموا صورة وافية للمدن التي زاروها من حيث التركيبة السكانية، ونوع العمران فيها، ووفدوا على أميرها فوصفوا شكل الضيافة وقصر/ بيت الإمارة، ومقدار الحفاوة السعودية بالعربي المرتحل، وبدت في أفعال السعوديين كلهم -حسب إفادة الرحالة- ملامح البشر وسعادة اللقاء بالآخر العربي الذي جاء تلبية لدعوة جلالة الملك عبدالعزيز، وقصد بيت الله الحرام ومسجد الرسول ﷺ ، ومجمل هذه المشاهد يؤرخها الرحالة بالعام والشهر، وأحيانا يرصد اليوم أيضا، وهذا رصد مهم لما كانت عليه المملكة في تلك المرحلة المبكرة، وما كان فيها من أنظمة استقبال الضيوف مكتوبة كانت أو عرفية وقد توافرت الرحلة على جملة وافرة منها.

وإلى جانب أهمية الرحلة من الجهة التاريخية، فإن هذه الرحلة تقدم لنا تفصيلات كثيرة ليوميات القافلة بسبب طول المسير وكثرة التوقفات، إذ أمضت القافلة من دمشق إلى مكة ثمانية وخمسين يوماً وقطعوا من المسافة ما يزيد على خمسة آلاف كيل[1]، بكل ما فيها من وفود على الأمراء والقائمين بأعمال الإدارة والأمن في المدن والقرى الممتدة من تبوك القريات شمالا (وهي أول قرية دخلها الرحالة وصحبه) إلى مكة أقصى مرحلة وصلتها القافلة في رحلتها، وهذه الانتقال الطويل بين القرى والبادية والجبال والسهول قد آتى

(١) ينظر: من نفحات الحرم، ص ٧٦ و: ذكريات، ٥٣/٣. وفي نفحات الحرم ذكر الكاتب أنهم أمضوا في الرحلة شهرين اثنين، والتحديد بالأيام أدق.

أكله وصفاً ورصداً وتحليلاً، بل لقد أجمل وفصل الرحالة أشكال العادات الاجتماعية والثقافية ومكونات المجتمع، وشكل العلاقة بين الحاكم والمحكوم ومكونات المدن والقرى، وربما عرج الرحالة على بعض الطرائف والملامح الحضارية في بعض القرى والمدن كما فعل أمير العلا باستعمال عربة من عربات القطار الحجازي لنقل الضيوف من المدينة إلى مكان الضيافة خارج المدينة[١].

ومن الملاحظ في تدوين الرحلة أن الرحالة لم يتبع نمطا محددا في تنجيم المقالات وعنونتها، فهو مرة يعتمد الانتقال المكاني، فتكون الحلقة الواحدة لرصد سردية العبور[٢] من مكان إلى مكان، ومرة يرصد المشاهدات في عنوان صحفي الهدف منه جذب القارئ ولفت انتباهه[٣]، ومن خلال ذلك يمكن النظر إلى مدونة الرحلة الممتدة في ضوء هذا التنوع بحسب انطباع الرحالة ووعيه بمدونته ذات الرؤوس المتعددة، كما أن الباحث يمكنه أن يرصد انطباع

---

(١) من نفحات الحرم، ص ١٣٦.

(٢) في الرحلات هناك نمطان سرديان هما، سردية العبور وسردية الوصول، فسردية العبور هي: **تصوير عبور الرحالة في البلاد وانتقاله في رحلة فعلية، ويمتاز بالسرعة في السرد وطي الزمان.** ينظر: الرحلة في الأدب العربي، د. شعيب حليفي، ص ٢٣٠-٢٣١. ومن شأن سردية العبور أن تكون حركة الزمن فيها أكبر من حركة الأحداث والمشاهدات لأن الرحالة يستعمل تقنية الطي الزمني.

(٣) من العنوانات مثلا: وقفة في العقيق، المنزل الأول للبشر، في ساحة الإعدام، فر من الموت وفي الموت وقع، خروف برأسه، نومة في المملحة، في جوف حمار. ينظر: من نفحات الحرم، ص ٢٧، و ٤٦، و ٦٣، و٨٠، و٩٢، و٩٦، و١٠٨.

الرحالة من العادات وبعض المفارقات منذ العنوان الذي يمثل عتبة[1] دخول إلى الرصد الثقافي والنسق الاجتماعي الأبرز عند الذات حسب ما رآه الرحالة واختزنه في ذاكرته، خاصة في التدوين المتأخر في الذكريات.

أخيرا فإن هذه الرحلة تتميز بأنها رحلة تضم عددا من وجوه وأعيان الدولة السورية الذين انتقاهم ممثل الملك عبدالعزيز في سوريا الشيخ (ياسين الرواف) وهو البصير بالقطر الشامي ورجالاته وقد نشأ فيه، كما أنه سعودي يعرف البلاد السعودية وما يمكن أن يمر بالرحالة وصحبة من مصاعب؛ لذا فإن هذه القافلة بهذا التشكيل المتنوع وفق تميز ثقافي وفكري وتعليمي جعل الرحلة ثرية في المشاهدات والمواقف وإن استأثر الرحالة بمعظم تلك المشاهدات، لكنه يشير أحيانا إلى مواقف أصحابه فيسخر منهم حينا أو يرصد المفارقات حينا آخر، وكل ذلك يرجع إلى طبيعة المرتحلين ومرجعياتهم الثقافية والاجتماعية وما تعودوا عليه؛ لنقف في النهاية عند منجز أدبي وثقافي جدير بالتحليل والتمعن.

---

(١) مصطلح العتبة مصطلح بنيوي وضعه الناقد الإنجليزي جيرار جينيت في كتاب له بهذا العنوان (seuils 1987م)، وهو مصطلح ينصرف إلى عدد من المداخل للنص منها العناوين والإهداء وغير ذلك. ومن وظائف العنوان عند جيرار جينيت التعيين، وتحديد المضمون، وإغراء الجمهور. ينظر: عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبدالحق بلعابد، ص ٧٤ .

بواعث الرحلة:

الباعث العام

ينطلق الرحالة وصحبه في هذه الرحلة استجابة لدعوة قدمها لهم جلالة الملك عبدالعزيز ﷺ لزيارة المملكة وتحديدا الحرمين الشريفين، بعد توحيد الجزيرة وإطلاق اسم المملكة العربية السعودية عليها، وقد قدم هذه الدعوة معتمد الملك في الشام سابقاً الشيخ ياسين الرواف ﷺ [1]، ودعي لها عدد من أهل الشام ورجالها المشهورين، وقد وضع لها هدف محدد وهو فتح طريق للسيارات يربط دمشق بمكة، وهذا الهدف كان "**يومئذٍ حلما من الأحلام**"[2].

ومن شأن هذه الدعوة أن تغري أي رجل بالمسير، بما فيها من وجاهة الداعي (جلالة المؤسس)، وفخامة الوسيلة (المعتمد بمثابة سفير أو قنصل على الأقل)، فهي إذن دعوة كريمة لا يملك معها المدعو إلا التشوف والشوق للبدء في هذه الرحلة.

يضاف إلى هذا المحفز على قبول الدعوة كونها دعوة جماعية، دعي لها وجهاء الشام من المعلمين والعلماء والتجار وغيرهم، وكل من دعي إليها يغتبط بهذا الاختيار الخاص وهذه التجربة الفريدة التي على وشك الحدوث.

ومن خصوصية الدعوة أن تكون دعوة للارتحال بالسيارات، لتكون القافلة أول قافلة تطأ الجزيرة العربية وتتجه للحرمين بالسيارات، وفي هذا ما

---

(١) ينظر: ذكريات علي الطنطاوي ٣/٥٥.

(٢) السابق، ٣/٥٦.

فيه من التحفيز على السبق الخاص، واستعمال وسيلة جديدة لم تعهد من قبل.

لقد كانت هذه الدعوة من أعلى سلطة في الجزيرة العربية بعد توحيدها واستقرارها، وأوصلها ممثل الملك في الشام، واقتُرِحت فيها الوسيلة الناقلة، محفزات عامة لجميع أفراد الرحلة الذين لم يترددوا في قبول الدعوة والتجهز لها، والتشوف ليوم الانطلاق الذي تأجل كثيرا بسبب بعض المعوقات المادية أو حتى الأسباب الشخصية الطريفة كما سيأتي.

الباعث الخاص

أما على مستوى كاتب الرحلة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله فقد انطلق في هذه الرحلة من باعث خاص يضاف إلى الباعث العام الذي يستوي فيه كل أفراد الرحلة من الوجهاء الآخرين، وهذا الباعث هو الباعث الدينية وتحديدا العاطفة الدينية التي نشأ عليها الشيخ، يقول: "**ما إن عرض علي الشيخ ياسين** رحمه الله **الأمر حتى وافقت، وافقت بلا تفكير، تصورت أني أتوجه كل يوم خمس مرات إلى الكعبة، وبيني وبينها الآماد البعاد، والجبال والرمال، والمسافات الطوال، فأحن إليها، ويهفو قلبي على البعد إليها، فهل أستطيع وقد عُرض علي الوصول إليها والطواف بها، والتعلق بأستارها، أن أقول لا؟...**"[1].

واستمر الرحالة يؤكد هذه المعاني على الرغم من صعوبة هذه الرحلة عليه وعلى وضعه الاجتماعي ومسؤولياته الكبرى وهو اليتيم الذي يتولى أمر أسرته نفقة ورعاية وحماية.

كما أنه وافق على المسير في هذه الرحلة لأنه يظنها أمنية لن تتحقق[2]، ولم يشأ أن يرد هذه الدعوة التي خصه بها صديقه الشيخ ياسين الرواف، وهو الذي عرفه من قبل ودعاه ليخطب في المعتمدية مما أغضب منه أهل بلده حينا من الدهر[3].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٣/٥٧-٥٨.

(٢) ينظر: نفسه.

(٣) ينظر: نفسه، ٣/٥٥.

إن موافقة الطنطاوي على المضي في هذه الرحلة إذن يكتنفها الشك مع الرغبة الملحة، ويضاف إلى ذلك تلك المزية التي اختص بها الكاتب دون غيره وكان يومئذ من أصغر أفراد الرحلة [1]، مما يجعل الطنطاوي يمضي إليها مغتبطا بالهدف وسبب الاختيار وداعي التميز فيها المتمثل في نوع الرحلة والداعي لها ووسيلتها وما يمكن أن تحرزه للمجموعة من السبق والريادة التاريخية التي لن تنسى.

لقد جاءت بواعث الرحلة العامة والخاصة محفزا لنجاح الرحلة وإحدى أسباب قيامها الناجح، وأثمرت من ثم حدثا تأريخيا واجتماعيا وأدبيا، وكانت مادة هذا الحدث ثرية على المستوى السياسي والاجتماعي والتنظيمي والأدبي، وكانت فاتحة خير للرحالة وصحبه، كما أنها سهلت شق طريق الشام من مكة المكرمة وآتت أكلها بعد حين، وأثبتت أن السيارات يمكن أن تصل إلى مكة المكرمة وتختصر الزمن لنقل الحجاج وضيوف بلد الله الحرام

(١) الرحلة انطلقت عام ١٣٥٣هـ وعمر الكاتب ٢٦ عاما فقط.

المبحث الأول: النسق السياسي[١]:

كانت المملكة العربية السعودية وليدة أعوام قليلة حين زارها الكاتب إذ لم تتوحد جغرافيا إلا قبل الزيارة بثمانية أعوام تقريبا، وقد اكتست باسمها المميز قبل عامين فقط من الزيارة[٢]، ومن شأن هذا التأسيس أن يغري الكاتب

---

(١) يطلق النسق (بالفرنسية syntagme, ordre) في بعض السياقات ليدل على النظام الكامن غير المعلن، وقد يكون النسق اجتماعياً وثقافياً أو سياسياً أو لغوياً أو جمالياً أو غير ذلك. ولكل نسق وظيفة يؤديها غالبا في بيئة النص أو المؤلف ومجتمعه أو عند الآخر ومجتمعه. ينظر: قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، ص ١٦١.

وفي الدراسات الثقافية تحديدا يقدم النسق وظيفة كبرى في كشف الأنظمة القارة في المجتمعات الإنسانية، التي يتواضع عليها الأفراد دون اتفاق معلن، وتنتظم في ضوء ذلك الكثير من التفاصيل الحياتية لديهم، في بناء الأسرة وتقاليد الضيافة وشكل الأحكام العرفية العامة، كما أن النسق يحكم الممارسات الثقافية التعليمية والتثقيفية، ويجري من خلاله نقل المعرفة غير المدونة وغير ذلك.

ويحتاج النسق غير المعلن، وهو الذي يعني الدراسات الثقافية تحديداً، إلى عمق في المعايشة أو تحليل الخطابات الشفاهية والمكتوبة؛ إذ يكمن السياق أحيانا بين السطور ومن خلال خطوط التماس، ويقدم الراصد الاجتماعي هذه الأنساق بوعي أو بغير وعي من خلال رصد المشاهد ونقل الأحداث وتصوير بعض المظاهر والمناسبات، ومن ثم يقدم المشاهد/ الرحالة في حالتنا هذه، جملة من الأنساق الاجتماعية عند المجتمعات المرتحل إليها، وربما كانت هذه الأنساق مخفية قصدا عن المختلف الوافد لا تكشفها إلا الأحداث والمواقف والمناسبات وغيرها.

ولأهمية النسق اقترح د. عبدالله الغذامي إضافة وظيفة سابعة للوظائف الست عند جاكبسون، وهذه الوظيفة هي الوظيفة النسقية، يضطلع بها النقد الثقافي تحديدا؛ لأنه يهتم بالمضمر في النصوص والخطابات، ويستقصي اللاوعي النصي، وينتقل دلاليا من الدلالات الحرفية والتضمينية إلى الدلالات النسقية. ينظر: النقد الثقافي، د. عبدالله الغذامي، ص ٦٥.

(٢) في عام ١٣٤٠ دانت الجزيرة العربية للملك عبدالعزيز فيما عدا الحجاز، وفي عام ١٣٤٥ دخل الحجاز في حكم الملك عبدالعزيز وأصبح الملك عبدالعزيز يسمى ملك الحجاز وسلطان نجد

بتأمل ملامح النسق السياسي للمملكة، ولاسيما أن الرحلة كانت بدعوة رسمية، والداعي هو الملك وقد نقلها المعتمد الذي يعد بمثابة سفير الملك في سوريا، والكاتب ينطلق في رصد النسق السياسي وقد امتلأ قناعة بهذه الدولة الفتية –حينها– التي نشأت وتوحدت بفضل الله ثم نباهة مؤسسها الملك عبدالعزيز واستمرت بفضل الله ثم حسن سياسة وإدارة أبنائه: "**لقد وضع عبد العزيز الأساس وأرسى الدعائم، وجاء أولاده يعلون الجدران، ويقوون الأركان ويجملون البنيان، مهتدين إن شاء الله بهدي القرآن**"(١). وإذا كان هذا الخطاب خطاب القناعة فقد اكتسى بفن القول البليغ التصويري الذي نقل الفكرة الذهنية لصورة محسوسة مع الاستعانة بالتحسين القولي (السجع)، كما لم يغب عن الكاتب في هذين السطرين أن يختصر في الخطاب منهج الدولة، وانتقال الدولة من البناء إلى القوة ثم التحسين، مع وجود كشاف طريق يتمثل بالهدي الإسلامي القرآني.

وحضور النسق في الخطاب يتضح من خلال عبارات الإرساء والبناء وعلاقته بالجانب البشري/ الحاكم، فعبدالعزيز معادل لمهمة الإرساء والغراس،

وملحقاتها، ثم صدر الأمر الملكي الكريم في عام ١٣٥١ بتوحيد المملكة العربية السعودية وإطلاق هذا الاسم عليها. ينظر: موقع رؤية ٢٠٣٠: https://cutt.us/3lekI

(١) الذكريات، ١٢٥/٣.

وأبناؤه معادل لمهمة البناء (العالي)، وكأن الرحالة يمرر جملته الثقافية منذ البداية بإبراز نسق الحكم الملكي وفوائده التي تبدت في الجزيرة العربية بين زمن الرحلة وزمن التذكر.

ولعل الحديث عن النسق السياسي يبدأ منذ مشروع الرحلة أو فكرة الرحلة إن صحت التسمية، إذ الفكرة بدأت من دعوة الملك عبدالعزيز بواسطة أحد موظفيه الموفدين إلى الشام وهو (ياسين الرواف) كما أشرت في تمهيد هذا البحث، وهذا النهج من الملك عبدالعزيز رحمه الله يدل على وعي سياسي بقيمة الدولة، وقدرتها، وممارساتها في استضافة الشخصيات ودعوتهم للزيارة، وهذا بدأ منذ توحيد المملكة كما هو الحال هنا، فهذا دليل على أن النسق السياسي ناضج منذ البداية.

كما أن النسق يتضح من تعيين سفير للدولة عند الآخرين يعمل في سفارة تسمى (معتمدية)، وأنى كانت الأسماء فإن الحصيلة واحدة وهي النيابة عن الملك في إبلاغ الرسائل وتوجيه الدعوة وطمأنة الضيوف برعايتهم واستضافتهم والترحيب بهم ضيوفا على الدولة.

بل إن الكاتب قد أشار إلى أمر سابق ربما قبل توحيد المملكة، وهو قيام المعتمدية بالجانب الإعلامي والدفاع عن الدولة، وهي ممارسة سياسية ناضجة ومشروعة كما هو العرف الدولي اليوم، فقد أقامت المعتمدية حفلاً، وشارك علي الطنطاوي فيها بخطبة أوضح فيها أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

ليست بدعة بل هي دعوة سلفية لها أصل راسخ، وغضب عليه أعيان ومشايخ دمشق وقتها[١] .

إن خطاب الطنطاوي في سرد هاتين المعلومتين يوضح أن الدولة كانت متقدمة من الجانب السياسي (الدبلوماسي)، فالصلاحيات واضحة، والجهد مثمر، والسمعة للمملكة آخذة في الرسوخ، مما يدل على خطوات دقيقة تتخذها المملكة في حداثة وقتها ونشأتها.

كما أن اعتراف الآخر بالدولة نسق كامن في الخطاب يظهر في الاعتداد بالدعوة، والاستجابة لها، ويظهر أيضا باستذكار الماضي ودخول الكاتب في دائرة الاتهام في مجتمعه؛ لأنه شارك في مناسبة دولية تابعة للمملكة، يقول فيها ما يعتقده ويشهد شهادة الحق في سبيلها.

وعندما بدأت الرحلة فعليا ودخل أفرادها أرض الجزيرة العربية علموا بأنهم قد صاروا في أمان من الاستعمار الذي هربوا منه ومن حراساته إذ إنهم لم يقوموا باستكمال أوراق السفر فيما يبدو، وهنا أيضا نجد دلالة على التقدم السياسي الجغرافي للمملكة رغم حداثة سنها وقلة إمكاناتها، ووفق المتاح والممكن أيضا، يقول الكاتب: " **كنت أعجب من سيارات أبي حنيك، [ضابط إنجليزي اسمه غلوب] كنت أعجب منها، لماذا لم تتعقب سياراتنا وأثرها ظاهر يراه كل ذي عينين، فكيف بالخبراء من رجال الجيش؟.**

(١) ينظر: ذكريات، ٣/ ٥٥-٥٦.

وسرعان ما جاء في الجواب: لقد رأينا خطاً ممدودة فيه السلك الشائكة، وفي وسطه لوحة مكتوب عليها «المملكة العربية السعودية»، فعلمت أني قد وصلت إلى دار الأمان"[1] وفي وصف آخر قال: **"...استبشرنا وشعرنا بالاطمئنان، وذهبت علائم الكدر من وجوهنا، وخالطنا سرور عجيب، لا أدري أكان ذلك لأنا دخلنا في أراضي الحجاز، فهاجنا الشوق إلى هاتيك المعاهد، أم لأننا وطئنا أرضاً لا يسيطر عليها أجنبي ولم تمتد إليها رذائل الحضارة الأوروبية، فهي عربية مسلمة"**[2].

إن وجود الحدود بوضوح دليل على ضبط أمني لأرض المملكة لم تخطئه عين الكاتب، واللافتة التي تعلن هوية الدولة أمر دعاه إلى الاعتزاز، ووجد منه روح الأخوة الإسلامية والعربية والفخر بأن هذا الجزء الغالي من البلاد الإسلامية العربية جزء لم يدنس، وأنساه هذا الاعتزاز تلك اللحظات العصيبة المشوبة بالحذر والخوف من لحاق الضابط الإنجليزي وأفراد ثكنته بالركب المرتحل. وهنا نجد الخطاب بعد ذلك يهدأ لأنه خطاب الضيف الآمن، بعد أيام من الحذر والترقب وخوف الضياع، بل وخيبة الأمل من الأدلاء وقلة المعرفة.

وأمر آخر يبدو واضحا من فيض الأمان والاعتزاز الذي بدا عليه الكاتب، والركب بطبيعة الحال، إنه الشعور بالانتماء للدولة السعودية انتماء

---

(١) السابق، ٣/٧٢.

(٢) من نفحات الحرم، ص ٨٧.

أخوة عميق، وشعور باللحمة الحقيقية بروابط الدين واللغة، والاعتراف بالزعامة الحقيقية لمؤسس المملكة العربية السعودية طيب الله ثراه، هذا الأمان الذي تبدى في الخطاب بشكل مباشر (شعرنا بالاطمئنان)، وفي النص على الروابط العميقة (عربية، مسلمة)، واستحضار المكان العزيز على النفس لدى الكاتب والقارئ على السواء (أراضي الحجاز) الذي يبعث الشوق في النفوس كلها، المهم أن هذه الظروف المتعددة في راهن الرحلة قد أكدت مشاعر الكاتب وأصحابه بدءا من الاطمئنان وانتهاء بالسرور العجيب الذي لم يظهر على الوجوه بل خالط النفوس بكل ما تحمله مفردة المخالطة من معنى، وبعد هذه الرحلة بنصف قرن تقريبا يعود الكاتب لاسترجاع تلك اللحظات ليؤكد هذا الأمان الممتد منذ ذلك الحين فيقول: "**البلد الذي خلق حراً، وعاش حراً، وبقي حراً**"(١). ونلحظ هنا أن لفظة الحرية تتكرر بكل ما لدلالة التكرار من معاني التوكيد والترسيخ، وهو توكيد يستعرض الزوايا والأجزاء ليقرر حرية المكان في الماضي والحاضر والمستقبل، بألفاظ التكوين: **خلق**. والوجود: **عاش**. والثبات: **بقي**.

والكاتب قبل تلك اللحظات قد ربط المكان بالزمان ربطا طريفا؛ حين سرد خبرهم مع الأعرابيين اللذين توليا مهمة الإبلاغ بأن المكان تغير والظروف التي يعيشها الركب قد تحولت إلى الأفضل، فحين سألهما الكاتب عن شأنهما أخبراه بأنهما يبحثان عن جمل ضال، مما جعل الكاتب يعود إلى

(١) الذكريات، ٣/٧٢.

الماضي وكأن الجزيرة عادت لسالف عصرها وعاش في الآن ما كان يقرأه في الكتب: "**فأحسست أني دخلت البادية حقا، بل لقد شعرت أنني دخلت التاريخ أعيش فيه، إن تاريخ العرب الاجتماعي والأدبي يعيش اليوم في باديتهم حاضراً يُرى لا ماضيا يُروى!**"(١).

وربما كان خطاب الكاتب موهما بأن الجزيرة تعيش تخلفا تاريخيا في تلك الحقبة، لكن الخطاب السابق حول نقاء المملكة وسلامتها من الاستعمار وما تفيض به من الأمان والاستقلال أبلغ دليل على نفي الفكرة، أما هذا الخطاب في توصيف تأريخية السلوك وعمقه فينسجم بشكل كبير مع تاريخ الكاتب واعتزازه العربي وتماهيه مع التراث وحب الأدب العربي وتوقه للأصالة والماضي يتبدد عنده هذا الوهم ويعلم أن الكاتب يعيش لحظات شاعرية مفعمة بالعاطفة والاستمتاع بمعايشة المكتوب عيانا وقد ذكر هذا صراحة هنا، بل وسطره في مقالة طويلة في مكان آخر(٢).

وفي هذه المواضع وغيرها تظهر أنساق كامنة في خطاب الكاتب، تلك الأنساق التي تقارن حال الذات/ الكاتب مع حال المملكة، وما تتسم به من الاستقلال والمواقف الأصيلة التي لا يظهر فيها تسلط المستعمر وأعوانه،

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٨٧.

(٢) أقصد مقالة (حلم في نجد)، وهو كتيب مطبوع بشكل مستقل، وأيضا يعد جزءا من كتاب صور وخواطر، وللوقوف على شاعرية الفكرة يكفي أن نتأمل التعبير بالحلم في العنوان وما يفيض به من دلالات الشاعرية والانعتاق عن الواقع والتماهي مع الرغبة. ينظر: حلم في نجد، علي الطنطاوي.

المكان الذي يرحب بالزائرين، ويشعرهم بالأمان، بل تتعدى مزاياه جانب المكان فتغدو جوا من الأنس والبهجة تحلو الكدر وتطرد علائم الخوف والترقب.

وما نزال على الحدود السعودية حيث وقفت القافلة الزائرة عند مخفر الحدود وهنا نرى شكلا من أشكال التنظيم السياسي للحدود السعودية وكيفية الدخول النظامي آنذاك، وكان لباس حرس الحدود لا يختلف عن اللباس الاجتماعي إلا في وجود السلاح المعلق على الكتف وحزام الرصاص، والسلاح جديد : "**ويتنكبون بنادق جديدة رأينا عليها كتابة فقرأناها فإذا هي: (وقف لله تعالى وقفه عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود)**"[1].

وفي موقف آخر يرصد الكاتب شكل التنظيم السياسي للمدن والبلدات وإدارتها في بداية الدولة، إذ نجده في البداية يتوقف في القريات ليقدم لنا هذه الملحوظة: "**والقريات اليوم إمارة. وهي مقر الأمير، ومما رأينا في الحكومة**

(١) من نفحات الحرم ص ٨٧. ومن دلائل النسق السياسي الحديث في المملكة امتزاج الموروث الثقافي في الضيافة مع التنظيم الدولي لدخول الأجانب ورصد هذا الدخول ووضع ما يثبت ذلك من الختم الرسمي: "...**خبرهم خبرنا، وأعطاهم جوازات سفرنا، فوضعوا الخاتم عليها، ولما اطمأنوا إلى أنهم أدوا واجب الوظيفة الرسمية، تفرغوا لأداء واجب الضيافة العربية**" الذكريات، ص ٧٤.

السعودية أنهم يسمون كل من يلي مدينة مهما صغرت أميرا. لا فرق في ذلك بين أمير القريات هذه وبين أمير المدينة المنورة"[١].

ويبدو أن الكاتب لم يعجبه اتفاق التسميات مهما اختلف شكل المدينة وحجمها وأهميتها وقد ذكر ذلك صراحة فيما بعد[٢]، وهذا النسق تغير فيما بعد، ولم يعد ممكنا إطلاق لقب (أمير) على رئيس المركز أو المحافظ، واقتصر اللقب على الإمارات المختلفة في تنظيم شؤون الدولة الداخلية في وقت لاحق[٣].

وفي سياق آخر وإن كان متصلا بالجانب السياسي فقد أشار الكاتب إلى نسق سياسي فريد كان يعرفه عن الملك عبدالعزيز معرفة وثيقة، ويتمثل في تلك العناية الخاصة بالمثقفين وكتاب الصحف العرب، فقد كان الكاتب، وبحث من أحد وجهاء الشام، يكاتب الملك عبدالعزيز في بعض الشؤون العامة فيأتيه الرد المباشر من الملك بنفسه، يقول: "**كنت أعرف عن الملك الكثير، وكنت أكتب إليه ويتفضل فيجاوبني، جرأني على الكتابة إليه**

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٩٠.

(٢) قال في الذكريات: "ولو أنهم عددوا الألقاب بتعدد المنازل والولايات لكان في رأيي أحسن". ص٣/٧٦.

(٣) صدر نظام المناطق في ١٤١٢/٨/٢٧هـ. ينظر موقع هيئة الخبراء بمجلس الوزراء:

شيخنا الشيخ بهجة، وكنا نجعل عنوان الرسالة (إلى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود)، ما كنت أطلب شيئاً لنفسي، كانت رسائلي كلها في أمور فيها مصلحة للناس، ورضا الله، أو وساطة لأصحاب حق، وكان يأتيني جوابه الكريم في كل مرة"[1].

إن هذا النسق التواصلي مع الآخر العربي يدل على اطلاع الملك ومتابعته الدقيقة لما يرد، وتواضعه في الرد على الكل، بما يعد سمة مميزة تحفز على الاتصال به والتواصل معه، والدعاية القوية للمملكة بوصفها حاضن الشؤون العربية والإسلامية، ومرجعا حقيقيا وسندا لجميع الأشقاء في الوطن العربي، وهي سمة ما تزال إلى اليوم شاهدة على الأصل الأساس في العناية ورعاية الأخوة مهما بدت من الآخرين الجفوة أو الأخطاء التي تقابل بالعفو كما هي عادة كرام النفوس.

وفي لقاء الملك عبدالعزيز رحمه الله نسق ذاتي أيضا يدل على اتصال وثيق بين طبيعة الملك الخاصة والتكوين العربي الأصيل للملك، يتضح هذا في الحفاوة في اللقاء، واستقبال القادمين وقوفا، وعدم تمييز نفسه بمقعد مختلف عن الآخرين، والمزج بين العلم ومجلس السياسة كل ليلة فيجري في المجلس حوار علمي ودرس ليلي يشارك فيه الملك مشاركة فاعلة[2]، ومن طبيعة هذا المجلس الحوارية يتبدى لنا النسق السياسي الحواري الذي يعد ميزة للحكم

---

(١) الذكريات، ٣/١٣٧-١٣٨.

(٢) نفسه.

السعودي وعلامة فارقة كانت أساسا لبناء المراكز الحوارية الخاصة والعامة مثل مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني وما نشأ عنه من ندوات وملتقيات ثرية.

أخيرا فيحسن أن نقرأ وجهة نظر الكاتب حول شخصية الملك عبدالعزيز رحمه الله، وهو رأس الهرم وصاحب الدعوة وأقوى ملوك العرب ورؤسائهم في تلك الفترة، يقول عنه الكاتب بعد أن جالسه مرات عدة ورأى منه عدة مواقف في السياسة والضيافة والعلم: "**لقد كان الملك عبد العزيز رجلا من أفذاذ الرجال، ذكاء فطري يصغر أمامه كبار الأذكياء، وفكر نير يطوي أفكار العلماء، وقدرة نادرة على سرعة الفهم، والقدرة على الإفهام، يدرك مرادك قبل أن تتم كلامك، ويلخص في جمل معدودات ما يحتاج إلى محاضرات، شهد روزفلت أنه فهم منه في مجلس واحد عن قضية فلسطين، ما لم يفهمه من كبار الساسة في سنين، تواضع ولين حين يخشى اللين، وشدة حين لا ينفع إلا الشدة، خبير بنقد الرجال ومعرفة معادنهم، رحمه الله فلقد كان أحد عباقرة التاريخ**"[1].

إن إعجاب الكاتب بالملك عبدالعزيز يعد صورة عن إعجاب الكثيرين في تلك المرحلة بشخصية الملك عبدالعزيز التي جمعت مزايا عدة وصفات يندر توافرها في شخصية إنسانية، ثم هي شخصية استطاعت الظفر وتوحيد الجزيرة العربية تحت راية واحدة، ونرى في وصف الكاتب للملك عبدالعزيز رحمه الله إلحاحا على الثنائيات الوصفية التي تكون إما متقابلة أو متناظرة، فالملك

(١) السابق، ص ١٣٩.

عبدالعزيز قدرة على الفهم وقدة على الإفهام، الإدراك قبل التمام وتلخيص الكثير من الكلام، تواضع وشدة ولكل صفة سياقها المناسب.

لقد لخص الكاتب في هذه الفقرة الكثير عن شخصية الملك عبدالعزيز بما يقدم لنا صورة عن نسق الحكم الذي يتوقع من هذه الشخصية، بذكائها وبعد نظرها وحرصها على اللباقة مع الناس واختصار الوقت والقدرة على الإبانة عن الأفكار وغيرها، فلم يبق إلا اختيار الطواقم الإدارية والعسكرية لإجادة الحكم والنهوض بالمملكة وهو ما كان وننعم به اليوم من مكانة سياسية وعمق عربي وإسلامي وتأثير عالمي لا يخفى.

وبناء الخطاب في هذه الفقرة يعمد إلى السجع القصير واختصار الجمل يتناسب مع شخصية الموصوف التي تختصر الزمان والمكان والفكرة، مع العناية بجانب الوضوح في الخطاب إذ هي شهادة للتاريخ وليست استعراضا أدبيا يحتاج إليه الكاتب أو ينشده.

المبحث الثاني: الأنساق الاجتماعية:

مر الكاتب في رحلته بمختلف مدن المملكة وقراها الواقعة على الطريق بين الشام ومكة المكرمة، وبقي في بعضها أياما ضيفا على الأمير والأعيان، ودعي هو وصحبه إلى العديد من الموائد والمناسبات، وأتيح له التجول في المدن والقرى ورؤية الأسواق والبيوت وغير ذلك.

والكتابة عن بعض هذه الحوادث والأحوال تضعنا أمام جملة من الأنساق المختلفة التي تعد في مجملها أنساقاً اجتماعية مختلفة بين الشمال والغرب، وأحوال المدن والقرى، وعادات الأمراء والوجهاء في كل مدينة أو بلدة أو قرية.

وأول ما صادفه الرحالة في هذا الموضوع الاجتماعي الجوانب الدينية التي لم تخطئها عينه أنى اتجه في الجزيرة العربية، فمشهد الأذان وما يترتب عليه من تغير سريع في شكل النشاط الإنساني أمر ملاحظ في مختلف أنحاء المملكة، ففي مكة المكرمة رأى الرحالة ما تعجب منه: "**كان من المشاهد المألوفة سنة ١٣٥٣هـ أن أسمع الأذان فأرى البياعين يتركون دكاكينهم مفتوحة، يضعون في مدخل الدكان كرسيا، أو يجعلون فوق البضاعة عصاً، حتى أن الصرافين وأمامهم أكوام الريالات، وأنواع العملات يتركونها، أو يغطونها بقطعة من القماش ويذهبون إلى المسجد، فلا يمس ما تركوا أحد، ولا يخطر على بال أحد أن يمسه**"[(١)].

(١) ذكريات، ١٤٥/٣.

إن مشهد الاستجابة الفورية للصلاة لا يأتي وحده هنا، بل إن هذا النسق من امتثال الدعوة إلى الصلاة يأتي سريعاً بحيث لا يملك معه صاحب الدكان أن يفرط في الزمن فيحرز بضاعته ويغلق الدكان، امتثالا لداعي الرحمن إلى الصلاة، ويقينا بأمان المكان وأمانة المجتمع ومحافظتهم على حقوق الآخرين وممتلكاتهم.

والكاتب هنا ينقل هذه الحادثة مؤكدا على النسق وعمقه بحيث أن الزائر يدرك ذلك بشكل واضح، فعبارة (المشاهد المألوفة، فأرى، حتى إن، فلا يمس ، ولا يخطر على بال أحد أن يمس)، وكلها توكيدات خطابية على هذا النسق المتجذر في المملكة وجوار البيت الحرام وبشهادة الرحالة ويقينه بأن هذا النسق يحترمه الجميع فلا أحد يفعل، ولا يفكر بفعل تنتهك فيه ملكية التاجر أو تخرب به بضاعته، بل التأكيد الخطابي يوصلنا إلى أبعد من ذلك فنتيقن أن المجتمع بأفراده كافة لا يقتربون من الدكان في غياب صاحبه ولو لتقليب البضائع ورؤية ما يمكنهم شراؤه لاحقا.

لقد جاء الخطاب هنا مؤكدا للنسق من خلال فكرة إلف المشهد، ورؤية النسق متمثلاً مشاهداً لا مروياً مسموعاً، ومؤكداً بالأدوات اللغوية: الغاية المؤكدة (حتى إن)، والنفي المتكرر: لا يمس، لا يفكر أن يمس، وفي النص على التفكير بعد الفعل مبالغة أخرى لرسم تجذر النسق وتمكنه في المجتمع.

وفي وقت الصلاة لا ترى أحدا يمشي في الطريق، الجميع متجه إلى الحرم للصلاة منذ شرع المؤذن في الدعوة إليها. وهذا الأمان (العجيب) حسب وصف الكاتب جاء من طريق واحد، هو : "**إقامة حدود الله، وتنفيذ**

شرعه"[1]. ومن شواهده تلك الحادثة التي رواها الكاتب لإقامة حد القصاص في مكة والسرقة[2].

إن هذا النسق الذي يشهد عليه الكاتب ويؤكده ليقدم للقارئ نسقا مختلفا مسكوتا عنه بمثابة النسق المعكوس، إنه نسق وطن الكاتب الذي لا يؤلف فيه مثل تلك المشاهد، فإلف هذه المشاهد في مكة شيء لا يعهده الكاتب في بلده وينظر إليه نظر الراغب به المتشوق إليه، ومن ثم فإن هذا الخطاب يحمل نسقا مضمرا منفيا عن الذات/ ذات الكاتب، وهو نسق غير مرغوب ويأمل في زواله ومشابهة نسق المرتحل إليهم، ودلائل نجاح النسق ظاهرة في الأمان وإلف المشهد ونعمة التدين.

وفي سياق آخر ذكر الكاتب أنه في كل بلدة يجد المسجد في صورة واحدة تقريبا، مبنى تكثر فيه العمد، منخفض السقف من الجريد وجذوع الشجر أو النخيل، ومفروش بالبطحاء[3].

---

(١) ذكريات، ١٤٥/٣.

(٢) ينظر: نفسه، ١٤٥/٣-١٤٦. والحادثة بتمامها منشورة في كتاب من نفحات الحرم، ينظر ص ٦٣٠٦٧.

(٣) ينظر: من نفحات الحرم، ص ٩٤، و ١٣٧. و: ذكريات، ٨٢/٣. وقد اعترض الكاتب على عدم فرش المساجد؛ واحتج على من قال بأن ذلك مخالف للسنة، لأنه وجد البيوت مفروشة بالفرش والبسط والمسجد أولى بالنظافة ودفع الأذى عن المصلين ومنع دخوله بالأحذية النجسة. ينظر: نفسه، ٨٢/٣-٨٣.

كما أن من النسق الديني الذي وجده الرحالة شيوع التدين بين أفراد المجتمع، ووقوفهم عند حدود الله، وأمانتهم التي وردت في حادثة فقدان المتاع التي سردها الكاتب(١).

وفي جانب آخر فقد لقي الكاتب من الأنساق الاجتماعية الكثير، منها اللباس، وعادات الضيافة، وبعض الأنشطة التجارية المتعلقة بالغرباء وغيرهم، ففي مكة مثلا وصف الرحالة لباس الناس واختلافه تبعا لاختلاف مكونات المجتمع المكي وانصهار الجميع في مكان واحد، حيث بدى الاختلاف مهضوما ومتفهما عند الذات أكثر مما بدا للآخر الذي رصد هذا التنوع في خطاب متعجب إلى حد ما، يقول: "**وأطللت على الناس، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزي، فمن رجل على رأسه عقال أسود على صماد أحمر، قد التحف بعباية رقيقة، على ثوب أبيض [الزي السعودي**

(١) ينظر: ذكريات، ١٤٥/٣، ومما يؤكد النسق واستقراره على الرغم من حداثة الدولة السعودية ما طمأن به أمير المدينة الكاتبَ والمعتمدَ ياسين الرواف بأنهم سيجدون حقيبتهم المفقودة حيث سقطت منهم، يقول الكاتب: "**فلما رجعنا ومررنا بالمكان الذي قدرنا أنها سقطت فيه لم نجدها، فقال الرجل الذي أرسله الأمير معنا: إذا كنتم قد فقدتموها هنا فإنكم ستجدونها. وجعل يدون معنا ويتلفت، فرأى في الرمل الناعم المتموج بقعة عالية، فأدخل يده فيها، فإذا الحقيبة قد غطاها الرمل، وهي على حالها**". نفسه. وفي كتاب من نفحات الحرم وصف الكاتب الأمان أثناء السفر فقال: "**وركبنا بعد السيارات ، فكنا نرى في الطريق الأربعة أو الخمسة من الرجال ماشين على الإبل من مكة إلى المدينة ، أو من المدينة إلى مكة ، وترى الرجل الواحد يمشي منفرداً في ظلام الليل . في طرق لا يعرفها وأرض لا يألفها ، والمرأة الواحدة تمشي منفردة لا يعتدي عليها أحد . ولا تخشى إلا الله**". ص ٤٤.

المعروف]، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من العثنون وهلالاً دقيقا من تحتها... وهذا هو النجدي.

ومن رجل يلبس ثوبا رقيقا، فوقه رداء قصير (جاكيت) من قماش هفهاف، وعلى رأسه قلنسية (طاقية) بيضاء... وهذا هو الحجازي.

ومن رجل وسخ الثياب ممزقها، لا تدري عن ثيابه ما لونها وما هي، وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال، وهذا هو الأعرابي.

ومن رجل يلبس ثوبا متقن الصنع عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب، أو يلبس بدل الثوب حلة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية إلا قليلاً منها، وهذا هو السوري.

ومن رجل على رأسه عمامة ضخمة، كعمائم السلاطين من آل عثمان... وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة، وله لحية كثة مستديرة وشاربان طويلان، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض تبلغ الكعبين... وهذا هو الهندي.

ومن شاب حليق الوجه كله نظيف الثياب مهفهف قد ائتزر بمئزر لفها على خصره النحيل ... وارتدى عليها رداء قصيرا رقيقا... وهذا هو الطالب الجاوي، وما أكثر هؤلاء الطلاب في مكة.

ومن ...ومن أمم ربنا التي لا تعد ولا تحصى"[1].

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٦٤-٦٥.

إن الرصد السابق للأزياء المتمازجة في مكة المكرمة ليدل على استيعاب المختلف في مكة منذ بدء نشأة الدولة دون مضايقة، ولقد كان الكاتب يشهد هذا التمازج من مكان رفيع هو شرفة نائب الملك على الحجاز الأمير فيصل (الملك فيصل رحمه الله)، كما أن الكاتب ينسج خطابه على تيمة الاختلاف والتمايز والمرجعية التي استطاع من خلالها معرفة الانتماءات العرقية لكل حاضر من حضور هذا المشهد المهم في يوميات أهل مكة بدليل كثرة الحضور وازدحامهم، وصعوبة حضور الكاتب لهذا الاحتشاد أو رؤية المشهد إلا بوساطة الشيخ (ياسين) الذي تعلق به الكاتب وولج من خلاله إلى مجلس نائب الملك ورأى المشهد من شرفته(١).

وتطل الألوان على المشهد لترسم التمايز اللوني الذي ينتظم التمايز العرقي والجنسي واللغوي المسيطر على الكاتب، فاللون الأبيض لا يخلو منه زي من الأزياء فيما يبدو، وهذا دلالة النقاء الذي يستمده الجميع من المكان (مكة المكرمة)، بالإضافة إلى الأحمر والأسود ولون الذهب الذي يمثل اللون الأصفر

(١) وأشير هنا إلى أن المملكة العربية السعودية بليت بالدعاية السيئة في بدء قيامها، حيث يتهمها الكتاب بالاعتداء على الناس ومعاقبة حليق اللحية، ونجد صدى هذا الخبر المزيف أو المبالغ فيه في خبر هذه الرحلة عند الكاتب، يقول عن سبب تأخير الرحلة مدة عشرة أيام: "**وحدد موعد المسير، وكان بعد عشرة أيام. هل تدرون لماذا أجلوه عشرة أيام؟ كان ذلك لسبب لا يخطر لكم على بال. وهو أن تطول لحاهم ليذهبوا إلى مكة بلحى معفاة لا بذقون محلوقة؛ لأنهم سمعوا أن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمسك من كان حليق الوجه، لهذا أعفوها**". ذكريات، ٣/ ٥٨-٥٩. ووصف المشاهدات هنا يكذب ما سمعه الكاتب وأهل بلده وقتها وربما قصد الكاتب إلى ذلك قصدا عند وصفه للحى الحاضرين ونسقها العام لكل أفراد الجنس.

وهي أجناس الناس كما هو معروف، وكأن الكاتب يعيد إنتاج الحديث النبوي الشريف بألوانه الواردة وفي ذات المكان تقريباً (مكة المكرمة)؛ ليكون الواقع الراهن مصدّقا لمعيار الدين الإسلامي، يقول النبي ﷺ: " **أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**"(١). وفي تأكيد آخر، فإن الاحتشاد المؤلف من كل الأجناس الحاضرة في الحرم المكي جاءت لتشهد إقامة حد من حدود الله (القصاص وحد الحرابة) على جانيين أحدهما من أبناء البلد من العرب الذين نفى عنهم حديث النبي الفضل إلا بالتقوى.

وفي لفتة أخرى يختم الكاتب المشهد مؤكدا على المغزى من وصفه ورصده للحدث، إنها اللحمة المتميزة على الرغم من الاختلاف وهو ما ميز البلد الحرام في هذا العهد الجيد عهد المملكة العربية السعودية: "**وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التي قطعوا السباسب، وخاضوا البحار ليواجهوها، ويتعلقوا بأستارها، وأكرم بها من جامعة**"(٢). فالاختلاف هنا نسق يؤكده الخطاب بألفاظ متعددة

(١) الحديث بتمامه في مسند الإمام أحمد برقم ٢٣٤٨٩، ينظر: مسند الإمام أحمد، ٣٨/ ٤٧٤. وهو حديث صحيح.

(٢) من نفحات الحرم، ص ٦٥.

(أخلاط من كل جنس ولغة وزي ... ومن ...ومن أمم ربنا التي لا تعد ولا تحصى... وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم)[1].

والنسق الظاهر هنا يخفي نسقا آخر مضمرا، إنه نسق تمسك الناس بمعهودهم دون مواربة أو اختفاء، إذ وجدوا القبول والانصهار العام فلم يخشوا على أنفسهم إن ظهروا بمظهرهم في بلادهم أن يضايقهم أحد أو يستغلهم مستغل، فالمضمر هنا شكل العدالة الاجتماعية والتجارية والتعامل الواحد مع جميع الأطياف وهو ما يميز مكة المكرمة وإن لم يبد في أول وهلة إلا أن النسق يبدو عند التأمل وسؤال ما الذي يكسبه المتمسك بعاداته وما الذي يخسره، إنه في مكة لا يخسر شيئا كما يظهر من هذا الخطاب.

ولا يفوت الكاتب أن يرصد شكلا مميزا من أشكال عادات الذات التي وجدها جديرة بالرصد والوصف وربما الثناء والإعجاب، إنها عادات الكرم التي تتخذ عدة أشكال، فمن ضيافة القهوة وما فيها تفاصيل خاصة إلى شكل تقديم الشاي، إلى الضيافة العامة والخاصة على الطعام وما يبذل في ذلك من أشكال الكرم العربي الأصيل، وغير ذلك.

حينما حل الكاتب وصحبه على أمير تبوك من أسرة (السديري) قدم لهم أصناف الكرم السعودي المعروف، وبعد يوم حافل بالتجوال دخلوا مقر الأمير، يصف الكاتب المشهد المميز فيقول: "**وكنت لحظت (وأنا داخل)**

---

(١) في مقالة أخرى يقول الكاتب: "**والناس قلما ينظرون في مكة إلى زي أحد؛ لأنها ملتقى الأمم، ومعرض الأزياء، ومجمع الشعوب**". من نفحات الحرم، ص ٤٥.

الرجال أي الخويان (جمع خوي) واقفين في رحبة الدار، وعلى السلم، وأمام الغرفة وعلى بابها.

فما قال الأمير: (قهوة) حتى صاح الذي على الباب (قهوة)، فقال الذي في الدرج (قهوة)، وكرر الذي يليه قهوة حتى وصل الصوت إلى صانع القهوة ولست أدري أين كان.

سمعنا خمسا وخمسين قهوة، قهوة، هوه، هوه، وه، وه... تخرج متعاقبة متلاحقة، كأنها طلقات مدفع رشاش، خرجت كلها في ثلاث وأربعين ثانية فارتعبنا... والأمير يضحك قد راقته الدعابة، ونظر إلي كالمتسائل، فقلت: ما هذا؟ لقد حسبته غزو.

قال: لا، قد أمن الله هذه البلاد بعبدالعزيز، فلم يبق فيها غزو ولا ما يشبه الغزو، ولكنها طريقتنا في طلب القهوة، نريد أن يسمع جيراننا ومن هم حولنا، ليحضروا إلينا..."[1].

يتشكل الخطاب السابق من حالة قصصية جرت للكاتب، يقف فيها الكاتب بوصفه مجموعة تحل في ضيافة الأمير، الذي يبرز بمفرده في الحوار، والأمر، وردة الفعل. وتتمثل تيمة القصة في المفارقة التي حدثت وأرعبت الضيوف ظنا منهم أنها الحرب، حتى يتطوع الأمير بكشف اللغز/ العادة، وينتج خطابا إشهاريا محدودا عن العادات، والحالة السياسية العامة في البلاد، ليتم في هذا الخطاب كشف عادة اجتماعية، وتقليد عام، والإبلاغ عن خبر

(١) ذكريات، ٣/٩٦-٩٧.

مستقر في الذهن ينبغي إذاعته للآخر ليطمئن وهو خبر توحيد المملكة والأمان الذي حل بعد ملك الملك عبدالعزيز رحمه الله.

وفي الخطاب اللغوي عدد من كاشفات النسق تتمثل في وقفة الخويان (صحبة الأمير وأعوانه) في سلسلة مترابطة يعرف أولها ولا تعرف نهايتها والتي يُظن أنها تصل إلى حيث موقد الضيافة وتجهيز القهوة، والترتيب هنا له أهميته بالتأكيد لإيصال الرسالة إلى معد القهوة من جهة، وإذاعة خبر الضيافة للمحيط الاجتماعي الذي يتغياه الأمير/ النسق.

وأمر آخر ينبغي الانتباه له في نسق السلسلة المترابطة هذا، وهو ارتفاعها على السلم، وكأن خبر القهوة، وسندها المتصل سند عالٍ كما يقال(١)، مرتفع، يتخذ شكلا إذاعيا في مقام مرتفع ليبلغ الصوت ما لا يبلغه البصر ولا تحجزه المباني ويرتحل إلى جميع الاتجاهات في هذه المدينة الفتية.

والمشهد الذي يصفه الكاتب يتوافر على ملمح دقيق لا أستبعد نسقيته وهو مشهد الحفاوة بالضيافة، تبرزه لهفة الخويان ومسارعتهم بالانطلاق في نقل الكلمة بسرعة عجيبة، تتكفل فيها الثانية الواحدة بكلمة وجزء من الكلمة نفسها على لسان ناقل آخر كما أراد الكاتب أن يصف حين لجأ إلى ترقيم الكلمات ومقدارها زمانا بالثواني!

أخيرا فقد صرح الأمير بنسقية الضيافة واحتشاد الذات لها حماية لهذا

(١) السند العالي في الحديث الشريف هو وصف لإحدى طرق الحديث النبوي الشريف الذي يقل رواته عن بقية الطرق، وهنا المقصود بالسند العالي تسلسل نقل المعلومة إلى العلو المكاني ليحصل المقصود وهو إذاعة الخبر والدعوة بشكل غير مباشر.

التقليد العربي، وحرصا على الألفة والترابط والاجتماع العام الذي تلتحم فيه المدينة مع أميرها لتكون رابطة متلاحمة، وتكون أداة من أدوات الأمان الذي شمل الجزيرة بفضل الله ثم بملك الملك عبدالعزيز ﷺ وتوحيده البلاد تحت راية واحدة(١).

وهذه الأنساق الظاهرة تحمل في طياتها نسقا مضمرا يعد من الأنساق الاجتماعية التي لا تزال حاضرة إلى اليوم، ذلك النسق المتمثل في حضور مهمة استحدثت بعد توحيد البلاد وهي مهمة (الخوي) عند الأمير، فهذا النسق الاجتماعي متغلغل في النسيج السعودي ويعرف حتى اليوم بهذا الاسم (خوي الأمير)، وعادة ما تعد هذه الصلة بالأمير وجاهة اجتماعية ونافذة من نوافذ الحصول على بعض الامتيازات. المهم أن هذا النسق حضر في رحلة الكاتب وكان له دوره الذي لم يكن ظاهرا إلى حد كبير في الرحلة، ولكنه على كل حال نسق مضمر يحمل نظاما غير مكتوب وله وظائف تعرف اجتماعيا في كثير من المجتمعات السعودية.

ومن تتبع النسق عند الكاتب سبره أغوار تلك العادة وما يندرج تحتها

---

(١) انطلق الكاتب في خطاب يصف نسقية القهوة وتقاليدها عند أهل الجزيرة العربية وما ينبغي فيها وما لا ينبغي، مبرزا قيمة القهوة وعمق تشكيلها للنسيج السعودي حتى كأنها معادل موضوعي للتنظيم العام، والعلاقات الاجتماعية، والعمق التاريخي، وأخيرا نافذة التواصل مع الآخر وفتح أفق الحوار بالمباسطة والحديث المصاحب للقهوة. ينظر السابق ص ٩٧-٩٨. وقبل القهوة أشار الكاتب إلى استقبال الأمير للوفد عند عتبة الباب، وأفاض عليهم من البشر والإيناس الشيء الكثير مما كان محل تقدير وشكر من الكاتب والوفد كاملاً. ينظر: السابق، ٧٩/٣. وينظر وصف هذا المشهد في كتاب: من نفحات الحرم، ص ١٠٥-١٠٦، وفيه اختلاف يسير.

تفاصيل تؤكد نسقية الفعل، واحتشاد الذات له، وتغلغل الفكرة في الذات حتى تكتسب كل قطعة منها اسمها الخاص ووظيفتها الدقيقة في تشكيل الصورة الكبرى (صورة القهوة): **"للقهوة عند العرب اليوم من الشأن ما يقل معه كل تعب ينال من أجلها، ولها عندهم قواعد وقوانين لا معدل عنها ولا ترخص فيها... وأنهم يتخذون لها أواني كثيرة يصبون القهوة من إناء إلى آخر ليصفوها ويرققوها، ويسمون كل (دلة) من هذه الدلال باسم، فهذه العروسة، وهذه الأم، ولقد رأيت عند أمير تبوك أكثر من عشرة أوان (دلال) كلها مملوءة، والساقي يحبها حبا شديداً، ويراها في معدلة أولاده"**[(١)].

إن هذه العلاقة مع أواني القهوة من النسقية بمكان حتى أصبحت معادلا موضوعيا[(٢)] للأسرة بتشكيلاتها المختلفة، ولنتأمل تعبيرات الكاتب منذ البدء: **قواعد وقوانين، لا معدل عنها ولا ترخص فيها، يحبها حبا شديدا**. وصفة تلك الأواني بأنها: **العروسة، الأم، الأولاد**. إن علاقة هنا تقوم بين العربي/ الذات وهذه العادة الاجتماعية تجعلها في مقام الأسرة التي تقوم على **القواعد**

---

(١) من نفحات الحرم، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) المعادل الموضوعي (Objective correlative) مصطلح عرف عند الشاعر والناقد توماس إليوت، ويعني بشكل عام إقامة أشياء في العمل الفني تقوم مقام المشاعر أو الأفكار، فهو بمثابة رمز كبير مؤلف من الفكرة المقصودة التي لم يعبر عنها صراحة، والفكرة أو الصورة أو القصة التي تمثل في النص بوصفها ذريعة ومكافئا للموضوع المقصود. ينظر: المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام الطائي، د. فوزية علي زوباري، ص ٤٧٩.

والقوانين المنظمة للعلاقة وتسودها عاطفة **الحب الشديد**، وتكتسب فيها الأسرة صبغتها الواضحة فتأتي **العروسة**، ثم تصبح **أمًا** وحولها **الأولاد** وكلهم حول رب الأسرة: **الساقي**/ المحب، وهكذا أنجز الكاتب خطابا واصفا يكشف النسق ويصوره أدق تصوير مستثمرا أقوى أشكال العلاقة الاجتماعية (الأسرة) منذ نشأتها حتى إثمارها، ليتشكل من ذلك حياة أو ما يشبه الحياة على أسطر هذه الرحلة وفي نقلها للآخر الغافل عن الإنسان السعودي في ذلك الحين.

وقد وصف الكاتب ضيافة الأمير في تبوك، وهي الضيافة المعهودة المتمثلة في ذبيحة الضأن على قصعة من الأرز يتحلق حولها الجميع ويأكلون بأيديهم، والكاتب قد أنجز في هذا خطابا ساخرا ليس هذا مقامه(١).

وعند الانتهاء من الطعام وصف الرحالة فعل الخدم مع الضيوف بصب الماء من الأباريق على الأيدي ويتساقط ماء الغسل على طست وهي طريقة يعرفها الكاتب في الشام وليست غريبة عنه. ولكنها طريقة أشار الكاتب إلى أنها مخالفة للنسق وتتميز بأنها طريقة الأمير التي لا يماثلها فعل العامة أو أهل البادية وكأنه يشير إلى أن الأمر يلحقه بعض الاختلاف في ختام الضيافة تبعا لاختلاف المستوى الثقافي والمركز الاجتماعي للمضيف والضيفان(٢).

---

(١) ينظر: نفسه، ص ٩٢-٩٣.

(٢) ينظر: نفسه، ص ٩٤. ومن الضيافة المميزة ما وجده الكاتب من لطف الأمير في إعداد حمام متكامل كمل تلك الحمامات الشامية للاغتسال، وهو ما وجده الكاتب وصحبه أمرا لا تعدله

ختاما أشير هنا إلى مقطع قصير قدمه الكاتب في بداية حديثه عن الرحلة، يشير فيه إلى نسق اجتماعي شهير، أدركه الكاتب منذ زمن طويل وهو في بلده وقبل أن يسافر إلى المملكة، يقول: "**فلما جاءني الشيخ ياسين يقول، وهو مستبشر فرح: (هيا استعد فقد تقرر السفر)، سقط في يدي، ولم أدر ماذا أفعل؟ وقعت بين مشكلتين، إخلاف الوعد أو ضياع الوظيفة، ثم وجدت أن ضياع الوظيفة أسهل من الإخلاف، ومع من؟ مع نجدي سلفي لا يعرف من كلمة (نعم) إلا أنها وعد مبرم لا يحله إلا الموت، فقلت له حاضر**"(١).

فالكاتب هنا يصرح بأهم الصفات التي يعرفها عن الرجل النجدي السلفي، وهي صفة الوفاء بالوعد وعده أمرا محتوما لا ينقض بأي حال، وخوف الكاتب من انطباع المعتمد الشيخ ياسين الرواف لو اعتذر عن مرافقة الوفد بعد الوعد. والخطاب هنا لا يُبنى على الوصف الخاص بل النسق العام الذي يفهم من تحويل اسم الشخص الخاص والمعروف إلى وصف عام يشمل أبناء جنسه في المملكة العربية السعودية (نجدي، سلفي)، وهي أوصاف يدخل فيها كل من كان في نجد تقريبا من الرجال، وهذا المأزق الذي وقع فيه الكاتب جعله يختار الصعب ويستسهل فقدان الوظيفة حفاظا على العلاقة

قيمة في تلك الظروف الصعبة والارتحال الطويل الذي قاموا به واحتاجوا من بعد لما يزيل عنهم وعثاء السفر ويجدد نظافتهم ونشاطهم. ينظر: من نفحات الحرم، ص ١٠٤.

(١) ذكريات، ٣/٥٨.

بالمعتمد وصيانة لشخصيته ورجولته التي لا يريد أن تهتز في نظر هذا النجدي السلفي، الصديق.

لقد أبرز هذا الرصد الانتقائي من الرحالة للعادات الاجتماعية[1] أن المجتمع السعودي قد استمر في تعميق الأنساق العربية الأصيلة المتمثلة في الضيافة والدين والروابط الاجتماعية، وكان لتوحيد المملكة الأثر الأبرز في ترسيخ هذه الأنساق ببسط الأمن والأمان والترحيب بالوافد الغريب ومحاولة إدخاله في النسيج الاجتماعي وتقبل اختلافه العام ضمن دائرة الدين الإسلامي، كما أن هذا الاستقرار السياسي قد أسهم في تعميق القيم الدينية وأتاح للناس ممارسة الشعائر الدينية دون خوف أو قلق على مكتسبات النفس والمال والعرض، فتم بذلك الالتحام بين النسق العميق والوضع العام الجديد بما يرسخ الأول ويعظم شعور الامتنان للثاني من الذات والآخر على حد سواء.

(١) الانتقاء هنا لا يعني الاختزال حتما، بل لأن الكاتب يمضي لهدف اكتشاف الطريق، وإمكان الارتحال بالسيارات لزيارة المشاعر المقدسة، ولم تكن زيارته اجتماعية في أساسها فاكتفى في السياق الاجتماعي ووصف الأنساق بما أحاط بالعنق كما يقال في المثل.

المبحث الثالث: الأنساق الثقافية:

أفردت الحديث للنسق الثقافي على الرغم من كونه جزءا من النسق الاجتماعي لأسباب متعددة، منها أهمية النسق الثقافي من حيث هو واجهة من واجهات المجتمع، بالإضافة إلى الأهمية المرحلية للرحلة وأهمية الرصد الذي قدمه الكاتب لهذا النسق في مختلف تفاصيله وإن كانت يسيرة أو مبعثرة، وثالثا لأن الثقافة أساس يبنى عليه تطور المجتمع اللاحق والذي أشار إليه الكاتب في أكثر من سياق.

والفصل بين النسقين أمر يصعب إجرائيا لتداخلهما كما ذكرت، إلا أنني اجتهدت في وضع حد فاصل قد لا يتفق معي فيه الكثيرون، وهو أن النسق الاجتماعي في حد ذاته حين يوصف يحمل في عمقه جوانب الإلف وتعليم الأجيال وتمريره إليهم، فيغدو الفعل الاجتماعي ثقافيا إن تعاهده النسق وحفظه وعمل على نقله عبر الأجيال.

والأنساق الثقافية في الرحلة متعددة وإن كانت قصيرة المقدار، منحصرة غالبا في وجهة الكاتب والوفد بشكل عام، لكنها تعد صورة مميزة عن ذلك العصر، وتصل في بعضها بين الشخصيات التي عرفها المشهد الثقافي في المملكة مع الوفد السوري الذي أنجز الرحلة/ الفعل، والكاتب الغريب الذي حاور وجالس وصادق هذه الشخصيات وعرفها عن كثب ورأى بعض ممارستها الثقافية.

من أوائل الملامح الثقافية التي استوقفت الكاتب ولم ينسها ورواها بإكبار فيما بعد ذلك الموقف الذي كان من وكيل أمير القريات مما يدل على أن

الحضارة وبعض أسبابها كان خيارا للسعوديين لم يشأ بعضهم أن يتماهى معه ووقف أمامه موقفا صارما صيانة للعادة والقوة التي عرفوا بها، يقول: "**ولست أنسى كلمة قالها هذا الشاب، وكيل أمير القريات، الذي لم يتعلم في مدرسة، ولم يحمل شهادة. قدمنا إليه من الحلوى الشامية التي حملنا منها معنا، والتي ملأت شهرتها البلاد، وعجزت عن صنع مثلها أيدي الطهاة، فاستطابها وقال لنا: إنه ما ذاق من قبل مثلها ولكنه (وهذه هي الكلمة) قال: ولكنه كان يفضل ألا يذوقها، لئلا يعوده مذاقها الترف، ويسلبه روح الصحراء**"(١).

إن الترف خيار من الخيارات المتاحة، عرفه وكيل الأمير وعرف أثره فلم يشأ أن ينساق وراءه بأكل مثل هذه الحلوى، وفضل أن يظل في نسقه الذي اعتاد عليه وهو نسق الصحراء، الحلوى فيها هي التمر، لا تلك الحلوى التي يحتشد لها الناس وتعجز عن صنع مثلها أيدي الطهاة، وهذا الحوار من وكيل الأمير يصف النسق الذي كان يعتد به الوكيل ويحميه في ذاته، بل إنه لم يكن يخجل من النسق بل أفصح عنه أمام هذا الجمع الزائر، المعتد بما لديه من حلوى، وكأنه يقول نعرف الترف ونقدر عليه في هذه الدولة المباركة لكن الأولى بنا هو المحافظة على روح الصحراء التي تعلمنا الصبر والظفر في الختام، ونعتاد بروحها على القسوة التي تتطلبها المرحلة المبكرة من بناء الدولة بما في هذه المرحلة من صعوبات وقلة مادية وتباعد مكاني.

---

(١) ذكريات، ٣/٨٤.

لقد قدم الوكيل للوفد درسا، لم ينسه الكاتب وأحب أن ينقله للمتلقين من أبناء جيل وكيل الأمير الشاب حينها وأحفاده، إنها أخلاق الآباء واختياراتهم التي جعلت واقع الحياة أجمل، وبناء المملكة أقوى والأصلب، ومن ثم فإن النسق القديم أمر يحتم علينا الرجوع إليه باعتداد والكتابة عنه بشغف وشرف وحب.

ويغدو النسق ثقافيا حين نعلم أن هذا الأمير انتقل عبر الإمارات يحمل هذه الفلسفة ويمررها لجلسائه ضيوفا أو صحبا، وهي ثقافة حمل الأمير على عاتقه توضيحها والترغيب بها من خلال الخطاب القصير والإجابة الموحية، وما استعمال الروح وهي محرك الجسد وحافظ حياته إلا دليل على أن النسق أمر يتعاهده الأمير/ الذات، كما أن الأمير يعرف أثر العادة وتحولها إلى ثقافة تحيل الجوهر وتغيره، لذا فإن موجبات التحول مرفوضة عند الأمير الشاب الذي تتوافر فيه مرغبات الترف (الإمارة والشباب).

وفي مكان آخر يقدم الدليل السعودي الذي تطوع لمرافقة الوفد إلى تبوك نصيحة قيمة ينبغي المحافظة عليها، وهي نصيحة للآخر تعتمدها الذات وترى أهميتها وبدهيتها، ألا وهي تنصيب أمير للمجموعة لحسم الخلاف وإنجاز الأمور، يقول: "**كانت الحماقة وحدها هي التي حملتنا على ترك ضيافة الأمير، ذلك أننا لم نسر إلا ساعة، حتى أظلم الليل، وتوعرت الأرض، وتعذر المسير، فقال لنا الدليل، قفوا، فوقفنا، فعرض علينا العودة إلى القريات لأن المسير صعب والمبيت هنا أصعب، فأبينا... قال: ارجعوا فلا محط لكم هنا.**

فأبينا الرجوع، فتفرقنا وذهبنا يمينا وشمالا، نفتش عن أرض خير منها نبيت فيها، قال أين تذهبون؟ كل المنطقة مثل هذه البقعة... من أميركم؟ قنا: كلنا أمير.

فأنشد أبياتا من الشعر النبطي ضحك منها الشيخ الرواف، لأن فيها –كما بدا– السخرية منا والهزء بنا"(١).

فالدليل هنا يسأل عن النسق الذي يعهده في كل مجموعة تخرج لشأن أو سفر، كيف لا يكون فيها قيادة تحسم الأمر وتقطع الخلاف وتبت في المشكلات وتحكم فيها، وحين وجد النسق متعذرا عند الآخر هزئ بهم وتمثل بيتا شعريا لم يفهموه وربما قصد الدليل أن لا يفهمهم البيت.

ونسقية الحادثة ثقافيا تأتي من أمرين، الأمر الأول في تأمير الأمير على المجموعة وهو توجيه نبوي معروف ألا يترافق ثلاثة فأكثر في سفر إلا أمروا أحدهم، لأن التفرق شر وشقاق، واجتماع الكلمة أمر مهم ومطلوب، وهذا النسق عند الذات ينسجم مع اجتماع الكلمة في المملكة العربية السعودية على ملك واحد ودولة واحدة قبيل سنوات من هذه الرحلة ولله الحمد، وهو ما يغتبط به كل سعودي وأولهم الدليل الذي بدأ في قطف ثمار اجتماع الكلمة وتوحد الوجهة نحو البناء والتطور، أما الوفد فقد كان صورة عن بلاده في تلك الفترة التي من سماتها التفرق وكثرة الانقلابات في الوزارة ووجود الاستعمار الذي يذكي الخلافات ويريد أن تبقى شؤون السوريين في تفرق

(١) السابق، ٣/٨٥.

وتشتت. المهم أن النسق هنا نسق ثقافي بارز يتمثل في ضرورة القيادة وأهميتها لأنها تبرز الحكمة وتعمل بها وتستمع للنصيحة وتتأمل فيها.

والنسق الثقافي الآخر في هذه الحادثة يتمثل في هذه النشأة العربية الأصيلة التي يمثلها الدليل، في الوقوف على الحالة واختيار البيت الشعري المناسب الذي يصف المقام وربما يهزأ به، وهذا النسق العربي قديم جدا روي عن عمر بن الخطاب ﷺ، فقد كان يتمثل ببيت شعر كلما عن له أمر أو رأى حادثة أو موقفا(١).

وفي مكة يقف الكاتب ليرصد بعض الملامح الثقافية التي تتسم بالشمول من جهة، والعمق الثقافي من جهة أخرى، بما يدل على وجود حركة ثقافية نسقية تعم أرجاء مكة، ويؤسس أنساقها أبناء مكة استثمارا للطارئ الغريب وتقبلاً له ولاختلافه، وقد يحصل في أثناء ذلك بعض المثاقفة المنشودة(٢).

ففي مكة رأى الكاتب المكتبات حول الحرم، وهي حسب وصفه مكتبات كثيرة قرب باب السلام، وقد أتاحت له هذه المكتبات أن يجتمع بنخبة من العلماء والأدباء من أهل مكة، وبنى معهم صداقة ممتدة وأهداهم

---

(١) روى ابن سلام الجمحي عن ابن جعدبة أنه قال: "**ما أبرم عمر بن الخطاب أمراً قط إلا تمثل فيه ببيت شعر**". بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ابن عبدالبر، ١/٣٧.

(٢) (المثاقفة) تعني بشكل عام: "تبادل الآراء، وتلاقي الأفكار بعضها مع بعض، إن على مستوى الاتفاق والتسليم بين طرفي المثاقفة، أو على مستوى الاختلاف والتنازع بينهما". بلاغة العقل العربي: تجليات المثاقفة في التراث النقدي، د. محمد الدكان، ص ٣٧.

وأهدوه، وطال بهم الود حتى بعد عودة الكاتب إلى مكة في رحلات متفرقة[١].

وكثرة المكتبات وقربها من مكة أمر كان قائما إلى وقت قريب، على أطراف المسعى قبل التوسعة السعودية، ثم فيما يعرف بسوق الليل من الجهة الشمالية للحرم، وهذه ممارسة ثقافية لها أثرها في بناء أجيال ثقافية مطلعة تربط بين طهر البقة المباركة ووفرة المعروض الثقافي من الكتب، وإغراء التثاقف مع الآخر الوارد إلى مكة ومقتني الكتاب أو زائر المكتبات للاطلاع.

والتثاقف الذي أشار إليه الكاتب كان مع شخصيات بارزة في التاريخ السعودي القريب هما (الشاعر والأديب محمد حسن عواد، والأديبان عبدالله المزروع وهشام الزواوي). أما العواد فقد التقاه الكاتب وحاوره ونشأت بينهما صداقة ممتدة حتى وفاة العواد رحمه الله، وأهدى العواد باكورة كتبه للكاتب كما أهدى الكاتب بواكير كتبه للعواد إتماما للتثاقف الذي نشأ بالحوار واللقاء والمجالسة. وهذه الكتب المهداة هي: خواطر مصرحة للعواد، بشار بن برد، أبو بكر الصديق، التحليل الأدبي للطنطاوي[٢].

وفي ملمح ثقافي آخر فإن الكاتب قد وقف على مدونة مهمة تقوم بتسجيل حوادث مكة وزوارها بشكل محايث وآني، وهو الدفتر الذي كان يقيد فيه الأديب المؤرخ عبدالله المزروع كل ما يجري في مكة ومن يفد إليها من النابهين والمشهورين والوفود الطريفة (مثل وفد الكاتب ورحلتهم الشاقة)،

---

(١) ينظر: ذكريات، ١٣٤/٣.

(٢) ينظر: نفسه.

ودعا الكاتب إلى البحث عن الكتاب وطباعته لما فيه من طرائف تاريخ مكة وأخبارها التي يخشى عليها من الضياع.

إن هذه الإلماحة الثقافية من الكاتب لتدل على نسق ثقافي متأصل في المجتمع المكي قوامه الحرص على الكتاب، ووجود مجتمع مثقف يحف به ويجتمع حول مواطنه ويسعد بالتقاء المثقفين من المسلمين بهدف التواصل الثقافي والمعرفي وتبادل الخبرات والمعرفة مع إخوتهم من المسلمين، كما أن هذه المكتبات تقدم خدمة للمجاورين وطلاب العلم الشرعي من مختلف البلدان فرصة الحصول على الكتاب وبيعه أيضا متى ما دعت إلى ذلك الحاجة، كما أن هذا المجتمع الثقافي واجهة ثقافية مشرفة للمجتمع السعودي، يغير نمط الصورة التي قد تظن عن مجتمع بدوي قليل الثقافة أو الحرص على التدوين والكتابة، وكتاب العواد مثلا حين يهديه مؤلفه لرجل شامي لا يهديه لرجل فرد، بل لمجتمع شامي كامل سيعرف العواد من خلال أحاديث الطنطاوي ومروياته عن مكة وأهلها وربما أدب مكة. كما أن الطنطاوي/ الكاتب وهو الذي كان مغرما بكتاب أخبار دمشق رأى في مدونة المزروعي كتابا طريفا ربما يعيد للذهن تلك المدونة المهمة في التأريخ لدمشق ومثلها مدونة تأريخ بغداد، تلك المدونات التأريخية التي بقيت شاهدا على عصور خلت بكل ما فيها من انتصار أو انتكاس أو ملامح ثقافية واجتماعية وغير ذلك، كما أنها قدمت مادة ثرية لكتاب التراجم والسير لأنها تورد أسماء الرجال وعلاقاتهم وأعمالهم وحرفهم وغير ذلك.

ومن النسق الثقافي الذي وجده الكاتب ذلك النسق المتعلق بطبيعة البناء وشكل المنازل، إذ تعد العمارة من الظواهر الحضارية لأي بلد أو أمة، وفي مكة وجد الكاتب البيوت على هذه الصفة فقال: " **ثم بدت لنا مكة من فم الوادي ، بيوتها مرتفعة ضيقة كناطحات السحاب ... فيها بيوت عالية رفيعة منها ما هو بست طبقات أو بسبع تمتاز برواشنها . و (الروشن) شباك عريض من الخشب المزخرف المزوق**" (١).

لقد لفت انتباه الكاتب طبيعة البناء في مكة بما لم يعهده في الشام التي عرفت بدورها ذات الطابقين المطلة على صحن واسع وبركة في وسطها(٢)، أما في مكة فإن هذه العمارة مما لم يره الكاتب من قبل، طوابق متعددة في بناء ضيق، ونمط من الشبابيك له صفة خاصة واسم خاص ويعد من خصوصيات الحجاز الذي يحمي المنزل ويتيح لأهله التهوية الجيدة والحماية من الطيور من جهة، ويوفر لأهله الستر فلا يُرى أهل البيت من الخارج حتى وإن فتحت الشبابيك للتهوية، والرواشن موجودة إلى اليوم بوصفها هوية عمرانية تُحفظ في الحجاز وخاصة في مكة حتى مع المباني الحديثة حول الحرم(٣).

---

(١) من نفحات الحرم، ص ٤٥.

(٢) ينظر: دمشق: البناء العمراني في العصر العثماني، محمود زين العابدين، ص ٩٧-٩٨.

(٣) أشير هنا إلى ما يعرف بمشروع شركة مكة للإنشاء والتعمير التي أقامت مشروعها عام ١٤٠٩هـ، ثم مشروع جبل عمر بدءا من عام ١٤٢٩هـ، وحافظ المشروعان على منظر الروشن المكي كما هو بأناقته وبروزه الانسيابي المرئي في الأبراج الشاهقة. ينظر:

ومن أبرز ما يلحظ في الخطاب السابق التزام الكاتب بالنقل الثقافي للهوية العمرانية المكية وما تختص به إبان المرحلة التاريخية المتقدمة تلك، فنقل باختصار الهيئة (ضيقة، مرتفعة، طوابق ست أو سبع)، والخصوصية (الشبابيك المختلفة)، والجانب الجمالي المتمثل في مادة الروشن ومنظره المزخرف المزوق، وكأن الكاتب مستعجل للوصول إلى البيت الحرام فالتزم بالأمانة في الوصف واختصر الخطاب ليتهيأ للمنظر الأهم وهو منظر اللقاء بأول تباشير البيت الحرم وهي المآذن المرتفعة (نسبيا).

وفي بناء الشخصية المسؤولة خاصة، ومن يجالسها من أعيان المدينة عامة لمح الكاتب نسقا مميزا لم يعهده من قبل أو يقف عليه بمثل هذا التكرار والأثر الثقافي الواضح، ذلك أنه لما اجتمع هو ورفاقه بنائب أمير القريات، وحادثوه في بعض اليوم، وجدوا لديه رصيدا من العلم وأحاديث النبي ﷺ، وحين تتبع الكاتب ذلك وسببه قال:"**سنة حسنة استنها الإمام عبد العزيز حفظه الله. فجعل ليله كله للعلم. يأتي مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتابا، فإذا أتموه شرعوا في غيره. وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه. وقد قلّده**

و

ويمكن مشاهدة صور الروشن من خلال محرك البحث الشهير (google).

الأمراء جميعاً في ذلك، فمن هنا ما يحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات"[1].

لقد أسس جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله هذا النسق الثقافي في مجالس الأمراء ومسؤولي الدولة، ومن ثم كان هناك حراك علمي يمتاز بالديمومة والوقت المفتوح في أمسيات الأيام، ويأتي الجالسون فيه على عدد من الكتب المهمة في الفقه والتفسير والحديث وغيرها، وهو ما جعل هذه الممارسة تؤسس لنسقين ثقافيين مهمين في المملكة، هما نسق الثقافة الأصيلة والتتلمذ على أمهات كتب التراث بما في ذلك من معرفة الأحكام الشرعية، وفهم القرآن الكريم، وغير ذلك.

وفي هذه الممارسة النسقية الخاصة فائدة ثقافية أخرى تتمثل في إشاعة جو من الحوار الثقافي والقدرة على عرض الأفكار ونقدها والإقناع بالحجة وغير ذلك مما يعرف عن هذه الممارسة، بدليل نص الكاتب على المناقشات العلمية التي تجري، وكذلك لما وجده الكاتب من ثقافة لدى نائب الأمير، وما لقيه من قدرة نائب الأمير على الحوار والاحتجاج والإقناع وعرض الأفكار وغير ذلك.

إن الكاتب هنا ليؤكد نسقية الفعل الثقافي الخاص بأنه نسق الملك، الذي شجع بقية الأمراء على التقليد والتأسي، وهي نسقية مؤكدة في الخطاب

(١) من نفحات الحرم، ص ٩١.

بدلالة السنة الحسنة، والسنة الطريق الذي يسير في الناس ويتعارفون عليه[1]. كما أنها نسقية ثرية بما لها من وقت زمني مفتوح **(ليله كله للعلم)** ولا يستبعد أن الكاتب أراد بهذا التعبير أن يؤكد طول الوقت الممنوح للعلم والنقاش الثقافي ومطالعة الكتب.

لقد وقف الكاتب، ومعه رفاق الرحلة، على بعض الأنساق الثقافية، وعبر عنها في هذه المدونة المتشظية، مؤكدا في أكثر من سياق أنه لم يتح له الإلمام بكل ما في البلاد السعودية من أنساق ثقافية لقصر الوقت، وتركيزهم على الهدف الأساس من الرحلة وهو ريادة طريق الحجاز بالسيارات، وزيارة البيت الحرام والمسجد النبوي، ومن شأن الراحل لهدف محدد أن لا يركز في التفاصيل الأخرى، وأن يصف بشكل عابر ويؤكد ثراء المكان بالتفاصيل التي غادرها القلم دون تدوين.

وفي ختام الحديث عن وضوح الأنساق الثلاثة في خطاب الكاتب ينبغي أن أشير إلى أن الكاتب لم يقل كل شيء بالتأكيد، ولكنه وقف على عدد من الأنساق المهمة وأشار إلى بعضها عرضا، بما يكمل الصورة العامة للحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في المملكة في هذه المدة المتقدمة وفي وقت مهم من أوقات تأسيس هذا الوطن، وهو ما دل على توازن البناء ورسوخه بالإضافة إلى وجود الصلة العميقة بالمحيط الثقافي والديني للمملكة، كما أن هذه الأنساق التي رآها الكاتب وصحبه تعد أنساقا تلقائية غير مصطنعة

(١) من معاني السنة الطريقة الصحيحة وما تعاهده الناس وعرفوه، وهي أيضا التهذيب والتحسين بالنظر لأصل المادة. ينظر: لسان العرب، مادة سنّ.

تكشف المستوى الثقافي والاقتصادي والعلمي للحاكم والمحكوم، ويمكن اللجوء إليها وإلى غيرها للوقوف على أسباب عمق التلاحم والوحدة، والعلاقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم في زمن عجت فيه البلاد المجاورة للمملكة بالاضطراب وانعدام الأمن أو تذبذب المواقف والأحوال.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي المكرمات، وعلى آله وصحبه أولي المآثر الواسعات، أما بعد:

فقد ارتحلت في هذا البحث في عمق التجربة الخاصة بالكاتب وأصحابه في هذا الوقت المتقدم من نشأة المملكة، ووقفت -مع القارئ- على عدد من الأنساق التي تناغمت في تشكيل صورة المجتمع وتعايش أهله مع بعضهم ثم مع المختلف العابر.

وقد خلصت إلى عدد من النتائج التي يغلب على الظن أنها نتائج متجذرة في المجتمع وليست حادثة لمجاملة ضيوف الملك ومكانتهم الاعتبارية في بلادهم، ولاسيما في الحوادث التي وقعت لهم دون أن يعرف الناس طبيعتهم وسبب وجودهم أو سفرهم، ومن هذه النتائج:

١- وضوح النسق السياسي في تلك الحقبة المتقدمة، بدءا من العناية بالحدود وترسيمها، والإعلان عن اسم الدولة الحديثة، مرورا بوجود مركز الحدود والإمارات المتعددة التي تعي الفارق بين التنظيم الإداري وواجبات الضيافة والترحيب.

٢- قدرة الملك عبدالعزيز على اختيار الشخصيات المناسبة التي تترك الانطباع الطيب لدى الآخر، مع القيام بشؤون الحكم وتأسيس المدن وفق رؤية واضحة ووعي سياسي.

٣- وضوح نسق التشريفات إن صحت التسمية في الممارسة السياسية في صغرى المحافظات وكبراها، وتتراوح هذه التشريفات بين الإسكان والولائم

والترحيب الدائم. وبدا هذا واضحا في ضيافة القريات وضيافة تبوك وضيافة العلا وغيرها.

٤- التغير الاجتماعي الظاهر في النسق والأعراف بدا واضحا في خطاب الكاتب ووعي المواطن السعودي، الذي يلتقيه الكاتب في القرى والمدن وطرق السفر، وقوام هذا التغير الوعي بالمختلف ومحاورته في القناعات وهضم كل ما يجده من اختلاف الآخر في مسألة المساجد مثلا أو غيرها من المسائل.

٥- بناء المؤسسات الاجتماعية وأثرها في تشكيل المجتمع السعودي بدا واضحا في النسق المنقول عبر الرحلة وإن اختلفت درجاته في الرحلة.

٦- شيوع الثقافة بشكل بارز في مختلف شرائح المجتمع، بدءا من رأس الهرم جلالة الملك عبدالعزيز وحتى أعيان الناس وأفرادهم، فمجالس العلم، وشيوع الثقافة والمكتبات أمر ملاحظ ولم يجد الكاتب عناء في تلمسه ورؤيته.

٧- من النسق الثقافي ما يبدو في السلوكيات والممارسات، كما بدا في ثقافة القهوة والترحيب المتكرر، إلى شكل الدعوة الضمنية إلى الضيافة الذي يقوم به الأمير وأعوانه ورجاله، انتهاء بالحرفية الدقيقة في إعداد القهوة وتقديمها وإخضاع الضيوف لطقوسها في القبول أو الاكتفاء.

٨- العناية بالأسلوب في رسم الأنساق، وهي عناية خفية تصور وتنقل وتمتع وربما استعمل الكاتب الأساليب البلاغية المختلفة من المجاز والصور إلى المبالغة والتحسين المعنوي، المهم أن الأسلوب جاء خادما للمعاني، راسما

للرحلة، مصورا للأنساق، حتى بدت الرحلة بحق شهادة أدبية على واقع تاريخي وأمس مجيد وتحول سريع نحو الحضارة بوعي وقيم.

٩- حضور النسق المضمر إلى حد ما في الرحلة، وهو حضور وإن بدا خافتا إلى أنه يحمل دلالات يمكن تحليلها تتعلق بالأنساق الثلاثة، وتبدو من خلالها بعض الأنظمة غير المعلنة التي يتعاهدها المجتمع والحاكم دون إعلان أو نظام مقرّ، ووظيفة هذه الأنساق الحفاظ على الماضي وبناء الحاضر، واستيعاب الوافد المختلف وإشعاره باللحمة الواحدة واستيعاب تجربته واختلافه دون شرط التحول إلى الذات/ العادات.

ويرى الباحث أن هذه اللبنة إن وُفِّقت فهي لا تعود أن تكون استهلالا يجب أن يتبعه بحوث رصينة ترصد شكل المملكة إبان التأسيس وقبله كما يراه الآخر الذي يفد كل عام للحج والعمرة أو التجارة أو غير ذلك.

كما أن البحث في الرحلة يجب ألا يقف عند الرحلات المفردة، بل يحسن تأمل الرحلات التي صنعت قبيل تأسيس المملكة وبعدها لتكون الدراسة مقارنة بما يحدد ما قبل وما بعد توحيد المملكة وأثر ذلك في الأنساق المختلفة، خاصة في باب الرحلات الاستكشافية التي قام بها الرحالة الغربيون مثل رحلة الإنجليزية (آن بلنت: الحج إلى نجد) ورحلة السويسري: (ملاحظات عن البدو والوهابيين) وغيرهما،

خاصة أنهما يؤرخان لحقبة ما قبل الدولة السعودية الثالثة بمدد متفاوتة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً الكتب:

١- الأنثروبولوجيا الألسنية، ألسندرو دورانتي، ترجمة فرانك درويش، المنظمة العربية للترجمة- بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

٢- بلاغة العقل العربي: تجليات المثاقفة في التراث النقدي، د. محمد بن سعد الدكان، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٤م.

٣- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، أبو عمر يوسف بن عبدالله المعروف بابن عبدالبر، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

٤- تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله الصالح العثيمين، مكتبة العبيكان- الرياض، ط١٣، ١٤٢٦هـ.

٥- الحج إلى نجد، آن بلنت، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٦- حلم في نجد، علي الطنطاوي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام- الرياض، ط١، ١٤٠٢هـ.

٧- دمشق: البناء العمراني في العصر العثماني، محمود زين العابدين، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة- أبوظبي، ط١، ١٤٣٦/ ٢٠١٥م.

٨- ذكريات، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع- جدة، ط٣، ١٤٢١هـ.

٩- الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، محمد الحاتمي، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- أغادير، د.ط، ٢٠١٢م.

١٠- الرحلة في الأدب العربي: التجنيس.. آليات الكتابة.. خطاب المتخيل، د. شعيب حليفي، رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

١١- عتبات: جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبدالحق بلعابد، تقديم د. سعيد يقطين، منشورات الاختلاف و: الدار العربية للعلوم- الجزائر، ط١، ١٤٢٩هـ.
١٢- علي الطنطاوي كان يوم كنت: صناعة الفقه والأدب، د. أحمد علي أحمد آل مريع العسيري، مكتبة العبيكان- الرياض، ط٤، ٢٠١٧م
١٣- علي الطنطاوي وآراؤه في الأدب والنقد: رائد السمهوري، دار مدارك- الرياض، ط٢، ٢٠١٢م
١٤- قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، د.ط، ١٩٨٤م
١٥- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر — بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٦- اللسانيات الأنثروبولوجية: منظور معرفي لدراسة بنية الثقافة العراقية، جواد كاظم التميمي، كنوز المعرفة- عمّان، ط١، ٢٠١٩م.
١٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
١٨- المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام الطائي، د. فوزية علي زوباري، مجلة مجمع اللغة العربي بدمشق، المجلد ٨٧، ج٢، جمادى الأولى ١٤٣٣هـ.
١٩- ملاحظات عن البدو والوهابيين جرى جمعها خلال التجوال في الشرق، جون لويس بوركهارت، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
٢٠- من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، دار الفكر- دمشق، د.ط، ١٤٠٠هـ.
٢١- النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط٣، ٢٠٠٥.

ثانيا: الرسائل العلمية:

٢٢- التشبيه في ذكريات علي الطنطاوي: دراسة بلاغية نقدية، إبراهيم بن عبدالله المجلي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، ١٤٣٥هـ.

٢٣- القصة في أدب الشيخ علي الطنطاوي: دراسة نقدية، وائل بن يوسف العريني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، ١٤٣٢هـ.

ثالثاً: المواقع الشبكية:

٢٤- موقع رؤية المملكة ٢٠٣٠م: https://cutt.us/3lekI .

٢٥- موقع شركة مكة للإنشاء والتعمير: https://cutt.us/8m2bD .

٢٦- موقع هيئة الخبراء بمجلس الوزراء: https://cutt.us/1cG45 .

First the books:

1. Linguistic Anthropology, Alessandro Durante, translated by Frank Darwish, The Arab Organization for Translation - Beirut, 1, 2013 AD.
2. The eloquence of the Arab mind: manifestations of culture in the critical heritage, d. Mohammed bin Saad Al-Dukan, The Arab Cultural Center - Casablanca, 1st Edition, 2014.
3. The joy of the councils, the forgetfulness of the councils, the sharpening of the mind and the obsession, Abu Omar Youssef bin Abdullah, known as Ibn Abd al-Bar, investigation: Muhammad Morsi al-Khouli, Dar al-Kutub al-Ilmiyya - Beirut, 2nd edition, 1981 AD.
4. History of the Kingdom of Saudi Arabia, d. Abdullah Al-Salih Al-Othaimeen, Al-Obaikan Library - Riyadh, 13th edition, 1426 AH.
5. Pilgrimage to Najd, Anne Blunt, translated by Sabri Muhammad Hassan, The National Center for Translation - Cairo, 1, 2007 AD.
6. A dream in Najd, Ali Al-Tantawi, Dar Al-Asala for Culture, Publishing and Media - Riyadh, 1, 1402 AH.
7. Damascus: Urban Construction in the Ottoman Era, Mahmoud Zain Al Abidin, Abu Dhabi Tourism and Culture Authority - Abu Dhabi, 1, 1436/2015 AD.
8. - ٨memories, Ali Al-Tantawi, Dar Al-Manara for Publishing and Distribution - Jeddah, 3rd edition, 1421 AH.
9. The Moroccan Susi journeys between knowledge and literature, Muhammad Al-Hatami, Research Laboratory in Heritage, Media and Terminology, Faculty of Letters and Human Sciences - Agadir, d.T, 2012.
10. The Journey in Arabic Literature: Naturalization... Mechanisms of Writing... The Discourse of the Imaginary, Dr. Shoaib Halifi, Vision for Publishing and Distribution - Cairo, 1, 2006 AD.

11. Thresholds: Gerard Genette from the text to the manas, Abdelhak Belabed, presented by Dr. Said Yaqtin, Publications of Difference and: Arab House of Sciences - Algeria, 1, 1429 AH.
12. Ali Al-Tantawi was the day I was: the industry of jurisprudence and literature, d. Ahmed Ali Ahmed Al Marei' Al-Asiri, Obeikan Library - Riyadh, 4th edition, 2017 AD
13. Ali Al-Tantawi and his views on literature and criticism: Raed Al-Samhouri, Dar Madarak - Riyadh, 2nd Edition, 2012
14. Dictionary of Linguistics, Abd al-Salam al-Masadi, Arab Book House, d., 1984 AD
15. Lisan al-Arab, Jamal al-Din Ibn Manzur al-Ansari, Dar Sader - Beirut, 3rd edition, 1414 AH.
16. Anthropological Linguistics: A Cognitive Perspective to Study the Structure of Iraqi Culture, Jawad Kazem Al-Tamimi, Treasures of Knowledge - Amman, 1st Edition, 2019.
17. Musnad of Imam Ahmad bin Hanbal, Ahmad bin Hanbal Al-Shaibani, investigation by: Shuaib Al-Arnaout, Adel Murshid and others, Al-Resala Foundation - Beirut, 1, 1421 AH.
18. The objective equivalent in the praises of Abi Tammam Al-Ta'i, d. Fawzia Ali Zobari, Journal of the Arabic Language Academy in Damascus, Volume 87, Volume 2, Jumada al-Ula 1433 AH.
19. Notes about the Bedouins and the Wahhabis, collected during wandering in the East, John Lewis Burckhardt, translated by Sabri Muhammad Hassan, the National Center for Translation - Cairo, 1, 2007 AD.
20. From Nafhat Al-Haram, Ali Al-Tantawi, Dar Al-Fikr - Damascus, d., 1400 AH.
21. Cultural Criticism: A Reading of Arab Cultural Forms, Abdullah Al-Ghadami, Arab Cultural Center - Beirut, 3rd Edition, 2005.

Second: Scientific Theses:

22. The analogy in the memories of Ali Al-Tantawi: a critical rhetorical study, Ibrahim bin Abdullah Al-Majli, Imam Muhammad bin Saud Islamic University - Riyadh, 1435 AH.
23. The Story in the Literature of Sheikh Ali Al-Tantawi: A Critical Study, Wael bin Youssef Al-Arini, Imam Muhammad bin Saud Islamic University - Riyadh, 1432 AH.

Third: Websites:

24. The Kingdom's Vision 2030 website: https://cutt.us/3lekI.
25. Makkah Construction and Development Company website: https://cutt.us/8m2bD.
26. The Council of Ministers' Committee of Experts website: https://cutt.us/1cG45.

تكثيف الشاهد الشعري في المدوَّنة البلاغية
مبحث التخييل في المنزع البديع للسجلماسي أنموذجاً

د. محمد بن سعد القحطاني
قسم اللغة العربية – كلية التربية بالمجمعة
جامعة المجمعة

تكثيف الشاهد الشعري في المدوَّنة البلاغية مبحث التخييل في المنزع البديع للسجلماسي أنموذجاً

د. محمد بن سعد القحطاني

قسم اللغة العربية – كلية التربية بالمجمعة
جامعة المجمعة

تاريخ تقديم البحث: ٢٨/ ١/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ١٣/ ٨/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

تقف هذه الدراسة النقدية على ظاهرة تكثيف الشاهد الشعري في المدوَّنة البلاغية؛ حيث يأخذ التكثيف في الشاهد مسارين؛ هما: تكثيف المتداول، وتكثيف التكثير؛ فالأول منهما يكون بتداول شواهد متكرّرة بين البلاغيين، والآخر يقوم على تكثير الشواهد الشعرية في الدَّرس البلاغي، وكان مبحث التخييل من كتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسي عينة البحث التي تقوم عليها الدراسة.

وقسَّمت البحث إلى تمهيد، ومبحثين، وخاتمة. في التمهيد تناولت مفهوم التكثيف والتخييل، مع التعريف بكتاب المنزع البديع. وفي المبحث الأول درست منهجية تكثيف الشاهد، وذلك في محورين؛ هما: تكثيف المتداول، وتكثيف التكثير. وفي المبحث الثاني تحدثت عن تقويم منهجية التكثيف في النوعين، وذلك في جانبي الاختيار والنقد، ثم ختمت البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها.

الكلمات المفتاحية: تكثيف الشاهد –الشاهد الشعري –المنزع البديع –البلاغة في المغرب.

Intensification of Poetic Evidence in Rhetorical Blog The Imagination Thesis of (Al-Manzaa Al-Badi') Book as a Model

Dr. Mohammed Saad ALQahtani
Department Arabic Language – Faculty Education in Majmaah
Majmaah university

Abstract:

This critical examination research investigates the phenomenon of intensifying poetic evidence in the rhetorical blog. Intensification of the poetic evidence has two types :

intensification of the frequent and intensification of the increase. Achieving the first type by distributing the frequently used poetic evidence among the rhetoricians. The second type, increasing poetic evidence in the rhetorical lesson. The study sample consisted of the fictional thesis of (Al-Manzaa Al-Badi' fi Tajnees Asaleeb Al-Badi's) book by Al-Sijilmasi.

The research consisted of a preface, two chapters, and a conclusion. Throughout the preface, the researcher has shed light on the concept of intensification and fiction. Also, the researcher introduced (Al-Manzaa Al-Badi's) book. In the first chapter, the researcher studied the methodology of evidence intensification through two types; intensification of the frequent and intensification of the increase. In the second chapter, the researcher discussed the evaluation of the intensification methodology in both types from the two aspects of selection and criticism. Finally, the conclusion included the most important findings of the research.

key words: Intensification of the Evidence - Poetic Evidence - Al-Manzaa Al-Badi'- Rhetoric in Maghreb.

مقدمة:

تبدو ظاهرة تكثيف الشاهد الشعري في المدوّنات البلاغية القديمة حاضرة بصورة لافتة للمتلقي؛ إذ يأخذ هذا التكثيف في الشاهد مسارين؛ هما: تكثيف المتداول، وتكثيف التكثير؛ فالأول منهما يكون بتداول شواهد متكرّرة بين البلاغيين، والآخر يقوم على تكثير الشواهد الشعرية في الدَّرس البلاغي، وهذان النوعان يتقاطعان في بروز هذه الظاهرة التي تُشكِّل سمة في استثمار البلاغيين للشاهد الشعري.

وتروم هذه الدراسة النقدية معالجة هذه الظاهرة، وطرح العديد من التساؤلات؛ ومن أهمها: ما منهجية التكثيف في شواهد الشعر عند البلاغيين؟ ولماذا التكثيف في تداول شواهد شعرية بعينها دون غيرها؟ وكيف تعامل البلاغيون المتأخرون مع شواهد التكثيف المتداول؟ وهل أسهم التكثيف التكثيري في خدمة المصطلح البلاغي؟ وما النوع التكثيفي الذي احتفى به البلاغيون؟ وهل أثرى البلاغيون شواهد التكثيف بتعقيبات نقدية أم أنها بقيت شواهد صامتة... وغيرها من التساؤلات المطروحة أمام المتلقي لهذه الظاهرة البلاغية في مدوَّنات البلاغيين القدماء. وهذه الأسئلة وغيرها هي ما أوعز الباحث إلى تقصِّي هذه الظاهرة ومدارستها، والإجابة عن هذه التساؤلات من خلال عيِّنة الدِّراسة لهذا البحث النقدي، في مبحث التخييل من كتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي.

وقد تناول عدد من النقاد موضوع التكثيف في الشاهد الشعري في العموم بمسمّى تكرار الشاهد الشعري؛ ولعل من أهم هذه الدراسات: كتاب (مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني) لمراد عياد، وكتاب (الشاهد الشعري عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة) لمحمد أحمد شهاب. وهذان الكتابان لم يدرسا كتاب المنزع البديع، كما أن مباحث هذه الدراسة تختلف عما في الكتابين. أما مبحث التخييل في المنزع البديع فقد وقفت على عدد من الأبحاث التي درست مبحث التخييل في كتاب المنزع البديع؛ ومنها: كتاب (مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة) لعلال الغازي، وذلك في إحدى مباحث الكتاب، ورسالة ماجستير بعنوان: (الشواهد الشعرية في كتاب المنزع البديع للسجلماسي) لفاطيمة زاوي، و(موقع التخييل عند السجلماسي) للدكتورة إيناس محمود أبو سالم. وهذه الدراسات أيضاً لم تتقاطع مباحث هذا البحث معها؛ إذ تختلف موضوعات المباحث، ومنهجية التناول للموضوع؛ إذ يُعنى هذا البحث بدراسة منهجية تكثيف الشواهد الشعرية في مبحث التخييل في المنزع البديع وتقويمها، مما يعني أصالة هذه الدراسة النقدية.

وقسَّمت البحث إلى تمهيد، ومبحثين، وخاتمة. في التمهيد تناولت مفهوم التكثيف والتخييل، مع التعريف بكتاب المنزع البديع. وفي المبحث الأول درست منهجية تكثيف الشاهد؛ وذلك في محورين؛ هما: تكثيف المتداول، وتكثيف التكثير. وفي المبحث الثاني تحدثت عن تقويم منهجية

التكثيف في النوعين، وذلك في جانبي الاختيار والنقد، ثم ختمت البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها.

وقد اعتمدت المنهج الوصفي؛ للوصول إلى نتائج بحثية مقنعة، مع الأخذ بالمنهج الإحصائي فيما يتعلق بإحصائيات تكثيف الشواهد الشعرية في النوعين من هذه الدراسة.

التمهيد:

- **مفهوم التكثيف والتخييل:**

التكثيف في اللغة يدل على تراكب شيء على شيء وتجمُّع، يُقال: هذا شيء كثيف[١]. وجاء في اللِّسان أن الكثافة تعني الكثرة والالتفاف، والكُثاف الكثير المتراكب الملتفُّ من كل شيء[٢].

فالتكثيف إذن يدور في معنى الكثرة، وهو المراد من استثمار البلاغيين للشواهد؛ إذ التكثيف فيها يدل على الكثرة التي تعني تداول شواهد بعينها في مدوَّنات البلاغة القديمة، وهو ما يُعرف بتكثيف المتداول، كما يعني التكثيف أيضاً تكثير إيراد شواهد أخرى في الدَّرس البلاغي الواحد؛ تأكيداً وتوضيحاً، وهو ما يُطلق عليه تكثيف التكثير، وكلاهما يتعاوران في معنى الكثرة مع اختلاف النوع.

أما التخييل فيعرِّفه السجلماسي[٣] بقوله: "هذا الجنس من علم البيان يشتمل على أربعة أنواع تشترك فيه... وهي: نوع التشبيه، ونوع

---

(١) انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون. (د.م): دار الفكر، (د.ط)، ١٣٩٩هـ. مادة: (ك ث ف).

(٢) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، تحقيق: عامر أحمد حيدر. بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٣٠هـ. مادة: (ك ث ف).

(٣) هو أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري السجلماسي، ولد ونشأ بسجلماسة، ورحل إلى فاس، فأخذ عن علمائها، ودرَّس في القرويين. أديب صنَّف كتاب (المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع)، وفاته (-بعد ٧٠٤هـ). انظر: الزركلي، **الأعلام**. بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م. ص: ٥/ ١٨١.

الاستعارة، ونوع المماثلة -وقوم يدعونه التمثيل-، ونوع المجاز، وهذا الجنس هو موضوع الصناعة الشعرية"[١]، فهذه الأنواع الأربعة التي يقوم عليها جنس التخييل تحت ما يُسمى بعلم البيان، وهو تعريف اشتمل على تبيان الأنواع المتفرِّعة عنه.

إن التخييل عند السجلماسي يعني به "الاستخدام المتميز للغة الشعرية من خلال شحنات التصوير وانزياح دلالات الكلام بعلاقات المقارنة أو النسبة أو الإبدال، بالإضافة إلى إشارة مصطلح التخييل إلى مكوناته... وأنه مرادف للمحاكاة، والأهم من ذلك أنه الجوهر الأساس للصناعة الشعرية"[٢].

- **التعريف بالمنزع البديع:**

يشتمل كتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع على مقدِّمة وعشرة أجناس عالية في صناعة البيان والبديع وخاتمة.

ففي مقدِّمة الكتاب يذكر السجلماسي داعي التأليف بقوله: "فقصدنا في هذا الكتاب الملقَّب بكتاب (المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع) إحصاء قوانين أساليب النظوم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع، وتجنيسها في التصنيف، وترتيب

---

(١) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق: علال الغازي. الرباط: مكتبة المعارف، ط١، ١٤٠١هـ. ص: ٢١٨.

(٢) د. إيناس محمود أبو سالم، **موقع التخييل عند السجلماسي**. مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، مجلد: ٢٨، عدد: ١٥، ٢٠٢٠م. ص: ٩٤.

أجزاء الصناعة في التأليف، على جهة الجنس والنوع وتمهيد الأصل من ذلك للفرع، وتحرير تلك القوانين الكلية، وتجريدها من المواد الجزئية بقدر الطاقة، وجهد الاستطاعة"[١].

ثم ينتقل إلى تحديد الأجناس العشرة في هذه الصناعة؛ وهي: الإيجاز، والتخييل، والإشارة، والمبالغة، والرَّصف، والمظاهرة، والتوضيح، والاتِّساع، والانثناء، والتكرير[٢]، فهذه مباحث كتاب المنزع البديع التي قدَّمها السجلماسي بأسلوب مغاير لما ألفته البلاغة العربية في القديم.

إن المنهج الذي صنعه السجلماسي في منزعه البديع يعد منهجاً جديداً يخالف به مناهج البلاغيين القدماء، ومنهج معاصريه؛ ومنهم حازم القرطاجني؛ وذلك لثقافته المتنوعة من العصور السابقة؛ لعل من أهمها: الثقافة اللغوية، والإعجازية، والأدبية، والبلاغية، والنقدية، والفلسفية، والمنطقية، فصاغ هذه النظرية في كتابه[٣]. وقد بنى السجلماسي منزعه البديع على علم الأساليب، وسمى كل مصطلح باسم أسلوب؛ لتتكرر اللفظة في الكتاب نحو ثلاثين مرة، فالأسلوب يعني الطريقة التي يقوم بها أي مصطلح ضمن الحدود التي وضعها السجلماسي في كتابه[٤].

---

(١) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ١٨٠.

(٢) انظر: **المصدر السابق**: ١٨٠.

(٣) انظر: علال الغازي، **مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، ١٩٩٩م. ص: ٤٩٨.

(٤) انظر: **المرجع السابق**: ٤٩٩.

المبحث الأول: منهجية السجلماسي في تكثيف الشاهد الشعري:

تمثل الشواهد الشعرية في المنزع البديع النسبة الأولى بين مختلف الشواهد الأخرى؛ إذ بلغ عدد شواهد المنزع الشعرية سبعة وسبعين وستمائة (٦٧٧) شاهدٍ؛ ما بين بيت، وشطر، ومكرَّر حسب اقتضاء السياق، كما توزعت هذه الشواهد على مصطلحات المنزع من عصور الشعر العربي منذ العصر الجاهلي إلى ما قبل عصر المؤلف بقليل، فشملت رقعة العالم الإسلامي؛ من أقصى آسيا، مروراً بالشرق العربي، والمغرب، فالأندلس(١).

وهذه الغلبة للشواهد الشعرية على غيرها من الشواهد أمر حاصل في المصنَّفات البلاغية، مما يدل على أهمية المدوّنة الشعرية كحامل أساسي للنظرية البلاغية عند العرب(٢)، وهو ما يعني أن البلاغة مدينة في أصولها للشعر كما يقول الدكتور محمد مشبال(٣)؛ إذ إن "الشعر هو الجنس الأدبي الذي صدرت عنه معظم أصول البلاغة وسماتها"(٤). فالشعر له

(١) انظر: علال الغازي، **مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة**: ٥٦٧.

(٢) انظر: مراد بن عياد، **مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني**. صفاقس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (د.ط)، ٢٠٠١م. ص: ٤٥٤/٢.

(٣) انظر: **البلاغة والأصول**. المغرب: أفريقيا الشرق، (د.ط)، ٢٠٠٧م. ص: ٣٩.

(٤) **المرجع السابق**: ٣٨.

المكانة الأسمى التي لا تبلغها لغة النثر؛ حيث اللغة العليا على المستوى النظري والتطبيقي[١].

وكان اختيار السجلماسي للشاهد الشعري خدمة للمصطلح، ولذلك تعامل مع الشعراء على اختلاف طبقاتهم ومدارسهم وتياراتهم ومستوياتهم، ليصل عدد الشعراء إلى أكثر من تسعة عشر ومائتي (٢١٩) شاعر[٢].

وقد بلغ عدد شواهد السجلماسي الشعرية في مبحث التخييل (١٣٠) مائة وثلاثين شاهداً، وهذه الشواهد تنوعت ما بين أبيات، وبيت، وشطر، وجزء من الشطر؛ في مجموع وصل إلى (١٨٩) مائة وتسعة وثمانين بيتاً[٣]. وجاء عدد شواهد النوع الأول: التشبيه (٤٩) تسعة وأربعين شاهداً[٤]، وبلغت شواهد النوع الثاني: الاستعارة (٢٩) تسعة وعشرين شاهداً[٥]، ووصل عدد شواهد النوع الثالث: المماثلة إلى (٢٢) اثنين وعشرين شاهداً[٦]، كما بلغت شواهد النوع الرابع: المجاز (٢٨)

---

(١) انظر: د. أحمد محمد المعتوق، **اللغة العليا (دراسات نقدية في لغة الشعر)**. المغرب: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦م. ص: ٨٠.

(٢) انظر: علال الغازي، **مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة**: ٥٦٧.

(٣) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٠-٢٦١.

(٤) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٠- ٢٣٥.

(٥) انظر: **المصدر السابق**: ٢٣٥- ٢٤٣.

(٦) انظر: **المصدر السابق**: ٢٤٥- ٢٥٢.

ثمانية وعشرين شاهداً[١]، وختم السجلماسي حديثه عن جنس التخييل بأهمية المعاني الشريفة في التخييل، وأورد (٢) شاهدين اثنين لذلك[٢].

واعتمد السجلماسي في عرض شواهده الشعرية على مقياس الجودة الفنية في الشاهد نفسه؛ ليخدم المصطلح البلاغي الذي يُفسِّره الشاهد ويُوضِّحه، من غير التزام بالترتيب الزمني في سوق الشواهد، ولذلك تراه في أكثر من موضع يُصرّح بهذا المقياس عند الاستشهاد في أنواع التخييل؛ ومن ذلك قوله: "ومن بديعها في الشعر..." [٣]، وقوله: "ومن صورها البديعة المليحة..." [٤]، وقوله: "فمن صورها البديعة..."[٥].

وستقف الدراسة على أهم المدوَّنات البلاغية القديمة التي يمكن إرجاع شواهد التكثيف الشعرية إليها، أو إلى بعضها، أو -على الأقل- إلى واحد منها؛ وهي: البديع لابن المعتز (-٢٩٦هـ)، وعيار الشعر لابن طباطبا (-٣٢٢هـ)، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (-٣٩٥)، والعمدة لابن رشيق (-٤٥٦هـ)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ)، ومفتاح العلوم للسكاكي (-٦٢٦هـ).

---

(١) انظر: **المصدر السابق**: ٢٥٢- ٢٦٠.

(٢) انظر: **المصدر السابق**: ٢٦١.

(٣) **المصدر السابق**: ٢٣٠.

(٤) **المصدر السابق**: ٢٤٦.

(٥) **المصدر السابق**: ٢٥٠.

لقد تنوع التكثيف في شواهد الشعر عند السجلماسي في منزعه البديع؛ فجاء التكثيف في الشاهد الشعري على مستويين؛ هما: تكثيف المتداول لشواهد بعينها وردت عند البلاغيين المتقدِّمين، والآخر تكثيف التكثير في إيراد الشواهد؛ إذ لا يكتفي السجلماسي بالشاهد الواحد لمصطلحه البلاغي، إنما يعمد إلى هذا المستوى من التكثيف، فتأتي الشواهد الشعرية متعاقبة، وفي هذين المستويين من التكثيف في الشواهد تسير الدراسة النقدية في منهجية التكثيف التي اعتمدها السجلماسي في منزعه البديع، وذلك في مبحث التخييل.

أ- منهجية تكثيف المتداول:

إن الوقوف على الشاهد الأول في كتب التراث النقدي والبلاغي له أهمية بالغة في وجاهة الشاهد الشعري نفسه في سياق خطاب القول، ومدى تحقُّق القيمة الجمالية فيه، فالاختيار من مجموع المدوّنات الشعرية لآحاد الأبيات المنتزعة من القصائد له ما يبرِّره عند الانتقاء من الناقد الأول، أو البلاغي المتقدّم، غير أن بعض المتأخرين اقتفوا أثرهم في تتبع عينة الاختيار الشعري، فظهر ما يُمكن تسميته بتكثيف المتداول لبعض الشواهد دون بعضها الآخر، مما كوّن منها ظاهرة في الاستشهاد عند القدماء.

وتقف أسباب متعددة لتداول شواهد شعرية بعينها بين النقاد والبلاغيين القدماء؛ ولعل من أهمها: تعقيب الناقد اللاحق على السابق في الشاهد المكرَّر، وورود الشاهد مع اختلاف المصطلح المساق له

الشاهد، والاهتمام بالشعر الجاهلي والإسلامي دون الشعر المحدث، واقتفاء بعض النقاد لشواهد السابقين؛ خوفاً من التغيير، إضافة إلى تبعية بعض النقاد والبلاغيين لاتجاهات فكرية أثرت في تكرار الشواهد(١).

وقد نبّه الدكتور عبد الرزاق الصالحي إلى ضرورة إخراج معجم بالشواهد المكرَّرة، وعدم التسليم بما قاله الناقد الأول؛ إذ "يُغري تتبع الشواهد المكرورة في العصور النقدية المتعاقبة بالبحث بجدية في الزعم القائل بسرقة النقد، لتبين حقيقة هذا الادعاء من بطلانه، ولا يتأتى مثل هذا البحث إلا بإخراج معجم بالشواهد المكرورة وبالنصوص النثرية المصاحبة لها، ثم بالتزام الضبط والتدقيق، وعدم التسرع في الأحكام، مع التخلص من عقدة التسليم بصحة كل قديم وتنزيه وإجلال مجهودات القدماء من غير ما تمحيص أو تبيُّن"(٢).

لقد تداول البلاغيون القدماء شواهد شعرية في مباحثهم البلاغية، وكان اللاحق منهم يقتفي أثر السابق في استشهاده الشعري؛ تأثراً واحتذاء، غير أن بعض البلاغيين المتأخرين تعاملوا مع هذه الشواهد المتداولة برؤية نقدية مغايرة؛ إذ يبدو في بعضها المتداول التقويم النقدي، أو التحليل بما يخدم سياق الخطاب المستشهَد له.

---

(١) انظر: محمد أحمد شهاب، **الشاهد الشعري عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة**. سوريا: دار الحوار للنشر، ط١، ٢٠١١م. ص: ١٩، ٢٠.

(٢) **الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج)**. الأردن: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٠م. ص:٤٩٩.

إن ظاهرة تكثيف الشواهد الشعرية بتداولها بين النقاد والبلاغيين في مدوَّناتهم تقضي بعدد من الافتراضات الواقعة في تعاملهم مع تلك الشواهد المتداولة؛ وهي لا تخلو من ثلاثة مستويات؛ هي: تداول الشاهد مع تكرار الرأي السابق، وتداول الشاهد مع نقض الرأي السابق، وتداول الشاهد مع مخالفة المستشهَد له.

أما المستوى الأول من تداول الشاهد وتكرار الرأي السابق فقد أشار إلى سلبية هذا التداول مراد بن عياد، عند حديثه عن ظاهرة التواتر الكمي في الاستشهاد، وما فيها من تعطيل للنص، فيقول: "ومن سوء حظ البلاغة العربية أنها عرفت تراكماً في هذا المعنى؛ وهو أن تقع اختيارات البلاغيين على بعضها البعض، فيُعيد اللاحق عرض المادة المقرَّرة بعد بتعليقاتها، فتنسدّ إمكانيات الثراء، وتتوقف الاجتهادات"[1]. وأما المستويان الآخران من التداول المتكرِّر بين الشواهد الشعرية فلهما قيمة نقدية مُبرَّرة في التقويم النقدي، بحسب المنهجية التأليفية في الدرس النقدي والبلاغي القديم.

ولعل من المناسب الإشارة إلى نوع آخر من التكثيف المشاع والمنتشر بين الشعراء في الصور والأخيلة؛ إذ يدور التكثيف في تداول صور بعينها، فإذا بهذه الأخيلة تتكرر عند الشعراء فيما ينتجونه من أشعار؛ لتصل هذه الأشعار إلى المتلقين، وقد ألفوا مثل هذه الصور التي تدور في مشاهد

(١) **مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني**: ٤٤٣/٢.

محدّدة؛ لترسم نوعاً من التكثيف المتداول في جنس هذه الأوصاف البيانية.

ومن هذا القبيل يذكر الدكتور عبد الملك مرتاض تكثيفاً لتداول شواهد بعينها؛ إذ إن البلاغيين القدماء حنطوا طائفة من التشبيهات والاستعارات، وذلك بتخصيص أشياء لا يكادون يجاوزونها إلى غيرها، فغدت كالقواعد المتبعة، مما قيَّد حريَّة الخيال؛ فصوَّروا المرأة الحسناء كالقمر أو الشمس، ولا تكون غير ذلك، وكذلك الرجل الشجاع كالأسد والهزبر، ولا يكون غير ذلك، والرجل السخي كالبحر... مع أن الأرض رحبة، والخيال خصب(١).

ويعد السجلماسي في مصنَّفه المنزع البديع واحداً من هؤلاء البلاغيين الذين أفادوا من القدماء، فتداول عدداً من الشواهد الحاضرة في المدوَّنات البلاغية القديمة، مما يعني مزيد تكثيف لعينة من الشواهد الشعرية بتداولها في المباحث البلاغية على امتداد عصور التأليف البلاغي القديم.

وفي مبحث التخييل من كتاب المنزع البديع نقف على شواهد التكثيف الشعرية المتداولة بين المؤلفات البلاغية السابق ذكرها؛ إذ يبلغ تعدادها في مجموعها العام (٢٢) اثنين وعشرين شاهداً(٢)؛ فقد ذكر في

---

(١) انظر: **نظرية البلاغة متابعة لجماليات الأسلبة العربية**. الإمارات: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣٢هـ. ص: ١٧٤.

(٢) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦١.

التشبيه (١٢) اثني عشر شاهداً، وفي المماثلة (٩) تسعة شواهد، وأورد شاهداً واحداً في خاتمة مبحث التخييل.

وهذه الشواهد -على قلَّتها- تعطي انطباعاً أولياً لمنهجية الاستشهاد عند السجلماسي؛ إذ يخالف معظم البلاغيين في مدوَّناتهم التي يكثِّفون من تداول شواهد شعرية بعينها[١]، وهو مما يحسب له في منزعه البديع، فهذه الشواهد المتداولة التي وصلت إلى (٢٢) اثنين وعشرين شاهداً تُعدّ قليلة من مجموع شواهده التي بلغت (١٣٠) مائة وثلاثين شاهداً، وهو ما يُكسب شواهده خصوصية الانتقاء من مختلف الأشعار.

وقد بلغ عدد الشعراء الذين استشهد لهم في هذا النوع من التكثيف المتداول (١٧) سبعة عشر شاعراً، وذلك في نوعين من أنواع التخييل؛ هما التشبيه والمماثلة؛ إذ أورد في التشبيه شواهد لـ (٩) تسعة شعراء؛ استشهد لثلاثة منهم بشاهدين مختلفين؛ وهم: امرؤ القيس، والبحتري، وابن المعتز[٢]، وفي المماثلة ذكر شواهد لـ (٨) ثمانية شعراء؛ منهم المتنبي الذي استشهد بشعره في موضعين مختلفين أيضاً[٣]، واستشهد ببيت لابن المعتز

---

(١) انظر: نسبة الشواهد المتداولة بين البلاغيين القدماء في مؤلفاتهم، والتي ذكرها محمد أحمد شهاب في كتابه: **الشاهد الشعري عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة**: ٣٣٠، ٣٣١.

(٢) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٠- ٢٣٥.

(٣) انظر: **المصدر السابق**: ٢٤٤- ٢٥٠.

في خاتمة مبحثه[١]، ليصل مجموع شواهده الشعرية من مجموع هؤلاء الشعراء إلى (٢٢) اثنين وعشرين شاهداً كما مرّ معنا. لقد تنوعت في مبحث التخييل شواهد التكثيف المتداولة من مدوّنات البلاغة القديمة، ولعل من أكثر هذه الشواهد الشعرية تداولاً بيت امرئ القيس[٢]:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي[٣]

فقد أورده السجلماسي في افتتاحية شواهد التشبيه، وذكر الشاهد مجزوءاً[٤]؛ إذ اكتفى منه بثلاث كلمات في أوله؛ لحظوة الشاهد بين البلاغيين وذيوع صيته، ولم يتبعه بشرح أو نقد؛ ربما لقرب معناه للمتلقي الذي أوكله إلى فهمه.

كما ذكر السجلماسي شاهداً متداولاً آخر في التشبيه لعنترة[٥]، وهو قوله:

---

(١) انظر: **المصدر السابق**: ٢٦٠- ٢٦١.

(٢) انظر: ابن طباطبا العلوي، **عيار الشعر**، تحقيق: د. عبد العزيز المانع. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، ٢٠٠٥. ص: ٤٠، والعسكري، **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل. بيروت: المكتبة العصرية، (د.ط)، ١٤٠٦هـ. ص: ٢٤٧، وابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. سوريا: دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ. ص: ٢٧٦/١.

(٣) **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، ط٥، (د.ت). ص: ١٨.

(٤) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٠.

(٥) **انظر: المصدر السابق**: ٢٢٢، ٢٢٣، وانظر: ابن المعتز، **البديع**، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي. بيروت: دار الجيل، ط٢، ٢٠٠٧م. ص: ١٦٩ (البيت الثاني) مع اختلاف في

وخلا الذباب بها فليس ببـارح غـرداً[1] كفعل الشـارب المترنّـم

هـزجاً يـحـك[2] ذراعـه بذراعـه فعل المُكِبِّ على الزِّناد الأجذَمِ

وجاء هذا الشاهد كسابقه مجرّداً من الشرح الأدبي والتعليق النقدي.

ومما يلحظ أن السجلماسي ابتدأ بذكر شواهد تكثيفية متداولة في النوع الأول من أنواع التخييل وهو التشبيه، دون تعقيب نقدي لها، ثم انتقل بعدها إلى سرد شواهد تكثيف التكثير كما سيتضح لاحقاً، مما يعني أنه اتكأ على شواهد التكثيف المتداول في أول مبحثه؛ ليسهل فهم مراد المصطلح البلاغي.

ومن شواهد التكثيف المتداول أيضاً ما أورده السجلماسي في التشبيه المركب؛ حيث استشهد ببيت متداول بين البلاغيين، من غير تعليق عليه بشرح أو نقد؛ لشهرته، وهو بيت امرئ القيس[3]:

الرواية، **وعيار الشعر**: ٢٩، مع اختلاف في الرواية، **والعمدة**: ٢٩٦/١، مع اختلاف في الرواية.

(١) في رواية الدِّيوان: فترى الذباب يُغني وحدَه هزِجاً، انظر: **ديوان عنترة**، تحقيق: محمد سعيد مولوي. (د.م): المكتب الإسلامي، (د.ط)، (د.ت). ص: ١٩٧.

(٢) في رواية الدِّيوان: غُرِداً يَسُنُّ، انظر: **المصدر السابق**: ١٩٨.

(٣) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٣٥، وانظر: **البديع**: ١٦٦، **وعيار الشعر**: ٢٦، **وكتاب الصناعتين**: ٢٥٠، **والعمدة**: ٢٩٠/١، وعبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود شاكر. جدة: دار المدني، ط١، ١٤١٢هـ. ص: ١٩٢، والسكاكي، **مفتاح العلوم**. مصر: مطبعة مصطفى الحلبي، ط١، (د.ت). ص: ١٦٠.

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[١]

وهذا الشاهد اشتهر بوروده في التشبيه المتعدِّد، غير أن السجلماسي أورده ضمن شواهد التشبيه المركب؛ وذلك باعتبار تقسيمه للتشبيه ابتداء؛ حيث جعله في نوعين؛ هما: البسيط، والمركب.

وفي النوع الثالث من التخييل وهو المماثلة، استشهد السجلماسي بعدد من شواهد التكثيف المتداول، وجاءت هذه الشواهد في صدر حديثه عن المماثلة[٢]، ولم يجرِ عليها تعليقاً بتوضيح أو نحوه، كما صنع مع افتتاح شواهد التكثيف المتداول في التشبيه مما سبق ذكره، عدا شاهد منها، وهو بيت امرئ القيس[٣]:

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتقدحي بسهميْكِ في أعشار قلبٍ مُقتَّلِ[٤]

فقد أجرى السجلماسي شرحاً لمراد المماثلة في البيت؛ إذ يقول: "فتمثل عينيها بسهمَي الميسر؛ يعني المُعَلَّى وله سبعة أنصباء. والرَّقيب وله ثلاثة أنصباء، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثَّل بهما

---

(١) **ديوان امرئ القيس**: ٣٨.

(٢) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٤٥-٢٤٧.

(٣) انظر: **المصدر السابق**: ٢٤٦، وانظر: **كتاب الصناعتين**: ٣٥٦، **والعمدة**: ١/ ٢٧٧.

(٤) **ديوان امرئ القيس**: ١٣.

عينيها، ومثَّل قلبَه بأعشار الجَزُور، فتمَّتْ له جهات المماثلة"[1]، وقد نقل هذا الشرح من ابن رشيق[2].

وهكذا تمضي شواهد الشعر في هذا النوع من التكثيف المتداول في التشبيه والمماثلة من مبحث التخييل؛ لتهيئ المتلقي لفهم المصطلح البلاغي الذي من أجله سيقت هذه الشواهد الشعرية وغيرها، وهي في معظمها لم تحظ بتفسير أو تحليل نقدي من السجلماسي، على الرغم من قلَّة شواهد التكثيف المتداول مقارنة بشواهد النوع الآخر.

ب- منهجية تكثيف التكثير:

درج البلاغيون القدماء على الاستئناس بجلب مزيد من الشواهد أياً كان نوعها في مباحث الدرس البلاغي، وربما تكاد تكون سمة في معظمها؛ إذ لا يكتفي البلاغي القديم عند الاستشهاد بشاهد واحد يوضح السياق، إنما يذكر عدداً من الشواهد تعضِّد بعضها بعضاً؛ ليقوى سياق الخطاب البلاغي بمثل هذه الشواهد التوضيحية، وهو ما يعرف بتكثيف التكثير.

وهذا نوع من الاختيار، يمكث فيه الناقد البلاغي مع عدد كبير من مدوَّنات الشعر العربي، فيأتي هذا الانتقاء من هذا المجموع لعوامل ترجع إلى دوافع الاختيار، وملاءمة هذه الشواهد المختارة للمصطلح البلاغي، ومدى ما تحقِّقه من إضافة في سياق القول.

---

(١) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٤٦.

(٢) انظر: **العمدة**: ١/ ٢٧٧.

وقد ذكر ابن رشيق (-٤٥٦هـ) أن الهدف الأسمى من تكثيف التكثير في الشواهد خدمة المتعلم؛ إذ يقول: "كلما أكثرت من الشواهد في باب، فإنما أريد بذلك تأنيس المتعلم، وتجسيره على الأشياء الرائعة"(١).

ولذلك فإن تكثيف التكثير للشواهد الشعرية في المصطلح البلاغي يرجع إلى الغاية التوضيحية، "فالنقاد العرب يتجهون إلى شرح بعض الأبيات ويحللونها نقدياً وموضوعياً، ثم يوردون الشواهد الأخرى من دون تحليل يذكر، تاركين فيها التحليل للقارئ، أو لطلبتهم مما يدل على وجود المنهج التعليمي عند بعض النقاد"(٢). وهذا منهج في التأليف البلاغي القديم، أَلِفه بعض البلاغيين القدماء، وحذا بعضهم بعضاً، على ما في الاحتذاء من تبعية وتقليد.

ويصور عبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ) معاناة الاختيار في شواهد الشعر؛ إذ يقول: "ثم إنك تحتاج أن تستقري عدة قصائد، بل أن تفلِي ديواناً من الشعر، حتى تجمع منه عدَّة أبيات"(٣). وهو تصوير دقيق لعمل النقاد والبلاغيين وغيرهم ممن ينتقون شواهد شعرية لموضوعاتهم؛ تدليلاً وتوضيحاً، فهو عمل شاق يتطلب جهداً في الانتقاء.

---

(١) **المصدر السابق**: ٢/ ٦٠.

(٢) محمد أحمد شهاب، **الشاهد الشعري عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة**: ٢٠.

(٣) **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، (د.ط)، (د.ت). ص: ٨٩.

وفي المنزع البديع يختار السجلماسي لمصطلحاته البلاغية الأربعة في مبحث التخييل شواهد شعرية متعددة، ويورد عدداً كثيراً في هذا المستوى من التكثيف، ليبلغ مجموع شواهد تكثيف التكثير (١٠٨) مائة وثمانية شواهد؛ حيث وصل عدد الشواهد في التشبيه (٣٧) سبعة وثلاثين شاهداً، وفي الاستعارة بلغ عددها (٢٩) تسعة وعشرين شاهداً، أما المماثلة فوصل عدد شواهد التكثيف بالتكثير (١٣) ثلاثة عشر شاهداً، فيما بلغت شواهد المجاز (٢٨) ثمانية وعشرين شاهداً، وأورد شاهداً واحداً في خاتمة التخييل.

وقد بلغ عدد شعراء شواهد التكثيف بالتكثير في أنواع التخييل الأربعة (٥١) واحداً وخمسين شاعراً، وكان على رأس هؤلاء الشعراء أبو العلاء المعري الذي استشهد بشعره في (٢٧) سبعة وعشرين موضعاً، ثم ابن خفاجة الذي استشهد بشعره في (١٧) سبعة عشر موضعاً، يليه المتنبي في (١٠) عشرة مواضع من شعره.

ويُلحظ أن التكثيف بالتكثير في سرد الشواهد الشعرية وتتابعها شمل الأنواع الأربعة في مبحث التخييل، وهو ما لم يكن للنوع الأول من التكثيف بالمتداول الذي قصره في نوعين من أنواع التخييل –وقد مرّ معنا– مما يعطي تصوراً شاملاً عن منهجية السجلماسي أثناء عرض شواهده الشعرية.

وأولى شواهده الشعرية في تكثيف التكثير ما استشهد به في التشبيه من قول ذي الرمة[١]:

ودَوِيَّةٍ مثل السماء اعتسفتُها وقد صبغ الليلُ الحصى بسوادِ[٢]

ولم يُعلِّق على الشاهد بشرح أو نقد، أو نحو من ذلك، ثم أتبعه بتكثيف تكثيري لشواهد الشعر في التشبيه، من غير تعقيب عليها، ويزيد في الاستدعاء الشعري؛ لتنويع الشواهد في التشبيه وتأكيد صورها.

ويكاد ينطبق هذا النوع من التكثيف التكثيري في الشواهد الشعرية على مبحث التخييل بأكمله؛ حيث تأتي متتابعة -في معظمها- بدون تفسير ولا نقد، فيتركها للمتلقي يتلقفها في قراءة تخصه لهذه الشواهد التكثيرية؛ تكثيفاً لخدمة المصطلح البلاغي، ولذلك يكتفي السجلماسي بما قرَّره في ابتداء الحديث عن المصطلح البلاغي الواحد؛ من تعريف وشرح، وهذا شائع في معظم هذا النوع من التكثيف.

إذن فالشائع في هذا النوع من التكثيف التكثيري تجريد الشواهد الشعرية من التعقيب النقدي إلا في مواضع قليلة؛ منها: ما عقَّب السجلماسي بالشرح على شاهد في التشبيه، وهو قول أبي فراس الحمداني[٣]:

---

(١) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٣.

(٢) **ديوان ذي الرُّمة**، تحقيق: د. عبد القدوس أبو صالح، بيروت: مؤسسة الإيمان، ط٤، ١٤٢٨هـ. ص: ٢/ ٦٨٥.

(٣) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٣١.

من أين للظبي[١] الغرير الأحور في الخد مثلُ عِـذاره المتخيَّرِ[٢]
قـمرٌ كأن بعـارضيه كليهـما مسـكاً تسـاقط فـوق ورد أحمرِ

يشرحه بقوله: "فالمشبه هاهنا أيضاً هو العارضُ وعِذارُه، والمشبه به هو الورد ومسكه المتساقط عليه"[٣]. وهو تعقيب موجز أفاد المتلقي بمعنى التشبيه لا غير.

كما يوظِّف السجلماسي أيضاً التعقيب بالشرح في موضع آخر من شواهد التكثيف بالتكثير، ففي حديثه عن مصطلح الاستعارة يبين أنها تقوم على قُرب الشَّبه بين المستعار منه والمستعار له؛ إذ هي الشريطة فيها، "وتحقُّق النسبة أو النِّسب على ما قد قيل مراراً شتَّى، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا تُوجد بينهما مُنافرة، ولا يُتبيَّن في أحدهما إعراض عن الآخر بوجه..."[٤]، ثم يورد بيتاً لابن المعتز الذي يقول فيه[٥]:

غِلالة خدِّه صُبغت بورد[٦] ونون الصُّدغ معجمة بخـال

---

(١) في رواية الديوان: للرشأ. انظر: **ديوان أبي فراس الحمداني**، شرح د. خليل الدويهي. بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٤هـ. ص: ١٨٦.

(٢) في رواية الديوان: المتحدِّر. انظر: **المصدر السابق**: ١٨٦.

(٣) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٣١.

(٤) **المصدر السابق**: ٢٣٦.

(٥) انظر: **المصدر السابق**: ٢٣٦.

(٦) في رواية الديوان: وَرْدٌ جَنِيٌّ. انظر: **ديوان ابن المعتز**، شرح: مجيد طراد. بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٥هـ. ص: ٢/ ٢٥١.

ففي هذا البيت -كما يقول السجلماسي- لو حُلَّ تركيب الاستعارة إلى تركيب التشبيه لكان المعنى صحيحاً، فلو قيل مثلاً "كأن خدَّه غُلالة، وكأن صُدغه نون؛ لامْتزج اللفظ بالمعنى، وتحقَّقت النسبة والشَّبه والوُصْلة بين المستعار منه والمستعار له"(١). وهذا التفسير من السجلماسي لمعنى الاستعارة في البيت مكَّنه من بيان المعنى الدقيق للاستعارة الحسنة التي تقوم على تحقُّق النسبة أو المقاربة بين المستعار منه والمستعار له.

وفي شاهد آخر من شواهد التكثيف بالتكثير يعقِّب أيضاً على الشاهد الشعري بالشرح البسيط لمعنى المماثلة فيه، وذلك في قول ابن خفاجة(٢):

يا حبذا والطَّيف ضيف طـارقٌ طيفٌ على شحطٍ أجدَّ مَزارا
تَلْوِي الشَّمولُ(٣)به قضيباً رُبَّـما عـاطى بسُوسانٍ هناك عَـرارا

يقول السجلماسي شارحاً: "يُشير بالسوسان إلى بياض أطرافه، وبالعَرار إلى صفرة كأس سُلافه"(٤).

وكما رأينا في شواهد هذا النوع من التكثيف بالتكثير التي أوردها السجلماسي في مبحث التخييل، فإنها تسير على نسق واحد في

---

(١) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٣٦.

(٢) **المصدر السابق**: ٢٤٨.

(٣) في رواية الديوان: الشَّمال. انظر: **ديوان ابن خفاجة**. شرح وتقديم: د. عمر فاروق الطباع، بيروت: دار القلم للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت). ص: ١١٩.

(٤) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٤٨.

معظمها؛ حيث تتدافع هذه الشواهد الشعرية في الأنواع الأربعة وتتكاثر في الاستشهاد، وقد جاءت -في أكثرها- خالية من الوقفات التحليلية والنقدية، ولهذا المنهج الذي سار عليه السجلماسي ما يماثله في مدوَّنات البلاغة القديمة، ولعل المنهج التعليمي يقف وراء هذا النمط من التكثيف التكثيري في سوق الشواهد وتتابعها.

المبحث الثاني: تقويم منهجية التكثيف:

يُعدّ السجلماسي مجدِّداً في عرض مسائل الدرس البلاغي والنقدي بأسلوب مغاير لما كانت عليه الدراسات السابقة؛ حيث قدَّمها في منزعه البديع بمنهجية تخالف المألوف، وهو مما يحسب للسجلماسي في إعادة صياغة النظرية البلاغية والنقدية في قالب متجدِّد، ويكاد ينطبق الأمر على معاصره ابن البناء المراكشي (-٧٢١هـ) الذي جدَّد أيضاً في طرح القضايا البلاغية والنقدية في كتابه (الروض المَريع في صناعة البديع).

وقد سبقهما السكاكي (-٦٢٦هـ) المؤسس للتصوُّر المدرسي من عصره إلى يومنا هذا؛ إذ يُقسِّم البلاغة العربية إلى علوم ثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع؛ رغم أنه لم يجعل البديع مساوياً للمعاني والبيان، إنما جعله تابعاً لهما؛ يضم صوراً تعبيرية ذات دلالة تحسينية: لفظية ومعنوية[1].

(١) انظر: د. محمد العمري، **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**. المغرب: أفريقيا الشرق، (د.ط)، ٢٠٠٥م. ص: ٤٤.

لقد كان السجلماسي من المؤلفين المتأخرين الذين اطلعوا على الفكر المنطقي وفلسفة العلوم، بحسب الاجتهادات العربية في قراءة أرسطو، ولذلك قام بتجنيس الصور البديعية وإرجاعها إلى مقولات عامة، من غير أن يُعرّج على أي تجربة نسقية في الموضوع(١).

وعندما نمعن النظر في منهجية السجلماسي أثناء توظيفه للشاهد الشعري تكثيفاً بتداول الشاهد أو بتكثيره في مبحث التخييل، فإن التقويم لهذا المنهج التكثيفي يكون في إطارين؛ هما: تقويم منهجية الاختيار، وتقويم منهجية النقد، وعليهما تسير الدراسة التقويمية في هذا المبحث.

أ- تقويم منهجية الاختيار:

مرّ معنا أن اختيارات السجلماسي لشواهد التكثيف الشعرية المتداولة في مبحث التخييل قليلة مقارنة باختيارات شواهد التكثيف التكثيرية، وهذا يعني أصالة انتقاء الشاهد الشعري عنده ابتداء؛ حيث الاختيار من ديوان الشعر العربي الكبير، مما يعني مزيد اهتمام في اختيار النماذج الشعرية؛ لتحقيق أثر ملموس في سياقات الخطاب المتعدِّدة في الدّرس البلاغي، فكلما كان الشاهد المختار ثريّاً في نفسه وقابلاً للحضور في أكثر من موضع كانت العناية به أولى من الشواهد الأخرى.

---

(١) انظر: د. محمد العمري، **البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط٢، ٢٠١٠م. ص: ٦٢، ٦٣.

إن اختيار الشواهد يعني "عمل الذات المتخيِّرة في تفاعلها مع النصوص"[1]؛ حيث الاختيار يهتم بما تمثله من قيم فكرية وفنية، وهو ما أُطلق عليه مصطلح الاختيار الفني أو البلاغي أو النقدي[2].

وفي النوع الأول من التكثيف بالتداول نلحظ اهتمام السجلماسي في بعض شواهده الشعرية بالاختيار من الشواهد المتداولة في مدوَّنات البلاغة القديمة، على الرغم من قلة هذا النوع من التكثيف في شواهده الشعرية.

إن منهج التكثيف بتداول الشواهد بين المدوّنات البلاغية يُكرِّس نهج التبعية والتأثير في البلاغيين المتأخرين؛ لتبدو الشواهد الشعرية المتداولة أنماطاً محدَّدة لذوات بعينها تمثلها تلك الشواهد، وهو ما أعاق تجدُّد الذائقة في بعض شواهد البلاغة التي تعتمد أساساً على الحس الجمالي؛ ليظهر أثر التكرار على مسائل محددة في الدَّرس البلاغي القديم، وكأن المصطلح لا يُعرف إلا بهذا الشاهد المتداول.

لقد أثَّرت نمطية تكثيف المتداول من الشواهد في عقم الصورة في البلاغة العربية؛ إذ يظهر ذلك في ترداد النماذج الشعرية والنثرية التي استشهد بها الأوائل، وتداولها اللاحقون بالاستنساخ، مما عزف الأذهان عن قراءة النصوص واختيار الرفيع منها، وكذلك الحرص على تقعيد التعابير البلاغية وتحنيطها؛ بحيث لا يصح تجاوزها أو الخروج عن معالمها،

---

(١) **المرجع السابق**: ٧١.

(٢) انظر: **المرجع السابق**: ٧١.

مما أثر في المتلقين بالاكتفاء بهذه النماذج دون غيرها، وكأنهم بهذا سيصبحون من أكابر البلغاء(١).

وبعض البلاغيين يُقلِّدون سابقيهم من جهة الأخذ "فتتكرَّر الشواهد بتعليقاتها بطريقة حرفية أحياناً، حتى صار هذا كالعادة المتداولة بينهم، وهذا من شأنه أن يُغضي من خصوصية الظاهرة المدروسة ومن طرافة تناولها"(٢). ويتفق الدكتور أحمد يوسف علي في سلبية تداول بعض الآراء في المدوَّنات البلاغية القديمة، دون الرجوع إلى النصوص للحكم عليها مباشرة دون وسيط، مما أثَّر في التقويم النقدي الذي يصدره بعض النقاد بعيون غيرهم من النقاد السابقين(٣).

كما نبهت الدكتورة فضيلة قوتال إلى آفة تداول بعض الشواهد دون إضافة تذكر، وذلك حينما وصفت شواهد الشروح البلاغية بقولها: "وتبقى شواهد الشروح البلاغية، ذات أثر زهيد على المتلقي، كلما تكرَّرت من شرح إلى آخر، باعثة الشعور بعدم الجدوى عنده؛ إذ توهمه بالمركزية والندرة، فما للظاهرة اللِّسانية بها إلا بيت شعري واحد يُستشهد به لها، وما الخطأ اللغوي إلا جريمة لغوية واحدة تشهد له، وذلك منهج

---

(١) انظر: د. عبد الملك مرتاض، **نظرية البلاغة متابعة لجماليات الأسلبة العربية**: ١٧٦، ١٧٧.

(٢) مراد بن عياد، **مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني**: ١/ ٥٥، ٥٦.

(٣) انظر: د. أحمد يوسف علي، **الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي**. عمَّان: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٦هـ. ص: ١١٢.

تعليمي خافت الإقناع، مادام الشاهد واحداً في كل مرَّة، وعلى لسان مؤلفين كثر، لم تجد ذاكرتهم ما تستبدل الشاهد به، فينتج مفهوم انغلاق الإبداع اللغوي لدى القارئ؛ وأقصد القارئ المتعلم، لا الباحث المتخصص في هذه الحالة"[1].

ويُلحظ أن السجلماسي في مبحث التخييل لم يُعطِ شواهد التكثيف المتداولة مساحة كبرى في الاختيار، مما يعني اهتمامه بالتجديد في ذكر شواهد شعرية أخرى تندرج تحت النوع الثاني (التكثيف بالتكثير)، وقد تعامل معها على أنها ضرورة تقتضي مزيداً من الاعتناء في الانتقاء، غير أنها في حقيقة الأمر تبدو عبئاً على السياق النصي، تزيد من تفكُّكه؛ لتغدو العلائق بين المكوِّنات النصية أكثر غياباً، فجاءت شواهد التكثير مجرَّدة من التحليل في معظمها، وقد أسلمها للمتلقي لقراءتها وفق إمداداته المعرفية بالمصطلح البلاغي في السياق الكلِّي، وهي قراءات مفتوحة قابلة للمزيد من التأمل.

والسؤال هنا الذي قد يبدو ملحاً في جدوى الاختيار في نوعي التكثيف: هل للتكثيف داع في الأصل أو أنه ضرورة يستدعيها مقام السياق؟ ثم لماذا التكثيف بالتكثير أكثر احتفاء وحضوراً من التكثيف المتداول في مبحث التخييل؟

---

(١) د. فضيلة قوتال، **حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية**. عمَّان: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٨هـ. ص: ٣٦٥.

إن تكثيف الشواهد بنوعيه أمر وارد في السياق البلاغي عند السجلماسي وعند غيره من البلاغيين في مدوَّناتهم البلاغية؛ حيث يقوم الشاهد الشعري وظيفياً بمهمته في توضيح المصطلح البلاغي وتقريره في سياق الخطاب، غير أن تكرار شواهد بعينها وتداولها بحيث تُعرف المصطلحات البلاغية بها دون غيرها هو مما يحنِّط شواهد المصطلح، ويجعلها تدور على نفسها بين البلاغيين. أما شواهد التكثيف بالتكثير فإن المبالغة في الاستدعاء من الشواهد والإكثار منها ينتج عنه أثر سلبي في السياق؛ إذ تتتابع هذه الشواهد –في معظمها–دون وقفات توضيحية أو تحليلية لهذا الاختيار.

ومع هذا فإن لشواهد التكثيف بالتكثير سمة تتصل بظاهرة التشكيل الوظيفي لمجموع هذه الاختيارات الشعرية؛ حيث إنها تتفوق على شواهد التكثيف المتداول في تجديد الشاهد الشعري مع الخطاب البلاغي، كما توسع من دائرة التوضيح لدلالة المصطلح البلاغي الذي من أجله سيقت هذه الشواهد وتتابعت؛ لتحقِّق شواهد التكثيف بالتكثير الوظيفة المنوطة بها في السياق.

لقد كان التنوع حاضراً في اختيارات السجلماسي الشعرية؛ حيث شمل عدداً كثيراً من الشعراء على امتداد العصور، ففي تكثيف المتداول بلغ عددهم في التشبيه والمماثلة (١٧) سبعة عشر شاعراً، أما تكثيف التكثير فوصل عددهم في أنواع التخييل الأربعة إلى (٥١) واحد وخمسين شاعراً، كما استشهد بـ (١٢) اثني عشر شاهداً لشعراء مجاهيل في نوعي

التكثيف، ليكسو هذا التنوع شواهده الشعرية مزيداً من الخصوصية المميِّزة، ويضفي عليها مزيجاً من التعدد لمختلف الاتجاهات الفنية لشعرائه.

ويُلحظ مما سبق غلبة شواهد شعراء العصر العباسي على شواهد العصور الأدبية الأخرى، واكتفاء السجلماسي بشواهد يسيرة من العصرين الجاهلي والإسلامي، مما يعني اتساع أفقه في الانتقاء من مجموع الشعر العربي، وعنايته بشعر الشعراء المحدثين، وكان على رأسهم: الشاعر الفيلسوف المعري، وشاعر الطبيعة ابن خفاجة، والشاعر الحكيم المتنبي، فقد أكثر من الاستشهاد بأشعارهم في مواضع كثيرة من مبحث التخييل؛ لعظيم مكانتهم في الشعر.

كما اعتمد السجلماسي التنوع في عرض شواهده الشعرية في نوعي التكثيف؛ ليضفي مزيداً من التعددية في تقديم الشواهد بمستويات مختلفة من العرض في مبحث التخييل. ففي التشبيه استشهد بالبيت الواحد في (٢٩) تسعة وعشرين موضعاً، وبالشطر في (٢) موضعين، وبجزء من الشطر في (٢) موضعين أيضاً، واستشهد بالبيتين في (١٣) ثلاثة عشر موضعاً، وبالثلاثة أبيات في (٢) موضعين، وبالأربعة في موضع واحد. وفي الاستعارة استدعى (٢٠) عشرين شاهداً من بيت واحد، والشطر في (٢) موضعين، والبيتين في (٥) خمسة مواضع، والثلاثة أبيات في (٢) موضعين. أما المماثلة فقد ذكر البيت الواحد في (١٢) اثني عشر موضعاً، والشطر في (٣) ثلاثة مواضع، والبيتين في (٦) ستة مواضع، والثلاثة أبيات في (١) موضع واحد. وفي المجاز أورد (٩) تسعة شواهد للبيت،

و(١٦) ستة عشر شاهداً من بيتين، و(٣) ثلاثة شواهد من ثلاثة أبيات لكل منها. وختم التخييل بشاهدين اثنين (٢) من بيت واحد؛ ليصل مجموع شواهد البيت الواحد إلى (٧٢) اثنين وسبعين شاهداً وهي أكثر شواهده التكثيفية في النوعين، تليها شواهد البيتن؛ إذ بلغت (٤٠) أربعين شاهداً. وكان أقل الشواهد حضوراً شواهد الجزء من الشطر فقد وردت (٢) مرتين، والأبيات الأربعة في موضع واحد.

إذن فاهتمام السجلماسي كان منصباً في معظمه على شواهد البيت الواحد ثم شواهد البيتين في التكثيف بنوعيه، وهو ما يؤكِّده مراد بن عياد في النتيجة التي توصل إليها في أن عناية البلاغيين في عرض الشواهد الشعرية "كانت موجهة بالأساس إلى البيت ثم البيتين بدرجة أقل ثم النتفة وهكذا"[١]، مما يعني مزيداً من التركيز في تقديم شاهد من بيت أو بيتين أثناء سياق الخطاب؛ توضيحاً وتقريراً.

وهذه الشواهد في جملتها تأتي مجزوءة من موضعها في القصيدة كما هو حال المستشهَد به في السياقات النقدية والبلاغية الأخرى، وهو ما يُسمَّى بالشاهد المبتور، وهو في الحقيقة ليس بتراً كما يُراد من هذه التسمية؛ إذ المعوَّل عليه هنا حمولة الشاهد لمعنى السياق البلاغي المساق من أجله هذا الشاهد؛ للتدليل والتقرير، وهو منهج مألوف في المصنَّفات البلاغية والنقدية قديماً.

---

(١) **مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني**: ١/ ١٩٣.

ومن هذه الاختيارات المتداولة التي تندرج ضمن النوع الأول من التكثيف ما أورده السجلماسي في التشبيه من قول البحتري[١]:

كأنما يبسم[٢] عن لؤلؤ مُنضَّد[٣] أو برد أو أقاح

وقول زهير في المماثلة[٤]:

ومَن يعصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه يُطيع العوالي رُكِّبتْ كلَّ لهذمِ[٥]

أما النوع الثاني من التكثيف بالتكثير فمن اختياراته قول أبي العلاء المعري في التشبيه[٦]:

والصُّبح[٧] قد مدَّ عمود[٨] نُوره والليل مثل الأدهم المقفَّزِ

وقول أبي فراس في الاستعارة[٩]:

---

(١) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٦، وانظر: **العمدة**: ١/ ٢٩١.

(٢) في رواية الديوان: يضحك. انظر: **ديوان البحتري**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي. القاهرة: دار المعارف، ط٣، (د.ت). ص: ١/ ٤٣٥.

(٣) في رواية الديوان: مُنظَّم. انظر: **المصدر السابق**: ١/ ٤٣٥.

(٤) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٤٦، وانظر: **كتاب الصناعتين**: ٣٥٦.

(٥) **شرح شعر زهير بن أبي سلمى**، صَنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دمشق: مكتبة هارون الرشيد، ط٣، ١٤٢٨هـ. ص:٣٦.

(٦) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٤.

(٧) في رواية الديوان: والبدر. انظر: المعري، **سقط الزند وضوءه**، تحقيق: السعيد السيد عبادة. القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٤٢٤هـ. ص: ١٧٦.

(٨) في رواية الديوان: عِماد. انظر: **المصدر السابق**: ١٧٦.

(٩) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٣٩.

لبسنا رداء الليل والليل راضع إلى أن تردَّى رأسه بمشيبِ[١]

وقول المتنبي في المماثلة[٢]:

ذريني أنــلْ مـا لا يُنـال مـن العـلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

تريـديـن إدراك[٣] المعـالي رخيـصة ولا بـدَّ دون الشَّــهد من إبــر النَّــحــل

وقول ابن خفاجة في المجاز[٤]:

والشمسُ تجنحُ للغروب مريضةً والرعد يَرْقي[٥] والغمامة تنفثُ

إن هذه الاختيارات في نوعي التكثيف التي أوردها السجلماسي في مبحث التخييل أعطت تصوراً في اعتنائه بانتقاء الشواهد الشعرية التي يفيد منها الدارس المتلقي، مما يعني مزيد أثر لوظيفة الشاهد الشعري في السياق البلاغي المستشهَد له. وهو ما يذكره علال الغازي عن حسن اختيارات السجلماسي لشواهده الشعرية؛ إذ يقول: "ومن تأمل هذه الصور، والصور الباقية، وكلّها على منوالها وفي مستواها، ندرك هذا التكامل بين عقل الفيلسوف وذوق الأديب الفنان، وهو يختار لعقله أجمل ما تنبسط له نفسه، وبذلك وبغيره يكون السجلماسي من علماء الجمال

---

(١) **ديوان أبي فراس الحمداني**: ٥٢.

(٢) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٥١.

(٣) في رواية الديوان: لُقيان. انظر: **ديوان المتنبي**، شرح: عبد الرحمن البرقوقي. بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ. ص:٤/ ٤.

(٤) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٥٤.

(٥) في رواية الديوان: يَرقى. انظر: **ديوان ابن خفاجة**: ٥٩.

الذين وضعوا له القوانين، واختاروا له الصور الوجدانية الفنية من أجمل وأرق وأقوم إبداعات الشعر العربي"[١].

ب- تقويم منهجية النقد:

إن التكثيف بنوعيه في إيراد الشواهد الشعرية واقع ومتوقع بين البلاغيين، غير أن المهم في الأمر ما وراء هذا التكثيف، وما حقَّقته الشواهد الشعرية من وظائف في الدرس البلاغي؛ وما حظيه التكثيف عند البلاغيين؛ من تفسير وتحليل وتقويم، ولذا فالشاهد الشعري يأتي وظيفياً في سياق الخطاب البلاغي لغايات يستدعيها المقام، وتبدو حينها أهمية الاحتفاء بالشاهد، وهو ما يعطي بُعداً آخر لفهم المصطلح البلاغي مرتين؛ مرة في الشاهد نفسه، وأخرى بتعقيب نقدي يتلو الشاهد.

ومصطلحات المنزع البديع في مجموعها عربية في أصولها البلاغية والنقدية، مما حقَّق الانسجام والتكامل بين مناهج المادة في المنزع، ويأتي الشاهد بعد ذلك لإثبات المعنى النقدي المطروح؛ سواء أكان نظرياً أم تطبيقياً[٢]. وتاريخ البلاغة العربية يشهد "أنها كانت تعني تارة فن الإقناع، وتارة الصنعة الجمالية، فقد اتسعت للوظيفتين الحجاجية والجمالية"[٣]،

---

(١) **مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة**: ٦١٤.

(٢) انظر: علال الغازي، **مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة**: ٧٥٦.

(٣) د. محمد مشبال، **البلاغة والخطاب**. الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ١٤٣٥هـ. ص: ١٠٥.

وهو ينطبق تماماً على تكثيف الشاهد الشعري بنوعيه مما أورده السجلماسي في أنواع التخييل الأربعة.

والخطاب البلاغي يتشكَّل من جزءين؛ الأول: خطاب التعريف في ماهية الظاهرة البلاغية؛ ويتضمن التعريف والاستشهاد والتمثيل، والثاني: خطاب الوظيفة في البحث عن جمالية الظاهرة البلاغية؛ ويتضمن التحليل والتعليل والتقويم(١).

وقد أشار الدكتور عماد عبد اللطيف إلى أهمية الاعتناء بشرح الشواهد في سياق الخطاب؛ إذ إن واقع التأليف البلاغي القديم "يضعنا أمام حالة غريبة من عدم التطابق بين بعض الشواهد والمفاهيم التي يُستشهد عليها... أما في النصوص الشارحة فلم نسجل وجود هذا التعارض. ويُفسَّر ذلك بأن الشارح ينطلق من الظاهرة أولاً، وإذا قدَّم مفهوماً لها فإنه يكون مستوعباً للظاهرة بما يجعله حريصاً في استشهاداته على الاستشهاد بشاهد تتحقق فيه الظاهرة بنفس درجة وضوحها في النص المشروح"(٢).

وفي جانب تحليل الصور يشير الدكتور محمد مشبال إلى أن التحليل الجمالي يقوم على النظر في العوامل المشكِّلة لجمالية الصورة، بخلاف

---

(١) انظر: د. عماد عبد اللطيف، **تحليل الخطاب البلاغي دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف**. عمَّان: دار كنوز المعرفة، (د.ط)، ٢٠١٤م. ص: ٢٨٠.

(٢) **المرجع السابق**: ٢٤٦.

التحليل الحجاجي للصور الذي يعتمد على الإقناع والتأثير في المتلقي[١].
وهما مطلبان في السِّياق لفهم المصطلح من الشاهد نفسه، وإذا تحقَّقا فإنهما الغاية المؤمَّلة، وبهما يُخدم المتلقي لفهم مؤصَّل.

لقد تعامل السجلماسي مع شواهده الشعرية التي بلغت (١٣٠) مائة وثلاثين شاهداً في نوعي التكثيف بمستويين اثنين؛ من حيث التحليل والتجريد، فجاءت معظم شواهده خالية من التعقيب النقدي التي وصلت إلى (١١٢) مائة واثني عشر شاهداً، وأعقب (١٨) ثمانية عشر شاهداً بتحليل نقدي؛ (٧) سبعة منها في شواهد التكثيف المتداول[٢]، و(١١) أحد عشر في شواهد تكثيف التكثير[٣].

ويلحظ أن السجلماسي تعمَّد تخلية معظم شواهده الشعرية في نوعي التكثيف من التحليل النقدي، وعلى الأخص شواهد تكثيف التكثير التي علَّق على (١١) أحد عشر شاهداً من مجموع الشواهد البالغة (١٠٨) مائة وثمانية، أما شواهد تكثيف المتداول فقد أتبع (٧) سبعة شواهد التحليل من مجموع الشواهد البالغة (٢٢) اثنين وعشرين شاهداً؛ ليعطي تصوّراً عاماً عن توظيف الشواهد الشعرية في النوعين من التكثيف، فتكون شارحة بنفسها لدلالات المصطلح البلاغي.

---

(١) انظر: **البلاغة والخطاب**: ١٠٥.

(٢) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٦١.

(٣) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٦١.

وشواهد السجلماسي التي أعقبها بالتحليل النقدي والبالغة (١٨) ثمانية عشر شاهداً تقع في إطارين اثنين؛ هما: التفسير، والتقويم. ففي شواهد التكثيف المتداول أتبع (٥) خمسة من شواهده التفسير والشرح[١]، كما أردف (٢) اثنين منها التقويم[٢]. أما شواهد تكثيف التكثير فقد عقَّب على (٤) أربعة شواهد بالشرح[٣]، و(٧) سبعة شواهد بالتقويم[٤].

إن التعقيب الذي أجراه السجلماسي لهذه الشواهد المنتقاة في نوعي التكثيف لا يخرج عن أمرين؛ هما: التفصيل، والإيجاز؛ فتراه تارة يُعقِّب بشرح مفصل توضيحي لبيان المصطلح البلاغي في الشاهد[٥]، وأخرى يكتفي من الشرح بألفاظ موجزة لا غير[٦]. ويكاد ينطبق الأمر على التقويم النقدي في شواهده الأخرى التي أتبعها بتقويم للشاهد بما يخدم سياق الخطاب لمصطلحه البلاغي، فيطيل في التقويم النقدي أحياناً[٧]، ويوجز في مواضع أخرى[٨].

---

(١) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٦.

(٢) انظر: **المصدر السابق**: ٢٤٩، ٢٦١.

(٣) انظر: **المصدر السابق**: ٢٣١، ٢٣٦، ٢٤٨، ٢٥٨.

(٤) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٦١.

(٥) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٦.

(٦) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٨، ٢٥٨.

(٧) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٩، ٢٦١،

(٨) انظر: **المصدر السابق**: ٢٣٦، ٢٣٨.

ومن نماذج شروحه ما أورده من شرح مفصَّل لبيت بشار الذي يقول فيه[١]:

كأن مُثار النقع فوق رؤوسهم وأسيافَنا ليـل تهاوى كواكبـه[٢]

وعلى الرغم من شهرة هذا البيت وذيوعه بين البلاغيين، إلا أنه قام بشرح التشبيه المركب فيه شرحاً موجزاً؛ وذلك ببيان انتظام التشبيه في مناظرة إحدى الجهتين بالأخرى[٣]، وكان الأولى ألا يشرحه؛ لذيوع الشاهد وسيرورته؛ إذ يقول: "فالمشبَّه والممثَّل فيه هو النقع وأسيافه ووقعها، والمشبه به هو الليل وكواكبه وهُوِيُّها، وإجراء المشبه إليه على نسبة إجراء المشبَّه به إليه، وانتظم التشبيه بمناظرة إحدى الجهتين بالأخرى"[٤]. وهو شرح توضيحي لأجزاء التشبيه المركَّب في الطَّرفين، والبيت من التشبيهات المتداولة بكثرة عند البلاغيين.

ومن صور تقويمه النقدي المعلّل تعقيبه على توهُّم قلب التشبيه في قول ذي الرُّمة[٥]:

---

(١) انظر: **المصدر السابق**: ٢٣٠، وانظر: **كتاب الصناعتين**: ٢٥٠، **وأسرار البلاغة**: ١٧٤، **ومفتاح العلوم**: ١٦٠.

(٢) **ديوان بشار بن برد**، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور. الجزائر: وزارة الثقافة، (د.ط)، ٢٠٠٧م. ص: ١/ ٣٣٥.

(٣) انظر: **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٣١.

(٤) **المصدر السابق**: ٢٣١.

(٥) انظر: **المصدر السابق**: ٢٢٩.

ورمل كأوراك العذارى قطَّعتُه[1] ...

يقول السجلماسي: "وكان قولُ من أُولع بوضعه في نوع عكس التشبيه غلطاً سببُه أن من المعلوم بنفسه أن ما أشبه شيئاً فقد أشبهه الشيء ويتعاكسان بينهما التشبيه، على أن كل واحد مشبَّهٌ بالآخر تشبيهاً بحسب القصد على المجرى الطبيعي لا في الحَمل فقط، وكأن اسم العكس على هذا المعنى وعلى المعنى الذي نضعه نحن في هذا النوع مَقولٌ باشتراك، ولخفاء هذا الاشتراك وقع لهم الغلط"[2]. وهو تصويب معلَّل للمتلقي، يزيد من فهم التشبيه المقلوب فهماً صحيحاً لا لبس فيه.

وعلى هذا المنوال من الشرح والتقويم لهذه الشواهد تسير تعليقات السجلماسي في نوعي التكثيف بتفصيل القول في بعضها، وبإيجاز في الشواهد الأخرى، وهي في مجموعها قليلة بما عليه حال شواهده المجرَّدة من التعليق النقدي، مما يجعلنا نتساءل عن مشروعية التجريد في نوعي التكثيف من شواهد الشعر التي أوردها السجلماسي في مبحث التخييل، فهل منهج التكثيف في النوعين يُعدّ مقبولاً إذا خلا من التعقيب النقدي في معظمه، وأصبح التكثيف غاية في ذاته لتحقيق التقرير للمصطلح البلاغي؟

إن تكثيف الشواهد الشعرية بتواردها وتتابعها في الخطاب البلاغي يمنحها مزيداً من تحقيق الوظيفة في الاستشهاد نفسه أولاً وفي تكثيف

---

(١) **ديوان ذي الرمة**:٢/ ١١٣١.

(٢) **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**: ٢٢٩.

مفهوم المصطلح في المتلقي ثانياً، مما يُسوِّغ مشروعية بقائه في السياق النصي، وعليه فإن شواهد التكثيف في النوعين تنقسم إلى قسمين؛ هما: الشواهد الشارحة، والشواهد المنغلقة، فالأولى لا يُحتاج معها إلى تعليق ونحوه؛ لوضوح المصطلح البلاغي فيها، أما الشواهد المنغلقة فيلزمها وقفة تحليلية ناقدة؛ لبيان موقعها من سياق الخطاب.

وقد أشار الدكتور مراد عياد إلى ظاهرة انغلاق الشاهد على نفسه في الخطاب، وذلك عندما تتوالى الشواهد دونما تحليل؛ حيث يقول: "وبقدر ما يسترسل البلاغيون في مواد العرض على وجه التعاقب وتنحسر التعليقات وتغيب وجوه الاحتفاء بالعناصر المستحضرة يكون النص أكثر انغلاقاً وأولى بالعجز عن وجوه التنزيل والتوظيف وأكثر تحجُّراً في خصوص مظاهر التعليل والتدليل"(١). وهذا ينطبق على الشواهد المنغلقة التي مرَّت معنا، أما الشواهد الشارحة فهي قائمة بذاتها، متمِّمة لسياق الخطاب المستشهَد له، وهما يندرجان تحت ما يمكن تسميته بالشواهد الصامتة.

ومع هذا فالنقاد مختلفون في منهج الاستشهاد، وفي طريقة العرض للشاهد والتعليقات عليه؛ حيث يقول الدكتور عبد الرزاق الصالحي: "وإن المتأمل في منهج الاستشهاد، عند كل ناقد على حدة، قد يفضي إلى شيء من التمايز والتحايز، سواء في الرواية الشعرية، أو في التعليق والتحليل، أو في الرد على الحكم المخالف المتصل بنفس المادة الشعرية،

---

(١) **مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني**:٢/ ٤٤٢.

وهو ما لا يبين إلا ببحث مجموعة من النماذج لامتناع حصر المكرور من الشواهد بتعليقاتها المتعددة"[١].

الخاتمة:

تناول البحث موضوع تكثيف الشاهد الشعري في المدونة البلاغية (مبحث التخييل في المنزع البديع للسجلماسي أنموذجاً)، وذلك بدراسة منهجية السجلماسي في نوعي التكثيف، ثم تقويم هذه المنهجية من جانبي الاختيار والنقد، وكان من أهم النتائج التي خرج بها البحث ما يأتي:

- اكتفاء السجلماسي بعدد قليل من شواهد التكثيف المتداول؛ إذ كثَّف من التكثير في شواهد الشعر لأنواع التخييل الأربعة، وهو ما يشي بمزيد اهتمام بالتجديد.
- اتكاؤه على عرض البيت ثم البيتين في معظم شواهده الشعرية في نوعي التكثيف؛ ليعطي مزيداً من الانتقاء الممنهج لسياق خطابه.
- غلبة شواهد شعراء العصر العباسي على شواهد العصور الأدبية الأخرى، مما يعني اهتمام السجلماسي بالشعر العباسي.
- اعتداده بمقياس الجودة الفنية في شواهده الشعرية التي أوردها في مبحث التخييل.

---

(١) **الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج)**: ٣٨٦.

- اعتماده على التفسير أو التقويم في التعقيب النقدي لعدد قليل من شواهد التكثيف في النوعين، مع التفصيل في بعضها.
- خلو معظم شواهده الشعرية من التحليل الأدبي والتعقيب النقدي، مما يعطي تصوراً عن اكتفائه بالشاهد الصامت في سياق خطابه البلاغي، وهو ما يجعلها تدور بين الشارحة لمضمونها أو المنغلقة على نفسها.

ثبت المصادر والمراجع:

١. البحتري. **ديوان البحتري**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي. القاهرة: دار المعارف، ط٣، (د.ت).

٢. برد، بشار. **ديوان بشار بن برد**، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور. الجزائر: وزارة الثقافة، (د.ط)، ٢٠٠٧م.

٣. ثعلب، أبو العباس. **شرح شعر زهير بن أبي سلمى**، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دمشق: مكتبة هارون الرشيد، ط٣، ١٤٢٨هـ.

٤. الجرجاني، عبد القاهر. **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود شاكر. جدة: دار المدني، ط١، ١٤١٢هـ.

٥. الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، (د.ط)، (د.ت).

٦. الحمداني، أبو فراس. **ديوان أبي فراس الحمداني**، شرح د. خليل الدويهي. بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٤هـ.

٧. ابن خفاجة. **ديوان ابن خفاجة**. شرح وتقديم: د. عمر فاروق الطباع، بيروت: دار القلم للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت).

٨. ذو الرمة. **ديوان ذي الرُّمة**، تحقيق: د. عبد القدوس أبو صالح، بيروت: مؤسسة الإيمان، ط٤، ١٤٢٨هـ.

٩. الزركلي. **الأعلام**. بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

١٠. أبو سالم، إيناس محمود. **موقع التخييل عند السجلماسي**. مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، مجلد: ٢٨، عدد: ١٥، ٢٠٢٠م.

١١. السجلماسي. **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق: علال الغازي. الرباط: مكتبة المعارف، ط١، ١٤٠١هـ.
١٢. السكاكي. **مفتاح العلوم**. مصر: مطبعة مصطفى الحلبي، ط١، (د.ت).
١٣. شهاب، محمد أحمد. **الشاهد الشعري عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة**. سوريا: دار الحوار للنشر، ط١، ٢٠١١م.
١٤. الصالحي، عبد الرزاق. **الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج)**. الأردن: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٠م.
١٥. عبد اللطيف، عماد. **تحليل الخطاب البلاغي دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف**. عمَّان: دار كنوز المعرفة، (د.ط)، ٢٠١٤م.
١٦. العسكري. **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل. بيروت: المكتبة العصرية، (د.ط)، ١٤٠٦هـ.
١٧. العلوي، ابن طباطبا. **عيار الشعر**، تحقيق: د. عبد العزيز المانع. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، ٢٠٠٥.
١٨. علي، أحمد يوسف. **الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي**. عمَّان: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٦هـ.
١٩. العمري، محمد. **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**. المغرب: أفريقيا الشرق، (د.ط)، ٢٠٠٥م.
٢٠. العمري، محمد. **البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط٢، ٢٠١٠م.
٢١. عنترة. **ديوان عنترة**، تحقيق: محمد سعيد مولوي. (د.م): المكتب الإسلامي، (د.ط)، (د.ت).

٢٢. عياد، مراد. **مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني**. صفاقس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (د.ط)، ٢٠٠١م.
٢٣. الغازي، علال. **مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، ١٩٩٩م.
٢٤. ابن فارس. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون. (د.م): دار الفكر، (د.ط)، ١٣٩٩هـ.
٢٥. قوتال، فضيلة. **حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية**. عمَّان: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٨هـ.
٢٦. القيرواني، ابن رشيق. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. سوريا: دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ.
٢٧. القيس، امرؤ. **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، ط٥، (د.ت).
٢٨. المتنبي. **ديوان المتنبي**، شرح: عبد الرحمن البرقوقي. بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٢٩. مرتاض، عبد الملك. **نظرية البلاغة متابعة لجماليات الأسلبة العربية**. الإمارات: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣٢هـ.
٣٠. مشبال، محمد. **البلاغة والأصول**. المغرب: أفريقيا الشرق، (د.ط)، ٢٠٠٧م.
٣١. مشبال، محمد. **البلاغة والخطاب**. الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ١٤٣٥هـ.

٣٢. ابن المعتز. **البديع**، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي. بيروت: دار الجيل، ط٢، ٢٠٠٧م.
٣٣. ابن المعتز. **ديوان ابن المعتز**، شرح: مجيد طراد. بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٥هـ.
٣٤. المعتوق، أحمد محمد. **اللغة العليا (دراسات نقدية في لغة الشعر)**. المغرب: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦م.
٣٥. المعري. **سقط الزند وضوءه**، تحقيق: السعيد السيد عبادة. القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٤٢٤هـ.
٣٦. ابن منظور. **لسان العرب**، تحقيق: عامر أحمد حيدر. بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٣٠هـ.

III. Documentation:

1. Footnotes should be placed in the footer area of each page respectively..

2. Sources and references must be listed at the end.

3. Sample images of the verified/edited manuscript should be inserted in their respective areas.

4 - Clear pictures and graphs that are related to the research should be included in appendices.

IV. In case the author is dead, the date of his death, in Hijri calendar, is used after his name in the main body of the research.

V. Foreign names of authors are transliterated in Arabic script followed by Latin characters between brackets. Full names are used for the first time the name is cited in the paper.

VI: Submitted research papers for publication in the journal are refereed by two referees, at least.

VII. Rejected research papers will not be returned to their authors.

Address of the Journal:

All correspondence should be sent to the editor of the Journal of Arabic Studies:

Riyadh,11432 P.O. Box 5701
Tel: 2582051 - Fax 2590261
www. imamu.edu.sa
E.mail: arabicjournal@imamu.edu.sa

Criteria of Publishing

The Arab Science Journal is a refereed scientific journal; issued by the Deanship of Scientific Research, Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University. It publishes scientific research according to the following regulations:

I. Acceptance Criteria:

1. Originality, innovation, academic rigor, research methodology and logical orientation.
2. Complying with the established research approaches, tools and methodologies in the respective disciplines.
3. Accurate documentation.
4. Language accuracy.
5. Previously published submissions are not allowed.
6. Submissions must not be extracted from a paper, a thesis/dissertation, or a book by the author or anyone else.

II.Submission Guidelines:

1. The author should write a letter showing his interest to publish the work, coupled with a short CV and a confirmation that the author owns the intellectual property of the work entirely and that he will not publish the work without a written agreement from the editorial board.

2. Submissions must not exceed 50 pages (A4).

3. Submissions are typed in Traditional Arabic, in 17-font size for the main text, and 14-font size for footnotes, with single line spacing.

4. The researcher sends his research to the electronic journal's platform (https://imamjournals.org) with a summary in Arabic and English, not exceeding two hundred words.

Editor –in- Chief

Prof. Ibrahim Ibn Abdulaziz Abu Haimed
Applied Linguistics- Institute for Teaching Arabic Language- Al-Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Prof. Ibrahim Ibn Mohammad Abanami
Literature department College of Arabic Language - Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Pro. Mohammad Mohammad Abu Musa
Department of Rhetoric and Criticism- Faculty of Arabic Language- Al-Azhar University

Prof. Nawal, Bint of Ibrahim Al-Hilweh
Arabic Language department- Faculty of Arts - Princess Nourah Bint Abdul Rahman University

Prof. Yusef Ibn Abdullah Al-Aliwi
Department of Rhetoric and Criticism- College of Arabic Language- Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Editorial-secretary
Prof. Mamdouh Ibrahim Mahmoud
Deanship of Scientific Research

Chief Administrator
H.E.Prof. Ahmed Ibn Salem AL-Ameri
President of the University

Deputy Chief Administrator
Prof. Abdullah ibn Abdulaziz Al-Tamim
Vice Rector for Graduate Studies and Scientific Research

Editor –in- Chief
Prof. Saud Ibn Abdulaziz Al-Hanin
Grammar Department- College of Arabic Language

Managing Editor
Dr. Abdulaziz ali alghamdi
vice Deanship of Scientific Research